

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالمنوفية
قسم الأدب والنقد

أسس بناء القصة من القرائ الكريم

دراسة أدبية ونقدية

رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية (الدكتوراه)
فى الأدب والنقد

إعداد الباحث
محمد عبد اللاه عبده دبور

المدرس المساعد بقسم الأدب والنقد بالكلية

إشراف

الأستاذ الدكتور

فتحي محمد أبو عيسى
أستاذ الأدب والنقد وعميد الكلية

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت
العليم الحكيم"

قرأه كريم

إهداء

إلى والديّ الرحيمين اللذين وهباني سبب الحياة
وربياني صغيرا
إليهما معا أهدى هذه الرسالة ، داعيا الله - سبحانه-
أن يجعل لهما من ثوابها نصيبا موفورا

محمد دبور

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

أما بعد

فلم يحظ كتاب من الكتب المقدسة أو غير المقدسة بمثل ما حظى به القرآن الكريم من دراسات ، حيث نال عناية طوائف عديدة من العلماء منذ نزوله حتى اليوم، وسيبقى محل عناية الدارسين واهتمامهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

هذه العناية وذلك الاهتمام ليسا بالأمر الغريب ، فلم يعرف على مدى التاريخ كتاب كان سبباً مباشراً في بناء حضارة، وتأسيس ثقافة مميزة غير القرآن الكريم، وقد شاء الله - سبحانه - أن يكون القرآن معجزة الإسلام الخالدة، وأن يحتوى كثيراً من القيم التاريخية والعلمية والأدبية، وهذه القيم تمثل نوعاً من الأسرار، شاء الله - سبحانه - أن يكشف في كل عصر بعضها على يد بعض من عباده ، ولعل ذلك هو السر في تدفق سيل المؤلفات والدراسات التي تخرجها أفواه المطابع في كل يوم من الأيام، فكل يؤمل أن ينفعه الله بعض نفحاته عن هذا الكتاب المعجز .

ولكن الملحوظ أن كل من يتصدى للكتابة عن القرآن يبدأ وينتهي باعتذار عن التقصير، ويختم دائماً يرد العلم إلى - سبحانه - وليس ذلك من قبيل تواضع العلماء، بقدر ما هو راجع إلى إحساس حقيقي بنوع من التقصير أو العجز عن فهم أسرار هذا الكتاب .

وحسب المرء أن يتطلع إلى دراسة قرآنية يجلو بها بعض غوامض القرآن، أو يكشف بعض أسرارها، وإن باب القصص القرآني لفسيح، وساحته لرحبة، تتسع لعشرات الدارسين والباحثين، فما على المرء إن ولجه وخط بساحته، مادام يملك أدوات الدخول، ويعرف الطريق إلى الساحة، ومادام يستشرف نبل المقصد، وطهارة الغاية، فامتلاك الأداة، وحسن النية، ونبل القصد، كلها كفيلاً ببلوغ المراد كله أو بعضه على الأقل .

وثمة بواعث حفزت الباحث إلى دراسة القصص القرآني هي :

١ - أن القصة الفنية شاعت في العصر الحديث، بما تحمل من مبادئ ومفاسد كادت تهدم الأخلاق وتقوضها من أساسها، وأن شيوعها أو شك أن يوارى وجه الشعر العربي

الذى اعتزبه العرب على مدار العصور، وتعاقب الدهور، حتى رفع كثير من دعاة الأدب عقيرتهم منادين أو متفاخرين : بأننا أصبحنا نعيش عصر الرواية، أى أن الشعر قد ولى زمنه ، وتراجعت مكانته بين الفنون القولية .

٢ - أن من أهم القضايا المثارة فى الساحة الأدبية مايسمى : الأدب الإسلامى، وهى قضية شائكة ، والخوض فيها يشبه المشى على الشوك، يدمى الأقدام، ويجعل بلوغ الغاية أمراً جد عسير، ومن أهم جوانب هذه القضية أن بعض المتحمسين لها يريد أن يبدأ التنظير لها من يومنا الحاضر، دون أدنى التفاتة إلى تراث أسلافنا الأماجد .

وهذه النظرة - التى تقطع الرحم بين الماضى والحاضر - تأتى فى وقت يرى فيه أحد المستشرقين خلاف مايرى الدارس العرب المسلم، إذ يقول : «إذا أراد الناقد أو المنظر العربى أن يقتبس من الفكر الغربى فإن عليه - فى البداية - أن يرجع إلى أصله العربى، وأن يفهمه فهما بنائياً ، أن يعى مسئوليته الخاصة فيما يتعلق بالموازنة بين عبء الماضى وقلق الحداثة، وهذا هو منهج المنظر والناقد الغربى فى نفس الوقت ، فالوعى بين الثقافة الأصيلة وتيار التجديد مسئولية كبيرة يتحملها الناقد والمنظر العربى » (١)

٣- الرغبة فى الإسهام فى وضع تصور لمنهج أدبى يحكم فن القصة إبداعاً ونقداً، ولا يخفى أن أهم وجوه الإعجاز القرآنى بلاغته، التى تتقاصر دونها قدرات المبدعين من البشر مهما أوتوا من فصاحة وبيان ، والقرآن هو المثل الأعلى لفنون القول المتعددة، ومنها القصة بطبيعة الحال، ولم لا يكون تميز القصص القرآنى أدبياً استمراراً لإعجاز القرآن ، خاصة أن علماء الإعجاز نصوا على أن التحدى بالقرآن مستمر فى كل العصور وليس مقصوراً على زمن النبوة وحده ؟

٤- أن بعض كتاب القصة فى الأدب العربى الحديث قد انعطفوا ناحية القصص القرآنى ، يستوحونه ويتمثلونه، ويشسجون على منواله، فكان أحدهم يأخذ القصة القرآنية، ويصوغها فى قالب عصرى ويغير من أحداثه، وأسماء شخصوه، وربما يخرج بها عن المنهج القرآنى فى الغاية والبناء الفنى على السواء .

(١) من حوار مع المستشرق الأمريكى ياور سلاف ستيتكفيتش أستاذ الأدب العربى بجامعة "شيكاغو" الأمريكية، أجرتة : سلوى العنانى ، وعنوان له : " الاستشراق الأمريكى والأدب العربى " مع عنوان جانبي : "الأصل فى النقد هو العودة إلى الجذور وموازنتها بالجديد" > محق أهرام الجمعة بتاريخ ١٢/٨/١٩٩٦، ص : ٢ .

هـ- أن بعض الذين درسوا القصص القرآنى قد انحرف عن طريق الجادة ، وسار على غير هدى فقال فى القرآن ما لا يصح قوله، لذا كان من عناية هذا البحث تفنيد بعض المزاعم الفاسدة التى لم تحظ بعناية الدارسين عناية مستحقة .

وكانت هذه البواعث - مجتمعة- وراء التوجه إلى جعل هذه الدراسة عن القصص القرآنى دراسة فنية فى معظمها ، ولعل عنوانها يوضح الهدف منها، وأنه هدف فنى فى المقام الأول وفالهدف الرئيس منها يتمثل فى : استخلاص الأسس الفنية للقصة من القرآن الكريم، وذلك من خلال :

أ - استعراض القصص القرآنى فى توافق بنائه وأساليبه مع مضامينه ومراميه .
ب- عرض القواعد التى وضعها النقاد للقصة على القصص القرآنى ، وبيان ما يستقيم منها معه وما لا يستقيم ، وبيان ما يتضمنه من القواعد التى يمكن إضافتها إلى فن القصة.

وللوصول إلى هذا الهدف الأساسى تستعين الدراسة بعرض بعض عناصر القصة على القصص القرآنى- من الناحية التطبيقية - وبعض الأجناس الأدبية ، لبيان دور القرآن الكريم فى التأصيل لهذه العناصر.

كما تعنى الدراسة - أيضا - ببيان المقاصد والأهداف التى ورد القصص القرآنى من أجلها بما يوضح : تناسب الهدف من القصص القرآنى مع الغاية من القرآن ، وانتخاب الأحداث فى القصة القرآنية، وتكرارها، مجملة أحيانا، ومفصلة أحيانا آخر .

ومن الطبعى أن يكون المنهج الفنى هو المتبع فى هذه الدراسة ، غالبا، فلا بد أن يكون بين الوسيلة والغاية تناغم واتساق، وليس معنى هذا أن ننظر إلى القرآن بوصفه نصا أدبيا فقط، يعرض على مناهج الدراسة الأدبية كما لو كان نصا أدبيا من صنع البشر.

إن القرن الكريم كتاب دين وتشريع فى المقام الأول ، وقيمه الدينية والتشريعية هى المقدمة على كل ما عداها، ولكن ينبغى أن نذكر أن النظرة إلى القرآن الكريم قد انفسحت- فى العصر الحديث - فصارت تشمل القيم التاريخية والعلمية والأدبية ، بالإضافة إلى القيم الأساسية، أعنى القيم الدينية والتشريعية ، ومن هنا رأينا كثيرا من

الدراسين يربطون بين القرآن الكريم والعلوم الطبيعية، بل إن بعض المفسرين يقيم تفسيره على الناحية العلمية وحدها. كما يربط الدراسون- أيضا - بين القرآن الكريم والدراسات الأدبية الفنية، فكلمتا: "العلم" و"الفن" أصبحنا مستعملتين فى الدراسات الخاصة بالقرآن الكريم .

ومع ذلك ينبغى أن نفهم كلمة "الفن" على وجهها الصحيح، المصفى من الأكدار والشوائب ، لا على الوجه المشوب بالرنق والمبازل ، إن الشعر فن ، والخطابة فن، وكتابة الرسالة فن، والمقال فن ، والقصة فن، هذه كلها فنون قولية لها قواعد وأصول، أما ما يصفح أسماعنا، ويقتحم أبصارنا من خلعة ومجون فلا محل لأن يسمى فنا، ومن أسف أن كلمة "الفن" إذا أطلقت اليوم انصرفت لدى كثير من الناس إلى ما يرويه على يد ممثل خليع، أو امرأة مستهترة، أو غير ذلك، مما لا يدخل - بحال- فى باب الفنون الجادة .

إن التوجه إلى القصص القرآنى بوصفه موردا نستقى منه أسس فن القصة لا يعنى أن نتعامل مع القرآن على أنه كتاب قصص و تسلية، ولكن لا ينبغى أن ننسى " أن معجزة القرآن معجزة بيانية أساسا، ولهذا لا ينبغى أن ننكر عليه أن يكون من مقاصده الإتيان بفنون وألوان من فن القصة ، ولا نستبعدا عليه، بل المنتظر أن يكون ما يأتى به منها ليس كمثله شئ ، ولا يطاوله فن (١) "

ومن صدق التوجه، بل من سلامة المنهج أن ننبه إلى أمر فى غاية الأهمية وهو: أن القيمة الدينية مقدمة دائما على القيمة الفنية ، فى دراستنا للقصة القرآنية ، بل كان السعى إلى إثبات تسخير الفن فى خدمة الدين والعقيدة فى قصص القرآن أساسا قويا من أساسيات منهج هذه الدراسة، ولو كان العكس لفسد المنهج ، وشاھت النتائج تبعا لفساد المنهج .

وقد اعترضت طريق البحث صعوبات منها :

١- أن البحث فى القرآن الكريم ودراسته أمر يكتنفه صعوبة بالغة، فالكلمة عن القرآن الكريم لها حسابها فى الدراسة، فهى محسوبة على الباحث دائما، ولا يجوز لدارس القرآن أن يلقي الكلام على عواهنه، نون سند من آراء العلماء والمفسرين، بل لا يجوز أن

(١) بدائع الإضممار القصص فى القرآن الكريم ، د: كاظم الطواهرى، ط: دار الصابونى، ودار الهداية، الطبعة

يسترسل فى فهمه الشخصى لآيات . القرآن دون أن يقف على مدلولات اللغة، خشية أن يصادم حقيقة من الحقائق المقررة عن القرآن .

٢- كثرة المراجع والدراسات التى تناولت القرآن الكريم، وجعلها يميل إلى الدراسة الموضوعية ، التى تعنى ببيان الجانب الموضوعى فى القصص ، قليل جدا من هذه المراجع والدراسات هو الذى تناول أصحابه القصص القرآنى بالدراسة الفنية، وهذا القليل كان أمامى دائما استهدى به ، وأعود إليه على نحو ما هو واضح فى صفحات البحث .

٣- أن دراسة القصة فى الأزهر مازالت محدودة إلى حد كبير ، ، والتصدى لمثل هذه الدراسة يستدعى ألما ما واسعا بالقواعد الفنية لكل من القصة والمسرحية، وهذا أمر تطلب كثيرا من الوقت والجهد فى بداية التسجيل لهذا البحث .

وبالتغلب على هذه الصعوبات - يعون الله وتوفيقه- خرج هذا البحث فى ثلاثة أبواب يسبقها مقدمة تمهيد ، وتليها خاتمة البحث ونتائجه.

وجاء التمهيد ذا شقين :

أ- عن فن القصة تاريخا وبناء ، تناوت فيه فن القصة فى الأدب العربى ، فى عصوره المختلفة ، من الناحيتين التاريخية والفنية .

ب- القصص القرآنى فى دراسات السابقين، وهم : المفسرون، والمؤرخون، والبلاغيون وعلماء الإعجاز، وأخيرا الدارسون المحدثون.

وجاء الباب الأول : تحت عنوان : دراسة القصص القرآنى ، وفيه مبحث واحد يقوم على عدة محاور :

أولها: عنى ببيان تناسب القصص القرآنى وغايات التنزيل .

ثانيها: عنى بالبحث عن أسرار انتقاء الأحداث فى القصة القرآنية .

ثالثها: عنى ببيان أوجه التكرار فى القصص القرآنى ، وبيان الغرض منه .

رابعها: عنى بالبحث فى خصيصة الإجمال والتفصيل .

وجاء الباب الثانى تحت عنوان البناء الفنى للقصة القرآنية.

ويندرج تحت هذا الباب ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : المشاهد والمواقف والأحداث.

المبحث الثانى : الشخصوس والنماذج البشرية .

المبحث الثالث : الحوار والسرد .

ويعتمد هذا الباب بمباحثه الثلاثة على التحليل المبسوط لكثير من القصص القرآنى، مع التركيز على بيان القاعدة الفنية من خلال عدد من المواقف القصصية ، وبيان موقف القرآن الكريم فى استخدام القاعدة، وما إذا كان يتفق مع القصة الفنية فى هذا الاستخدام أولا. ومن الطبعى أن كل مبحث يمثل محورا مستقلا فى الدراسة .

وجاء الباب الثالث بعنوان : تطبيقات ، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : طبيعة المشهد فى القصة القرآنية ونظيره فى الأجناس الأدبية .

المبحث الثانى : طبيعة الحوار فى المشهد القصصى فى القرآن وتظيره فى الأجناس الأدبية .

المبحث الثالث: الحوار والسرد فى القرآن الكريم والفن القصصى .

ولم أرد - من هذه التطبيقات- الموازنة بين القصص القرآنى وغيره من الأجناس الأدبية فبدهى أن الموازنة هنا غير واردة، وأين الثرى من الثريا ؟؟، وينبغى أن ينزه القرآن عنها، وإنما أردت أن أعرض القاعدة القصصية على القصص القرآنى وغيره من الأجناس الأدبية، لأن ذلك يوضح فضل القرآن فى التأصيل لهذه القاعدة أو تلك.

وأخيرا تأتى خاتمة البحث متضمنة أهم النتائج التى توصلت إليها الدراسة .

ومن فضل الله - سبحانه - أن من على بوجود عدد من معاونين المخلصين، الذين كانت لهم على اليد الطولى فى إخراج هذا البحث، أخص منهم أساتذتى الأفاضل فى قسم الأدب والنقد بالكلية، وكم كانت الحلقات العلمية التى عقدت فى القسم فرصة طيبة لإسداء النصائح الموجهة، الهادية إلى طريق البحث الصحيح وأخص من هؤلاء الأساتذة:

أستاذى الفاضل العالم الجليل، الأستاذ الدكتور: فتحى محمد أبو عيسى، عميد الكلية، والمشرف على هذا البحث ، وإنى لأعد إشرافه على بحثى نعمة أسبغها على ، وفضلا تفضل به ، كما أخص منهم أيضا، الأستاذ الدكتور كاظم الظواهري، الذى بسط لى فكرة هذا البحث فى البداية ، وعاوننى فى إعداده بكثير من الكتب والمراجع التى أفدت منها كثيرا .

وبعد

فأرجو أن أكون قد وفقت فى إخراج هذا البحث على وجه قريب من الصحة، يساوى ما أنفق فيه من وقت وجهد .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

الباحث

محمد عبد الله عبده دبور

تمهيد

أ - فن القصة تاريخاً وبناء

ب - القصص القرآني في دراسات السابقين

اختلف دارسو الأدب حول وجود القصة في الأدب العربي قبل العصر الحديث اختلافًا يصل إلى حد التناقض ، فمنهم من ينكر وجودها إنكاراً تاماً ومن هؤلاء : الدكتور محمد غنيمي هلال (١) ، والأستاذ أحمد حسن الزيات (٢) ، وأحمد أمين (٣) ، ومنهم من يؤكد وجودها ويرفعها إلى مستوى قصصى راقٍ ، ومن هؤلاء الأستاذ محمود تيمور (٤) ، والدكتور على عبد الحليم محمود (٥) ، والدكتور عبد الحميد إبراهيم محمد (٦) ، والأستاذ محمد مفيد الشوباشي (٧) والدكتور الطاهر أحمد مكى (٨) ، ومنهم بعض المستشرقين مثل كارل بروكلمان (٩) .

ولست بصدد مناقشة آراء هؤلاء وأولئك ، ولكنى أشير إلى بعض الأمور المهمة الأمر الأول :

أن المنكرين لوجود القصة في الأدب العربي القديم متأثرون إلى حد كبير - بنظرية العالم الفرنسى (تين) التى تقوم على أساس "أن هناك عوامل نفسية وطبعية ترجع إليها خصائص كل شعب فى أدبه وفنه ، وهذه العوامل هى : الجنس ، والبيئة والقوة الموجهة للعصر والمكتسبة فيه ، والجنس هو أهم هذه العوامل ، إذ هو الاستعدادات الفطرية التى تميز مجموعة من الناس انحدروا من أصل واحد (١٠) .

وطبقاً لهذه النظرية فإن التفاوت بين الأجناس تفاوت شاسع ، «فهذا جنس آرى ممتاز وذلك جنس سام أقل منه ، هذا جنس آرى قد منحه الله الدهشة نحو العالم ،

(١) انظر : الأدب المقارن ط دار نهضة مصر ، الطبعة الثالثة ص ٢١٤ .

(٢) انظر : تاريخ الأدب العربى ، مطبعة الرسالة ، الطبعة الحادية عشرة ص ٣٧٩ .

(٣) انظر : النقد الأدبى ، مطبعة المعرفة ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٤) انظر : القصص فى أدب العرب ماضيه وحاضره ، المطبعة الكمالية ١٩٥٨ م ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٥) انظر : القصة العربية فى العصر الجاهلى ، ط دار المعارف ط الثانية ١٩٧٩ ص ٦١ وما بعدها .

(٦) انظر : قصص العشائر النثرية فى العصر الأموى دار المعارف ١٩٨٧ م ص ٩ وما بعدها .

(٧) انظر : القصة العربية القديمة ، ط دار القلم القاهرة ١٩٦٤ ص ٣ .

(٨) انظر : القصة القصيرة دراسة ومختارات ، ط دار المعارف ، ط الأولى ١٩٧٧ م ص ١٨ .

(٩) انظر : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة د. عبد الحليم النجار ، ط دار المعارف ١٩٦١ م ط ١٢٨ وما بعدها .

(١٠) الأدب المقارن د. غنيمي هلال ص ٦٠ ، ٦١ بتصرف .

وأفاض عليه العاطفة المشبوبة ، والخيال الواسع فأخرج للإنسانية القصص الرائعة ، والمسرحيات الذائعة، وذاك جنس سام لم يوسع الله عليه ، فحرمه الخيال المبتكر ، والعاطفة الخلاقة، فلم يبتكر قصة ولم يخلق مسرحية» (١).

وعلى الرغم من خطئ هذه النظرية التي تفترض وجود جنس بشري صاف لم يختلط بغيره من الأجناس الأخرى - وهو مالا يقره عقل - أجد باحثاً عربياً كبيراً هو الدكتور "محمد غنيمي هلال" يشايح "تين" إذ يقول "ويمكن أن نفيد من نظرية "تين" في النقد العربي فيما يخص تأثير الجنس، ذلك أن الجنس السامي - والعربي منه بخاصة - لم يهتم بالأدب الموضوعي أدب القصص ، ثم أدب المسرحيات والملاحم" (٢).

الأمر الثاني :

أن القرآن الكريم - كتاب العربية الخالد - فيه ما يبطل هذه المزاعم ، ويثبت في الوقت ذاته أن العرب الأوائل كانوا يعرفون القصص ، وإلا ما جاءت آية تأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يقص على مسامع قومه القصص البناءة ، التي تحرك العقل من رقدته ، والفكر من سباته (٣) في قوله - سبحانه : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَارِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤).

وكذلك كان العرب يعرفون أهمية القصة في التأثير على النفوس ، والسيطرة على الأفئدة ، وأنها تشكل عاملاً مهماً في إنجاح أية دعوة من الدعوات التي يراد بثها في أفئدة الناس، وتأتي دلالة القرآن - أيضاً - من أنه استخدام القصة بوصفها سلاحاً من أسلحة الدعوة الإسلامية ، ولو لم يكن للقصة تأثيرها لما إستخدمها القرآن على هذا النحو .

جاء في أسباب النزول (٥): "قال عون بن عبد الله : مل أصحاب رسول الله ملة

(١) قصص العشاق النثرية في العصر الأموي ص ٢٢ .

(٢) النقد الأدبي الحديث ، د. محمد غنيمي هلال ، ط دار نهضة مصر، الطبعة الثالثة ، ص ٦٤ .

(٣) قراءة في الأدب العربي المعاصر ، أ.د. فتحي محمد أبو عيسى ، محاضرات مطبوعة على الآلة الكاتبة ، ١٩٧٩ م ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) الأعراف الأيتان ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٥) أسباب النزول ، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري ، ط مطبعة الأنوار المحمدية ١٩٨٤ م ، ص : ٢٠١ .

فقالوا : يا رسول الله حدثنا ، فأنزل الله تعالى : الله نزل أحسن الحديث . الآية ، قال : ثم إنهم ملوا ملة أخرى ، فقالوا : يا رسول الله ، فوق الحديث ودون القرآن ، يعنون القصص ، فأنزل الله تعالى : نحن نقص عليك أحسن القصص ، فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث ، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص

فهل كان الصحابة سيطلبون من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يقص عليهم لو لم يكونوا على علم بالقصص وبتأثيره في النفوس ؟

ثم أنهم رغبوا في ذلك دفعاً للملل الذي كان يصيبهم أحياناً ، وثقة منهم أنهم سيستمعون إلى أحسن القصص ... وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن العرب كانوا على علم ببعض أحداث القصص الذي جاء به القرآن ، وأن هناك شواهد قائمة تدل على هذه الأحداث (١) ، كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ

وَحَصِيدٌ ۝ (١٠٠) ﴾ (٢) وقوله تعالى : عن قرى قوم لوط : ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ۝ (١٣٦)

وَأَنْكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ۝ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ ۝ (١٣٨) ﴾ (٣).

الأمر الثالث :

أن من الخطأ بل من الظلم البين أن يحاكم الباحثون القصة العربية القديمة إلى مقاييس القصة الحديثة وقواعدها ، وهي مقاييس لم توضع إلا في القرن الثامن عشر في أوربة فالقصة الحديثة عمرها حوالى مائتى عام ، ولا ذنب للأدب العربى القديم في أنه لم ينتج من القصص ما يتفق وهذه القواعد التى كانت في ضمير الغيب قبل خمسة عشر قرناً من الزمان. إن للعرب القدامى قصصهم التى تختلف - قليلاً أو كثيراً - عن القصة الفنية الحديثة ، غاية الأمر أن هذه القصص كانت تعبر عن المجتمع الذى نشأت فيه إلى حد كبير ، تعبر عن عاداته وقيمه ، وسلوك أفرادها نوعاً من التعبير ، ولا شأن للباحثين - بعد ذلك - فيما إذا كانت تتفق مع القصة الحديثة أو تختلف (٤).

ويلاحظ أن اختلاف الدراسين حول وجود القصة العربية القديمة مرجعه إلى اختلاف نظرتهم إليها ، فمن نظر إلى عنصر الحكاية وحده قرر - مطمئناً - وجودها ، ومن

(١) انظر : القصة العربية في العصر الجاهلى ، ص ٧١ ، ٧٣ .

(٢) هود : ١٠ .

(٣) الصافات : ١٣٦ ، ١٣٨ .

(٤) انظر : دراسات في القصة والمسرح ، أ. محمود يتمور ، ط المطبعة النموذجية ، ص ٦٧ .

نظر إلى مقاييس القصة الأدبية الحديثة وقواعدها الفنية من الأحداث ، والشخصيات ، والحوار والسرد ، والعقدة ، والحل ، والصراع إلى آخره نفى وجودها على النحو المشار إليه سابقاً ولكن إلى أي حد كانت تتوافر عناصر البناء القصصي في القصة العربية القديمة ؟

إن البحث عن الفن القصصي في القصة العربية القديمة يستدعي نوعاً من الترتيب التاريخي فكتب الأدب والتاريخ تضم بين دفقاتها كثيراً من القصص المنسوبة إلى عصور الأدب العربي المتعددة ، وكثير من هذه القصص يكاد يكون خلواً من عناصر الفن القصصي ، وقليل منها خاضع لهذه العناصر بنسب متفاوتة .

وتبدو بعض عناصر الفن القصصي واضحة في هذه القصة التي تنسب إلى العصر الجاهلي : قال ابن هشام : "إن النعمان بن المنذر من ولد ساطرون ، ملك الحضير ، والحضر حصن عظيم كالمدينة على شاطئ الفرات ... وكان كسرى سابور ذو الأكتاف غزا ساطرون ملك الحضير ، فحصره سنتين ، فأشرفت بنت ساطرون يوماً ، فنظرت إلى سابور ، وعليه ثياب ديباج ، وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ ، وكان جميلاً فدمست إليه : أنتزوجني إن فتحت لك باب الحصن ؟ فقال : نعم ، فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر ، وكان لا يبيت إلا سكران ، فأخذت مفاتيح باب الحضير من تحت رأسه ، فبعثت بها مع مولى لها ، ففتحت الباب ، فدخل سابور ، فقتل ساطرون ، واستباح الحضير وخربه ، وسار بها فتزوجها ، فبينما هي نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تتأمل لاتنام قدعا لها بشمع ، ففتش فراشها ، فوجد عليه ورقة أس ، فقال لها سابور : أهذا الذي أسهرك ؟ فقالت : نعم ، قال : فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت : كان يفرش لي الديباج ، ويلبسنى الحرير ، ويطعمني المخ ، ويسقيني الخمر ، قال : أفكان جزاء أبيك ما صنعت به ؟ أنت إلى بذلك أسرع ، ثم أمر بها فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها " (١).

هذه هي القصة كما رواها ابن هشام ، وقد توافر فيها بعض العناصر الفنية اللازمة لها منها :

١ - الحدث :

(١) السيرة النبوية لأبي محمد عبد الملك بن هشام ، ت. د. أحمد حجازي السقا ، ط دار التراث العربي ج ١ ص ٤٦ :

شرب الخمر ، والسكر حتى الاغلاق .

كما وصفت بعض مظاهر الحياة الاجتماعية كالترف والنعيم الذى عاش فيه ملوك العرب هم وأبناؤهم ؛ كان يفرش لى الديباج ، ويلبسنى الحرير الخ .
٦ - الفكرة :

فى هذه القصة فكرتان أساسيتان :

أولاهما : إظهار العداء المتأصل بين الممالك المتناثرة فى أنحاء الجزيرة العربية والعداء بين هذه الممالك وغيرها من الدول المجاورة .

ثانيهما : التنفير من الغدر والخيانة ، وخاصة إذا كانت موجهة إلى أقرب الناس من الخائن ، ولذلك انتهت القصة بمقتل المرأة الخائنة جزاء خيانتها وغدرها .



وظلت القصة تعتمد على عنصر الحكاية فى عصر صدر الإسلام اعتماداً كبيراً ، وكانت عناصر الفن القصصى خافتة إلى حد كبير ، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم صنع نهضة عظيمة فى باب القصص لم يستثمرها العرب فى إنشاء قصص أدبى راق ، بل اتجهوا فى تأثيرهم بالقصص القرآنى إلى الناحية الموضوعية البحتة ، ولو أنهم أولوه عناية أدبية كما أولوه عناية موضوعية لكان للقصة فى الأدب العربى شأن آخر تطاول بل تبذ به غيرها من الآداب العالمية .

إن وجود عناصر الفن القصصى فى ذلك العصر يمكن أن يلتبس بوضوح فى قصيدة الحطيئة "وطاوى ثلاث"^(١) ففى هذه القصيدة كثير من مقومات القصة القصيرة فهى تحكى موقفاً مركزاً عاشه بدوى جائع فى صحراء غير ممهدة وغير مطروقة للسالكين ، وقد ترك فى شعب من شعابها امرأته وحولها ثلاثة أشباح لأطفال ، لم ينوقوا الخبز فى حياتهم ، وفى ليلة ظلماء رأى شبيحا مقبلا فخاف منه ، فلما عرف أنه ضيف تشمر له واهتم به ، ولكنه تذكر ما هو فيه من عدم ، فتوجه إلى ربه بالدعاء ألا يحرمه اللحم فى هذه الليلة .

ويتصاعد الموقف إلى قمته حين يطلب إليه ابنه أن يذبحه لقرى هذا الضيف ، وألا يعتذر بالعدم مخافة أن يظن به الضيف الظنون فيذمه ويطلق لسانه فيه .

(١) ديوان الحطيئة ، شرح أبى سعيد السكرى ط ، دار صادر بيروت ، ط ٢٧ .

وبينما الأب غارق في الحيرة ، إذ بقطيع من حمر الوحش يتسلل إلى الماء ،
فتركها الأب حتى شربت ، ثم أرسل سهمه في كبد أحدها ، فأنضج لحمه ، وأطعم ضيفه ،
وبات كريماً لما قضى حق ضيفة عليه

ويلاحظ أن الحدث في القصة يتطور وينمو نمواً طبعياً دون مبالغة أو افتعال،
فالشاعر القاص يعلل حياة العدم التي يحياها بعلّة صادقة كل الصدق ، فهو يعيش في
صحراء شديدة الوعورة، وقد بلغ من شدة وطأتها على نفسه أن اكتسب كثيراً من شدتها
فصارت فيه وحشة من الإنس حين يراهم :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمـل ببذاء لم يعرف بها ساكن رسماً
أخى جفوة فيه من الإنس وحشة يرى البؤس فيها من شرسته نعي
ومع هذه الوحشة التي اكتسبها من البيئة يرى شبحاً فيفزع منه، ولكنه عرف أنه
ضيف فتغيرت مشاعره طبقاً لعادة العرب في إكرام الضيف والاهتمام به، ثم يرينا
الشاعر صورة الأب رافعا بصره إلى السماء ، وصورة ولده وقد تعلق به راجياً أن يذبحه
ويقدم لحمه طعاماً لضيفه ، وليس في ذلك أدنى افتعال في بناء الحدث . فالعربي يسعى
إلى دفع المذمة ولو جاد بنفسه في سبيل ذلك :

رأى شبحاً وسط الظلام فراعـه فلما رأى ضيفاً تشمر واهتماً
وقال : هيا رباه ضيف ولا قرى بحقك لا تحرمه تالليلة اللحم
فقال ابنه لما رآه بحيرة: أيا أبت اذبحني ويسر لهم طعاما
ولا تعتذر بالعدم عل الذي طرا يظن لنا مالا فيوسعنا ذماً

ثم ينمو الحدث أكثر فيرسم الشاعر صورة الأب وقد اضطرعت في نفسه ثورات
الهموم ، فصار ينوى ذبح ولده ثم يتراجع مرة بعد مرة ، حتى جاء الحل ، أو لحظة
التنوير – كما يسميها النقاد – حين رأى قطيعاً من حمر الوحش ، فلم يتردد الأب في
إصابة واحد منها بسهمه فخر صريعاً ، ليكون فيه المخرج له ولأهل بيته من المأزق
الذي عاشه .

فروى قليلاً ثم أحجم برهـة وإن هو لم يذبح فتاه فقد همـا
فبيناهما عنت على البعد عانة قد انتظمت من خلف مسجلها نظما
عطاشاً تريد الماء فانساب نحوها على أنه منها إلى دمها أظما

فأمهاها حتى تروى عظام شهها — فأرسل فيها من كنانته سهمها —
 فخرت نحووس ذات جحش سمينه — قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحمها —
 فبابشره إذ جرهما نحو قومها — وبابشرهم لما رأوا كلمها يدمي —
 وبالنسبة إلى الشخصوس في القصة يظهر الشاعر براعته في الوصف حين يرسم
 صورة أولاده الثلاثة حفاة عراة و تخالهم — لفرط هزالهم — من صغار ولد الضأن،
 ويصور حياتهم المجذبة بقوله إنهم لم ينوقوا الخبز الذي يصنع من البر ولم يعرفوا له
 طعاماً :

وأفرد في شعب عجوز إزاءها — ثلاثة أشباح تخالهم بهمها —
 حفاة عراة ما اغتذوا خبر ملة — ولا عرفوا للبر مذلقوا طعاماً —
 وهو خبير في وصف نفوس شخصياته أيضاً ، فالأب حريص على المحمدة وإكرام
 الضيف؛ ولذلك فهو شديد التعلق بقطيع الحمر، فانساب نحوها لأنه أظماً إلى دمها منها
 إلى الماء .

عطاشاً تريد الماء فانساب نحوها — على أنه منها إلى دمها أظماً —
 ويبالغ الشاعر في تصوير فرحة الأب وبشاشته حين أكرم ضيفه وقضى حقه ،
 فيصور الأب حين استراحت نفسه بأنه أضفى حنانه على ضيفه حتى صار يشعر كأنه
 واحد من أبنائه وكذلك شعرت الأم أيضاً .

وفي العصر الأموي ازدهر لؤنان من القصص هما : القصص الوعظي ، وقصص
 العشق ، وصار لكل منهما أعلام مشهورون ، ولكن جانب الفن فيهما كان خافتاً ، كما
 حكم بذلك أحد المتخصصين في دراسة قصص ذلك العصر إذ يقول: "فكثير من هذا
 القصص مجرد أخبار وأحاديث لا قيمة لها من الناحية الفنية ، أو مجرد مجموعة مواقف
 ، أو مجموعة حالات ليس بينها رابط إلا إدماجها تحت اسم واحد وفيها أشياء كثيرة من
 الممكن الاستغناء عنها إذ لا فائدة منها" (١).

غير أن البحث عن مقومات الفن القصصي يلجئ الباحث إلى محاولة التماسها عند
 شاعر من شعراء ذلك العصر — على نحو ما كان عند الحطيئة — ذلك الشاعر هو عمر
 ابن أبي ربيعة ، فإن له "قصائد نجد فيها القصة تكاد تكون مستكملة الهيكل من تمهيد

(١) قصص العشاق النثرية في العصر الأموي د. عبد الحميد إبراهيم ص ١٦٤ .

وعقدة وحل طبعي، على ما يتخللها من حوار لذيذ يشترك فيه أشخاصها ، حتى ليخيل إليك أنك تقرأ قطعة تمثيلية تطالعك بأحاديث الحب ولغة المرأة في صدر الإسلام ، وقد وسع عمر نطاق الحوار ، ولم يقصره على شخصين ، وأكثر منه في غزله، وراعى فيه ذهنية المرأة وتعابيرها ، ففاق به من تقدمه وأحرز السبق على معاصريه» (١).

وأوضح مثل لشعر عمر القصصى رائيته الشهيرة ومطلعها: (٢).

أمن آل نعم أنت غاد فمبكسر عدا غدا أم رائح فمهجر

وهي «تجمع الكثير من عناصر القصة الحديثة . قصيرة وذات حدث، وبسيطة وتعرض لجانب من الحياة ، في لحظة محددة ، وذات دلالة ، ولكن دون أن يعنى ذلك بالطبيعة أن لها نفس الأحكام والبناء والدقة» (٣).

وفي العصر العباسي أتيح للقصة كاتب بارع ، يعد - بحق - علامة مضيئة في العربية إلى اليوم، كما يعد معلما بارزا على طريق القصة ، التي كتبت بأسلوب عذب يقطر روعة ويفيض متعه وإشراقاً ، وأوتى اقتداراً وضلاعة في مجال الصوغ القصصى لأحاديثه التي تتراوح بين الطول والقصر في كثير من كتبه ومنها كتاب «النجلاء» (٤) كما أن في أسلوبه القدرة الفائقة على إبراء اللمحة الخطفة التي تغنى عن كثير من التفاصيل (٥).

" برع الجاحظ في ألوان من الأدب عديدة ، كالمناظرة ، والرسائل ، والنثر الفني، ومما يحسب له في مجال القصة أنه كان بارعاً في تصوير الشخصيات والنفوس إلى حد كبير، ولو أنه عرف الأدب التمثيلي لأسعفته ملكته في الحوار والمناظرة بقصص تمثيلية كثيرة ، وهو - بحق - لا يبارى في وصف الحركات الجسدية والمشاعر النفسية، (٦)" ومن خير ما يمثل نزعتة القصصية قصة بعنوان "القاضي والذباب" (٧). يصف فيها

(١) مقدمة ديوان عمر بن أبي ربيعة ط . دار صادر بيروت ص ٨ .

(٢) ديوان عمر ابن أبي ربيعة ص ١٢٠ وما بعدها .

(٣) القصة القصيرة دراسة ومختارات د. الطاهر أحمد مكي ص ٣٢ .

و . أنشودة للسلطنة ، مقالات في فن القصة ، أ. يحيى حقي ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ م ، ص ١٣٦ . ١٤٠ .

(٤) انظر الخلاء ، ت، د. طه الحاجري ، ط دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، ص ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٤ .

(٥) اسمر قراءة في الأدب العربي المعاصر ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٦) تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الثاني ، د. شوقي ضيف ط دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ص ٥ ، ٦ .

(٧) انظر الحيوان ، للجاحظ ، ت، عبد السلام هارون ، ط مصطفى البابي الحلبي ١٩٤٥ م ، ص ٣ ، ص ٢٤٣ .

القاضي "عبد الله بن سوار" وهي تتألف من ثلاثة أجزاء: (١).

الجزء الأول : يصف فيه الجاحظ وقار القاضي ، وتزمته ، وما بلغه من سيطرته الشديدة على نفسه وحركته ، وهي سيطرة كانت تلازمه طوال يومه ، فكان يجلس في مجلس العلم محتثياً لا ينتصب إلا للصلاة ، ثم يعود إلى مجلسه ، وكان ذلك شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وكان لا يحرك يده ولا يشير برأسه ، فإذا تكلم أوجز في الكلام وبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة .

الجزء الثاني : يصور فيه "الجاحظ" تهافت الذباب على أنف القاضي ، ثم تحوله إلى مؤق عينيه ، والقاضي صابر لا يحرك ساكناً ، فلما طال مكث الذباب في مؤقه ، شغله وأوجعه وأحرقه ، فأطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم ينهض الذباب فوالى بين الإطباق والفتح ، والذباب لا يتخلى عن مؤقه إلا يسيراً ، ثم عاد الذباب فغمس خرطوميه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، ومازال كذلك حتى استقرغ جهده وصبره ، ثم لم يجد بداً من أن يذب عن عينيه بيده ، ثم ألجأه الذباب إلى أن يذب عن وجهه بطرف كفه ، وتابع بين ذلك .

الجزء الثالث : وفيه يصور الجاحظ تعلق أعين الجالسين الذين شهدوا المنظر بالقاضي ، فلما نظروا إليه قال : ما أكثر من أعجبتة نفسه فأراد الله - عز وجل - أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً

"والجاحظ" يعد أول مؤلف معروف للقصص على هذا النحو الثابت في كتبه ، فقد كان القصص من قبله غير منسوب إلى مبدع بعينه ، ولهذا كان عرضة للتغيير ، وربما للزيادة والنقص ، على عكس قصص "الجاحظ" الذي وصل إلينا كما أبدعه صاحبه ، بالإضافة إلى صحة نسبه إليه .

وإذا كان "الجاحظ" قد دفع بالقصة العربية خطوة كبيرة نحو منهجية الفن فمما ذلك إلا لسببين :

الأول : أنه كان يتمتع بدقة متناهية في وصف شخصيات قصصه من الناحية الجسدية الظاهرة ، ومن الناحية النفسية الداخلية أيضاً ، وهو في هذا الجانب الأخير يعد سابقاً لغيره في مجال التحليل النفسي لأبطال القصص .

(١) أنظر: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني ، ص ٦٠٧ .

الثاني : أنه كان يختار موضوعات قصصه من المجتمع بعناية واضحة ، فهبط بالقصة إلى عالم الواقع ، وجعل السخرية جزءاً منها ، ومزج فيها بين المتعة والجمال . ولعل نزعة "الجاحظ" القصصية كانت واحداً من جملة أسباب أدت إلى ظهور فن قصصى جديد فى أدب العربية ، يعد بذرة من البذور التى نتجت منها القصة الحديثة ، ذلك الفن هو المقامة .

وأول من اخترع هذا الفن فى العربية "بديع الزمان الهمذاني" (ت ٣٩٨ هـ) وتبعه الحريري (ت ٥١٦ هـ) ، ولكن الهمذاني هو الذى أقام هيكل المقامة الذى عاشت فيه حوالى ألف سنة من يوم نشأتها ... ونستطيع أن نعرفها بأنها قصة قصيرة تروى خبراً نامياً فى ذاته عن بطل محتال فى لحظة من لحظات حياته" (١).

والمقامة - من ناحية البناء الفنى - لها عدة أضلاع لاتستغنى عن واحد منها :

الأول : يمثل الراوية والبطل معا .

الثاني : يمثل السجع والمحسنات البديعية

الثالث : يمثل معالجة المشكلات الطبقيّة والاقتصادية ، والفقهية واللغوية ، والأدبية .

الرابع : يمثل الموضوع ، وهذا الضلع الأخير هو الذى يتغير ، فمرة يكون الموضوع عن الكدية كما فى مقامات "الهمذاني" والحريري" ، ومرة يكون خيالياً كما فى مقامات "أحمد عبد اللطيف البربير" (ت ٩١١م) و"عبد الله فكرى" ، ومرة يكون الموضوع وعظياً كما فى مقامات "الزمخشري" (٧٧٤ هـ) (٢).

وكانت المقامات تمثل روح العصر والمجتمع الذى نشأت فيه إذ فيها وصف العادات والتقاليد التى تسود الطبقات الوسطى والدنيا فى كثير من المجتمعات الإسلامية ، وكان هذا الجنس يمكن أن يصبح أخصب جنس أدبى فى العربية ، وأن يقوم مقام القصة والمسرحية فى الآداب العربية لولا أنه انحرف عن نقد العادات والقيم والقضايا العامة إلى المعاحكات اللفظية والألغاز اللغوية» (٢).

إن دور المقامة فى ميلاد القصة الحديثة لم يقف عند حدود القصة العربية ، بل تعداها إلى القصة الأوربية ، فبعد اتصال العرب بأوربة فى العصور الوسطى كان

(١) أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة د. محمد رشدي حسن ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

(٣) الأدب المقارن د. محمد غنيمى هلال ص ٢١٨ .

للمقامات تأثيرها الواسع متنوع الدلالة في الآداب الأوربية ، فقد غدت قصص الشطار الأسبانية بنواحيها الفنية ، وعناصرها ذات الطابع الواقعي ، ثم انتقل التأثير من الأدب الأسباني إلى سواه من الآداب الأوربية ، فساعد على موت قصص الرعاة وعلى تقريب القصة من واقع الحياة ، ثم على ميلاد قصص العادات والتقاليد في معناها الحديث ، وهي التي تطورت فكانت هي قصص القضايا الاجتماعية فيما بعد» (١).

ومع هذا التأثير الفعال فإن كثيراً من الدراسين نظروا إلى القصة الحديثة على أنها خلق أوربي بحت، واختراع غربي المولد والنشأة والنمو، استورده العرب وحاكوه دون أن يكون لهم دور في بنائه .

وعلى أية حال صار للعرب عالمهم القصصى الرحب المتنوع ، وصار للقصة العربية مقوماتها الفنية الواضحة التي يسير عليها المبدعون والنقاد في إبداعهم ونقدهم ، وإن كان من الملاحظ أن بعض هذه المقومات مازال محل أخذ ورد إلى يومنا هذا ، إلا أن هناك مقومات أساسية لا يستغنى عنها أى نوع من الأنواع الشكلية للفن القصصى من أقصوصة ، وقصة قصيرة ، وقصة ، ورواية ، هذه المقومات الأساسية هي :

الشخصية : وهي أهم المقومات ، إذ تعتمد عليها المقومات الأخرى إلى حد كبير ، ولا بد أن تكون الشخصيات في العمل القصصى مقنعة فنياً ، وكلما كانت الشخصية القصصية متفردة كانت أدخل إلى عالم الفن .

الحدث : وهو مرتبط بالشخصيات إلى حد كبير ، فالشخصيات هي المحرك للأحداث ، وهي المنفصلة بها في الوقت نفسه، ويتميز كاتب من آخر بطريقة عرضه للأحداث وتطورها .

الأسلوب : وهو الوسيلة اللغوية التي يدير بها الكاتب حركة الشخصيات، ويرسم ملامحها الداخلية والخارجية ، كما يعرض بها أحداث عمله القصصى ويتنوع الأسلوب في القصة بين الحوار والسرد، يزاوج بينهما الكاتب على ألا يطغى أحدهما على الآخر . وهناك بعض المقومات الأخرى مثل : الزمان ، المكان ، البيئة ، والحبكة القصصية والعقدة، والحل ، وغيرها ، ولكل منها ضوابطها التي وضعها النقاد .

(١) النقد الأدبي الحديث من ٤٩٦ .

ب - القصص القرآني في دراسات السابقين

فى هذه الصفحات بيان لجهود العلماء الذين درسوا القصص القرآنى فى القديم والحديث ، وهم المفسرون ، والمؤرخون ، والبلاغيون وعلماء الإعجاز القرآنى ، وأخيراً العلماء المحدثون الذين كتبوا عن القرآن وقصصه فى العصر الحديث .
أولاً: المفسرون :

نزل القرآن الكريم فى قوم مشهورين بالفصاحة وسحر البيان ، فأمن منهم من آمن ، وكفر منهم من كفر ، وهؤلاء جميعاً كانوا يفهمون القرآن على تفاوت بينهم ، وكان الصحابة إذا غاب عنهم معنى من المعانى التمسوه فى موضع آخر من القرآن ، وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يبين لأصحابه ما استغلق عليهم فهمه من آى القرآن الكريم ومعانيه . كما اشتهر بالتفسير مجموعة من الصحابة منهم : على بن أبى طالب ، وعبد الله بن عباس ، وزيد بن ثابت وغيرهم (١) .

وفى عهد التابعين قامت على تفسير القرآن مدارس متعددة ، منها مدرسة مكة ، ومدرسة المدينة المنورة ، ومدرسة العراق ، ولكل منها أعلامها المعروفون (٢) .
ثم خطا التفسير بعد ذلك خطوات واسعة ، ودخل مرحلة جديدة هى مرحلة التدوين ، وذلك فى أواخر القرن الثانى الهجرى .

وقد عرض الدكتور محمد حسين الذهبى فى كتابه "التفسير والمفسرون" كثيراً من كتب التفسير التى تنوعت مشارب أصحابها ، وتعددت مناهجهم واختلفت مذاهبهم إلى حد كبير ، وهؤلاء - على كثرة أعدادهم - يمكن تصنيفهم فى دراستهم للقصص القرآنى إلى عدة اتجاهات .

الاتجاه الأول : وكل أصحابه من المفسرين القدماء (٣) ويعنى هؤلاء باستقصاء ظروف القصة ، وتتبع جزئياتها ، وما يتصل بها من مواقف وأحداث ، مع الحرص الشديد على تحديد زمانها ومكانها ، وتعيين أسماء أشخاصها ، وكثير من أصحاب هذا الاتجاه اتساقوا إلى الاستقصاء والإحاطة رغبة فى إشباع نهم المتطلعين إلى هذا

(١) التفسير والمفسرون د. محمد حسين الذهبى المطبعة الفنية، الطبعة الرابعة ١٩٨٩ ج ١ ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٠١ وما بعدها .

(٣) ومن أشهرهم : محمد بن جرير الطبرى فى كتابه جامع البيان فى تفسير القرآن

و : علاء الدين بن محمد الخازن فى تفسيره "كتاب التويل فى معانى التنزيل" .

و : أحمد بن إبراهيم الثعلبى فى تفسيره "الكشف والبيان عن تفسير القرآن"

وهذا الأخيران أكثر من ذكر الإسرائيليات فى تفسيريهما - ولم ينبها - فى أحيان كثيرة - إليها . أنظر :

التفسير والمفسرون ج ١ ص ٢٢١ ، ١٩٦ .

القصص الديني ، وخاصة ما يتعلق منه بتاريخ بدء الخلق ، والأنبياء ، والأمم الغابرة ، ولم يتحرهؤلاء فيما رووا من أخبار امتزجت في كثير من الأحيان بالخرافات والأساطير والإسرائيليات (١).

ويعلل ابن خلدون هذا المسلك بقوله : والسبب في ذلك "أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا ما تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عن أهل لكتاب قبلهم .. وهم يادون مثل العرب يومئذ ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية (٢).

بل إن من المفسرين الذين ينتمون إلى طائفة الإمامية الإثنا عشرية (٣) من ذهب إلى أن القصص القرآني ، وما ورد في شروحه من الروايات ، على اختلافها وتضاريفها ، ليس المقصود به ظاهره الذي يتبادر إلى الذهن ، بل هو من الرموزات التي رمزوا بها لأشياء يعلمونها ، ويريدونها وأن من يريد حملها على الظاهر فلا بد أن يحار فيها ، ولا يمكن له أن يصل إلى حقيقتها ، والمقصود منها بقوة البشرية ، ولا تدرك حقائق هذه الأشياء إلا بالقوة الروحية التي تستلهم المعارف من الله تعالى .

الاتجاه الثاني : ومعظم أصحابه من المفسرين القدماء (٤) ويتبع هؤلاء طريقة التحليل مع الإلتزام بحدود النص القرآني ، ويعنون بتوضيح ما تحتوى القصة القرآنية من إشارات وعبر ، والاجابة على ما أثير فيها من شبهات ، وتجلية بعض عوامل التأثير في أسلوبها البياني أو حججها العقلية .

وإلتزام هؤلاء بالنص تابع من اتباعهم طريقة تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة والأثر الصحيح ، وإذا أورد أحدهم بعض الإسرائيليات فإنما للتنبيه إليه والرد عليه بما يثبت ،

(١) انظر سيكلوجية القصة في القرآن د. التهامي نفرة، ط الشركة التونسية ١٩٧١ م ص ٢٩ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، ط دار العلم بيروت ص ٤٣٩ بتصرف .

(٣) العراق : سلطان محمد الخرساني في تفسيره "بيان السعادة في مقامات العبادة" انظر : "التفسير والمفسرون" ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٤) ومن أشهر أصحاب هذه الطريقة : إسماعيل بن كثير في تفسيره "تفسير القرآن العظيم"

و : محمد فخر الدين الرازي في تفسيره : "مفاتيح الغيب"

و : ناصر الدين بن عبد الله البيضاوي في تفسيره "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" .

و : أبو القاسم محمود الزمخشري في تفسيره "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"

بطلانه ، كما كان من ابن كثير فى قوله تعالى " وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة" (١) إلى آخر آيات القصة، إذ أورد قصة طويلة مبسطة عن البقرة وكيف وجدوها ، وثنىها الذى بلغ ملء جلد لها ذهباً ، ثم يقول "وهذه السياقات عن عبدة وأبى العالية ، والسدى وغيرهم فيها اختلاف ، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى إسرائيل ، وهى مما يجوز نقلها ، ولكن لا تصدق ولا تكذب ، فلهاذا لا يعقد عليها ، إلا ما وافق الحق عندنا ، والله أعلم» (٢)

ويتفرد الزمخشري من بين هؤلاء بأنه كان يقع له بين الحين والحين شئ من التوفيق ، فى إدراك بعض مواضع الجمال الفنى فى القرآن ، وذلك كقوله فى تفسير قول الله تعالى فى قصة موسى - عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) ﴾ (٣) : "هذا مثل ، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ، ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجر رأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء ، ولم يستحسن هذه الكلمة ، ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك» (٤)

إن أجمل ما فى هذا التعبير هو «تشخيص الغضب ، كائنه إنسان ، يقول ويسكت ، ويغرى ويصمت ، فهذا التشخيص هو الذى جعل للتعبير جماله» . (٥)

وكان لتفرد الزمخشري أثر بعيد جدا فى نشأة التفسير الأدبى فى العصر الحديث **الاتجاه الثالث :** ومعظم أصحابه من المفسرين المحدثين (٦) ، الذين تأثروا بالزمخشري - كما قلت - واهتم هؤلاء بمعالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم على إظهار مواضع الدقة فى التعبير القرآنى ، ثم بعد ذلك تصاغ المعانى التى يهدف القرآن إليها فى أسلوب شائق أخاذ ، يستهوى القارئ ويحبب إليه النظر فى كتاب الله تعالى . (٧)

(١) سورة البقرة من الآية ٦٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط دار الفكر العربى ج١ ص ١٠٨ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٤ .

(٤) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وحيون الأقاويل فى وجوه التأويل ، محمود بن عمر الزمخشري دار الريان للتراث ودار الكتاب اللبنانى بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧ ج٢ ص ١٦٣ .

(٥) التصوير الفنى فى القرآن ، سيد قطب ، ط ، دار الشروق ، الطبعة الحادية عشرة ١٩٨٩ ص ٢٨ .

(٦) ومن أبرز هؤلاء الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا فى تفسيرهما المسمى : تفسير المنار والأستاذ : سيد قطب فى تفسيره : فى ظلال القرآن .

(٧) انظر : التفسير والمفسرون ج٢ ص ٢٢ ، ٢٤ .

وقد تفرد الأستاذ سيد قطب من بين أصحاب هذه الاتجاه إذ عرض القصص القرآنى عرضاً أدبياً ، يهتم بإبراز الصور والقيم الجمالية ، مع الاهتمام بربط القصة بموضوع السورة ربطاً معجباً ، على نحو ما فعل في سورة "آل عمران" فى قصة ولادة "مريم" وقصة "موسى" عليهما السلام (١).

ثانياً : المؤرخون :

لا يختلف المؤرخون كثيراً فى تناولهم للقصص القرآنى عن المفسرين ومن ثم يمكن تصنيفهم إلى مدرستين .

الأولى : يتبع أصحابها (٢) طريقة البحث والتحليل التى سلف الكلام عنها عند المفسرين ، وهؤلاء اهتموا اهتماماً بالغاً بالأسماء ، والأماكن والأزمنة فى القصص القرآنى ونقلوا كثيراً من الإسرائيليات والرويات المضطربة .

وقارئ الجزء الأول - مثلاً - من تاريخ الطبرى يعجب لما تحدث عنه المؤرخ من أحاديث فى بدء الخلق ، وما خلق الله فى كل يوم من الأيام الستة التى ذكر الله فى كتابه أنه خلق فيهن السموات والأرض وما بينهما (٣) ويعجب أيضاً للرويات التى ينقلها وفيها - أحياناً - ما يتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم السلام - مثل ما رواه عن يوسف - عليه السلام - (٤) فى شرح قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٢٤) .

الثانية : وتسير فى اتجاه عام تلتزم فيه طريقة التحليل مع الالتزام بالنص القرآنى وعدم الخوض فى الإسرائيليات (٥) .

ومن خير ما يمثل منهج هؤلاء المتقدمين فى دراستهم للقصص القرآنى ابن كثير

(١) انظر : فى ظلال القرآن ط . دار الشروق . بيروت ج ١ ص ٢٤٨ وما بعدها .

(٢) ومن أشهرهم : محمد بن جرير الطبرى فى كتابه "تاريخ الرسل والملوك"

و : شهاب الدين أحمد فى كتابه "نهاية الأرب فى فنون الأدب"

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف الطبعة السادسة ، ج ١ ص ٣٢ ، ٤٧ .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٣٣٧ .

(٥) ومن أشهر هؤلاء : ابن كثير فى كتابيه "البداية والنهاية" و "قصص الأنبياء"

و : عماد الدين اسماعيل أبو الفدا فى كتابه : «المختصر فى أخبار البشر»

و : محمد بن عبد الله الكسانى فى كتابه "قصص الأنبياء"

فى دراسته لقصة "يعقوب" - عليه السلام - إذ اكتفى بما ذكر عنه فى قصة أبيه "إسحاق" وولده "يوسف" - عليهما السلام - ثم ذكر بعض الأخبار اليسيرة التى تواترت فى كتب العهد القديم ولم تتعرض لها المصادر الإسلامية (١).

ولما جاء العصر الحديث سالت أفلام المؤرخين (٢) بكثير من الكتابات حول القصص القرآنى ، وقد تناول هؤلاء قصص القرآن بالدراسة الموضوعية ، التى تهتم بسرد الأحداث القصصية ، والتعليق عليها ، مع الاهتمام من بعضهم أحياناً بتحديد الزمان والمكان ، ولكن فى غير إسراف كما كان يفعل السابقون ، كل ذلك مع بساطة فى التعبير والعرض ، وسهولة فى لغة الحكاية القصصية ، حتى يكون المؤلف قريب التناول ، سهل المأخذ ، واسع الانتشار ، وسمة أخرى حافظ عليها الكاتبون وهى : عدم الخوض فى الأمور الغيبية التى حرص عليها السابقون كبداء الخلق ، والبعد عن الإسرائيليات التى كثرت فى كتب المتقدين .

ويتفرد الأستاذ عبد الوهاب النجار من بين هؤلاء المؤرخين بأنه صاحب منهج منظم إلى حد كبير ، ويتلخص هذا المنهج فى أنه كان يبدأ باسم النبى الذى يراد ذكره ويبين كم مرة ورد ذكره فى القرآن الكريم ، مع ذكر أرقام الآيات من السور المختلفة ، ثم يقسم قصة هذا النبى إلى عدة مواقف يستوفى فى كل موقف شأنه فيها ، ويتبع ذلك بالآيات التى تدل عليه من كتاب الله ، وأحياناً يأتى بنصوص من كتب العهدين القديم والجديد ، ويبين ما إذا كانت توافق القرآن أو تخالفه ، ثم يختم القصة ببيان أوجه العظة والعبرة منها (٣).

وقد أثار هذا المنهج - رغم سلامته - على المؤلف ثائرة كثير من الناس، وكتب جماعة من العلماء نقداً لهذا الكتاب ، أثبتته المؤلف فى طبعات كتابه التالية ، مع رده عليها ، ليكون ذلك كله أمام القراء ، وعلى الرغم بما وجه إلى المؤلف من نقد يعد بحق أول من راد الطريق لدراسة القصص القرآنى فى العصر الحديث واقتفى أثره كثير من

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ، ط دار نهر النيل ، الطبعة الأولى ص ٢٢٣ .

(٢) ومنهم : عبد الوهاب النجار فى كتابه "قصص الأنبياء".

و : محمد أحمد جاد المولى وآخرون فى كتابهم "قصص القرآن".

و : محمد الطيب النجار فى كتابه "تاريخ الأنبياء فى ضوء الكتاب والسنة".

و : محمد على الصابونى فى كتابه "النبوة والأنبياء فى القرآن".

و : محمود الشوقاوى فى كتابه "الأنبياء فى القرآن" وغيرهم كثيرون .

(٣) انظر : قصص الأنبياء : عبد الوهاب النجار . مطبعة المختار الإسلامى ١٩٨٥ م ص ٤ .

المؤرخين والكتاب .

ثالثاً: البلاغيون وعلماء الإعجاز :

يمكن القول إن البلاغيين القدامى - فى معظم دراساتهم - شغلوا أنفسهم بمباحث بعيدة عن روح القرآن الكريم ، وعن جماله الأسلوبى ، كما يرى الأستاذ سيد قطب ، مثل اختلافهم حول اللفظ والمعنى ، أيهما تكمن فيه البلاغة ، وكان من المنتظر أن يصلوا إلى مالم يصل إليه المفسرون ، خصوصاً أنهم عملوا فى صميم العمل الفنى للقرآن ، وغلب على بعضهم روح القواعد ، ومنهم من انصرف إلى التقسيم والتبويب (١) وقد اشتهر من علماء الإعجاز قديماً من كان ذا اتجاه لا يعدو الآيات المفردة (٢) ، ومن ذلك حديثهم عن تكرار بعض آيات القصة القرآنية بأساليب مختلفة ، وأن هذا التكرار دليل على جودة النظم فى القرآن الكريم ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره "الباقلانى" حين مثل ببعض آيات من قصة "موسى" - عليه السلام - وقوله لأهله فى آية ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيَكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيَكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٧) وفى آية أخرى قال : ﴿ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيَكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ (١٠) وفى موضع آخر قال : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيَكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٢٩) (٥) وقال الباقلانى : "إنه قد تصرف فى وجوه ، واتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك ... ليكون أبلغ فى تعجيزهم ، وأظهر للحجة عليهم ، وكل كلمة من هذه الكلمات ، وإن أنبأت عن قصة فهى بليغة بنفسها تامة فى معناها" (٦) . وتوجد مثل هذه الأشارات مثبتة عند علماء الإعجاز، ولكنها لم تتجاوز الآيات

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ص ٢٩ .

(٢) ومنهم : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى رسالة بعنوان "حجج النبوة"

و : أبو سليمان محمد الخطيب فى رسالة بعنوان "بيان إعجاز القرآن" .

و : الإمام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه "دلائل الإعجاز"

(٣) النمل من الآية ٧ .

(٤) طه من الآية ١٠ .

(٥) القصص من الآية ٢٩ .

(٦) إعجاز القرآن للباقلانى ، ط دار عالم المعرفة ص ٦٥ بهامش كتاب الإتقان للسيوطى .

المفردة لتشكيل منهجاً عاماً ينتظم قصة أو مجموعة من القصص القرآنى .
 كما اشتهر من كتاب الإعجاز حديثاً^(١) من كان ذا رؤية مختلفة تنظر إلى مواطن الإعجاز فى القصص القرآنى نظرة متسعة ، وقد أفاض الله - سبحانه - على بعض هؤلاء وهو الشيخ "الشعراوى" فيوضات كثيرة، ومن عليه بأسلوب فى التفسير يستهوى العامة والمتعلمين على حد سواء ، والاستطراد سمة بارزة فى تفسيره، ولا يختلف منهجه فى كتبه "معجزة القرآن" عن منهجه فى التفسير كثيراً ، وهو فى كتبه عن الإعجاز ينتقل من معنى إلى معنى دون أن يكون هناك رابط بين المعانى فى الفصول المتعددة .
 والذي يتتبع ما يذكره فضيلته يلحظ ما يتخلل تفسيره من لفتات معجبة فيما يخص القصص القرآنى وصلته بإعجاز القرآن ، ومن ذلك قوله تحت عنوان "قصص القرآن" : القصص فى القرآن الكريم لا يتناول أشخاصاً بذواتهم ، وقصص القرآن كله إنما هو عبرة عامة، وموعظة تتكرر فى كل عصر ، ماعدا قصة مريم - عليها السلام - ولذلك فإن الله - سبحانه وتعالى - لم يذكر أبطال هذا القصص بأسمائهم الكاملة لنعرف أشخاصهم ، بل اكتفى باسم واحد عام ، ففرعون - مثلاً . هو : كل شخص يريد أن يجعل من نفسه إلهاً يعبد فى الأرض ، وصاحب الجنيتين - فى سورة الكهف - هو كل من ينسى فينسب الفضل إلى نفسه ... إن الهدف ليس الشخص ولكنه العبرة ، ولذلك سمى الله - سبحانه - مريم فقال مريم ابنة عمران ، لأن المقصود فى هذه الحالة مريم ابنة عمران بالذات ، وأن هذه القصة لن تحدث لغيرها - والمقصود فى قصة عيسى هو عيسى ابن مريم بالذات^(٢).

وفى العصر الحديث وجد اتجاه متفرد تمام التفرد^(٣) ، اتجه أصحابه إلى دراسة

(١) من أشهر هؤلاء : مصطفى صادق الرافعى فى كتابه إعجاز القرآن .
 و : الشيخ محمد متولى الشعراوى فى خمسة كتب تقع جميعها تحت عنوان "معجزة القرآن" وانظروا : الإعجاز فى دراسات السابقين ، عبد الكريم الخطيب ، ط دار الفكر العربى ، الطبعة الأولى ص ١٥٧ ، ١٧٩ ، ١٩٤ ، ٢٤٤ ، ٢٢٦ .

(٢) معجزة القرآن ط مكتبة التراث الإسلامى ج ٢ ص ٢١٩ بتصريف .

(٣) ومن أبرز أصحاب هذا الاتجاه د. محمد أحمد خلف الله فى كتابه "الفن القصصى فى القرآن الكريم".

و : عبد الكريم الخطيب فى كتابه "القصص القرآنى فى منطقته ومفهومه".

و : د/ التهامى نوره فى كتابه "سيكولوجية القصة فى القرآن الكريم".

و : ثروت أباطة فى كتابه "السرد القصصى فى القرآن الكريم".

و : سيد قطب فى فصل بعنوان القصة فى القرآن من كتاب "التصوير الفنى فى القرآن".

د/ كاظم الطواهرى فى كتابه "بدائع الإضممار القصصى فى القرآن الكريم".

القصص القرآنى من الناحية الفنية ، فعنوا بالبحث عن الجمال الفنى فى هذا القصص ، فمنهم من أصاب بعض مواضع هذا الجمال ، فأصبحت دراساتهم نماذج تحتذى ، ومنهم من أخطأ الطريق ، فقال فى القرآن ما لم يقله مسلم من قبل .

والدكتور خلف الله يعد من أوائل الذين تناولوا القصص القرآنى بالدراسة الفنية ، واعتمدت دراسته - كما يرى - على المنهج الفنى البيانى، وهذا المنهج له مدلوله الخاص عنده ، إذ يقوم على أساس أن الفن الأدبى هو الأساس الوحيد فى الدراسة ، ومن ثم أهمل الباحث الجوانب التاريخية والدينية إهمالاً تاماً ، على عكس ما فعل المؤرخون والمفسرون قديماً ، ونعى عليهم صنيعهم هذا بقوله : ونحن مع احترامنا لكل من اللغويين والمفسرين لا نستطيع - ونحن ندرس القصص الفنى - أن نقف عند هذه الحدود - يقصد الحقائق التاريخية - ذلك لأننا حين نذكر لفظ قصة إنما نقصد شيئاً آخر أهم من متابعة الخبر أو الحديث ، نقصد ذلك العمل الأدبى ، الذى يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له ، أو لبطل له وجود ، ولكن الأحداث التى دارت حوله فى القصة لم تقع ، أو وقعت للبطل ، ولكنها نظمت فى القصة على أساس فنى بلاغى ، فقدم بعضها وآخر آخر ، وذكر بعضها وحذف آخر ، أو أضيف إلى بعض ما لم يقع ، أو بولغ فى تصويره إلى الحد الذى يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون من الحقائق العادية والمألوفة ، ويجعلها من الأشخاص الخياليين، وذلك هو ما نقصد إليه من درسنا للقصص الفنى فى القرآن الكريم (١).

وكان الاعتماد على المنهج الفنى وحده هو أكبر خطأ وقع فيه الباحث إذ تمخض هذا المنهج عن مجموعة من الآراء التى أنكر فيها المؤلف كثيراً من الحقائق التاريخية الواردة فى القصص القرآنى (٢). كما ادعى الباحث وجود القصة الأسطورية فى القرآن الكريم (٣) ، وغير ذلك من الآراء التى فندها العلماء فى مؤلفاتهم (٤).

وإذا كان الباحث قد جانب الصواب فى كثير مما أبداه فى كتابة آنف الذكر فإن باحثاً آخر قد أصاب كثيراً من مواضع الجمال الفنى فى القصص القرآنى ، وهو

(١) الفن القصصى فى القرآن الكريم د/ محمد أحمد خلف الله ط المطبعة الفنية الحديثة ١٩٧٢ من ١١٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠ وما بعدها ، و ص ١٢١ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ص ١٧١ وما بعدها .

(٤) ومن أخصب الردود عليه كتاب الأستاذ عبد الكريم الخطيب سالف الذكر .

الأستاذ سيد قطب الذى عرض فى كتابه بعض المباحث الفنية على النحو التالى (١) القصة القرآنية تساق لأغراض دينية بحتة ، وترتب على الخضوع للغرض الدينى اختلاف فى عرض القصة من ناحية الأحداث ، وتكرارها بطريقة معينة فى أكثر من سورة قرآنية .

وقد ترتب على اجتماع الدين والفن فى القصة آثار وخصائص فنية بارزة ، وهذه الخصائص تشمل طريقة عرض الأحداث ، والتصوير ، ورسم الشخصيات مع التمثيل لكل هذه الخصائص بمثال من القصص القرآنى .

وبعد هذا العرض للدراسات السابقة لا أدعى أنه كان محيطاً مستقصياً فما أردت الإحاطة ولا الاستقصاء ، ولكن أردت الوصول إلى حقيقة مهمة أعرف من خلالها أين يقف السابقون فى دراساتهم لكى أبدأ حيث انتهوا مع الإفادة منهم جميعاً ، عسى أن أستطيع وضع لبنة فى صرح الدراسات القرآنية الشامخ .

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ص ١٤٤ وما بعدها .

الباب الأول

دراسة القصص القرآني

المبحث الأول

مقاصد القصص القرآني

- أ - تناسب القصص القرآني وغايات التنزيل .
- ب - من أسرار انتقاء الأحداث في القصة القرآنية .
- ج - التكرار .
- د - التفصيل والأجمال .

(أ)

تناسب القصص القرآني وغايات التنزيل

يحتل القصص حيزاً كبيراً من القرآن الكريم ، وتمتزج موضوعاته بموضوعات القرآن امتزاجاً معجباً لا يمكن معه الفصل بين هذه الموضوعات وتلك ؛ لأن القرآن كله - بما فيه من قصص - يمثل كلاً واحداً ، فى موضوعاته وأسلوبه ومقاصده ، غاية الأمر أن القصة تتناول الموضوع القرآنى تناولاً فنياً ، ولا يعنى هذا أن الفن هو المراد الأول من القصة القرآنية ، فالقرآن كتاب دعوة ودين قبل أى شئ آخر، والقصة فيه مسخرة لتحقيق هذا الهدف السامى ، بل هى إحدى وسائل القرآن لتحقيق مبادئ الدعوة والتمكين لتعاليم الدين فى النفوس .

والقصة تأتى متفقة مع موضوع أو موضوعات السورة التى وردت فيها ، ومن ثم تتفق مع السورة فى المقصد الذى تقصد إليه ، فالقصة تدعم موضوع السورة وتؤكد به بل تأتى شاهدة عليه فى أحيان كثيرة ، وهى - بذلك - تمثل جزءاً من النسيج القوى للسورة القرآنية .

والغايات من القرآن الكريم كثيرة متعددة منها :

إثبات صدق الوحي المنزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى - ، وإثبات إعجاز القرآن الكريم ليكون دليلاً صادقاً على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وهناك غايات فرعية أخرى كإثبات قدرة الله - سبحانه - وأن الدين كله من عند الله ، وأن الأنبياء جميعاً جاءوا بالإسلام ، ومنها بيان عاقبة الإيمان والصلاح وعاقبة الكفر والإفساد .

وتتعدد أساليب القرآن الكريم لتحقيق هذه الغايات وتأكيداتها، وتحتل القصة مكاناً بارزاً بين هذه الأساليب القرآنية ، وذلك هو المعنى بالتناسب بين القصص القرآنى وغايات التنزيل ، ويمكن بيان وجوه هذا التناسب على النحو التالى :

من وجوه التناسب: إثبات القصص صدق الوحي المنزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى بعث، وأوحى إليه القرآن، وكان من مقاصده أن يغير عبادة العرب وعاداتهم ، ويهذب ما انحرف من أخلاقهم وطبائعهم ، ولكن أكثرهم أنكروا أن يكون هذا القرآن وحياً من عند الله فلم يؤمنوا به :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً

وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١﴾.

إن الواقع يؤكد أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - لم يكن كاتباً ولا قارئاً ولم يجلس إلى معلم ، فكيف أتى بهذا القصص الذي يحمل أخبار الماضين ؟ لا بد أنه الوحي ؛ ومما يؤكد ذلك هذا القصص الذي يخبر العرب بكثير مما لا يعرفون عن الأمم السابقة ، وبعض هذا القصص جاء بكثير من أخبار أنبياء بنى إسرائيل "كموسى" وداود" وسليمان" - عليهم السلام - وكان أخبار اليهود والنصارى على علم بهذه الأخبار التي وردت في القرآن عن أنبيائهم وإن دخلها كثير من التحريف والتزييف .
وفى كثير من آيات القرآن الكريم نصوص صريحة تؤكد صحة الوحي الذي أوحى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذلك فى افتتاح بعض القصص أو فى التعقيب عليه :

جاء فى التعقيب على قصة مريم :

﴿ ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٢)

وجاء فى التعقيب على قصة نوح :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣)

وجاء فى التمهيد لقصة يوسف :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٤)

وجاء فى التعقيب على القصة نفسها :

﴿ ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (٥)

(١) الفرقان : الآيتان ٤ ، ٥ (٢) آل عمران : الآية ٤٤ .

(٣) هود : الآية ٤٩ . (٤) يوسف : الآية ٣ .

(٥) يوسف : الآية ١٠٢ .

وجاء فى بداية قصة موسى

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

وجاء فى التعقيب عليها :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٤٤)
 وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ
 آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
 لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢)

ومن وجوه التناسب التأكيد على وحدانية الله - سبحانه - وتحقيق هذه الغاية مما
 يتفق فيه القصص مع القرآن الكريم ، بل إن بعض القصص قد يأتى فى السورة القرآنية
 مرتباً على طريقة معينة ليؤكد أن دعوات الرسل السابقين كانت تدعو إلى كلمة التوحيد ،
 وإلى الحرص على تأكيد العقيدة الأساسية وهى الإيمان بالله الواحد ، وفى سورة
 "الأعراف" موكب من مواكب الرسل الذين ردوا على أسماع أقوامهم كلمة التوحيد التى
 جاءوا بها ، وجاء بها محمد - صلى الله عليه وسلم - من بعدهم .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٣)

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٤)

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٥)

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٦)

وتحكى سورة "هود" كلمة التوحيد التى بلغها هؤلاء الرسل أنفسهم وبالألفاظ نفسها ،
 وذلك لأنها جوهر رسالات الأنبياء جميعاً :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٧)

(١) القصص : الآية ٣ .

(٢) القصص : الآيات ٤٤ ، ٤٦ .

(٣) الأعراف : من الآية ٥٩ .

(٤) الأعراف : من الآية ٧٣ .

(٥) الأعراف : من الآية ٢٥ .

(٦) الأعراف : من الآية ٨٥ .

(٧) الأنبياء : الآية ٢٥ .

ووجه تأكيد القصص القرآنى على عقيدة الوجدانية يأتى من أن كفار مكة قد ارتاعوا حين دعاهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى عبادة إله واحد ، وكان موطن العجب فيما زعموا أنه جعل الآلهة إلهاً واحداً :

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجْعَلُ الْإِلَهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّا هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ (١).

ومعنى زعمهم أنه قد أتاهم بعقيدة جديدة عليهم فأراد القرآن أن يؤكد لهم أن الدعوة إلى توحيد الله أمر لا يدعو إلى العجب ، بل المنطقى أن يكون الإله واحداً ، وهذا موكب الرسل يؤكد ذلك .

★★★

ومن وجوه التناسب بيان قدرة الله - تعالى - وذلك فى القصص الذى يحكى بعض مظاهر القدرة الإلهية الخارقة كقوله تعالى :

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ (٢)، وقصة "إبراهيم" - عليه السلام - حين طلب من ربه دليلاً على كيفية البعث فقال :

﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (٣)، وقصته حين ألقى فى النار ولكنه نجا بقدرة الله - سبحانه - وقصة مولد "عيسى بن مريم" - عليهما السلام - وقصة مولد "يحيى". ويستوى فى هذا النوع من القصص ما يتعلق بالأمور الغيبية كإثبات البعث فى طير "إبراهيم" ، وفى قصة الذى بعث بعد موته مائة عام، وما يتعلق بعالم الشهادة كمولد "يحيى" و "عيسى" ونجاة "إبراهيم" من النار .

ومن وجوه التناسب ما جاء فى قصة "آدم" وإبليس لبيان العداوة المتأصلة فى نفس إبليس ، والتي أعلنها القرآن صراحة :

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السُّعِيرِ﴾ (٤)

(١) ص : الآيتان ٤ ، ٥

(٢) البقرة : من الآية ٢٥٩ .

(٣) البقرة : من الآية ٢٦٠ .

(٤) غاطر : الآية ٦ .

إن إبراز هذه العدواة في ثوب قصصى يحكى تجربة واقعية بين "آدم" أبى البشر وإبليس «يكون أوقع فى نفوس بنى آدم وأقوى أثراً وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة فى النفس تدعو إلى الشر، وإسنادها إلى هذا العدو الذى لا يريد بالناس إلا شراً»^(١) ولذلك ركز القرآن كثيراً على بيان هذه العدواة وخاصة فى سورة "الأعراف" التى أسهبت فى بيان المكيدة التى كادها إبليس لآدم، وأسهبت كذلك فى بيان حالة آدم بعد استجابته لغواية إبليس وأكله من الشجرة ، ولذا ختمت القصة بهذا التحذير القوى الذى ينبه أبناء آدم إلى عدم تكرار المعصية التى سبقهم إليها أبوهم :

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢)

ومن وجوه التناسب: التسرية عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ودفع ما قد يتسرب إلى نفسه من ضيق لما يقابله به قومه من تكذيب، وما ناله من أذى وصل إلى حد اتهامه بالسحر والجنون ، ويأتى قصص الأنبياء السابقين ليؤكد له - صلى الله عليه وسلم - أن هؤلاء الأنبياء أو ذواكم أو ذيت ونالهم مثل مانالك من تعريض وسخرية وأنهم صبروا حتى جاءهم نصر الله :

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾^(٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ^(٣)

وليس فى القصص تسرية عن النبى وحده ، فإلى ذلك فيه طمأنة لقلوب أصحابه أيضاً بأن لهم الغلبة على أعدائهم ، وأنهم سيملكون مشارق الأرض ومغاريبها إن هم صبروا كما صبر المؤمنون من قبلهم الذين تحملوا مع أنبيائهم تبعات الرسالات وحملوا أماناتها فى أعناقهم، وتبرز - فى هذا الموقف - قصة المستضعفين من بنى إسرائيل الذين سامهم فرعون أنواع العذاب ، وأذاقهم الخزى ، وأعمل فيهم القتل حتى هتفوا

(١) التصوير الفنى فى القرآن ، ص ١٥٤ .

(٢) الذاريات : الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) الأعراف : الآية ٢٧

بموسى - عليه السلام : ﴿ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ ولكنه طمأنهم : ﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١)

وكانت النتيجة الحاسمة هي ما أخبر به الله - سبحانه:-

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (٢).

إن الفئة المؤمنة بمحمد - صلى الله عليه وسلم - هم العمدة الأساسية للدين الإسلامى بعد نبيهم ، ولذلك استحقوا أن يقص عليهم القرآن أخبار أمثالهم من تابعى الرسل السابقين، فقصة موسى - أيضاً- تبدأ هذه البداية التى يتوجه فيها الخطاب للنبي وللمؤمنين به :

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** (٤) **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** (٥) **وَنُكَفِّرُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ** (٦)

والمستضعفون من أتباع محمد يعلمون تماماً أن هذا الوعد ليس خاصاً ببني إسرائيل وحدهم، وإنما هو عام لكل الصابرين على البلاء وفيهم المؤمنون بمحمد .

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٧)

وإذا كان القرآن يؤكد غلبة الفئة المؤمنة فإنه يؤكد - أيضاً - المعنى الذى يقابل هذه الغلبة وهو اندحار الفئة المكذبة، ولذلك جاء القصص القرأنى بأخبار العذاب الذى

(٢) الأعراف : الآية ١٣٧ .

(٤) غافر : الآية ٥١ .

(١) الأعراف : الآية ١٢٩

(٣) القصص : الآيات ٦ ، ٣

أصاب المكذبين بالأنبياء السابقين، وفي ذلك اطمئنان للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه - أيضاً - كما أن فيه تخويفاً لمشركي مكة وتحذيراً لهم أن ينالهم ما نال المكذبين قبلهم إن لم يؤمنوا ، ففي سورة "القمر" قص القرآن ما كان من تكذيب أقوام بعض الأنبياء ثم توجه إلى المكذبين من قريش بالخطاب :

﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْمَى وَأَمْرٌ ﴾ (١)

وسنة إنزال العذاب بالمكذبين لم تتخلف سوى مرة واحدة مع قوم "يونس" ، ولم يكن تخلفها لعجز عن إنزال العذاب ، ولكن لأن القوم آمنوا بعد كفرهم ، ولذلك استحقوا أن يكشف العذاب عنهم :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ (٢).

والقرآن يريد أن ينبه كفار مكة إلى أن الفرصة مازالت مهياة أمامهم ، فبإمكانهم أن يؤمنوا كما آمن قوم "يونس" فينجوا من العذاب كما نجوا .

★★★

لقد لاحظ علماء القرآن أن هناك اختلافاً في المقاصد بين القرآن المكي والمدني، وذلك لاختلاف الموضوعات المتناولة في كل من القسمين، فالقرآن المكي يتناول العقيدة، وهي مقصده الأسمى؛ العقيدة بما تشتمل عليه من إيمان بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والرسل السابقين ، ويبين ذلك واضحاً في القصص الوارد في السور المكية ، إذ جل قصص الأنبياء بما فيه من دعوة إلى عبادة الله وحده، والتحذير من الشرك وارد في سور مكية ، ويظهر ذلك في سور : الأنعام والأعراف ويونس وهود ويوسف وإبراهيم ومريم والأنبياء والشعراء والنمل والقصص وغيرها .

أما القسم المدني أو السور المدنية فتعالج جانب التشريع الذي لا بد أن ينتظم المجتمع الناشئ الجديد في المدينة المنورة ، فلا بد لهذا المجتمع من قيم يسير على

(٢) يونس : الآية ٩٨ .

(١) القمر : الآيات ٤٣ ، ٤٦ .

هديها ، ولا بد له من قوانين تنظم حركة حياته الاجتماعية والاقتصادية .
 إن تحديد مقاصد بعينها للقرآن المكي وأخرى للقرآن المدني ليس أمراً قاطعاً ،
 ولكنه من قبيل الحكم على الأغلب الأعم من سور كل من القسمين ، وإلا فإن آخر آيات
 القرآن نزولاً بالمدينة ، بل آخر آياته نزولاً على الإطلاق^(١) آية تمس شغاف العقيدة في
 صميمها وهي قوله تعالى :

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
 يُظْلَمُونَ﴾^(٢).

ومن هنا فقد استمر التأصيل للعقيدة في السور المدنية، فالمبادئ الأساسية
 والأصول الكلية واحدة في القرآن كله .

وتتجلى خصيصة التناسب بين القصص القرآني وغايات التزليل تجلياً واضحاً في
 سور كل من القسمين المكي والمدني ، فالتوافق كامل بين السورة - مكية أو مدنية -
 والقصص الوارد فيها بحيث تشكل السورة وحدة متكاملة وذلك واضح لمن يتأمل سور
 القرآن الكريم .

ومن السور المكية التي تتضح فيها خصيصة التناسب:سورة الشعراء .
 نزلت هذه السورة في وقت احتدمت فيه معركة المعجزات التي أثارها مشركو مكة،
 وكان لهذه المعركة أثرها في نفس النبي - صلى الله عليه وسلم - فالقرآن قصص على
 أسماع المشركين كثيراً من المعجزات وخوارق العادات التي أيد الله بها أنبياءه ورسله
 فطالب المشركون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يأتيهم ببعض المعجزات
 وعلقوا إيمانهم على ذلك :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ
 اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

وبلغت معركة المعجزات مداها حتى عانى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من
 إعنات المشركين له عناء شديداً ، وتمنى لو آمنوا حتى تسير الدعوة في سبيلها آمنة

(١) الإتيان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ط عالم المعرفة : ١/ ٣٥ / ٣٦ دون تاريخ .

(٢) البقرة : الآية ٢٨١ . (٣) الأنعام : الآية ١٠٩ .

مطمئنة ، ولكن الله - سبحانه - يعلم أن المعجزة ليست هي الفيصل في إيمان قريش ؛ فكم من آية خارقة طالب بها أقوام الرسل السابقين فلما نزلت أعرضوا عنها وكفروا بها ، فذاقوا وبال أمرهم ، ولذلك يقطع القرآن على هؤلاء المشركين كل سبيل في هذا المجال ، بل يقطع على رسول الله أمانه في إيمان هؤلاء القوم عن طريق المعجزات فيخاطبه بقوله :

﴿وَإِنْ كَانَ كَبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (١).

وقد نزلت سورة "الشعراء" لتعالج موضوع العقيدة (٢) بكل ما يتصل به من توحيد الله ، وبعث ، ووحى ، ووحدرة الرسالة ، والتخويف من عاقبة التكذيب ، إلا أن موضوع الآيات والمعجزات هو موضوعها الرئيس .

تبدأ السورة بمقدمة تلخص موضوعها تلخيصاً وافياً ، وهو موضوع المعجزات الحية ، وخوارق العادات ، وأنه غير مجد في إيمان المشركين ، وهذه المقدمة تهى الجو للقصص ، وتوجه القلوب إلى العظة والعبرة المطلوبة من هذا القصص . وفى هذه المقدمة بعض الحقائق هي :

(١) إذا كان المشركون يطالبون بمعجزة فإنهم غافلون عن أكبر معجزة تصافح أسماعهم صباحاً ومساءً وهي القرآن الكريم ، وهذه البداية بالأحرف المقطعة تلفت إلى إعجاز القرآن الماثل بين أيديهم ، فهو مؤلف من جنس الحروف التي يؤلفون بها كلامهم ، ومع ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بشئ من مثله وهم أئمة البلاغة وأرباب الفصاحة .

﴿طَسَمَ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (٢)

(٢) ثم يأتى بعد ذلك ما يشبه العتاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي يهمله أمر المشركين ويؤرقه إعراضهم عنه وتكذيبهم بالقرآن ، ولو شاء الله لقسرهم على

(١) الأنعام : الآية ٢٥ .

(٢) انظر : فى ظلال القرآن ، ص ٢٥٨٣ . و : منهج القصص القرآنية ، محمد شديد ، ط شركة مكتبات عكاظ ، السعودية ، الطبعة الأولى ، ص ٦٥ .

(٣) الشعراء : الآيتان ١ ، ٢ .

الإيمان قسرا ، فالآيات عند الله ، وهو قادر على إنزالها وإخضاع أعناقهم لها فلا يستطيعون فكاكاً ، ولكنه يريد قلوباً تخضع لا أعناقاً تخضع :
﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ إِنَّ نَّشَأَ نُنَزِّلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿١﴾

(٣) ثم تلت مقدمة السورة إلى موقف هؤلاء المشركين من معجزة القرآن، وهو موقف الإعراض والتكذيب، وأنه كلما جدد لهم القرآن موعظة وتذكيراً جددواهم إعراضاً واستهزاءً وسخرية، حتى أوشك العذاب أن ينزل بهم .
﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥)﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢﴾ .

(٤) إذا كان المشركون جادين في طلب المعجزة ليؤمنوا فحسبهم آيات الله في الأرض
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٣﴾﴾
وفي ختام مقدمة السورة تأتي هذه اللازمة :

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨)﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤﴾
وقد تكررت هذه اللازمة بعد كل قصة من القصص الوارد في السورة، وهو تكرار يؤكد أن هؤلاء المشركين الذين لا يعتبرون بكل هذه الآيات التي تعرضها السورة لن تجدى معهم المعجزات الحسية لأنهم جبلوا على الإعراض والتكذيب .
وبعد هذه المقدمة تأتي مجموعة من القصص تستغرق معظم السورة ، ويغلب على هذه القصص موضوع المعجزات ، وتعرضها السورة على النحو التالي :

أولاً : قصة موسى فيها ذكر لمعجزة العصا واليد :
﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢)﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٥﴾ .
وفيها إيمان السحرة وهو إيمان فيه ما يشبه المعجزة ؛ إذ إن التحول في العقيدة من الكفر إلى الإيمان المطلق على هذا النحو أمر غير مألوف في الإنسان الذي دأب

(١) الشعراء : الأيتان ٢ ، ٤ . (٢) الشعراء : الأيتان ٥ ، ٦ .

(٣) الشعراء : الآية ٧ . (٤) الشعراء : الأيتان ٨ ، ٩ .

(٥) الشعراء : الأيتان ٣٢ ، ٣٣ .

على أعمال عقله وفكره قبل أن يتحول مثل هذه التحولات الكبرى ، وخاصة إذا كانت متصلة بالعقيدة التي يعتقدها ، وفيها معجزة انشقاق البحر ونجاة موسى وبنى إسرائيل ، وهلاك فرعون وجنوده .

ثانياً : قصة إبراهيم قد خلت من ذكر المعجزات الحسية ، ولكنها استعاضت عن ذلك ببعض الأمور :

(أ) الهجوم على الوثنية والبراءة من قومه الوثنيين الذين يعبدون أصناماً لا تسمع، بل لا تنفع ولا تضر .

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧٦) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٧) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ (١).

وكأنه بهذا الهجوم يخاطب مشركى مكة الذين يزعمون أنهم على دينه ، وهم فى الحقيقة يعبدون الأمور الخارقة ، كما كان قومه يعبدون الأصنام .

(ب) يفيض إبراهيم فى بيان صلته بربه ، وكأنما يلقي المؤمنين درساً فى حقيقة الإيمان بالله والصلة به، وكأنه يؤكد شطط طالبي المعجزات الذين أعرضوا عن مظاهر قدرة الله وآياته التى تعمهم أنفسهم :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ (٢).

(ج) القفز إلى مشهد القيامة :

﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣).

(١) الشعراء : الآيات ٧٦ ، ٧٣ .

(٢) الشعراء : الآيات ٧٧ ، ٨١ .

(٣) الشعراء : الآيات ٨٧ ، ٩٨ .

وهو مشهد يصور نتيجة الصراع وخاتمة المطاف بحيث يعد بديلاً عن مصارع المكذبين في الدنيا في بقية قصص السورة .

ثالثاً : تأتي قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وهي تخلص من المعجزات الحسية باستثناء ناقة صالح التي لم يتعظ بها قومه فعقروها ، وفي هذه القصص ما يؤكد للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن المعجزات ليست دافعاً إلى الإيمان دائماً .
وهناك اتفاق بين دعوات هؤلاء الرسل في أمرين :

أولهما : بدأت القصص كلها بالإفصاح عن تكذيب هؤلاء الرسل من قومهم :

(كذبت قوم نوح المرسلين . كذبت عاد المرسلين . كذبت ثمود المرسلين) .. الخ

ثانيهما : أن كل رسول دعا قومه بمثل ما دعا به غيره من الرسل :

(إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون) .. الخ ، وهذا التماثل بين دعوات الرسل ، والتماثل بين إجابة الأقوام يوحى بأن هذه القصص كأنها قصة واحدة ، واحدة في مضمونها ، واحدة في نتائجها وهي التكذيب ، ويبرز هذه الوحدة التعبير الذي تبدأ به كل قصة (كذبت ،،، المرسلين) ، والواقع أن كل أمة كذبت رسولها فقط ، ولكن لأن السورة تريد أن تبرز وحدة الرسالة ووحدة الرسل ، ووحدة الدعوة ، ووحدة المصير جاء التعبير على هذا النسق الذي يعبر عن المراد أحسن تعبير . وإذا كانت دعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - امتداداً لدعوة هؤلاء الرسل فإن في هذه القصص إحياء بأن تكذيب مشركي مكة إنما كان لأمر آخر غير المعجزات وخوارق الأمور .

وبعد سرد هذا القصص تعقب السورة ببيان معجزة محمد - صلى الله عليه وسلم - الكبرى وهي القرآن الكريم ، ويستغرق التعقيب معظم ما بقى من السورة ليرد على ما يثيره المشركون حول القرآن من شبهات رغم أنه نزل على واحد منهم يعرفونه جيداً ونزل باللغة العربية التي يعرفونها ويتحدثون بها :

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (١).

ومن التناسب المعجب: ما جاء في سورة الكهف من قصص يتناسب مع مطلع

(١) الشعراء : الآيات ١٩٢ ، ١٩٥ .

السورة وختامها ، والسورة لها محور موضوعي تدور حوله وتؤكدده ، وهو يتمثل في تصحيح العقيدة وتأكيد قدرة الله على البعث والحساب .

وهي تبدأ بالحديث عن يوم القيامة وما أعد الله فيه من بأس شديد للكافرين ، وأجر حسن للذين يعملون الصالحات :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ (١) قِيمًا لِنُذِرَ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا ۖ ﴾ (١).

وختمت السورة بالتأكيد على كثير من أمور العقيدة ، فأكدت صحة الوحي الذي أوحى إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وأن الله إله واحد ، وأنه قادر على البعث ، وحذرت من الشرك :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۖ ﴾ (١١٠) ﴿ (٢).

وهكذا يتلاقى أول السورة وآخرها : أولها يتحدث عن الآخرة بطريق التقرير لها ، وبيان مهمة القرآن في إثبات ما يكون فيها من الجزاء إنذاراً وتبشيراً ، وآخرها يتحدث عن هذه الحقيقة التي تقررت ويحاكم إليها الناس في الإيمان والعمل الصالح .

ونلاحظ أن آيات البدء قد ذكر فيها أمر الذين قالوا اتخذ الله ولداً من إنذارهم وبيان كذبهم وتخليطهم وجهلهم على الله ، وذلك هو قول الذين يشركون بالله ويعتقدون ما ينافي وحدانيته وتنزيهه ، وأن آية الختام قررت (إنما إلهكم إله واحد) وأن على من يؤمن به ويرجو لقاءه ألا يشرك به أحداً ، فتطابق الأول والآخر في إثبات وحدانية الله - جل وعلا - كما تطابقا في أمر البعث والجزاء في الدار الآخرة (٣) وما بين

مطلع السورة وختامها جاء عدد من القصص الذي ذكر فيه أمر البعث عدة مرات :

أولاً : جاء في مقدمة قصة أصحاب الكهف التي سبقت دليلاً على قدرة الله ، وتنظيراً لما

(١) الكهف : الآيات ١ : ٢ .

(٢) الكهف : الآية ١١ .

(٣) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم ، د. عبد الله محمود شحاتة ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦ م : ١ / ٢٠٨ .

ينكره الكافرون من أمر البعث والنشور :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (١).

وجاء فى أثناء القصة :

﴿ وَكَذَلِكَ أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ (٢).

ثانياً : وجاء أمر البعث فى المثل الذى ضرب لصاحب الجنتين وصاحبه، وقد أنكر صاحب الجنتين قدرة الله ، وشك فى الساعة ، وقد نصحه صاحبه وحذره أن يحيل الله الجنتين صعيداً ذليلاً فلما لم ينتصح وحدث ما حذر منه صاحبه قال :

﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (٣)

ثالثاً : وفى قصة موسى والعبد الصالح كثير من المعانى الدقيقة ، إذ يجرى الحديث فيها على نحو يحس معه القارئ والسامع أن علم الله - سبحانه - يفوق علم البشر جميعاً ، وأن تصرفه للكون يجرى على « سنن منها ما هو معروف وما هو خفى ، « فإذا آمن الناس بهذا واطمأنوا إليه لم يعد هناك مجال للعجب من أمر الساعة ، فماهى إلا تغيير يحدثه خالق الكون ومالك ناصيته ، فإذا السنن المعروفة تحل محلها سنن أخرى ، ومن قدر على إنشاء السنن قدر على تغييرها ، وبهذا يؤمن كل عاقل بصدق ما أخبر به المعصوم من كل أمر يبدو أمام العقول عجيباً وهو فى قدرة الله غير عجيب » . (٤)

رابعاً : جاء فى ختام قصة "ذى القرنين" حديث عن البعث - أيضاً - وأنه وعد الله الحق الذى لا يتخلف، كما جاء فيه الحديث عن النفخ فى الصور ، وعرض جهنم للكافرين عرضاً ، وأنهم يبصرون وكانت أعينهم فى غطاء ، ويسمعون وكانوا من قبل لا يستطيعون سماعاً .

وبذلك يتضح اتصال هذا القصص بموضوعات السورة اتصالاً وثيقاً ، وتتضح مناسبتها لمراميها وغاياتها، ونهوضه لتأكيد هذه المرامى والغايات فى وحدة موضوعية

(١) الكهف : الآية ٩ .

(٢) الكهف : من الآية ٢١ .

(٣) الكهف : من الآية ٤٢ .

(٤) أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم : ١ / ٢١١ .

وفكرية لاتشذ في أية جزئية من جزئياتها على مدى السورة كلها، مع ملاحظة أن القصص استغرق ما يقرب من ثلثي السورة ، وأما ما تبقى منها فهو تمهيد للقصص أو تعقيب عليه .

وتظهر خصيصة التناسب بين القصص القرآني وغايات التنزيل في السور المدنية أيضاً، ومن ذلك هذا الخبر الوارد عن إبراهيم - عليه السلام - في سورة الممتحنة .
تهتم هذه السورة بتنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أهل الديانات الأخرى ، وخاصة كفار مكة الذين كان بينهم وبين بعض المهاجرين أوأصر قريبي ورحم انقطعت بسبب الهجرة إلى المدينة ،، وكان أحد المهاجرين - وهو حاطب بن أبى بلتعة - قد غلبه خوفه على أهله وماله بمكة ، فأفشى إلى قريش سر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكتب إليهم أنه جهز جيشاً لفتح مكة بعد أن نقضت قريش صلح الحديبية ، وأراد حاطب أن تكون له عند قريش يد يدفع الله بها عن أهله ، فأخبر الله نبيه بتدبير هذا الصحابي ، وأبطله الله تعالى،^(١) فنزل قول الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٢)

فالقضية هنا تلخص في أن العقيدة الإيمانية هي الفيصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم ، وأن من كان خارجاً عن العقيدة فلا يصح أن يكون ولياً لأحد من المسلمين ، لأنه عدو الله وعدو المسلمين في آن واحد .

وإذا كان الرجل المهاجري قد اتخذ من وجود أهله في مكة ستاراً لمودته قريشاً وسبباً لوصلهم فإن السورة تبين له خطأه، لأن قضية الأرحام والأولاد التي تهفون إليها أيها المهاجرون وتضطركم إلى موادة أعداء الله وأعدائكم وقاية لها، هذه القضية ليست

(١) لتفصيل هذه الحادثة ينظر : أسباب النزول للنيسابوري ص ٣١٣، الكشاف للزمخشري : ٥١١/٤ ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، للحافظ أحمد بن علي حجر العسقلاني ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، وآخرين ، ط دار الريان للتراث، الطبعة الأولى ١٩٨٦م : ٥٩٢ / ٧ .

(٢) سورة الممتحنة : الآية ١ .

داخله في إطار العلاقة بينكم وبين الكفار : ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١)

وبعد ذلك يأتي الخبر الوارد عن "إبراهيم" - عليه السلام - ويحكى علاقته بأبيه الذي لم يكن مسلماً ، وهو موقف المسلم الذي يتبرأ من المشركين ولو كانوا أقرب الناس إليه ، ولو كانوا آباءه ، بل إن السياق القرآني يجعل هذا الموقف عاماً ، إذ يجعله موقفاً جماعياً من إبراهيم والمؤمنين به جميعاً تجاه قومهم ، فالقرآن إنما قص هذا الخبر عن إبراهيم مع أبيه ليبين للرجل المهاجري ، ويبين لمن تجيش في نفوسهم الخواطر تجاه أرحامهم ، وأولادهم في مكة : أن لهم جميعاً أسوة حسنة في أبيهم إبراهيم ، ليست في عقيدته فحسب ، ولكن في تجاربه التي عاناها أيضاً ، فيشعرون أن لهم رصيذاً من التجارب أكبر من رصيدهم الشخصي وأكبر من رصيد جيلهم الذي يعيشون فيه ، لقد مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانها المسلمون المهاجرون اليوم فكان فيهم الأسوة الحسنة . (٢)

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنِينَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَارْحَمْنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)﴾ (٣)

ومن التناسب أيضاً موقع الخبر عن "موسى" و"عيسى" - عليهما السلام - في سورة "الصف" التي تحدثت عن أمرين واضحين :
أولهما : عتاب الله للمؤمنين الذين تخاذلوا عن نصره رسول الله - صلى الله عليه

(١) سورة الممتحنة : الآية ٣ .

(٢) في ظلال القرآن : ٢٥٤٢ / ٦ .

(٣) سورة الممتحنة : الآيتان ٤ ، ٥ .

وسلم - يوم أحد : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (١)

وقد تأذى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من سلوك بعض أصحابه يوم فروا عنه فنزل القرآن الكريم يعاتبهم على سلوكهم .

ثانيهما : الدعوة إلى الجهاد والثبات في القتال في سبيل الله ، وبعد ذلك يأتي الخبر الوارد عن موسى عليه السلام :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢)

ونلاحظ على هذا الخبر أنه جاء قصيراً جداً ، وأنه اختار من حياة موسى -الحافلة بالأحداث - لقطة واحدة ، ولكنها معبرة ومناسبة للموقف الذي تعالجه السورة ، فإيذاء بعض المسلمين لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بفرارهم عنه يكاد يشبه إيذاء بني إسرائيل لموسى - عليه السلام - وتخليهم عنه في كثير من المواقف ، ويحذر القرآن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أن يصيبهم مثل ما أصاب بني إسرائيل الذين زاغوا بعد ما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة فأزاغ الله قلوبهم ، وزادهم زيغاً على زيغ ، فكأن الأسلوب القرآني يريد أن ينبه المسلمين إلى أنهم قد يكونون خطراً على الرسالة إذا سلكوا مثل مسلك بني إسرائيل مع نبيهم موسى .

ثم يأتي الخبر عن عيسى بن مريم - عليه السلام :

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٣)

(١) سورة الصف : الأيتان ٢، ٢ وانظر : أسباب النزول ، للنيسابوري ، ص ٢١٦ ، وتفسير القرطبي : لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ، ط دار الريان للتراث ، ج ٩ ص ٦٥٥٦ .

(٢) سورة الصف : الآية ٥ .

(٣) سورة الصف : الآية ٦ .

ولا تخفى هاتان الإشارتان اللافتتان في كلام عيسى بن مريم - عليهما السلام :
أولهما : أنه جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة .

ثانيتهما : أنه جاء مبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد .

فالإشارة الأولى تلفت إلى أن بني إسرائيل - الذين ضرب بهم المثل للمسلمين -
قد ضيعوا معالم رسالة نبيهم موسى، وأنهم استمروا في إيذائه بعد موته بتحريف جوهر
رسالته ، ولذا جاء عيسى بن مريم إليهم وبعث فيهم هم أنفسهم حتى إنه ليناديهم
﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

والإشارة الثانية تلفت إلى صدق النبي الذي بين أظهركم أيها العرب ، وأنكم
تعرفون أن رسالته خاتمة الرسالات ، فلم الفرار عنه والتخلي عن نصرته دعوته ١٩ .
وقد جاء في آخر السورة حديث الجهاد متصلاً بحديث عيسى - عليه السلام - مع
الحواريين ، ولهذا جاءت طريقة الإخبار به في صورة أمر صريح إلى التأسي بهم موجهها
إلى المؤمنين أتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ
أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (١٤) ﴿ (١)

فالعبرة المستفادة إذن هي استنهاض همم المؤمنين بالدين الأخير (٢)

ومن التناسب في القرآن المدني أيضاً ما جاء في صدر سورة "التحریم" عن
تظاهر بعض أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - عليه ، واتفاقه مع ما جاء في نهاية
السورة من المثل المضروب لنساء كافرات في بيوت أنبياء، والمثل المضروب لنساء
مؤمنات في بيوت كفار عتاة .

أما الخبر في صدر السورة فتحكيه عائشة - رضى الله عنها - إذ قالت :
"كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش
ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ؟ إنى

(١) سورة الصف : الآية ١٤ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن : ٢٥٦١/٦ ، وبدائع الإضممار القصص في القرآن الكريم، ص ٣٦ ، ٣٧ .

أجد منك ربح مغافير ، قال : لا ، ولكنى كنت أشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت ، لا تخبرى بذلك أحداً" (١)

ويروى أيضاً عن "عمر بن الخطاب" قال : دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأم ولده مارية ؟ فى بيت حفصة ، فوجدته معها ، فقالت : لم تدخلها بيتى ؟ ما صنعت بى هذا من بين نسائك إلا من هوانى عليك ، فقال لها : "لا تذكرى هذا لعائشة ، هى على حرام إن قريبتها ، قالت حفصة : وكيف تحرم عليك وهى جاريتك ؟ فحلف لها لا يقربها ، وقال لها : لا تذكرىه لأحد فذكرته لعائشة ، فأبى أن يدخل على نسائه شهراً واعتزلهن تسعاً وعشرين ليلة ، فأنزل الله تعالى " (٢) .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
(١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) .

وفى بيان سبب النزول توضيح كاف لمعانى الآيات ، غير أن المعنى من ذلك كله هو سلوك حفصة زوج النبى - صلى الله عليه وسلم - وكان الأجدر بها أن تحفظ سره وتكتمه عليه ، لا أن تسارع إلى إفشائه وإذاعته بين أزواج النبى ، حتى أدى ذلك إلى غضبه عليهما وحلقة ألا يقربهن .

ويأتى ختام السورة متساوياً مع أولها ، فيضرب القرآن الكريم المثل للأمهات المؤمنات ببعض نساء الأنبياء السابقين ، اللاتى تظاهرن على أزواجهن ، وحيانتهم فى دعواتهم ، وأن هذه الخيانة عداوة للمؤمنين ، وأن لحمة النسب ، وصلة الصهر لن تنفع هؤلاء النساء الخائنات ، لأن هذه الخيانة والعداوة والكفر قطع للعلائق ، وبث للوصل ، ولو كن نساء أنبياء ، فامرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من صلة الزواج إغناء مامن عذاب الله .

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى . ٥٢٤/٨ ، تفسير القرطبي : ١٠ / ٦٦٥٦ .

(٢) أسباب النزول ، ص ٣١٩ .

(٣) سورة التحريم : الآيات ١ ، ٢ .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَاتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ (١) .

وخيانة هاتين المرأتين كانت «خيانة في الدعوة» ، ولم تكن خيانة الفاحشة ، كانت امرأة نوح تسخر منه مع الساكسين من قومه ، وكانت امرأة لوط تدل القوم على ضيوفه وهي تعلم شأنهم مع ضيوفه «(٢)» .

ثم يضرب الله مثلاً آخر لأمهات المؤمنين فيمثل لهن حال المؤمنين - وأن صلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله - بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى ، مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العظمى ، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومها كانوا كفاراً :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْأَعْقَابِ (١٢) ﴾ (٣) .

وفي طي هذين التمثيلين "تعريض بأمر المؤمنين المذكورتين في أول السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما كرهه وأغضبه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه ، لما في التمثيل من ذكر الكفر ، وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثلي هاتين المؤمنتين ، وألا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين، والتعريض بحفصة أرجح، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على

(١) سورة التحريم : الآية ١٠ .

(٢) في ظلال القرآن : ٦ / ٣٦٢١ .

(٣) سورة التحريم : الآيتان ١١ ، ١٢ .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن أسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء جداً يدق عن تفتن العالم ويزل عن تبصره" (١) .

وهكذا تتضح خصيصة التناسب بين القصص القرآني وغايات التنزيل في القرآن بقسميه - المكي والمدني - وأن القصة تمثل جزءاً أصلياً من نسيج القرآن المحكم ، تأتي في مكانها المقدر لها وتؤدي الغرض المراد منها على أكمل وجه وبأوضح بيان ، وهو نفسه الغرض المراد من القرآن الكريم ، عقيدة وخلقاً أو عبادة وتشريعاً ، أو غير ذلك من الغايات التي تتصل بالعقيدة والتشريع .

(١) الكشف : ٤ / ٥٧١ .

ب

من أسرار

انتقاء الأحداث في القصة القرآنية

يتصل بخصيصة التناسب السابقة خصيصة أخرى واضحة في القصص القرآني وهي خصيصة الانتقاء في أحداث القصة، وكلتا الخصيصتين - التناسب والانتقاء - مردهما إلى علة واحدة هي علة خضوع القصة القرآنية للغرض الديني^(١)، فالقرآن كتاب دعوة لا كتاب تاريخ حتى تأتي القصة فيه جملة واحدة في مكان واحد، بحيث تستخلص منها حوادث التاريخ مرتبة حسب وقوعها، ولكن للقصة هدفاً آخر غير الفن والتاريخ، وإن تحقيق هذا الهدف يقتضى عدم الاستغراق في القصة بما يزيد عن الحاجة، وأن يركز من أحداثها على ما جئ بها شاهداً عليه ولأجله^(٢)، ولذلك تكرر كثير من القصص في مواضع متعددة من القرآن الكريم كقصة سيدنا موسى، وقصة إبراهيم، وقصة بدء الخلق، وقصة نوح وقصص هود وصالح وشعيب، وغيرها من القصص، وهناك قصص لم يذكر إلا مرة واحدة كالقصص الوارد في سورة الكهف : قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين وصاحبه، وقصة موسى مع العبد الصالح، وقصة ذي القرنين^(٣)، ومنه قصة قارون^(٤).

وخصيصة الانتقاء في الأحداث وذكر ما يناسب السياق ظاهرة في معظم القصص القرآني، ما جاء مكرراً وما ورد مرة واحدة فقط، وإن كانت علة الانتقاء أوضح في القصص المكرر منها في القصص غير المكرر.

وفي الحديث الخاص بالتناسب يظهر سر الانتقاء في الحدث القصصي، وذكر ما يوافقه السياق، في الخبر الوارد عن إبراهيم - عليه السلام - وعلاقته بأبيه في سورة الممتحنة، كذا تظهر علة الانتقاء في سورة التحريم وحديثها عن امرأة نوح وامرأة لوط وخيانتهم لهذين النبيين، وكيف جاء هذا الحديث متفقاً مع مطلع السورة التي تتحدث عن علاقة بعض أزواج النبي ﷺ به، ويضاف إلى هذين الموضعين اللذين تظهر فيها علة الانتقاء مواضع أخرى منها :

(١) التصوير الفني في القرآن ، ص ٨٥٥ .

(٢) بدائع الإضممار القصصي في القرآن الكريم ، ص ٤١ .

(٣) استغرق هذا القصص معظم سورة الكهف.

(٤) القصص الآيات : ٧٦ : ٨٢ .

ماورد من أحداث في قصة آدم - عليه السلام :-

إن حياة آدم-عليه السلام - حافلة بكثير من الأحداث، بوصفها حياة عريضة ممتدة، وإن كان الله - سبحانه وتعالى - لم يحدد مدة حياته على هذه الأرض، وكيف تفاعل مع الموجودات فيها بعد أن أهبط إليها وترك حياة الترف والنعيم والراحة التي عاشها في الجنة التي أسكنها بعد خلقه؛ فما بال القرآن يقتصر من هذه الحياة على جانب يعد ضئيلاً إذا ما قورن بما بقى من حياة آدم وأحداثها؟.

إن القرآن لم يذكر مما يتصل بحياة آدم إلا أمر خلقه، ونفخ الروح فيه، وتعليم الله له الأسماء كلها، وأمره - سبحانه - الملائكة بالسجود له، وامتنالهم لهذا الأمر، وامتناع إبليس عن السجود بدعوى أنه أفضل من آدم، إذ خلق من نار وخلق آدم من طين، ثم يذكر القرآن الأمر الصادر لآدم بسكنى الجنة، وإباحة كل ما فيها له إلا شجرة واحدة نهى عن الأكل منها، ووسوسة إبليس له بالأكل من هذه الشجرة، واستجابته لهذه الوسوسة، وخروجه من الجنة، وإهباطه إلى الأرض وتختم القصة باستغفار آدم، وتوبة الله عليه، والإفصاح عن العداوة المتأصلة بينه وبين إبليس.

هذا هو مجمل ما ذكر من قصة آدم في القرآن، فلماذا اقتصر على ذكر هذه الأحداث دون أن يذكر شيئاً مما حدث له بعد إهباطه إلى الأرض؟.

إن القرآن الكريم لا يعنى بتسجيل الأحداث إلا إذا كانت ذات أهمية بالغة في الدلالة على قضية من القضايا التي يطرحها ويناقشها، أما ما وراء ذلك من الأحداث التي تنعدم أهميتها أو تقل فلا شأن للقرآن بها؛ فخلق آدم على هذه الكيفية التي ذكرتها القصة ليس هناك أبلغ منها في الدلالة على قدرة الله - سبحانه - كذلك أراد الله أن يظهر مدى تكريمه للإنسان فنسب فعل الخلق إلى نفسه فقال :

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ (٧١)﴾ (١)

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨)﴾ (٢)

واستمراراً لمظاهر التكريم أمر الله ملائكته بالسجود لهذا المخلوق الذي

(١) سورة ص الآية : ٧١ .

(٢) سورة الحجر : الآيتان : ٢٨ .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢٩) ﴿ (١)

وهذا التكريم ينسحب على أولاد آدم بتكريم الله لأبيهم، وهو ليس تكريماً خاصاً بجانبى الجسم والروح فقط، وإنما هناك الجانب الفكرى والعقلى الذى منحه الله لآدم حين علمه الأسماء كلها ففضل به على الملائكة (٢).

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴿ (٣)

وهناك قضية أخرى تثيرها القصة، وهى خلافة الإنسان فى الأرض، وما تميز به هذا الإنسان من مميزات وخصائص تجعله مهياً لهذا الاستخلاف، وما فيه من غرائز تهيأت له تجذبه إلى الجانب الطينى فيه، أو تسموا به سمو الرح، وإذا كانت هذه طبيعة آدم فليس من الغريب أن ينسى عهد الله إليه ويستجيب لنداء عدوه إبليس الذى أغراه بالاكل من الشجرة مستغلاً إحدى هذه الغرائز التى أودعت فيه، وهى غريزة حب البقاء والرغبة فى الخلد :

﴿ ... وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (٢٠) ﴿ (٣)

هياً الله آدم وبنيه للخلافة فى الأرض وزوده بكثير من الاستعدادات الفطرية التى تساعد على استقامة الحياة بعد ذلك، "ولعل أهم هذه الاستعدادات هو ما طبع عليه الإنسان من التدين الذى يضبط الغرائز فلا يجور بعضها على بعض ولا يلغى بعضها بعضاً، وهذا ضرورى فى مواجهة العدو اللدود الذى يجابهه الإنسان فى حياته وهو إبليس" (٤) فليس من العجيب أن يلجأ آدم وبنوه من بعده إلى الله - سبحانه - إذا ارتكب أحدهم مخالفة من المخالفات :

(١) سورة الحجر : الآية : ٢٩ .

(٢) البقرة : الآيات : ٣١ : ٢٢ .

(٣) الأعراف : من الآية ٢٠ .

(٤) القصص القرآنى إبحاره ونفحاته، د. فضل حسن عباس، ط دار الفرقان ، عمان ، الطبعة الثانية ١٩٩٢، ص ٦٠.

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢٣) ﴿١﴾

هذه بعض معطيات قصة آدم ، وهى غاية ما يود الإنسان معرفته فى رحلته على وجه الأرض، وهى رحلة شاقة إن لم يلتزم فيها بهذه المعطيات ويتفاعل مع الوجود من خلالها ويعرفها معرفة يقينية تيسر عليه أمر وجوده واستخلافه.

إن إدراك الإنسان هذه المعطيات يؤدى به إلى عدم الزيف عن منهج الله الذى يحكم حياة الإنسان المخلوق، لأن الزيف عن المنهج هو - فى الحقيقة - رفض للتكريم الذى تفضل به الخالق على الإنسان، وانحطاط عن مستوى الإنسانية إلى درك الحيوانية:

﴿ ... وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (٢) ﴿٢﴾

والزيف عن المنهج - أيضاً - تعطيل لعملية الاستخلاف فى الأرض، وإهدار لمقومات الإنسان التى تهيأت له فى هذه العملية، وتدبير لتلك الاستعدادات التى زود بها، وتقوية لغرائزه الشريرة على غرائزه الخيرة، وذلك كله إفساد للعملية من بدايتها، فتصبح حياة الإنسان بلا معنى ولا هدف، ويصبح وجوده كلا وجود.

إن الغرض الدينى هو الذى وقف بأحداث قصة آدم عند هذا الحد فلم تزد عليه، وماذا يريد الإنسان أن يعرف من القصة أكثر مما عرف؟ إن الزيادة على ذلك مما لا يفيد الإنسان إذا عرف أن آدم اشتغل بالزراعة أو بالصناعة أو بالتجارة بعد أن أهبط إلى الأرض؟ إن الواقع يؤكد أن الإنسان اهتدى إلى مقومات حياته، وعرف كيف يحافظ على هذه المقومات، وكيف ينمىها ويطورها بما يتلاءم مع متطلبات حياته وبما يستحب إلى رغباته واحتياجاته فيها.

وذلك مثل لاختيار أحداث القصة القرآنية، وهناك أمثلة أخرى منها :

ذكر القرآن الكريم قصة نبي الله سليمان - عليه السلام - فى أربع سور (٣)، وتركز هذه السور على تكريم الله لسليمان، وما وهبه من الملك الذى لا ينبغي لأحد من بعده، وما منحه الله من النعم كنعمة تسخير الريح له تنقله من مكان إلى مكان، ونعمة تسخير الشياطين يعملون له ما يشاء من الأبنية العظيمة والتماثيل والجفان والقصور الكبيرة، كذلك

(١) الاعراف : الآية ٢٣ .

(٢) محمد : من الآية ١٢ .

(٣) هى بترتيب النزول : سورة ص : الآيات ٣٠ : ٤٠ ، النمل : ١٥ : ٤٤ ، سبأ : ١٢ : ١٤ ، الأنبياء : ٧٨ : ٨٢

نعمة الفهم لمسائل القضاء، وفهمه لغة الطير والحيوان والحشرات، وتفصل سورة "النمل" ما كان بينه وبين ملكة سبأ وكيف خضعت له وأسلمت معه لله رب العالمين.

هذا مجمل ما جاء من قصة سليمان - عليه السلام - في القرآن الكريم وقد انفردت سورة سبأ بالحديث عن موته بهذه الكيفية العجيبة :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ (١)

فلماذا اختار القرآن حدث موت نبي الله سليمان - عليه السلام - ليقصه في سورة "سبأ" دون غيرها من السور الثلاث الأخرى؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تستدعي النظر المتأمل في السور الأربع التي وردت القصة فيها، وأولها سورة "ص" التي بدأت بالحديث عن الكفار الذين اتهموا الرسول ﷺ بالسحر والكذب، وعجبوا لأنه يدعو إلى عبادة إله واحد، ثم انتقلت السورة إلى ذكر أقوام كذبوا رسلهم، وأن المكذبين بمحمد ﷺ ليسوا بدعاً بين هؤلاء المكذبين، ثم يأتي هذا الأمر الإلهي لمحمد ﷺ أن يصبر كما صبر داود فأسبغ الله عليه النعم وأجزل له العطاء:

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) ﴾ (٢)

ثم تعدد بعض نعم الله على داود، وآخرها غفران الله له مخالفة ارتكبتها، لم تذكرها القصة وتزيد فيها المفسرون كثيراً، وبعد تعقيب قصير على قصة داود تنتقل السورة إلى قصة سليمان وتعدد بعض نعم الله عليه، ومنها الملك العريض، وتسخير الريح والشياطين له، وتختتم القصة بهذه الآية التي تشير إلى عطاء الله له :

﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) ﴾ (٣)

فسورة "ص" في جانب كبير منها تمثل العطاء الإلهي للأنبياء والرسل ومنهم داود وسليمان، وأبرز العطاء فيها هو الرحمة أو الغفران الذي من الله به على كل منهما،

(١) سبأ : الآية ١٤ .

(٢) ص : الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

(٣) ص : الآية ٣٩ .

والحديث عن العطاء والرحمة لا يناسبه الحديث عن سلب نعمة الحياة في ظل هذا العطاء المتدفق والنعم الغامرة، فلذلك لم يرد ذكر الموت في هذه السورة. ويتجلى العطاء في السورة أيضاً - في قصة أيوب - عليه السلام -؛ إذ عافاه الله مما ابتلاه به في جسده وماله وولده^(١)، فأتبع الله له عيناً من تحت قدميه يغتسل من مائها:

﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ (٤٢) ﴿٢﴾

وكذلك تجمل بعض آيات السورة عطاء الله لعدد من الأنبياء على هذا النحو:

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ (٤٥) ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (٤٦) ﴿وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (٤٧) ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ (٤٨) ﴿٣﴾

وعلى هذا النحو يأتي قصص سورة "الأنبياء" فجانب العطاء ظاهر ملحوظ في قصص الأنبياء الذين ذكرتهم السورة، ابتداءً من إبراهيم - عليه السلام - الذي نجاه الله من النار:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٦٩) ﴿٤﴾

فكان تعطيل ناموس الإحراق في النار وسلبها خاصيتها جانبا من العطاء الذي ركزت عليه السورة. ولوط آتاه الله حكماً وعِلْماً ونجاه من أذى قومه، وهذا عطاء، ثم:

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٧٥) ﴿٥﴾

ونوح أيضاً استجاب الله له ونجاه وأهله من الكرب العظيم. ثم تذكر السورة نعم الله على داود وسليمان في غير تفصيل كالتفصيل في سورة "سبا". ويلاحظ العطاء - أيضاً - المتمثل في الرحمة التي أنعم الله بها على أنبيائه:

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٤ / ٣٩ .

(٢) سورة ص : الآية : ٤٢ .

(٣) سورة ص : الآيات : ٤٥ : ٤٨ .

(٤) الأنبياء : الآية : ٦٩ .

(٥) الأنبياء : الآية : ٧٥

أيوب وإسماعيل وإدريس وذى الكفل، ثم تستكمل السورة موكب الرسل، فتذكر عطاء الله - سبحانه وتعالى - لذى النون - يونس عليه السلام - وزكريا، ثم يختم القصص بإشارة مجملة إلى مريم :

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ

﴿٩١﴾ (١)

ولعل التركيز على نعم الله وعطاءه لأنبيائه هو الذى جعل قصص هذه السورة خالياً من الإشارة إلى معايير المكذبين بالرسول سوى هذه الإشارة إلى تكذيب قوم نوح وإغراقهم فى قوله تعالى :

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ (٢)

فإذا كان قصص هذه السورة خالياً أو يكاد يكون خالياً من ذكر ما يقطع تسلسل النعم التى أنعم الله بها على أنبيائه ورسله، حتى وإن كان هذا القطع بذكر مصاير المكذبين فأولى به ألا يقطع هذا التسلسل بشئ يصيب نبيا من الأنبياء أنفسهم الذين تنزل عليهم النعم ويعمهم العطاء، ومن ثم لم يذكر حدث موت سليمان - عليه السلام - فى هذه السورة أيضاً.

أما فى سورة " النمل " فيلاحظ أمران :

- **أولهما** : أن ذكر داود - عليه السلام - يأتى فى بداية القصة فقط دون أن يذكر عنه شئ، وتحتشد الآيات بعد ذلك لسليمان - عليه السلام - وحده بعكس السور الثلاث الأخرى؛ إذ كانت تأتى فيها قصة داود أولاً ببعض تفصيلاتها ثم تأتى بعدها قصة سليمان.

- **الأمر الثانى** : أن سورة " النمل " بسطت الحديث عن سليمان كما لم يبسط فى سورة أخرى، ومهدت لهذا الحديث الطويل بمقدمة تنبئ عن الملك العريض الذى أصابه هذا النبى، وأن سيطرته امتدت لتشمل الجن والإنس والطير وغيرها من المخلوقات.

(١) الأنبياء : الآية ٩١ .

(٢) الأنبياء : الآية ٧٧ .

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١٦) وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ (١)

ثم تأخذ السورة في بيان حدود هذه المملكة وانقياد عناصرها وأفرادها لسليمان بحيث لا يخرج عن سيطرته فرد من أفرادها، من الحشرات والطيور والإنس والجن، حتى أعضاء الممالك الأخرى البعيدة كمملكة سبأ التي أرغمت على الانطواء تحت جناح سليمان والدخول معه في دين الله.

وهذا الموطن ليس مناسباً - أيضاً - لذكر حدث الموت لا في أثناء القصة ولا في نهايتها؛ فذكره في أثناء القصة يقطع التسلسل الطبيعي للأحداث، ويفقد هذا الملك سيطرته على أفراد مملكته وخطوته عليهم، بل يحيل أمر هذه المملكة فوضى. وقد انتهت القصة نهاية سعيدة؛ إذ دخلت المملكة في دين الله رب العالمين، وذكر الموت مع هذه النهاية يفسدها ويمحو أثرها الطيب من نفوس المتلقين.

وتبقى سورة "سبأ" وهي أنسب موضع يذكر فيه حدث موت سليمان - عليه السلام - والقصة لم تذكر حدث الموت مجرداً وإنما صورته على هيئة خاصة عجيبة، وخلاصة ذلك - كما ذكره المفسرون - أن سليمان قام يصلي متكئاً على عصاه فقبض روحه وهو متكئ عليها فعمى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة نحواً من سنه، فلما أكلت دابة الأرض عصاه ضعفت وسقط إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، وتبينت الجن والإنس - أيضاً - أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك (٢).

ونفى علم الغيب عن الجن هو أهم ما يستفاد من الآية الكريمة أعنى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا قُضِيَنا عَلَيْهِ الْمَوْتُ...﴾ الخ، إذ إن هذه المسألة مازالت تنوء بها عقول كثير من الناس حتى مع حسم القرآن الكريم لها بتأكيد أن الجن لا يعلمون من أمور الغيب شيئاً وإلا لأدركوا موت سليمان منذ أولى لحظات موته، ولما لبثوا في الأعمال الشاقة نحواً

(١) النمل : الآيتان : ١٦ : ١٧ .

(٢) الكشف للزمخشري : ٢ / ٥٧٤ بتصريف.

من سنة.

إن الله - سبحانه - يعلم أن كثيراً من ضعاف الإيمان ضعاف العقول يصيبهم الانبهار ويأخذهم الدهش لأمر من الأمور التي تلبس الجن بها على بنى آدم، فيتجهون إليهم بالعبادة من دون الله، وقد أخبرت سورة سبأ نفسها عن هذا الفريق من الناس :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)﴾^(١)

كما ركزت السورة نفسها على أن علم الغيب لله وحده، وأنه - وحده - الذي يعلم ما فى السماوات والأرض ولا يغيب عنه شئ مهمما دق وخفى:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ عَالِمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣)﴾^(٢)

وأكدت السورة هذا الأمر قبيل نهايتها :

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ (٤٨)﴾^(٣)

لذلك كان ذكر حدث موت سليمان - عليه السلام - بهذه الكيفية العجيبة التي تنفى علم الغيب عن الجن مناسباً فى هذا الموضع بالذات من قصة سليمان.

ومن أمثلة انتخاب الأحداث فى القصة القرآنية أن قصة يعقوب - عليه السلام - ذكرت من خلال قصة ولده يوسف فى السورة التي تحمل اسمه، وقد ركزت القصة - على طولها - على الجانب الذاتى الإنسانى فى حياة هذين النبیین، أما مايخص الدعوة

(١) سبأ : الآيتان : ٤٠ : ٤١ .

(٢) سبأ : الآيتان : ٢ : ٣ .

(٣) سبأ : الآية : ٤٨ .

فنصيبه ضئيل في القصة، ويخص يوسف^(١) - عليه السلام - وذكر ما يخص يعقوب في آية أخرى من سورة «البقرة»، تحكى هذه الآية آخر مشهد من حياة «يعقوب» في الدنيا، وهو يمثل جانب الدعوة عنده يقول تعالى :

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) ﴾ (٢)

وهذا الخبر عن يعقوب جاء في مكانه المناسب تماماً من آيات سورة «البقرة»، إذ تسبقه مباشرة قصة «إبراهيم» - عليه السلام - وبنائه - مع ولده إسماعيل - البيت الحرام، وبنائه في الوقت نفسه صرح الإسلام وعقيدة التوحيد الصحيحة :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَآرِنَا مَنَاسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) ﴾ (٣)

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) ﴾ (٤)

وليس إسلامه فقط ولكنه مكلف أن يلحق هذه العقيدة الصحيحة بنيه من بعده، كما أن يعقوب مكلف بذلك أيضا :

﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) ﴾ (٥)

فالعقيدة ممتدة من قبل «إبراهيم» ومن بعده إلى نبيه، ثم إلى يعقوب وبنيه، ثم إلى من بعدهم إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، وليست مقصورة على أنبياء بنى إسرائيل كما يزعم المرجفون منهم :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ

(١) يرى الدكتور كاظم الظواهري أن سورة يوسف لم تتضمن خبراً واحداً عن نبوة يوسف، وهو رأى عليه بعض المحاذير. ينظر : بدائع الإضممار القصصى في القرآن الكريم، ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) البقرة : الآية : ١٣٣ .

(٣) البقرة : الآية : ١٢٨ .

(٤) البقرة : الآية : ١٣١ .

(٥) البقرة : الآية : ١٣٢ .

المُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ (١)

فمشهد يعقوب ووصاته نبيه يمثل حلقة وسطى من حلقات العقيدة الإسلامية الصحيحة فى وسط هذه الآيات من سورة البقرة، ولذلك ذكر فيها ولم يذكر فى سورة يوسف التى ضمت بعض حياة يعقوب ولكنها ركزت على الجانب الإنسانى فيها.

ومن الأمثلة - أيضا - ما ذكر فى سورة "يونس" من إعلان فرعون إيمانه بإله بنى إسرائيل، وذلك عندما رأى الموت محيطاً به من كل جانب وذلك فى قوله تعالى :

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (٢)

لقد قطع فرعون فى الكفر والعناد شوطاً بعيداً ، شوطاً لم يبلغه أحد قبله ولا أحد بعده؛ فالتاريخ يحدث عن بعض الناس - رجالاً ونساءً - ادعوا النبوة ولكنه لم يحدث عن أحد ادعى الألوهية غير فرعون لا من قبله ولا من بعده، ولذلك كان أشد الناس كفراً:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي...﴾ (٣٨) (٣)

ولكن ما باله يزول كفره وجبروته وعناده فى لحظة واحدة كما ذكرت آية سورة "يونس" ! فالكفر تحول إلى إيمان، وهو إيمان ماكان يعلن عنه فرعون لولا ما يلاقيه من هول الموت الذى يطبق على نفسه من أقطارها، وهو إيمان فيه كثير من الزيف والتضليل؛ إذ هو لم يعلن إيمانه بالله الواحد القادر صراحة، وإنما هو يحوم حول كلمة الإيمان ويصل إليها بعد جهد شاق : ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ إنه يكثر من الكلمات التى يعلن بها إيمانه لعل حياته تمتد حتى ينطق بها ويكثر منها لو قدر لهذه الحياة أن تمتد وتطول، ولكن أنى له؟ فهذه هى النهاية، فهلا آمن من قبل! فليس الوقت وقت إيمان :

(١) البقرة : الآية : ١٣٥ .

(٢) يونس : الآية ٩٠ .

(٣) القصص : من الآية ٢٨ .

﴿ آ لَآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٩١) ﴿ (١)

وايكن فى نجاته ببذنه عبرة وعظة لمن يأتى بعده من المتكبرين والمتجبرين :

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (٩٢) ﴿ (٢)

إن حكاية إيمان فرعون على هذا النحو الذى يكاد يكون مضحكاً يؤكد خصلة من خصال الإنسان ويصور سجية من سجاياه التى لا تتخلف إلا قليلاً؛ فمن طبيعة الإنسان أن يطغى ويتكبر - على تفاوت فى ذلك - ما كان فى رخاء وسعة من العيش، فإذا أحيط به وأدركته الشدائد لم يجد ملجأ من الله إلا إليه، فإذا تجاه الله وكشف عنه ما به من شدة عاد سيرته الأولى فى الطغيان والتكبر.

وقد صورت السورة نفسها مشهدين من المشاهد التى تؤكد هذه الطبيعة الإنسانية:
الأول : فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٢) ﴿ (٣)

الثانى : وهو أطول نسبياً فى قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لئنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢٢) ﴿
فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٣) ﴿ (٤)

هذه طبيعة المسرفين على أنفسهم من الناس؛ كبر وعناد ونسيان الخالق فى وقت

(١) يونس : الآية ٩١ .

(٢) يونس : الآية ٩٢ .

(٣) يونس : الآية ١٢ .

(٤) يونس : الآيتان : ٢٢ : ٢٣ .

الرخاء والسعة، ثم ذل وانكسار وخضوع فى وقت الشدة، ووعد بالاستقامة على المنهج، ثم عود إلى التمرد والكفر بعد الخلاص والنجاة، فأية واقعة حقيقية وأى شاهد على هذه الطبيعة البشرية أبلغ مما قصته السورة عن فرعون؟ ثم أليس من الجائز أن يدعى فرعون بطولة فردية لو نجاه الله من الغرق؟ بلى، إنه لو نجا لعاد سيرته الأولى فى الكفر والعناد، بل عاد أشد ما كان عليه، وأى شئ وأى دعوى أشد مما ادعاه ١٩.

لقد مرت به ويقومه بعض الشدائد فاستجاروا بموسى لكى يدعوه ربه أن يكشف عنهم العذاب، وقطعوا على أنفسهم عهداً بالإيمان، فلما انكشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم وأخلفوا وعدهم لموسى :

﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿١﴾

ومن أمثلة انتخاب الأحداث فى القصة القرآنية ما ذكر فى سورة "الزخرف" من تعيير فرعون لموسى بالمهانة والضعف وعدم الإبانة فى الكلام ما جاء على لسان فرعون مخاطباً قومه :

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ (٥٢) ﴿٢﴾

والقارئ لهذه الحلقة من حلقات قصة موسى مع فرعون يلاحظ أن غوغائية الباطل الذى عليه فرعون وقومه هى الغالبة؛ فأيات السورة لم تحك على لسان موسى إلا كلمة واحدة أخبر فيها قوم فرعون بأنه رسول رب العالمين:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٦) ﴿٣﴾

لم يجر على لسان موسى أى كلام آخر، ولكن ترك الموقف لفرعون وعصابته تعلو

(١) الزخرف : الآيات : ٤٨ : ٥٠ .

(٢) الزخرف : الآية : ٥٢ .

(٣) الزخرف : الآية : ٤٦ .

ضحكاتهم، وتشدد سخريتهم بموسى وبما جاء به من الآيات العجيبة:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ (٤٧) (١)

استخفوا بآيات القدرة كاليد والعصا، فهناك آيات أخرى تلوى أعناقهم وتجعلهم يجأرون من العذاب كالجراد والقمل والضفادع والدم وتقص الزروع والأنفس والثمرات، (٢) فلم يجدوا بداً من التودد إلى موسى، فلما كشف الله عنهم العذاب نكثوا بما وعدوا به من الإيمان.

إن كشف العذاب عن فرعون وقومه كان كفيلاً بإعادتهم إلى جادة الصواب وأن يدخلهم إلى حظيرة الإيمان، ولكن على العكس من ذلك، ازدادت سخريتهم بموسى فوقف فرعون فى قومه مزهواً بما يملك من أرض مصر، فخوراً بمظاهر النعمة المتمثلة فى الأنهار التى تجرى من تحته، ثم يفاجئهم بهذه الموازنة العجيبة بينه وبين موسى، بين من يملك من أسباب القوة ومن لا يملك شيئاً، بين من يملك القدرة على الكلام فهما ونطقاً ومن لا يقدر على الفهم ولا يستطيع الإبانة عما فى نفسه لحصره وعيه ﴿ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ وهو يعنى أن فى لسان موسى شيئاً من أشرا الجمره حين وضعها فى لسانه وهو صغير (٣).

إن السيادة والغلبة هنا لغوغائية الباطل على منطق الحق، ولعلها سيادة مقصودة من ناحية بناء القصة، وقد ساعد على ظهورها سكوت الحق منذ البداية، فموسى ألقى إليهم بمهمته مجملة ثم مضى ولم يعقب، ولكن كان لكلمته (إنى رسول رب العالمين) وقعها الأليم فى نفوس أصحاب الباطل فارتفعت أصواتهم فى مواجهتها، حتى ظنوا أن لهم الغلبة إلى ما لا نهاية، فأخذوا إلى الأرض والتفوا حول زعيمهم صاحب الصوت العالى بعد أن أرهبهم فأطاعوه فى كل ما يأمر وما ينهى، فاستحقوا غضب الله وانتقامه:

﴿ فَاسْتَخَفُّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا

(١) الزخرف : الآية ٤٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير : ١٢٩/٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير : ١٣٠/٣.

مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴿١﴾

وهكذا تتضح خصيصة الانتقاء في القصص القرآني، وأن أحداث هذا القصص ليست موزعة توزيعاً عشوائياً، وإنما هي موزعة في دقة وروعة وإعجاز بحيث لا ينبو حدث بمكانه من القصة أو السورة، وتلك هي القمة التي ينشدها الكتاب في قصصهم وما هم ببالغها إن لم يتأملوها في كتاب الله تعالى.

ج

التكرار

التكرار ظاهرة كثيرة الدوران في القرآن الكريم، وقد تحدث عنها كثير من العلماء والدارسين قديماً وحديثاً، وتباينت نظراتهم فمنهم من أقر بها وحاول التعليل لها^(١)، ومنهم من وقف منها موقف الإنكار، وخاصة حين يتعلق الأمر بتكرار المعاني والموضوعات ومنها القصص .

والقارئ للقرآن يلحظ - دون معاناة - أنه قد تتكرر آية بألفاظها عدة مرات في سور متعددة كقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٥) ﴿ (٢) .

وقد تتكرر الآية مرات عديدة في سورة واحدة كقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١٢) التي تكررت إحدى وثلاثين مرة في سورة "الرحمن" ، وتكرر قوله تعالى : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١٥) عشر مرات في سورة "المرسلات" . وقد علل العلماء والبلاغيون لهذا التكرار وأمثاله في كتبهم^(٣) .

وقد تتكرر الآية في موضعين من سورتين مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ كقوله تعالى في سورة «البقرة» : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٣٦) ﴿ (٤)، وجاءت الآية في سورة آل عمران على هذا النحو : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٨٤) ﴿ (٥)

والتكرار فيهما واضح ، والاختلاف اليسير بينهما يكشف عن بعض الأسرار

(١) ومن أهم الكتب التي حاول أصحابها التعليل للمكرر والمتشابه في القرآن الكريم كتاب : البرهان في توجيه متشابه القرآن ، محمود بن حمزة الكرمانى، تحقيق عبد القادر أحمد عطاء، ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٦ م.

(٢) يونس : ٤٨ الأنبياء : ٣٨ . النمل : ٧١ . سبأ : ٢٩ . يس : ٤٨ . الملك : ٢٥ .

(٣) ومن هؤلاء : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى في كتابه : البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، ط عيسى البابى الحلبي : ١٨/٣ وما بعدها، والكرمانى في كتابه : البرهان في توجيه متشابه في القرآن ، ص ١٧٩ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٣٦ . (٥) سورة آل عمران ، الآية : ٨٤ .

البلاغية المعجبة التي نبه إليها «الكرمانى» عندما تعرض للآية الأولى منها فقال: قوله : (وما أنزل إلينا) فى هذه السورة وفى آل عمران: (علينا) لأن (إلى) للانتهاى إلى الشئ من أى جهة كانت، والكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أممهم جمعياً، والخطاب فى البقرة لهذه الأمة لقوله تعالى : (قولوا) فلم يصح إلا (إلى) و (على) مختص بجانب الفوق وهو مختص بالأنبياء، لأن الكتب منزلة عليهم لا شركة للأمة فيها، وفى آل عمران: (قل) وهو مختص بالنبي - صلى الله عليه وسلم - دون أمته فكان الذى يليق به (على) .

وزاد فى "البقرة" (وما أوتى) وحذف من "آل عمران" لأن فى "آل عمران" قد تقدم ذكر الأنبياء حيث قال : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ) (١) .

وقد تتكرر آية أو آيتان فى سورة واحدة مرات متعددة ، وذلك كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (١٧)﴾ (٢) وقد كررت أربع مرات عقب القصص الوارد فى سورة القمر، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)﴾ (٣) .

وكررت الآيتان ثمان مرات إحداها فى مقدمة السورة، والباقى فى أعقاب القصص الوارد فى السورة، وهذه الآية المكررة أو الآيتان المكررتان، تكون بمنزلة اللازمة التى تأتى فى نهاية القصة لتلمس موطن العبرة منها .

هذه أمثلة قليلة توضح بعض مظاهر التكرار فى القرآن الكريم، والحق أن التماثل اللفظى واضح فيها ، ومع ذلك تبقى لكل آية دلالتها الخاصة التى اكتسبتها من السياق الذى وردت فيه .

وقبل الاسترسال فى الحديث عن التكرار فى القصة القرآنية ينبغى الوقوف مع مظاهر التكرار اللفظى السابقة وعلاقتها بأساليب العرب القدامى فى تأليف أشعارهم، ومن المعلوم أن القرآن الكريم إنما نزل بلغة العرب، وجرى على سنتهم فى التأليف ، فليس بعيداً أن تكون ثمة علاقة بين التكرار فيه والتكرار عندهم، وخاصة فى أشعارهم التى هى أحسن مظاهر الفصاحة لديهم وأقدمها ، ولعل هذه الوقفة تقوى الظن بأن من مقاصد

(١) البرهان فى توجيه متشابه القرآن ، ص ٣٥ .

(٢) سورة القمر : الآية ١٧ . (٣) الشعراء : الآيتان ٨ ، ٩ .

القرآن أن يواجه التكرار في الشعر^(١).

في الشعر المعاصر كثيراً ما يعيد الشاعر بيتاً كاملاً أو بيتين للفصل بين أقسام القصيدة الواحدة، والتماس الأمثلة لهذا التكرار سهل ميسور، ويبدو أن اللغة العربية قد عرفت هذا اللون من الإعادة في دهرها الأول حين لم تكن أوزانها وقوافيها قد بلغت مرحلة النضج والقوة والاستواء التي بلغت في العصر الجاهلي^(٢).

والذي يدل على ذلك أمران :

أولهما : أن نحواً منه قد وجد في القرآن الكريم، وتقدمت أمثله، «ولا أحسب أن القرآن الكريم قد فاجأ العرب بضرب جديد من التأليف إذ التزم هذا التكرار، ولو كان هذا ضرباً جديداً من التأليف لكانوا قد طعنوا فيه، ولكننا لم يبلغنا أنهم فعلوا ذلك . ولعل قائلًا يقول : إن القرآن نشر فكيف نتخذ من أسلوبه أدلة نتحدث بها عن الشعر؟

وهذا الاعتراض في ظاهره مقبول، ولكننا قد أسلفنا بدءاً أن نظام الوزن والتقنية لا بد أن تكون قد سبقتهما أجيال من التجربة، وأن أسلوب السجع لا بد أن قد كان شئاً مشابهاً له هو الأسلوب الشعري عند العرب البائدين الأولين، يدل على ذلك محاكاة الكهان له، والصلة بين الكهانة والشعر قوية، ولما جاء الإسلام كان أسلوب الشعر العربي قد استقر على أسلوب سجع الكهان، والخطباء والحكماء والقصاص، وهؤلاء كانوا هم المقصودين بالتحدي من جانب القرآن ، وقد جرى على أساليبهم ومنهجهم، فكونه نثراً لا ينافي أن في أسلوبه مظاهر وصيغاً كان يتصف بها المنهج الشعري القديم^(٣) .

والأمر الثاني الذي يدل على أن اللغة العربية قد عرفت أسلوب إعادة البيت في أجزاء القصيدة هو مانجده من رواسب هذا الأسلوب وأساره في بعض الأشعار التي بأيدينا من تراث الجاهليين، وحتى في بعض الأشعار الإسلامية، خذ مثلاً قول امرئ القيس :

(١) العبارة بنصها لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور/ فتحي أبو عيسى المشرف على الرسالة وقد لفتني سيادته - مشكوراً - إلى كتاب الدكتور/ عبد الله الطيب الآتي بعد .

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب، د/ عبد الله الطيب ، ط دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية - بيروت ١٩٧٠ م : ٢٥٩/٢ .

(٣) المرجع السابق : ٤٩٦/٢ .

وتحسب سلمى لاتزال كعهدنا بذات الخزامى أو على رأس أو عال
وتحسب سلمى لاتزال ترى طلا من الوحش أو بيضا بميثاء محلال (١) .
فالشبه بين هذا التكرار وبين أسلوب إعادة الأبيات قوى واضح (٢) .
وأدل على القصد وأصدق في التمثيل من هذا المثال ما جاءت فيه الصدور مكررة
في عدة أبيات من الشعر القديم، ومثال ذلك قول المهلهل بن ربيعة :-

على أن ليس عدلاً من كليب	إذا طرد اليتيم عن الجذور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا رجف العضاه من الدبور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا ماضيم جيران المجير
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلاً من كليب	غداة بلابل الأمـر الكبير
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا برزت مخبأة الخـدور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا علت نجيات الأمـر (٣)

فهذا التكرار يدل على نهج من القول كان مألوفاً في القصص المخطوط بالشعر،
ولعل هذا المثال - وغيره كثير - يدل على أن هذا النهج من التكرار كان حينئذ كثيراً
شائعاً (٤)، هذه الكثرة وذلك الشيوع يحملان على الاعتقاد بأن أسلوب التكرار اللفظي في
القرآن ليس بمنأى عن أسلوب العرب في تكرار الألفاظ في قصائدهم .

ومما يقوى هذا الاعتقاد ما صنعه الناقد النواقة «ضياء الدين بن الأثير» حين تصدى
لدراسة ظاهرة التكرار في الأساليب العربية شعراً ونثراً، إذا كان لا يأتى بالمثال الشعري
أو النثري لنوع من التكرار إلا شفعه بما يؤيده من القرآن الكريم، بما يدل على العلاقة
الوثيقة بين أسلوب التكرار في القرآن وأسلوب التكرار عند العرب، ومن ذلك :

أن التكرار قد يكون في اللفظ والمعنى، كقول الشاعر :

ألا يا سلمى ثم سلمى ثم سلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلمى (٥) .

(١) ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف، الطبعة الخامسة، ص ٢٨ .

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب ٢/ ٤٩٦، ٤٩٧ .

(٣) الأمالى، لأبي على القالى، ط ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م، ج ٢، ص ١٤٨ .

(٤) المرشد إلى فهم أشعار العرب ٢/ ٤٩٩ : ٥٠١ .

(٥) شرح ديوان الحماسة، للخطيب التبريزي، ط عالم الكتب، بيروت، ج ٢، ص ١٥٣، والبيت غير منسوب .

وهذا مبالغة فى الدعاء لها بالسلامة، وهذا يجاء به لتقرير المعنى وإثباته .

وعليه ورد الحديث النبوى، وذلك أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن بنى هشام ابن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا بنتهم عليا، فلا آذن، ثم لا آذن ، ثم لا آذن، إلا أن يطلق على ابنتى وينكح ابنتهم » .

فقوله « لا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن » من التكرير الذى هو أشد موقعاً من الإيجاز، لانصباب العناية إلى تأكيد القول فى منع على - رضى الله عنه - من التزويج بابنة أبى جهل بن هشام،

وهذا مثل قوله تعالى : (فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر) (١) فالتكرير دلالة على التعجب من تقديره، وإصابته الغرض، والتكرير فى مثل هذا المقام أبلغ من الإيجاز، وأحسن وأشد موقعاً (٢).

ومن التكرار فى اللفظ والمعنى أن تعاد «إن» مع خبرها فى نهاية الكلام إذا كان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام كقول الشاعر :

أسجنا وقيدا واشتياقا وغربة ونأى حبيب ؟ إن ذا لعظيم
وإن امرأ دامت مواثيق عهده على مثل هذا إنه لكريم (٣)

فلما طال الكلام بين اسم إن وخبرها أعيدت «إن» مرة ثانية، لأن تقدير الكلام : وإن امرأ دامت مواثيق عهده، على مثل هذا لكريم، فإعادة «إن» أحسن فى حكم الفصاحة والبلاغة . ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١١٩) (٤) فلما تكرر «إن ربك» مرتين علم أن ذلك أدل على المغفرة (٥).

وقد يكون التكرار فى المعنى دون اللفظ، وفى الأمثلة التى أوردها ابن الأثير لهذا

(١) المدثر : الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٢) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق د/ أحمد الحوقى، د/ بدوى طبانة ، ط دار نهضة مصر للطبع والنشر : ٩/٢ : ١١ .

(٣) شرح ديوان الحماسة، ج : ٣، ص : ١٥٣ ، والبيتان غير منسويان .

(٤) النحل : الآية ١١٩ .

(٥) المثل السائر : ١٧/٣ : ١٨ .

النوع ما يدل على ثوقه البارع في إدراك مواطن الجمال في أسلوب التكرار في القرآن وفي كلام العرب على حد سواء .

فمن هذا النوع قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٠٤) (١) .

فإن الأمر بالمعروف خير، وليس كل خير أمراً بالمعروف؛ وذلك أن الخير أنواع كثيرة من جملتها الأمر بالمعروف، فالتكرار هنا أفاد معنيين : أحدهما خاص ، والآخر عام (٢) .

ومما جاء من هذا النوع من أساليب العرب حديث "حاطب بن أبي بلتعة"، وذلك أنه كتب إلى قريش يخبرها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد جهز جيشاً لفتح مكة، فأرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - "على بن أبي طالب" فأتى بالكتاب من امرأة كانت تحمله، فقال : ما هذا يا حاطب ؟ فقال : يا رسول الله أحبيت - إذ فاتني النسب في قريش - أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً، ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله : إنه قد صدقكم (٣) .

فقوله : «ما فعلت ذلك كفراً، ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام» من التكرار الحسن؛ إذ معناه : إنني لم أفعل ذلك وأنا كافر، أي باق على الكفر، ولا مرتد؛ أي أني كفرت بعد إسلامي، ولا راضاً بالكفر بعد الإسلام، أي ولا إثارةً لجانب الكفار على جانب المسلمين ، وهذا حسن في مكانه واقع في موقعة ، فالمقام هو مقام اعتذار وتنصل عماري به من تلك القارعة العظيمة التي هي نفاق وكفر، فكرر المعنى في اعتذاره قصداً للتأكيد والتقرير لما يتفق عنه ما رمى به (٤) .

إن التكرار القرآني - بوصفه طريقة أسلوبية - وثيق الصلة إذا بأساليب العرب في تأليفهم شعراً ونثراً، أما بوصفه وسيلة لغاية معينة فهو ظاهرة لا يمكن نفيها عن القرآن الكريم، «لأن كل ما في القرآن، بل كل ما في الدين يؤكد في غير موارد ولاخفاء أن

(١) آل عمران : من آية ١٠٤ .

(٢) المثل السائر : ٢٧/٣ .

(٣) ينظر : فتح الباري : ٥٠٢/٨ ، تفسير القرطبي : ٦٥٢٩/٩ .

(٤) المثل السائر : ٢٧، ٢٦/٣ .

التكرار مطلوب ، لأن القرآن دعوة، والنفس الإنسانية - لما فيها من ضعف ، ولما طبعت عليه من النسيان - فى حاجة إلى التذكير ثم التأكيد، ثم إعادة التذكير، والتنبيه والتخويف من السهو والإهمال والغفلة، وقد قضى الرسول - صلى الله عليه وسلم- حياته يدعو أصحابه وأعداءه على السواء إلى دين التوحيد، مكرراً الدعوة بنفس الألفاظ حيناً، وبكل أسلوب وعبارة ومثل، وبقي يكرر ويبدى ويعيد فى معانى هذا التوحيد وأثاره دون أن تهدأ له نفس وأن يفترله عزم»^(١). كما قضى نوح - عليه السلام - عمراً مديداً يكرر دعوته على أسماع قومه، فكان يدعوهم ليلاً ونهاراً، سراً وإعلاناً، وكان يعدهم بالرزق الوافر والأموال والبنيان إن هم آمنوا، ولم يمنعه استكبارهم وإعراضهم عن تكرير دعوته عليهم حتى ملواهم هذه الدعوة وسئموا سماعها، فصرخوا فى وجهه: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢)

إن كثيراً من شئون الحياة اليومية عند البشر تستدعى التكرار بل توجيهه؛ فالخطيب حين يريد تأكيد فكرة معينة يلجأ إلى تكرارها مرة ومرة عديدة، وربما فى الخطبة الواحدة، وذلك لما للتكرار من أثر نفسى لدى المتلقى، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المعلم؛ إذ يلجأ إلى تكرار أفكاره على مسامع تلاميذه مرات كثيرة حتى ترسخ هذه الأفكار فى عقولهم وتستقر فى نفوسهم، كما يعتمد أسلوب الدعاية فى العصر الحديث على أسلوب التكرار، فكثيراً ما يلجأ المعلنون عن السلع إلى تكرار الإعلان عنها، ومع أن البضاعة التى يدعون إليها، وينادون عليها كثيراً ما تكون بضاعة كاسدة أو فاسدة، والأصوات المنطلقة بالدعاية لها كثيراً ما تكون أصواتاً كاذبة منافقة، ومع هذا فإن هذا الأسلوب يحقق دائماً بعض النتائج التى يهدف إليها ، وإن كانت نتائج مؤقتة لا يكتب لها البقاء طويلاً، فكيف إذا كانت الدعوة قائمة على الحق والخير، والدعاة الذين يدعون لها لا يريدون إلا وجه الحق والخير . إن أسلوب التكرار هنا يثمر أطيب الثمرات ويأتى بأعظم الآثار»^(٣)

والدعوة التى يدعو إليها القرآن الكريم هى دعوة عامة وشاملة ليست كدعوة المعلم

(١) القصة القرآنية ، أ/ فتحي رضوان، سلسلة كتاب الهلال عدد ٢٢٢ أغسطس ١٩٧٨م، ص ٩٨ .

(٢) مود : الآية ٢٢ .

(٣) الإعجاز فى دراسات السابقين ، ص ٤١٤ ، ٤١٥ .

أو الخطيب، إذ هي دعوة لكل الناس إلى التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، القرآن يدعو كل الناس عربهم وعجمهم وهؤلاء ليسوا متساويين جميعاً في العقول والأفهام والثقافات والأمزجة والحالات النفسية، فمنهم من يحمل في نفسه كثيراً من الخير، لكن هذا الخير يتوارى وراء بعض الأعراف والتقاليد المنحرفة فيكفيه لفظة يسيرة إلى طريق الحق والخير، ومنهم من يغرق حتى أذنيه في بحار الهوى والضلالة، ويتلاشى ما بنفسه من بقايا الخير، ومثل هذا لا تكفيه إشارة ولا إشارتان، بل لابد من تكرار الدعوة وبيان طريقها وأثارها وعواقب الإعراض عنها، ولابد من ضرب الأمثلة وتقليب صفحات التاريخ أمام عينيه لكي يعرف ما أصاب المكذبين بالدعوات السابقة .

نزل القرآن الكريم في قوم انطوت نفوسهم على كثير من العقائد الفاسدة، وليس من اللائق أن يدعو القرآن هؤلاء الذين يعبدون الأصنام إلى عبادة إله واحد مرة أو مرتين، بل اللائق والواجب أن يكرر عليهم الدعوة ويلح في تكرارها وينوع في الأساليب التي تحمل هذه الدعوة إليهم مابين وعد ووعد، وترغيب وترهيب ، وبيان العواقب والآثار المترتبة على حسن استقبالهم للدعوة أو رفضها، مع توضيح ذلك كله بضرب المثل، وحكاية ما جرى للأمم السابقة مع أنبيائهم، حتى يزداد الأمر إيضاحاً في نفوسهم، ولذلك كرر القرآن الكريم كثيراً من القصص .

وقد أثار تكرار القصص القرآني اختلافاً بين العلماء قدامى ومحدثين ، وكثير من القدماء حاولوا أن يعللوا له بوصفه ملمحاً من ملامح الإعجاز القرآني وآية على صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - بومنتهم "ابن فارس" الذي يقول عن تكرار الأنبياء والقصص : «وأصح ما يقال فيه : إن الله - جل ثناؤه - جعل هذا القرآن وعجز العرب عن الإتيان بمثله آية لصحة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاء وبأي عبارة عبر عنه»^(١) كما أن إعادة ذكر القصة الواحدة باللفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتبين فيه البلاغة^(٢) .

(١) الصحابي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، تحقيق السيد أحمد صقر ط عيسى البابي الحلبي ١٩٧٧م، ص ٢٤٢ .

(٢) إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني : ١/١١٦، وينظر : تأويل مشكل القرآن، عبد الله بن قتيبة ، تحقيق السيد أحمد صقر ط دار التراث، الطبعة الثانية ١٩٧١م، ص ٢٢٤، ٢٢٥ .

وقد شايح المتقدمين في آرائهم لفيف من المحدثين يرى أحدهم : أن التكرار في القصص من غايات القرآن الكريم وأغراضه، وأنه نزل به .
ونزل له ، وأنه لايجوز لنا أن ننكره، ولاينبغي أن نعتذر عنه، فهو من خصائصه ومزاياه، إذ بقي مع هذا التكرار جديد كلما قرأناه لايبعث سأمًا في النفوس ولاتفتقرله همة الباحث أو القارئ» (١) .

ويذهب آخر إلى جعل التكرار جزءاً من المنهج القصصي للقرآن (٢)، ويرى ثالث أن مستوى القصة القرآنية يظل في الذروة رغم تكرارها، ويتغير إيحائها بكلمة تضاف أو جزء يحذف أو عبارة جديدة، أو جملة لم تكن موجودة، أو مجرد ظل لخاطر نفسي لم يقدم قبل ذلك .. وهذه معجزة في فن الكتابة لا ترى له مثيلاً في أي كتاب على الأرض غير هذا الكتاب الكريم الذي أسلمه لنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو رجل لم يكن يكتب ولم يكن يقرأ (٣) .

ومن المحدثين من حاول نفى وجود التكرار في القصص القرآني والاعتذار عنه بأنه ليس تكراراً مطلقاً بقدر ما هو تكامل بين أجزاء القصة الواحدة (٤)، أو أنه التنويع في عرض حلقات القصة (٥)، وقد أصاب الاضطراب آراء بعض الذين اعتذروا عن وجود التكرار في القصة القرآنية، فأقر بوجوده مرة (٦)، وعلمه مرة ثانية بأنه تكرار تكاملي وتنويع في العرض (٧)، ومرة ثالثة رأى أنه بالنظر إلى كثرة معارض الشخصيات في القصة القرآنية فإنه يعد تكراراً، وبالنظر إلى الحادثة فإنه لا يعد من التكرار (٨) .
ولعل هذه النظرة إلى التكرار وأنه عيب يجب دفعه عن القرآن الكريم جاءت متأخرة

(١) القصة القرآنية ، أ/ فتحي رضوان ص ١٠٠ .

(٢) سيكلوجية القصة في القرآن، ص ١١٥ .

(٣) أنبياء الله، أ/ أحمد بهجت ، ط دار الشروق الطبعة الثامنة عشرة ١٩٩٠م ص ٢٢، ٢١ بتصرف

(٤) التصوير الفني أ/ سيد قطب ص ١٦٢ .

(٥) دراسات قرآنية أ/ محمد قطب ط دار الشروق، الطبعة السابعة ١٩٩٣م ص ٢٥٤ .

(٦) القصص القرآني في منطقته ومفهومه أ/ عبد الكريم الخطيب، ط دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ ص ٦٤ .

(٧) المرجع السابق ص ٢٤١، ١٤٥، ٢٧٣، ٢٧٤ .

(٨) المرجع السابق ٤٢، ٤٣ .

نسبياً بفعل آراء المستشرقين وتلامذتهم^(١) .

إن المبالغة في نفى التكرار عن القصص القرآني خطأ لامية فيه، كما أن التطرف في إثباته على سبيل الإطلاق من خلال ما كرر منه خطأ أيضاً، ولكن النظرة المتأنية تؤكد أن في القصص القرآني تكراراً قد يكون الغرض منه التكميل كما في قصة "آدم" و"نوح" وإبراهيم" و"موسى"، عليه السلام - وأن هناك تكراراً يصل التشابه فيه إلى قريب من التماثل أحياناً، كما في بعض المشاهد من قصة موسى، وأن هناك تكراراً يقتضيه الغرض الذي سبقت من أجله القصة كما في قصة "آدم" - عليه السلام - . وقد تكرر القصة ضمن مجموعة من القصص للتدليل على فكرة بعينها وتأكيداً كقصص قوم "نوح" و"هود" و"صالح" و"لوط" و"شعيب" عليهم السلام التي تكررت مجتمعة في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم .

ومن أبرز ما يمثل التكرار الذي سبق بغرض التكميل ما جاء في قصة "إبراهيم" - عليه السلام - في سور "مريم والشعراء والأنعام" ، فالمشاهد التي وردت في هذه السور تمثل جانب الدعوة في حياة "إبراهيم"، وينفرد كل مشهد فيها بإضافة تزيد هذا الجانب وضوحاً وتقريراً .

أما السورة الأولى فتحكى عن دعوة "إبراهيم" لأبيه وما كان بينهما من جدل ومناقشة، يقول الله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي

(١) يتضح ذلك في ردود الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه: القصص القرآني، على الدكتور محمد خلف الله أحمد

ص ٢٧٥، وفي كتابه الإعجاز في دراسات السابقين ص ٢٩٤، ٤٠٥، ٤٢٥، كما يتضح أيضاً عند الأستاذ محمد

قطب في كتابه : دراسات قرآنية ص ٢٥٢ .

حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴿١﴾

ويلاحظ أن سورة "مريم" يسيطر عليها جو العلاقة بين الأبناء وبين الآباء والأمهات، ففي بدايتها حديث عن "زكريا" الأب "يحيى" الابن، ثم حديث عن "مريم" الأم "وعيسى" الابن البار بوالدته، فليس من العجيب أن تركز السورة - في المقطع الخاص بإبراهيم عليه السلام - على علاقته بأبيه، وعلى دعوته هذا الأب إلى ترك عبادة الأصنام وترك عبادة الشيطان أيضا .

وقد تدرج إبراهيم في دعوة أبيه فكان يلقي إليه بالدعوة إثر الدعوة بما يدل على الحرص الذي يكنه، وعلى العطف والمودة تجاه هذا الأب، فيناديه أولا: يا أبت لم تعبد أصناماً لاتنفع ولا تضر، ولا تملك من أمر نفسها شيئا، وثانيا : يا أبت إنى قد جاعنى من الله الهداية والعلم النافع فاتبعنى ، وثالثا : يعظه بل ينهاه عن عبادة الشيطان، ورابعا : يعلن خوفه على أبيه، ثم ينطلق الحوار بينهما كاشفا عن قوة الأب الذى يهدد ولده بالرجم، ويطلب منه أن يهجره ، وكاشفا أيضا عن حنان الابن، ورحمته بأبيه، ولم يجد "إبراهيم" بداً من أن يعتزل آباء وقومه ويلجأ إلى جناب ربه .

واعْتَزَالَ "إبراهيم" ليس دليلاً على سلبية الداعية الذى ينفذ يديه ممن يدعوهم حينما يبدون الصد عن دعوته، ولكن فليكرر "إبراهيم" دعوته، وليوسع من دائرتها؛ كما تنطق بذلك سورة "الشعراء"، يقول تعالى: ﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَافِيَةً (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا

مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴿١﴾

إذا كانت دعوة "إبراهيم" قد اقتضرت على أبيه فقط في سورة "مريم" فإن هذا المقطع من القصة يظهر مدى اتساع الدعوة التي حملها لتشمل أباه وقومه جميعاً، عسى أن يجد من بينهم من تنعطف إليه نفسه، ولا يصد عنه كما صد عنه أبوه وتوعده، ويلاحظ أن قضية العبادة هي محور هذه الحلقة من القصة، وأن تحديد المعبود المستحق للعبادة هو المسيطر على الحوار الدائر بين "إبراهيم" وأبيه وقومه، فهم يصرحون بأنهم يعبدون الأصنام، ويحاول هو أن يكشف عن زيف معبوداتهم ببيان أنها حجارة لاتسمع ولا تضر ولا تنفع، ويبين لهم أن الله وحده هو المستحق للعبادة، لأنه الخالق الرازق، وهو الذي يحيى ويميت .

«وما أحسن ما رتب "إبراهيم" - عليه السلام - كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لامستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لاتضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، كما نعى عليهم تقليد آبائهم الأقدمين، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً عن أن يكون حجة، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله - عز وعلا-، فعظم شأنه وعدد نعمه من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهاال الأوابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة، وثواب الله وعقابه، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا» (٢)

ثم يأتى مقطع آخر من مقاطع قصة "إبراهيم" يضيف إلى جانب الدعوة بعداً آخر وذلك في سورة "الأنعام" يقول تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَنَتَّخِذُ أَصْنَاماً ءَالِهَةً إِنِّى أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا

(٢) الشعراء ٦٩ : ٨٢ .

(١) الكشف، للزمخشري ج ٣ ص ٢٢١، وقد نقل ابن الأثير كلام الزمخشري في حديثه عن حسن التخلص، وزاد

عليه، انظر : المثل السائر، ج ٢، ص ١٢٩، ١٣٠ .

أَحِبُّ الْأَفْلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾

وهذا المقطع من القصة يركز على ما أعطيه "إبراهيم" - عليه السلام - في معركة الدعوة، فقد أراه الله ملكوت السموات والأرض، كما رزقه اليقين الثابت إزاء ما كان يعبد أبوه وقومه من الأصنام، كما أوتى البصيرة النافذة في إقامة الحجج والأدلة التي تنذك لها أعناق المكابرين الذين يحتاجونه .

أراد إبراهيم أن ينفي الإلهية عن الكواكب، "فبدأ ببعض النجوم ثم القمر ثم الشمس، ولو أنه بدأ بالأكبر منها وهي الشمس ما أمكنه أن يتحدث عن القمر والنجوم، ولكنه بدأ بالأصغر إلى الأكبر، وهذا من حسن الاستدلال ودلالة الرشد، ثم استدل على عدم إلهية هذه الكواكب بالأقول دون الطلوع ثم يعلن براعته من الشرك حينما أثبت أن أكبر الكواكب وهي الشمس لا تصلح لأن تعبد، ثم يعلن أنه وجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفاً" (٢).

هذه مقاطع ثلاثة من قصة "إبراهيم" يكمل بعضها بعضاً؛ إذ إنها تخدم فكرة واحدة وتجليها، تلك هي فكرة الدعوة التي مارسها "إبراهيم"، فالمقطع الأول يظهر دعوته لأبيه ومدى حرصه وحنانه وخوفه عليه، والمقطع الثاني يظهر دعوته لأبيه وقومه عامة وإلحاحه عليهم في قبولها، وترك ما يعبدون من أصنام لن تجديهم فتىلاً حين يقفون بين يدي الله - سبحانه - والمقطع الثالث يبين قوة العقيدة في نفس "إبراهيم"، ويظهر براعته في الدعوة إليها واستمالة أفئدة قومه جميعاً نحوها، بما يعرض عيهم من حجج تدل على فساد معتقداتهم وتوجهاتهم نحو الأصنام والكواكب التي يعبدونها، وما كان لجانب الدعوة في حياة "إبراهيم" أن يتجلى واضحاً لو لم تأت هذه المقاطع الثلاثة في أثناء القصة، ولو لم تتظاهر على تجليته وتوضيحه على هذا النحو البديع .

(١) الأنعام ، ٧٤ : ٧٩ .

(٢) القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته، ص ١٤٥ .

وإذا كان كل مقطع من المقاطع الثلاثة السابقة ينزع منزعا بعيداً نسبياً عن المقطعين الآخرين رغم اتفاقها جميعاً على هدف واحد فإن المقطع من القصة القرآنية قد يكرر في سورتين مع التشابه الشديد بينهما، ومن خير ما يمثل ذلك تصوير مشهد "موسى" عليه السلام وهو في طور سيناء حين رأى النار، روى هذا المشهد في سورة النمل على هذا النحو: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ فَأِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢)﴾ (١)

وروى في سورة القصص على هذا النحو: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُمُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢)﴾ (٢)

ولا يخفى ما بين المشهدين من اختلافات وفروق في التعبير، فالفرق يكون أحياناً في حرف، أو في لفظ، وربما في جملة زيدت هنا أو حذفت هناك، وهناك اختلاف جوهري بين

(١) سورة النمل: الآيات ٧ : ١٢

(٢) القصص: ٢٩ : ٣٢

المشهدين يتمثل في السياق الذي ورد فيه كل منهما، فالمشهد في سورة "النمل" هو كل ما روى من قصة "موسى" في هذه السورة مع آيتين اثنتين وردتا بعد انتهاء هذا المشهد، أما مشهد سورة "القصص" فهو يمثل جزءاً من قصة "موسى" التي وردت بكثير من تفصيلاتها قبل هذا المشهد وبعده .

ومن المقاطع المكرره المتشابهة تشابهاً شديداً أيضاً مشهد المبارزة بين "موسى" والسحرة، فقد ورد في سورة الأعراف^(١) وسورة الشعراء^(٢)، ويمكن أن يقال فيهما ما قيل في المشهدين السابقين؛ من حيث الاختلافات والفروق في التعبير ومن حيث اختلاف سياق كل منهما^(٣) .

وقد تكرر القصة لاختلاف الغرض الذي سبقت من أجله، ومن أبرز ما يمثل هذا النوع من التكرار قصة "آدم" عليه السلام - التي وردت في القرآن الكريم في سبعة مواضع، وقد يشتمل الموضع الواحد على أكثر من غاية وهدف .

سبقت هذه القصة للتدليل على قدرة الله - سبحانه - وبيان نعمه على الإنسان: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ (٢٩) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً... ۝ (٤) ۝ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ۝ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝ (١١) ۝ (٥)﴾

وتساق للتدليل على صدق المعاد: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ۝ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ (٢٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ (٢٦) ۝ (٦)﴾.

(١) الآيات: ١٠٧ : ١٢٦ .

(٢) الآيات: ٣٢ : ٥١ .

(٣) ينظر : دراسات قرآنية، محمد قطب (ص ٣٦٣، ٢٦٤) .

(٤) البقرة: ٣٠ : ٢١ .

(٥) الأعراف: ١٠ : ١١ .

(٦) الحجر: ٢٣ : ٢٦ .

كما سيقّت للتدليل على صدق نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى يأتيه خبر السماء وهو الأسمى الذى لا يقرأ ولا يكتب: ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴿١﴾ .

وسيقّت القصة لتأكيد صفة من صفات بنى آدم وهى النسيان، نسيان تفضيل الله تعالى - له على سائر الخلق، ونسيان العهد له بالخلافة فى الأرض، ونسيان نعمة الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴿٢﴾ .

وسيقّت للتبكيّ على اتباع عدو الله إبليس واتخاذهِ ولياً من دون الله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ سَكَانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ (٥٠) ﴿٣﴾ .

ولعل هناك غرضاً عاماً وراء تكرار قصة "آدم" يتمثل فى التنبيه على العناية بأمر الإنسان، وأنه إنما خلق ليكون خليفة فى هذه الأرض، بعد أن اكتسب العلم والمعرفة من الله - سبحانه -، وأن هذا الإنسان جدير بأن يذكر القرآن قصة خلقه، وأن يكررها ويكشف عن الملابس التى أحاطت بها، وأدت إلى إحداث عداوة متأصلة بين الإنسان وإبليس، هذه العداوة لم يكن الإنسان هو المسئول عنها، وإنما افتعلها إبليس وتوعد الإنسان بها: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَخَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

(١) ص: ٦٩ : ٧١

(٢) طه: ١١٣ : ١١٦ .

(٣) الكهف : ٥٠

شَاكِرِينَ (١٧) ﴿٤﴾.

والذى يتأمل المواطن السبعة التى وردت فيها قصة "آدم" يجد أنها قد تكررت فى صور عديدة مختلفة من ناحية السياق الذى وردت فيه فى كل موطن، ومن حيث القدر الذى سبق فى كل موطن، ومن حيث الأداء الذى يفيد أمراً جديداً فى كل مرة تذكر فيها القصة، بما يؤكد نوع التكرار التكاملى فى القصص القرآنى .

ومن ألوان التكرار فى القصة القرآنية: أن تأتى مجموعة من قصص الأنبياء فى سورة من السور لهدف معين ولتأكيد فكرة بعينها، ثم تأتى هذه المجموعة نفسها فى سورة أخرى لهدف آخر ولتأكيد فكرة أخرى، ويختلف السياق فى كل من السورتين عن الأخرى، مع اختلاف طريقة العرض للقصة بل لمجموعة القصص، بحيث يتم التركيز على معنى معين فى كل مرة، ومن أمثلة ذلك قصص أنبياء الله "نوح" و"هود" و"صالح" و"لوط" و"شعيب" وقد ورد فى سورتى "الأعراف" و"الشعراء"، وتتضافر مجموعة القصص فى "الأعراف" على بيان فكرة أن الأديان جميعها تقوم على التوحيد ، ولذلك ركزت القصص على دعوة هؤلاء الأنبياء لأقوامهم وتذكر ما نطق به كل نبي منهم، فورد على لسان معظم الرسل : (يقوم اعبدوا اله مالكم من إله غيره)، «إنك لتسمع إليهم واحداً بعد الآخر فتجد كلاماً منسقاً وهدياً منسجماً .. صدر عن مشكاة واحدة، وانساق إلى هدف واحد، يمهّد أوله لآخره، وتصديق نهاياته بداياته، وكأنهم خطباء فى حفل واحد ، اجتمعوا فى أمسية موعودة، أوليلة مشهودة، وليسوا رجالاً توزعتهم أكناف القرون المتطاولة» (٢).

أما مجموعة القصص نفسها فى سورة "الشعراء" فتركز على معنى آخر هو تكذيب الأقوام للرسل، وتتحد الصيغ فى التعبير عن هذا المعنى: فكل قصة تبدأ بقوله تعالى : (كذبت .. المرسلين)، فإذا كان هؤلاء الأقوام قد وجهت إليهم دعوة واحدة فإن استقبالهم لهذه الدعوة كان واحداً أيضاً، ولذلك جمعهم مصير واحد هو الهلاك والتدمير، ويلاحظ أن السياق جمع من وقع عليهم التكذيب فقال : (المرسلين) مع أن قوم كل بنى كذبوه هو

(٤) الأعراف : ١٦ : ١٧ .

(١) نظرات فى القرآن الشيخ محمد الغزالي، ط دار التوفيق النموذجية، الطبعة السادسة ١٩٨٦م ص ١٠١

خاصة؛ ليدل على أن فارق الزمن بين هؤلاء الأقوام لم يكن له أى تأثير عليهم . وهكذا يبدو أن التكرار فى القصة القرآنية له وظيفته المحددة؛ فهو وسيلة من وسائل القرآن لغرس القصة فى نفوس أصحابها، ولترهيب الخارجين عليها، وتخويفهم من مغبة تكذيبهم وعنادهم، وبذلك تتناسب القصة مع الغايات العامة من القرآن الكريم، والتكرار من الناحية الفنية له قيمته؛ فهو ليس تكراراً ألياً مملأً حتى فى أشد الأجزاء المكررة تشابهاً، فالحقيقة التى تطالع القارئ أن القصة تعرض فى معارض كثيرة متنوعة، وفى أثواب جديدة تضيف أحياناً إلى جوهر القصة، وتكتفى بتوضيح موقف وتجليته أحياناً أخرى بما تسكبه من ظلال وأضواء، والتكرار فى القصة القرآنية لم يكن ليصيب جسم القصة كله، وإنما كان يرد فى بعض أجزائها فقط، ونادراً ما كان القرآن يسترسل فى سرد أحداث القصة كلها فى موطن واحد، بل إن ذلك لم يحدث إلا فى قصة واحدة هى قصة "يوسف" (عليه السلام) .

د

الإجمال والتفصيل

التفصيل والإجمال ظاهرة واضحة تمام الوضوح في القصص القرآني، وهما لونان من التصريف البياني الذي يمتاز به القرآن الكريم؛ فقد يأتي بعض القصص مجملاً مقتضباً كما هو الشأن في قصة "يعقوب" التي ترد في سياق قصة "يوسف"، وكذا قصة "إسماعيل" التي اقتصر القرآن على حلقات قليلة منها، وكذلك قصص هود وصالح ولوط وشعيب، إذ اكتفى القرآن الكريم بحلقة الرسالة فقط من هذه القصص، ويقابل هذا النوع نوع آخر يأتي مبسوطاً مطولاً، ومن أبرز ما يمثله قصتا يوسف وموسى - عليهما السلام - ففيهما أتى القرآن على كثير من الأحداث والمواقف التي حدثت لكل منهما.

وثمة لون آخر من التفصيل والإجمال يوجد في القصة الواحدة، إذ تبسط في موضع وتجمال إجمالاً في موضع آخر، ويغلب هذا اللون في القصص المكرر، فقصة نوح مثلاً تأتي مبسوبة في سورة «هود» وسورة «نوح» ثم تأتي مجملة في آيتين فقط هذا الإجمال العجيب: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥)﴾ (١).

والعلة من هذين اللونين من التفصيل والإجمال تتعلق بالغرض الذي سبقت من أجله القصة، كما تتعلق بمقاصد السورة التي وردت فيها القصة، أو بمقاصد القرآن على العموم.

وهناك ألوان أخرى من الإجمال والتفصيل تتصل بالفن القصصي وأساليب بناء القصة فناً، والتماس هذه الألوان سهل ميسور في كثير من القصص القرآني، غير أن العلة من الإجمال والتفصيل قد تتضح بعد نظر وتأمل وقد تخفى أو تستغل على القارئ والمتلقى.

وأبرز هذه الألوان ثلاثة :

- ١ - قد تجمال القصة أولاً ثم تأتي مفصلة.
- ٢ - يأتي بعض القصة مجملاً وبعضها مفصلاً في السورة الواحدة.

٣ - الإجمال بالحذف والإيجاز، والتفصيل بالإطناب.

واللونان الأخيران أشد التصاقاً بالفن القصصى وأدخل إلى حرفية القص من اللون الأول، برغم مافيه من مواضع تظهر جانب الإعجاز القرآنى الذى لا يدانيه جهد البشر مهما أوتوا من قدرة فنية على القص المحبوك.

أما بالنسبة إلى اللون الأول ففى القرآن أمثلة متعددة منه، وتغلب على القصص المطول، ومن ذلك ما جاء فى بداية سورة القصص مقدمة لقصة "موسى" - عليه السلام - : ﴿طَسَمَ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)﴾ (١).

وهذه الآيات تمثل مقدمة للقصة التى تأتى بكثير من تفصيلاتها، وتمثل هذه المقدمة مرحلة العرض والتعريف بالقصة، لكى تهينى الملقين لما يأتى من تفصيلات الأحداث، وقد يقصد منها إلى بيان الحكمة من إيراد القصة على هذا النحو وفى هذا الموضع.

وهذه المقدمة لا يمكن الاستغناء عنها؛ فهى تضيف كثيراً إلى أحداث القصة وذلك بما تفصح عنه من بيان الأحوال والملابسات التى أحاطت بمولد "موسى" - بطل القصة -، وتتمثل هذه الأحوال فى وجود ملك مفسد، قلب أوضاع المجتمع الذى يحكمه، وجعل أفرادَه فرقاً وطبقات يعلو بعضها بعضاً، ونظر إلى طبقة بنى إسرائيل بعينين ملء إحداهما السخرية والاستهزاء، وملء الثانية الخوف والترقب والحذر من أن يخرج منهم صبى يكون زوال ملكه على يديه كما أوعز إليه بذلك العلماء، وأنها نبوءة إبراهيم (٢) التى ستتحقق فى هذا الزمان، وامتزجت السخرية بالخوف فى نفس "فرعون" فأمر أن يذبح كل

(١) القصص، الآيات ١ : ٦.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٧٩ : ٣٨٠.

صبي يولد لبني إسرائيل، وأمر باستحياء النساء ليضمن بالأعمال التي كانت موكلة إلى الرجال.

وبذلك توحى مقدمة القصة بالصراع الذي كان دائراً والذي سيستنهز بعد ذلك، كما تنبئ المقدمة أيضاً بتغيير في مجريات الصراع، وتشير إلى أن الغلبة بعد ستكون للجانب المستضعف المقهور، بني إسرائيل، وأنهم سيصيرون الأئمة المقدمين في النهاية وسيصير لهم ملك الأرض من بعد هلاك ذلك الفرعون الجبار، بعد أن يرى على أيديهم ما كان يخافه ويحذره هو وجنوده وحاشيته.

إن هذه المقدمة أفادت المتلقى علم بعض الأحداث المهمة في القصة. بل أوحى إليه بنهايتها، ولكن تطلعه إلى معرفة التفاصيل لم يفتر، وتشوقه إلى إدراك كيفية النهاية قد زاد، وتهيأت نفسه تماماً لاستقبال الأحداث المفصلة التي ستطرق سمعه، وتخترق حواجز الحس لتتلبد في شعوره ومكامنه. ويلاحظ أن الخطاب في هذه المقدمة موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكان القصة موجهة إليه بكل ما فيها من أحداث، وبكل ما تحوى من عبر وتوجيهات ليتثبت من صدق وعد الله له بالغلبة والظهور على أعدائه، ولينتفع بها أصحابه وسائر المؤمنين في كل وقت وفي أي مكان.

ويلاحظ أن المقدمة السابقة قد طالت بعض الشيء وأنها تضمنت بعض أحداث القصة بل أوحى بنهايتها، وحددت معالم الصراع فيها وحددت نتيجته، ومثلها في بعض الخصائص مقدمة قصة الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا ملكا يخرج بهم إلى الأرض المقدسة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)﴾ (١). وتتفق هذه المقدمة مع مقدمة قصة "موسى" في الطول النسبي، وفي أنها حددت الخطوط الرئيسة للقصة ولكنها تركت نهاية القصة ليعرفها المتلقى من قراءته للتفاصيل التي تأتي بعد ذلك، فقد أشارت إلى

قعود الغالبية العظمى من بنى إسرائيل عن القتال تحت إمرة الملك الذى طلبوه ولم تشر إلى نتيجة المعركة التى خاضها الملك مع القلة التى بقيت معه.

وتتسابق المقدمة مع القصة ويتعاونان على إخفاء شخصية الملك القائد الذى بعثه الله إلى بنى إسرائيل؛ فالمقدمة اكتفت بالإشارة إلى طلب بنى إسرائيل ملكاً يولى عليهم: (ابعث لنا ملكاً نقاتل فى سبيل الله) ، والقصة أشارت إلى هذا الملك باسم "طالوت" ، ثم تأتى نهاية القصة لتترك شخصية الملك وتفاجئ المتلقى شخصية أخرى هى شخصية "داود" - عليه السلام - لما له من دور مؤثر فى نتيجة المعركة التى خاضها تحت إمرة "طالوت" .

ومن ذلك أيضاً هذا التلخيص الإجمالى لقصة أصحاب الكهف : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۖ (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۖ (١٠) فَضَرْبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۖ (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۖ (١٢) ﴾ (١). وهو تلخيص يجمع القصة، ويرسم خطوطها الرئيسية العريضة؛ فنعرف أن أصحاب الكهف فتية، أوا إلى الكهف، وهم مؤمنون، وأنه ضرب على آذانهم فى الكهف - أى ناموا - سنين معدودة - لا نعلم عددها - وأنهم بعثوا من رقدتهم الطويلة، وأنه كان هناك فريقان يتجادلان فى شأنهم، وأنهم بعثوا ليتبين أى الفريقين أدق إحصاء، وأن قصتهم - على غرابيتها - ليست بأعجب آيات الله؛ ففى صفحات هذا الكون من العجائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف والرقيم (٢).

قد يكون الإجمال متمثلاً فى مقدمة قصيرة - لا كالمقدمات السابقة - ولكنها تشير إلى ما يأتى فى صلب القصة من تفصيل، وتشير أيضاً إلى نوع الصراع الذى تكشف عنه القصة، كهذه المقدمة الجملة لقصة "موسى" فى سورة الأعراف : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنزَلْنَا مِنْهُ مَائِدًا مِّنَ السَّمَاءِ ۖ فَاذْكُوكَ ۖ وَارْتَبُوا ۖ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ رَبِّكَ ۚ (١٢٠) ﴾

(١) الكهف ، الآيات : ٩ : ١٢ .

(٢) انظر فى ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ٢٢٦١ .

الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴿١﴾.

فهذه المقدمة - على قصرها - لخصت القصة تلخيصاً وافياً ، فقد حددت طرفي القصة : "موسى" في جانب "وفرعون" وملؤه في جانب آخر، وحددت نوع الصراع وأنه صراع الآيات والمعجزات، ولذلك تكرر ذكر لفظ (الآية) مفرداً ومجموعاً في أثناء القصة كثيراً^(٢)، كما حددت المقدمة استقبال "فرعون" ملائه لدعوة "موسى" (فظلموا بها)، وألمحت إلى النهاية **﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾** ففعل الأمر وأداة الاستفهام ينبهان المتلقى إلى ما في النهاية من أحداث عجيبة تستحق أن يقرأها ويتملاها.

وقد تتضمن مقدمة القصة أمراً عجيباً يشبه الرمز كما في مقدمة قصة يوسف : **﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾** (٤) **﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾** (٥) **﴿٢﴾**. فهذه الرؤيا التي رآها يوسف "مبهمة" في مقدمة القصة، ولكن لها أثراً قوياً في الأحداث؛ فقد كانت سبباً في البلاء الذي أصابه من حسد إخوته له، وكانت إرهاباً بنبوته، وآية عليها بالرؤيا الصادقة، ثم هي في نهاية القصة تتحقق على نحو يفسر هذا الرمز ويزيل الإبهام : فالشمس والقمر أبواه ، والأحد عشر كوكباً هم إخوته، وهم يسجدون له جميعاً في نهاية القصة، على وجه التحية والتعظيم لا على وجه العبادة^(٤).

ثم إن هذا التقديم يتناسق مع التعقيب على القصة في نهايتها، وهو قول الله تعالى: **﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾** (١٠٢) **﴿٥﴾** فهناك حبكة بين مقدمة القصة والتعقيب عليها^(٦).

(١) الأعراف ، الآية : ١٠٣ .

(٢) الأعراف ، الآيات : ١٠٦ ، ١٢٦ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٤٧ . وانظر: في ظلال القرآن ج ٢ ص ١٢٤٤ .

(٣) يوسف ، الآيتان : ٤ : ٥ .

(٤) الكشف للزمخشري ج ٢ ص ٥٠٦ وانظر: الإضمار القصصى في القرآن الكريم ص ١٠٢ .

(٥) سورة يوسف ، الآية ١٠٢ .

(٦) في ظلال القرآن الكريم ، ج ٤ ، ص ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ .

وأما بالنسبة إلى اللون الثانى وهو الإجمال فى بعض القصة والتفصيل فى بعضها فإن خير ما يمثله قصة "نوح" - عليه السلام - فى سورة «هود» ويتضح الإجمال والتفصيل فيها إذا قسمت إلى عدة مراحل أو أربعة مراحل على وجه التحديد:

الأولى : مرحلة الدعوة منذ بدايتها إلى نهايتها .

الثانية : اليأس من إيمان قومه وصنعه السفينة .

الثالثة : مرحلة الطوفان : بدايته وانحصاره .

الرابعة : مناجاة نوح لربه فى شأن ابنه .

والمراحل الثلاث الأولى تمثل الإجمال على وجه بديع لا يتأتى ولا ينظر إلا من كتاب الله (تعالى) المنزه عن اللغو والحشو، وأولى هذه المراحل أكثرها إبانة عما ادعيته، فهذه آياتها : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ (١).

فهذه إحدى عشرة آية تمثل مرحلة الدعوة في حياة نوح - عليه السلام - هذه الحياة التي امتدت في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، فهل تضم هذه الآيات إحدى عشرة كل ما نطق به "نوح" وكل ما نطق به قومه، وما دار بينهما من حوار في هذه السنوات التي تجاوز التسعمائة؟ وهل سردت هذه الآيات كل ما جرى بين "نوح" وقومه من أحداث؟ لا شك أن القصة أجملت ذلك كله في هذه الآيات القليلة، وفي هذا الحوار الذي لم يخل من الحذف في كثير من المواضع.

لقد جاء الحوار مكثفاً كثيفاً شديداً، بحيث جمع كل مدار في سنوات كثيرة العدد في هذه الكلمات التي تعد قليلة جداً بالنسبة إلى مدار على أرض الواقع، وبالنسبة إلى المدة الزمنية التي استغرقها هذا الحوار المكثف.

نطق نوح كلمة الدعوة على مسامع قومه (إني لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله) فهل دعاهم بها مرة واحدة؟ لا ولكنه ردها على مسا معهم مرات لا تحصى، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ۝٥ ﴾ (١)، ابتداء نوح الحوار فجاء الرد من الملأ الذين كفروا بأنه مدع النبوة، إذ هو بشر مثلهم؛ وكأنهم أرادوا نبياً ملكاً لا بشراً، فلما وجدوا منه إصراراً على الدعوة، ورأوا بعض الناس قد دخلوا في دينه تنقصوا هؤلاء الذين اتبعوه بأنهم فقراء لا يملكون شيئاً، وأنهم ليسوا أهلاً لأن يعتقد بهم "نوح" وياتباعهم له، فقد صدروا في إيمانهم عن رأى عن لهم دون روية ونظر (٢)، فلن نتساوى نحن وهؤلاء في موقف الإيمان لك . ثم جاؤا بالثالثة (وما نرى لكم علينا من فضل) لستم أفضل منا حتى تهتدوا إلى الصواب ونضل نحن عنه، وأخيراً تأتي التهمة الرابعة (بل نظنكم كاذبين) إنهم الملأ وأعيان القوم، فلا بد أن يكون بينهم وبين الأراذل فرقاً واضحاً حتى في كلامهم، فإذا كان الأراذل قد قطعوا برأيهم دون روية فهو هؤلاء ليسوا مثلهم، إنهم لا يصدر عن رأيهم إلا عن روية ونظر ولذلك قالوا: (بل نظنكم) فلم يلقوا التهمة على سبيل القطع واليقين، مما يقطع بأن الحوار بينهم كان في مراحله الأولى، وهو بعد لم يشتد، ولذلك يأتي رد "نوح" على قومه رداً هادئاً سمحاً: (يا قوم) فهو منهم وهم منسوبون إليه.

(١) نوح ، الآية : ٥ .

(٢) الكشف للزمخشري ج ٢ ص : ٦٠٥ ، تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٢٥٢ .

ثم يرد نوح هذه الادعاءات بقوله ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (١). ومعناه : لا أقول لكم عندي خزائن الله فأدعى فضلاً عليكم في الغنى، حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء، أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضماير قلوبهم، (ولا أقول إنني ملك) حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلاً، ولا أحكم على من استرذلتهم من المؤمنين لفقرهم إن الله لن يؤتيهم خيراً في الدنيا والآخرة لهواني عليه كما تقولون مساعدة لكم ونزولاً على هواكم (٢) ..

إن هذه الاعتراضات لم تلق جملة واحدة، بل كانت تأتي متتابعة واحداً تلو الآخر، وكان كل اعتراض يعن للملأ يلقيون به في وجه "نوح"، وكانت ردوده على اعتراضاتهم تأتي متتابعة أيضاً، فكلما ألقوا باعتراض ألقى هو بالرد عليه وجاء بما يفنده، وذلك الشأن في الدعوات جميعاً خصوصاً مع الامتداد الزمني الطويل الذي استغرقته دعوة "نوح" في قومه، ولكن القصة جمعت هذه الاعتراضات وأجملتها في آية واحدة، كما جمعت ردود "نوح" عليها وأجملتها في آية أخرى، فالحوار طويل وموضوعاته متعددة، ولكن القصة أجملته بأن اقتصرنا على أهم موضوعاته التي تتعلق بصاحب الدعوة وتتعلق باتباعه الذين آمنوا به، ومما يدل على طول الحوار بين نوح وقومه هذه الصرخة التي انطلقت على ألسنة الملأ تحمل التحدي : ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣). إنهم لم يصلوا إلى هذه المرحلة إلا بعد أن استفزهم إصرار "نوح" على دعوته، ويعد أن ذهب بهم كل مذهب في الجدل الذي بدعوه هم أنفسهم ولذلك قالوا : (جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا)

وفي القصة حذف لبعض مدار في هذا الحوار الطويل على ألسنة الملأ من قوم

(١) سورة هود ، الآية : ٢١.

(٢) الكشف للزمخشري ج ٢ ص ٢٩٠.

(٣) سورة هود . الآية ٢٢.

"نوح"، ويدل كلام "نوح" على هذا المحنوف فقوله: (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا) يوحى بأنهم تصوروا أن "نوحاً" يبغي من وراء هذه الدعوة جمع المال من هؤلاء الأغنياء السادة لكي يرتفع إلى مستواهم الاجتماعي ويوحى بأنهم قد عرضوا عليه المال فعلاً، فنفى هذا الظن من نفوسهم، وأكد لهم أنه لا يريد من وراء دعوته مالا ولن يكلفهم شيئا، لأنه لا يطلب الأجر إلا من الله وحده.

كما يوحى قوله: (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا) بأنهم طلبوا منه أن يطرد هؤلاء المؤمنين به لأنهم من الفقراء حتى لا يضمهم وإياهم مجلس واحد^(١) عند نوح، ولعل هذين الأمرين قد طرحا في ساحة الحوار الدائر واحداً تلو الآخر، وفي مرحلة من مراحل الجدل الطويل الممتد بين "نوح" وقومه، والذي أجملته القصة في هذه الآيات الإحدى عشرة.

هذا عن المرحلة الأولى وهي مرحلة الدعوة، أما المرحلتان الثانية والثالثة فيتضح فيهما الإجمال أيضاً، إذ تحمل كل كلمة فيهما صورة أو حدثاً عظيماً من الأحداث التي انطوت عليها الآيات، بحيث تدع للتصور العقلي أن يعمل عمله في متابعة هذه الصور وملاحقة هذه الأحداث، ويالها من صور جديدة على البشرية كلها! إنها صور السفينة، وهي تتكون من الألواح والدرس لتنتهي إلى صورتها النهائية لتكون طوق النجاة للمؤمنين، ويالها من أحداث! إنها أحداث الطوفان التي تلاحقت حتى حالت بين الابن وأبيه.

أما المرحلة الرابعة من القصة فتأتي في مقابلة المرحلة الأولى من حيث الإجمال والتفصيل، فإذا كانت الآيات السابقة قد أجملت أحداث وحوارات وجدال مئات السنين، فإن آيات المرحلة الرابعة قد فصلت موقفاً واحداً، وأعطته من الكلمات ما يكاد يقرب من الكلمات، التي استأثرت بها المرحلة الأولى على امتدادها وكثرة أحداثها وجدالها، إنه موقف واحد وحدث واحد ولكن له في نفس نبي الله "نوح" أثراً عظيماً، إنه موقفه من ابنه حين جاء الطوفان وهذه هي الآيات: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤٢) قَالَ سَأُولِي إِلَى

(١) انظر في ظلال القرآن - ج ٤ ص ١٨٧٤.

جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مِنْ رَحْمٍ وَحَالٍ بَيْنَهُمَا
 الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيَضَ
 الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَى
 نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥)
 قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي
 أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ
 عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) ﴿١﴾

إذا كانت آيات المرحلة الأولى تمثل حياة "نوح" الداعية الذي استنفذ كل وسائل
 الدعوة مع قومه فإن آيات المرحلة الرابعة تمثل جانباً آخر من حياة "نوح" هو جانب الأب
 الإنسان، وبين كل من الجانبين فرق كبير، وإذا كانت آيات المرحلة قد أجملت أحداث مئات
 السنين فإنها لم تنقص منها شيئاً، فالحذف والإجمال في القصة القرآنية لا يعنى بتر
 المعانى والاكتفاء ببعضها دون بعض، ولكن ذكر ما يذكر من المعانى دلالة واضحة على ما
 حذف منها، وإذا كانت آيات المرحلة الرابعة قد فصلت موقفاً واحداً وأعطته هذه المساحة
 الكبيرة من القصة فإنها لم تعطه أكثر مما يستحق.

إن طبيعة الموقف الذى يعيشه "نوح" الأب هى التى تطلبت هذا التفصيل، إن الأبوة
 شعور لا ينكره الإنسان على أخيه الإنسان، وأولى من ذلك ألا ينكره الخالق - سبحانه
 وتعالى - على نبيه "نوح" الأب الذى يمتحن فى ولده أقسى امتحان يتعرض له الأب فى
 حياته، فالمواساة هنا لازمة، وإنزال السكينة على قلب الأب أمر ضرورى، لعل "نوحاً"
 يأنس بحواره الطويل مع ربه (٢)، ويتسلى عن التفكير فى هذه الفجيرة التى حلت بولده،
 وخلاصة هذا الحوار أن نوحاً أراد أن يستنجز وعد ربه فى نجاة أهله فقال : «إنك
 وعدتني بنجاة أهلى معى وابنى منهم، فأجيب بأنه ليس من أهلك الذين وعدت بنجاتهم

(١) هود : الآيات : ٤٢ : ٤٧ .

(٢) انظر السرد القصصى فى القرآن الكريم، أ. شروت أباظة ، ط دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ص ١٥ .

لأننا قلنا: (وأهلك إلا من سبق عليه القول) فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بانه سيغرق بكفره ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن أهل الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان^(١) وامتد الحوار فعاتبه ربه في أن يسأله ما ليس له به علم «إذ كان من حق نوح أن يعلم أن من كان خارج السفينة فليس ممن وعده الله بنجاتهم، فاعتذر نوح عن ذلك، وطلب المغفرة والرحمة على ما فرط منه^(٢)» .

والذي يتأمل الآيات السابقة لهذا الحوار يجد بعض اللفظات الموحية، إذ يخاطب المولى - عز وجل - عاطفة نوح نحو قومه عامة ، ويخاطب عاطفته نحو أهله خاصة، يخاطب عاطفته نحو قومه في قوله تعالى ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧)﴾^(٣) فالمولى - سبحانه - يعلم أن نوحاً قد يرق قلبه لهذه الجموع الغفيرة من قومه الذين سينزل بهم العذاب، فيطلب الرحمة بهم فنهى عن ذلك. ويخاطب عاطفته المتوجهة نحو أهله خاصة في قوله تعالى ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ فكان هذه الاستثناء هو الفصيل في إنزال العذاب ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ فنهى نوح عن طلب الشفاعة فيمن كفر من أهله أيضاً، ولكن أنى لعاطفة الأبوة أن تسكن فلا تتحرك؟ وكيف للأب أن يتفنى عن نفسه الإحساس بالمرارة تجاه ولده حتى ولو كان عاقاً؟ ولذلك عوتب نوح في أن سأل ربه ما ليس له به علم حين سأل نجاه ولده، وبذلك تؤكد القصة أن النسب الحقيقي إنما يكون في الموافقة في الدين والمذهب^(٤).

وأما اللون الثالث فهو الإجمال بالإيجاز والحذف، والتفصيل بالإطناب، وقد حظى هذا اللون بعناية علماء الإعجاز والبلاغيين حتى عقنوا له باباً خاصاً في دراساتهم تحت عنوان : الإيجاز والإطناب والمساواة، وعنوا كل واحد منها بليغاً إذا جاء في موطنه كما

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٨٥.

(٢) قصص الأنبياء ، عبدالوهاب النجار ص ٥١

(٣) هود : الآية ٣٧.

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٨٢

أشار إلى ذلك "الرماني" إذ يقول: "والإيجاز بلاغة والتقصير عي كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عي"، والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه، وليس كذلك التقصير، لأنه لا بد فيه من الإخلال، فأما الإطناب فإنما يكون في تفصيل المعنى وما يتعلق به في المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل، فإن لكل واحد من الإيجاز والتفصيل موضعاً يكون به أولى من الآخر، لأن الحاجة إليه أشد والاهتمام به أعظم^(١)».

فالرماني يقابل بين أربعة أشياء: يقابل بين الإيجاز والتقصير، الأول من البلاغة لأن فيه زيادة في المعنى مع قلة اللفظ، والثاني عي لأن الألفاظ ليست كافية لآداء المعاني، ويقابل بين الإطناب والتطويل، والإطناب من البلاغة لأن المعاني الكثيرة بألفاظ كثيرة ليس فيها حشو يمكن الاستغناء عنه.

ويلاحظ أن العلماء قد وجهوا جل عنايتهم إلى دراسة الإيجاز وقسموه إلى نوعين: إيجاز بالقصر وإيجاز بالحذف، ويلاحظ أيضاً أن كثيراً من الأمثلة التي يوردونها من كتاب الله تعالى لا تتعدى الألفاظ القليلة المشتملة على موضع الحذف^(٢)، وقليل ما يبين أحدهم قيمة إسقاط المحذوف من الكلام، وقلما يستشهد أحدهم بآية أو أكثر، كما فعل الإمام "عبد القاهر" في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٢٣) فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير^(٢٤) (٣) إذ قال: «ففيه حذف مفعول في أربعة مواضع^(٤)، إذ المعنى

وجد عليه أمة من الناس يسقون غنمهم أو مواشيهم، وامرأتين تذودان غنمهما، وقالتا لانسقى غنمنا، فسقى لهما غنمهما، ثم أنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره (أي المفعول) ويؤتى بالفعل مطلقاً، وما ذاك إلا أن الغرض في أن يعلم

(١) رسالة «النكت في إعجاز القرآن» لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

تحقيق: محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام، ط دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٩١م، ص ٧٨، ٧٩.

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٠٤ وما بعدها.

وتأويل مشكل القرآن ص ٢١٠ وما بعدها.

(٣) القصص، الآيتان ٢٣، ٢٤.

(٤) زاد الزركشي مفعولاً خامساً في قوله تعالى (حتى يصدر الرعاء) والتقدير مواشيهم، البرهان في علوم القرآن

ج ٢ ص ١٧٦.

أنه كان من الناس في تلك الحال سقى ومن المرأتين نود، وأنهما قالتا : لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من "موسى" - عليه السلام - من بعد ذلك سقى، فأما ما كان يسقى غنماً أم إبلأ أم غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه، وذاك أنه لو قيل : وجد من دونهم امرأتين تنودان غنمهما جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو نود بل من حيث هو نود غنم حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود^(١).

وإذا كان الإمام "عبد القاهر" قد دل على ما في هاتين الآيتين من إجمال الإيجاز بالحذف فإن فيهما تفصيلاً وإطناباً أيضاً، مما يدل على اختلاط الإيجاز بالإطناب في القصة القرآنية على نحو معجب لا يتأتى إلا لمن أنعم النظر، ولا يتأتى مثله لبشر، وأن هذا الأسلوب أصل في بناء القصص القرآني ويبدو هذا الإطناب في حوار "موسى" - عليه السلام - مع ابنتي شعيب: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ فهذا التفصيل في جوابهما على سؤال "موسى" كان أمراً لا بد منه، إذ لا يستطيع موسى أن يكشف عن تلك الحال التي وقفت بهما بعيداً عن مورد الماء ليسقيا حين يصدر الرعاة إلا مع هذا التفصيل الذي في جوابهما، فقد كان يمكن أن يكون تأخرهما حياءً وابتعاداً عن موطن الاحتكاك والتزاحم والتدافع من الرجال وقد يكون لداعية غير هذا، فلما صرحا له بحالهما، وأنهما ضعيفتان، وألا رجل لهما يرفع الماء من البئر، وأن أباهما شيخ كبير عرف حقيقة الموقف، وعالجه على الوجه الذي ينبغي مما تقتضيه المروءة والرحمة معاً، وفيه إشارة أيضاً إلى أخلاق قوم "شعيب"، وإلى ما ضمت عليه قلوبهم من غلظة وقسوة، وإلى ما انطوت عليه نفوسهم من أنانية وأثرة، إذ لم يلتفتوا إلى هذين البنيتين الضعيفتين^(٢).

ومن مواطن التفصيل في القصص القرآني المواطن التي يقصد منها إظهار المناقشات التي دارت بين الأنبياء السابقين وأقوامهم، وكذا المواطن التي يظهر فيها التدافع بين أنصار الحق والإيمان وأنصار الباطل، ومنها أيضاً المناقشات التي كانت بين

(١) دلائل الإعجاز : الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، ط دار الكتب العلمية، بيروت - الطبعة الأولى، ١٩٨٨م - ١٢٤.

(٢) انظر القصص القرآني في منطوقه ومفهومه. ص ١٢٦.

بنى إسرائيل وأنبيائهم، فهذه المواطن تحتاج إلى إطناب، وتحتاج إلى عبارة حيث لا تغنى عنها الإشارة، وفي هذه المواطن يغلب الحوار على السرد لأنها تحكى ما كان بين الطرفين من جدال ومناقشات.

ومن ذلك ما جاء فى قصة أصحاب القرية وما دار بين أهلها وبين الرسل الذين أرسلهم "عيسى" بن مريم - عليه السلام - والقرية كما يقول المفسرون (أنطاكية)^(١) وكان أهلها وثنيتين فأرسل إليهم "عيسى" بن مريم رسولين يدعونهم إلى الحق فكذبوهما فعززهما برسول ثالث، فاتهمهم القوم بالكذب والافتراء، محتجين بأنهم بشر مثلهم، ولكن الرسل لم ييأسوا فأعلنوا أنهم رسل الله حقاً وأنهم جاءوا لإبلاغهم الرسالة مؤيدة بالآيات البينات وتمادى أهل القرية فى غيهم وبغيهم، فهددوا الرسل بالعذاب والرجم لأنهم فى نظرهم شؤم، وكان فى القرية رجل مؤمن بدين هؤلاء الرسل فلما سمع بهم أتاها وجادل عنهم أهل القرية وقد أثبتت القصة محاورته أهل القرية على هذا النحو :

﴿ وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسئلكم أجراً وهم مهتدون . وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . ءأخذ من دونه ءالهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون إني إذا لفى ضلال مبين . إني ءأمنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة قال ياليت قومي يعلمون . بما غفر لى ربي وجعلنى من المكرمين ﴾^(٢)

والتفصيل فى هذا الموقف ظاهر، والسياق يظهر حال الرجل الذى جاء يحاج عن رسل "عيسى" - عليه السلام - فهو قد جاء من أقصى المدينة، حين سمع بما يدبره أهلها لهؤلاء الرسل، وعلم أن الموقف جد خطير، فعليه أن يسرع الخطا وأن يهرول إليهم قبل أن يرتكبوا جريمتهم، فلما جاء ملك زمام الموقف، وأخذ يرسل كلامه ويبذل نصحه لأهل مدينته، ويقلب الكلام على وجوه كثيرة، وأخذوا يستمعون إليه وهم عازمون على قتله، ولذلك لم يقاطعوه، بل تركوه يُقضى إليهم بكل ما لديه من حجج وبراهين.

(١) حكى القرطبي إجماع المفسرين على أنها أنطاكية، تفسير القرطبي ج ٨ ، ص ٥٤٦٠ .

(٢) سورة يس : الآيات ١٢ : ٢٩ .

ويبدأ الرجل كلامه بتوجيه هذه النصيحة (اتبعوا المرسلين)، ولعلهم أغروه بصمتهم فأطلق هذه الكلمة الجامعة (اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) فأنتم لا تخسرون شيئاً من دنياكم، وتربحون صحة دينكم لأنهم يدعونكم إلى الهدى، وستجمعون خيري الدنيا والآخرة. " ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم يتلطف بهم ويداريهم، ولأنه أدخل في إحاض النصيح، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه، فوضع قوله (وما لى لا أعبد الذى فطرنى)، مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذى فطركم، بدليل قوله (وإليه ترجعون)، ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذى فطرنى وإليه أرجع وقد ساقه هذا المساق إلى أن قال : (أمنت بربكم فاسمعون)^(١)، وهو يذكر بالمبدأ والمعاد، فهؤلاء الرسل يدعونهم إلى عبادة الله الذى خلقهم وإليه مرجعهم، وفي هذا تعريض بالأوثان التى اتخذوها آلهة، وتسفيه لعقولهم التى ارتضت هذه الآلهة، ثم يتحداهم أن تنفعهم شفاعة آلهتهم إن أرادهم الله بضر، وأن تنقذهم منه، إنكم بعبادتكم هذه الأوثان لواقعون فى ضلال ظاهر، بين لا يخفى على ذى عقل وتمييز، ثم ينهى الرجل حديثه بأن أشهد الرسل وأشهد أهل القرية على إيمانه الصحيح، ليؤكد لهم أنه لا يدعوهم إلى أمر هو منه بنجوى.

إن السر فى هذا التفصيل يكمن فى أن الرجل المؤمن قد وقف موقف الدفاع عن العقيدة وعن الرسل الذين جاعوا بها، فلا بد أن يدفع كل شبهة قد تلصق بهم، وأولى هذه الشبه بالدفع شبهة طلب الأجر على تبليغ الرسالة، تلك التى ردها كثير من الأقوام الذين كذبوا الرسل، ثم لا بد من بيان هذه العقيدة وتجليه أركانها، ولن يتوجه المؤمن بالعبادة، وأين تقع هذه الآلهة التى يعبدونها هؤلاء القوم، وما مصير عابديها، كل ذلك دعا الرجل إلى الإطناب فى حديثه على هذا النحو.

وجرياً على عادة القصص القرآنى فى الإيجاز المحكم حذفت القصة حدثاً مهماً جداً من أحداثها، ودلت عليه ببعض الكلمات، فأهل المدينة قتلوا هذا الرجل المؤمن، ولكن القصة لم تذكر ذلك صراحة، بل دلت عليه بقوله تعالى (قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون) وبذلك يؤكد السياق أن تصلب الرجل فى نصرته دين الله، وسخاءه بروحه قد

(١) الكشف . للزمخشري ج ٤ ، ص ١٠

ترتب عليه دخول الجنة، فالقصة حذفت الحدث، ووفرت المساحة التي يحتلها ذكره لتفضى سريعاً إلى الجزاء الفوري الذي ناله بعد أن وقع عليه حدث القتل مباشرة دون تأخير. ومن ثم يظهر أن لكل كلمة في القصة القرآنية مدلولها، وأن الحدث العظيم المؤثر ليس بالضرورة أن يذكر بل قد يجمّل في كلمات قليلة، أو يحذف تماماً ويشار إليه بما يدل عليه، لأن العبرة من القصة القرآنية هي الغاية، وليست الأحداث تساق للتسلية والمتعة وقتل الوقت كما في القصص البشرية.

وشبيه بهذا الموقف في دواعيه وبواعثه موقف الرجل المؤمن من آل فرعون الذي كان يكتُم إيمانه عن فرعون وملائه، إذ وقف مدافعاً عن "موسى" - عليه السلام - ناصحاً "فرعون" وآله، محاولاً إقناعهم بصحة العقيدة التي جاءهم بها موسى، إلا أن هذا الموقف الأخير أكثر تفصيلاً من سابقه؛ إذ ظل الرجل المؤمن يتحدث إلى فرعون وقومه على مدى ثمانى عشرة آية أو ما يقرب من صفحتين من كتاب الله تعالى ومما جاء على لسان الرجل في هذا الموقف الفصل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصَرُّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كِبَرٌ مِّمَّا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ

يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) ﴿١﴾

إن فهم سر التفصيل في قول الرجل المؤمن يستدعى النظر في بداية هذه الحلقة من قصة "موسى"، وهى تحكى مواقف متأخرة - نسبيا - عن صراع "موسى" مع "فرعون" وقد تنامى فيها الصراع بينهما بصورة تقطع كل طريق ممكن إلى التفاهم، بل إلى الحوار المنظم، الذى يرجى منه الاقتناع، وصارت لغة القتل أو التهديد به هى السائدة بين العدوين اللذين كانا بالأمس يتجاوران ويتجادلان فى شئ من الهدوء النسبى.

تشير بداية القصة إلى أن "موسى" أرسل إلى "فرعون" و"هامان" و"قارون"، وأنهم تواطئوا جميعاً على رأى واحد، فقالوا: (ساحر كذاب)، ثم تواطئوا أيضاً على عقوبة مغلظة فيها إذلال وخزى لبنى "إسرائيل" فقالوا: اقتلوا (٢) أبناء الذين آمنوا معه واستبقوا نسائهم للخدمة والمهانة، وهذا دليل على أن بنى إسرائيل كانوا ما زالوا أذلة مستعبدين للقبط، حتى بعد أن أرسل إليهم "موسى"، ثم يستخدم "فرعون" لغة جديدة عليه إذ يطلب

(١) غافر ، الآيات من ٢٨ : ٤٤ .

(٢) هذا قتل غير القتل الأول؛ لأن "فرعون" كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة "موسى"، فلما بعث "موسى" أدار القتل على بنى "إسرائيل" لئلا يكثر جمعهم، أنظر تفسير القرطبي ج ٨ ، ص ٥٧٤٩ .

من قومه أن يخلوا بينه وبين "موسى" ليقتله (نرونى أقتل موسى) وكأنهم هم الذين يمنعونه من ذلك، مع علمه ويقينه أنه ليس بأيديهم من الأمر شيء، وهذا مكر وخداع وتلاعب بالعقول، وأعجب من ذلك ما علل به هذا القتل، وهو خوفه من أن يبدل "موسى" دينهم، أو أن يشيع الفساد فى الأرض، أما "فرعون" فهو الحريص على صلاح الأرض، ومن أجل ذلك فهو يريد قتل موسى.

ولما وصل الصراع إلى هذا الحد الذى يهدد بفناء الدعوة إذا نفذ فرعون تهديده كان لابد من فتح باب جديد للحوار والجدل، وإذا كان موسى قد استفرغ جهده واستعمل ما لديه من أدوات الحوار الذى لم يجده فتياً مع هذا الطاغية فقد آن للقصة أن تسلك مسلكاً جديداً، كى يتواصل الحوار، فكان دور هذا الرجل المؤمن الذى يعد مفاجأة قصصية مذهلة ولكنها غير مفتعلة؛ فلي ثمة ما يمنع من وجوده محملاً بهذه الطاقات الإيمانية المتفجرة، ولعله هو نفسه الرجل الذى جاء من أقصى المدينة ليخبر "موسى" بمؤامرة "فرعون" وملأته ضده ليقتلوه بعد أن قتل واحداً من القبط (١) على نحو ما حكته صورة القصص فى قوله تعالى : ﴿ وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال ﴾ (٢)

وعلى أية حال فإن القصة تمهيد لموقف الرجل، حين تصفه بأنه مؤمن وكأنها تطمئن القارئ أول وهلة بأن الرجل سينتصف، لموسى ويكون عوناً له فى هذا الموقف الشديد، وأنه من آل فرعون ولذلك أعطى نفسه حق الكلام على هذا النحو، فهو يحس أن له منعة من القوم، لأنه ينتمى إلى ملكهم وينحدر من سلالة العريقة، فله حصانة خاصة، ثم تصفه القصة بأنه كان يكتُم إيمانه عن فرعون، ولكنه رأى أن الإيمان يوجب عليه أن يكشف عن وجهه الحقيقى فى هذا الموقف الذى يكاد يعصف بالدعوة وصاحبها.

ثم يأخذ الرجل فى تفصيل حديثه، فيبدأ النصيح بهذا التظلف الذى ينم عن صدقه وإخلاصه لقومه، وينكر عليهم ارتكابهم جريمة القتل الشنعاء دون سبب غير أن "موسى"

(١) القصص ، الآية ٢٠.

(٢) انظر : فى ظلال القرآن، ج : ٥ ، ص : ٥٨٦٢ .

نطق كلمة الحق فقال ربى الله، مع أنه لم يُحضر لتصحيح قوله ببينة واحدة ولكن أحضر
البيئات العديدة العظيمة التي شهدتموها من عند من نسب إليه الربوبية، وهو ربكم لا ربه
وحده، وهو يريد أن يستدرجهم إلى الاعتراف به ليلين بذلك جماحهم ويكسر سورتهم^(١).
ثم يقلب لهم الكلام على وجه آخر، فيحتج عليهم بأن "موسى" لا يخلو من أن يكون كاذباً
أو صادقاً، فإن كان كاذباً فإن كذبه يعود عليه وحده، ولا يتخطاه ضروره، وإن يك صادقاً
يصيبكم بعض ما يعدكم إن تعرضتم له بأذى، ويظهر حذق الرجل حيث بدأ بافتراض
الكذب قبل الصدق؛ لأنه الأقرب إلى ما يتمنون من "موسى"، مع علمه هو بأنه صادق، فلا
يضره التأخير مع هذا العلم، ثم قال : بعض الذى يعدكم لا كل الذى يعدكم، « ليظهر
منصفاً فى كلامه غير مشتط فى قوله ليسمعوا منه ولا يردوا عليه^(٢) » ثم عقب على ذلك
بأن الله لا يهدى المسرفين الكاذبين، فإن كان "موسى" منهم، فلن يهدى إلى الخير.

ثم يخرج لهم النصيح على وجه آخر، فيطلب منهم الاعتبار بما هم عليه من علو
وظهور فى الأرض، ويحذرهم أن يتعرضوا لبأس الله وعذابه؛ لأنه لا قبل لهم به، ولا
يمنعهم منه أحد، وقال (ينصرتا وجاعا) لأنه منهم فى القرابة، وبذلك يواصل تودده
إليهم ومداراته لهم، ولكن "فرعون" يقطع على الرجل حديثه، فيتوجه إلى قومه بقوله : (ما
أرىكم إلا ما أرى) ما أشير عليكم برأى إلا بما أرى من قتله، فهو لا يستصوب إلا قتله،
إلا رأيه هو.. أما الذى يقوله هذا الرجل فهو غير صواب، أما أنا فأبى ما أعلمكم إلا ما
أعلم من الصواب والرشاد.. وهو يريد أن يظهر بمظهر الرجل المتماسك، الذى تواطأ
لسانه وقلبه على ما يقول، وهو كاذب فى اللباس الذى يرتديه، فقد كان يفرق من موسى
أشد الفرق، ولولا استشعاره الخوف الشديد لم يستشر أحداً، ولم يقف الأمر على مجرد
الإشارة عليهم بالقتل !!

ثم ينعطف الرجل المؤمن بهم نحو التاريخ، ويقلب لهم بعض صفحاته التى
يعرفونها، فيحذرهم يوماً مثل أيام قوم "نوح" و"عاد" و"ثمود" والذين من بعدهم، الذين
كان تدميرهم عدلاً وقسطاً من الله - تعالى - لأنهم استوجبوه بأعمالهم.

(١) انظر الكشف : ج ٤ ، ص ١٦٢ .

(٢) الكشف : ج ٤ ، ص ١٦٣ .

ويقفز بهم إلى مشهد من مشاهد القيامة إذا لم يكن في أحداث التاريخ لهم عبرة فيحذّرهـم هذا اليوم: يوم التناد يوم يهرب بعضهم من بعض، وينادى بعضهم بعضاً ويموج بعضهم في بعض دون أن يكون لهم عاصم من الله سبحانه.

ومن مشهد القيامة إلى تقلب صفحات التاريخ مرة أخرى، تاريخ أجدادهم هم مع نبي من أنبيائهم بل أول أنبيائهم يوسف الصديق - عليه السلام - فيؤبّخهم على موقفهم منه إذ جاءهم بالمعجزات فشكوا فيها، ومازالوا شاكين كافرين، فلما قبض "يوسف" قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً، وأسستم أنتم على هذا الحكم الفاسد حكماً عاماً يقضى بأن تكذبوا كل رسول، وتجحدوا آياته، ولكن "فرعون" - مع ذلك - لا يذعن لمنطق الحق، وهكذا يضل الله كل مسرف كذاب ممن يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان.

ويلاحظ أن "فرعون" حين يقطع حديث الرجل المؤمن لا يتوجه إليه بالخطاب، ولكن يتوجه إلى قومه في المرة الأولى: ﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ﴾ ويتوجه هذه المرة إلى "هامان" وزيره المخلص ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات والأرض فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾ وهي التفاتة لها مغزاها، فالانصراف عن صاحب الدعوة أكبر دليل على فشله في عرض دعواه، وبذلك يفت "فرعون" في عضده، ويخذله أمام القوم، ويؤثر في معنوياته، ويطفئ ثورة الحماس التي في نفسه بعد أن كشف عن إيمانه العميق بموسى، وأظهر ألواناً من الحماس في الدفاع عنه وعن دعوته، ثم إن "فرعون" لا يقارع الرجل حجة بحجة ولا يبادله منطقاً بمنطق، بل يخرج أمره إلى "هامان" على وجه السخرية "بموسى"، وبإلهه الذي يعبده ولكن الرجل المؤمن يواصل وصاياه، فيأمر القوم باتباعه حتى يهديهم سبيل الحق والرشاد، ويبين لهم حقارة الدنيا ويفصل لهم القول، ويواصل الحديث الممتد إلى أن يصل إلى هذه الكلمة الجامعة ﴿ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾.

إن هذا التفصيل قد دعا إليه سياق القصة من جهة، ودعا إليه بناؤها الفني من جهة أخرى، أما البناء الفني فقد أشرت إليه من قبل، وأن ظهور هذا الرجل المؤمن يعد

مفاجأة قصصية، وقد ظهر في الوقت المناسب تماماً، وهو الوقت الذي انقطعت فيه كل سبل التواصل بين "موسى" و"فرعون" وانقطع ما بينهما من حوار وجدل، ولا بد للقصة أن تستمر، ولا بد للدعوة أن تبلغ مداها المقدر لها في علم الله، فكان هذا الرجل يشكل استمرارية القصة، واستمرارية الدعوة في أن واحد، وإذا كان له هذا الدور المؤثر في القصة والدعوة معاً، فلا بد أن يكون حديثه مهماً أهمية الدور المنوط به في القصة، ولن يكتسب دوره هذه الأهمية في القصة إلا إذا خرج كلامه على هذا النحو المفصل الذي يلم بالموقف من كل نواحيه وزواياه، فالماضى ركيزة من الركائز والحاضر - أيضاً - والمستقبل كذلك. المستقبل البعيد الذي يتجاهله هؤلاء القوم، أعنى : يوم القيامة، ولذلك انتهت القصة بهذه اللفظة الموحية التي تحدد المستقبل البعيد لفرعون وقومه : ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ (١).

أما سياق القصة فيقتضى التفصيل أيضاً، واكتفى من هذا السياق بهذه الآية الكريمة التي جاءت في التعقيب على القصة وهي قوله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (٢). فظهور الرجل في هذه الحلقة من القصة يعد مظهراً من مظاهر نصر الله لرسله في الحياة الدنيا، حيث إن القوة المناوئة لموسى محشودة بكل أعلامها " فرعون وهامان وقارون " ظهور الرجل المؤمن في جانب موسى أعطى للموقف نوعاً من التعادلية، التي تسعى إلى بقاء الكفتين في مستوى واحد إن لم ترجح كفة "موسى"، وتهبط كفة عدوه، وقد كان، فالقصة أشارت إلى رأى "فرعون" بقتل "موسى" مرتين دون أن تشير إلى أثر هذا الرأى في نفوس قومه، مما يعطى انطباعاً بأن رأيه لم يجد أذاناً صاغية لدى حاشيته؛ لأنهم انصرفوا إلى حديث الرجل المؤمن الذي ألهم أسماعهم بنصائحه التي احتلت مساحة كبيرة من القصة، ولم يقاطعوه بل تركوه يواصل حديثه حتى أتى على ما في نفسه بأسلوب يدل على أنه كان داعية موهوباً على قدر كبير من العلم والثقافة والإيمان.

(١) غافر - آية : ٤٦ .

(٢) غافر - آية : ٥١ .

هذا مظهر من مظاهر الإطناب فى القصة. قصة "موسى" - عليه السلام - وهى حافلة بكثير من هذه المظاهر فى شطريها الأساسيين، الشطر الأول: الخاص بالجدل والتدافع بينه وبين "فرعون"، والشطر الثانى: الخاص بالمناوشات التى دارت بينه وبين بنى إسرائيل بعد أن نجاهم الله من كيد فرعون، وفى هذا الشطر تظهر القصة بنى إسرائيل بمظهر القوم المتعنتين المتأئين على رسولهم دائماً عن طريق الحكاية المفصلة لكثير من المواقف التى دارت بينهم وبين "موسى"، - عليه السلام - وبين أنبيائهم عموماً ومن هذه المواقف: قصة البقرة التى أمرهم "موسى" بذبحها فى "سورة البقرة"، وقصة الملامع نبى لهم إذ طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون تحت إمرته، وقصة عبادتهم للعجل، هذه وغيرها مواقف قصها القرآن عن: "بنى إسرائيل" بشئ من التفصيل ليبين لجاههم وعنتهم ومعاندتهم، وسيتناول البحث هذه المواقف فى فصول أخرى قادمة - إن شاء الله - (تعالى) -.

الباب الثاني

البناء الفني للقصة القرآنية

المبحث الأول

المشاهد والمواقف والأحداث

المبحث الثاني

الشخصيات والنماذج البشرية

المبحث الثالث

الحوار والسرد

المبحث الأول

المشاهد والمواقف والأحداث

المشاهد: جمع مشهد، وتفيد المادة فى المعاجم اللغوية^(١): النظر والمعاينة والاجتماع والحضور، فالمشهد: المجمع من الناس والمحضر من الناس، والمشاهد: المواطن التى يجتمعون بها.

وفى القرآن الكريم: ﴿... فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٢) أى: «من شهودهم هول الحساب والجزاء فى يوم القيامة، أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف»^(٣) أو من «حضورهم المشهد العظيم الذى اجتمعوا فيه للتشاور، فأجمعوا على الكفر بالله»^(٤).

فالمادة ترتبط بالنظر والحضور والمعاينة، ولذلك يمكن الاصطلاح على أن المراد بالمشهد: «المنظر الذى يمكن شهوده وحضوره والاطلاع عليه وبصره ومعاينته»^(٥).
والمشهد فى الدراما اليونانية القديمة، يجئ على شكل مقطوعات من الحوار التمثيلى الذى يدور بين الشخصيات، ليكشف للمشاهد عن أبعاد كل شخصية، وعن الصراع الدائر بينها، وعلى هذا يمكن أن يعد المشهد التمثيلى بمثابة فصل من فصول المسرحية الحديثة، وقسم الفصل بعد ذلك إلى ما يسمى بالمناظر والمشاهد. وأساس هذا التقسيم يجرى - عادة - على أساس بدء وانتهاء مرحلة محددة فى القصة العامة التى تقوم عليها المسرحية، أى على حدث مرحلى فيها^(٦).

والموقف اصطلاح فنى يطلق فى عالم الفن القصصى وله مدلولان :

المدلول الأول : يطلقه بعض النقاد على المرحلة الأولى من الحدث؛ فكثير من النقاد يشترطون فى الحدث: أن يكون مكوناً من بداية ووسط ونهاية، والبداية أو الموقف هى المرحلة الأولى التى يتعرف فيها القارئ على الحدث وعلى الشخصيات وعلى

(١) انظر مثلاً من المعاجم: لسان العرب والمصباح المنير : مادة شهد

(٢) سورة مريم : من الآية ٣٧.

(٣) الكشف للزمخشري ج ٢، ص ١٧.

(٤) تفسير القرطبي : ج ٦ ، ص ٤١٤٧.

(٥) المشاهد فى القرآن الكريم. د: حامد صابق قنبيى ، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، الطبعة الأولى ١٩٨٤ م، ص ٧

(٦) انظر : دراسة فى نظرية الدراما الإغريقية، د. محمد حمدي إبراهيم، ط دار الثقافة للطباعة والنشر، ص ٧ .

والأدب وفنونه د. محمد منتور : ط دار نهضة مصر، ١٩٨٠م ص ١٠٨ ، ١٠٩

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ (١).

هذا موقف وإن لم يكن موقفاً قصصياً فإنه يكاد يكون قصة كاملة بعناصرها الأساسية، وخاصة بعقدتها وما فيها من عواطف بشرية، ويبدأ هذا الموقف بمشهد تتقرر فيه القدرة المهيمنة على الحركة والسكون برأً وبحراً: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، أى يحفظكم ويكلؤكم بحراسته. ومشهد ثانٍ يصور الفلك تتحرك رخاء، بسبب ريح طيبة مواتية لهم فى سيرهم فيفرح أهل الفلك لما يتمتعون به من الأمن والسلام ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾. ومشهد ثالث تقع فيه المفاجأة لأهل الفلك فيتبدل رجاؤهم الأمن ذعراً، وسرورهم الشامل غماً واضطراباً، وسيطر الهول عليهم: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾ فتضطرب الفلك بمن فيها، ويضربها الموج، ويدور بها كالريشة الضائعة فى الخضم وهؤلاء أهلها فى فزع يظنون أنهم لابد هالكون: ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾. وتكملة لهذا المشهد يرى القارئ أهل الفلك وقد تعرت فطرتهم مما ألم بها، ونفضت قلوبهم ماران عليها من تصورات، ونبضت فطرتهم السليمة بالتوحيد والدينونة لله وحده: ﴿دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُجِيتَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

ويسبب تغير ملامح المشهد - رغم ثبات عناصره ومواده - يلحظ القارئ التغير الجذرى فى عواطف شخصيات أهل الفلك، ويلحظ التغير - أيضاً فى سلوكهم وهيئاتهم: فكانهم يتجهون بقلوبهم قبل أيديهم إلى السماء لحظة التضرع بالدعاء.

ومع المشهد الرابع يحدث تغير آخر فى ملامح المشهد: إذ تهدأ العاصفة ويطمئن الموج، وتستقر السفينة كما كانت قبل تصل أمانة إلى الشاطئ، ويحدث تغير - أيضاً - فى عواطف الشخصيات، فتهدأ الأنفاس وتسكن القلوب، وتستقر الأرجل على اليابسة، فيوقنون بالحياة: ﴿فَلَمَّا أَتَجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

إن هذا الموقف بمشاهدته المتعددة لهو خير دليل على طريقة القرآن الكريم فى إخراج المعانى الذهنية على هيئة صورة حافلة بالحركة المتجددة والمشاهد المتتابعة^(١). وفى هذا الموقف قوتان متصارعتان : إحداهما : قوة مسيطرة غالبة قاهرة وتتمثل فى عناصر الطبيعة، من الريح العاصف والموج العاتى. والثانية : قوة مستسلمة مقهورة لا تملك من عناصر المقاومة شيئاً ذا بال، وتتمثل فى أهل الفلك، الذين لم يستطيعوا إلا أن يرفعوا أكف الضراعة إلى الله لينجيهم من القوة الأخرى المقابلة؛ فالصراع فى هذا الموقف غير متكافئ، وبالرغم من ذلك انتهى لصالح القوة المقهورة المستسلمة، وذلك نتيجة لتدخل القوة الإلهية لصالحها^(٢).

ومن المشاهد القرآنية التى اجتمعت فيه عناصر المشهد القصصى ولكنها لا تحتوى عناصر الموقف ما حكاه القرآن من هيئة أهل الكهف حين أروا إلى كهفهم واستغرقوا فى نومهم الطويل : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ۝ (١٧) وَحَسْبُهُمْ أَيْقَاطُ وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِكْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۝ (١٨) ﴾^(٣).

وتصور الآيتان مشهد أهل الكهف تصويراً عجيباً، لا يستطيع الشريط السينمائى أن يصوره إلا بصعوبة بالغة؛ فالفتية فى فجوة من الكهف، والشمس تخرج لهم من المشرق يمينا، وتميل على الكهف كأنها متعمدة، ولفظة «تزاور» تصور مدلوها

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن الكريم ص ٤٨

و : فى ظلال القرآن الكريم ج ٢ ص ١٧٧٤ ، ١٧٧٥

و : المشاهد فى القرآن الكريم ص ٨٨ : ٩٠

و : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ص ٤١٢ .

و : أوضح التفاسير : محمد على الصابونى ، ط دار الرشيد سورية ج ٥ ص ٥٨٠ .

(٢) ليس لهذا الكلام أدنى علاقة بما كان يعرف بـ « الحل الآلى » الذى كان يحدث فى المسرحيات اليونانية تحت مصطلح « الإله القادم عن طريق الآلة » لحل العقدة حين يغلت زمام الأحداث من يدي المؤلف انظر : دراسة فى نظرية الدراما الإغريقية ص : ٩٠ ، ٩١ .

(٣) سورة الكهف : الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

وتلقى ظل الإرادة فى عملها، تم تنحرف الشمس عنهم - إذا غربت - جهة الشمال، فالشمس والهواء يحيطان بهم، وذلك أصلح مكان؛ فأسباب الحياة الطيبة مهياة لهم، وهم رقاد، وإن كان الراى يحسبهم أيقاظاً، والوصف القصصى للمشهد يصور المكان كأن القارئ للقرآن يراه.

ولا يترك القرآن من المكان والهيئة شيئاً إلا بينه وصوره، فهم يقلبون من جنب إلى آخر فى نومتهم الطويلة، فيحسبهم الراى أيقاظاً وهم رقاد، وكلبهم باسط ذراعيه بالفناء قريباً من باب الكهف كأنه يحرسهم.

وحتى الظلال والمشاعر النفسية - لمن يرى هذا المشهد- يصورها القرآن الكريم؛ ففى المكان رهبة وفى حالهم هيبة، بل إن هيئتهم تثير الرعب والفرع فى قلب من يراها حتى إنه لا يستطيع أن يستقر فى المكان^(١).

هذا التصوير القرآنى المعجز يصور مشهداً تشترك فيه شخصيات إنسانية وحيوانية، كما تبدو فيه بعض عناصر الطبيعة « الشمس »، ولا تنقصه الحركة، وإن كانت بطيئة متثاقلة؛ فحركة الشمس فى طلوعها وغروبها لا تكاد تلحظ إلا على مدد متباعدة، وتقلبهم يميناً وشمالاً كان قليلاً - أيضاً - كما يحكى المفسرون^(٢).

وليس فى هذا المشهد حوار، وليس فيه صراع كذلك، ولذا لا يعد موقفاً قصصياً رغم أنه مشهد زاخر بكثير من ألوان التصوير والتناسق.

«والتصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن؛ فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى المجرد، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور ... فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر، فيردها الأسلوب القرآنى شاخصة حاضرة، فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل، فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نُظَّارةً وحتى ينقلهم إلى مسرح الحوادث الأول الذى وقعت فيه حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات»^(٣) كل ذلك يخيل للقارئ أنه

(١) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، الإمام محمد أبو زهرة ص ١٩٦.

و: فى ظلال القرآن ج ٤ ص ٢٢٦٢.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٩٨٧.

و: الكشف ج ٢ ص ٧٠٩.

(٣) التصوير الفنى فى القرآن، ص ٣٦، ٣٧.

يرى الحياة وليس يسمع حكاية الحياة.

والأداة المستعملة فى هذا التصوير والتشخيص إنما هى الكلمات الجامدة لا الألوان المصورة ولا الشخوص المعبرة، وبذلك يظهر بعض أسرار الإعجاز فى هذا اللون من تعبير القرآن^(١).

والتصوير القرآنى بالغ مدى إعجازه - وإن كان القرآن كله معجزاً - حين يشخص حادثاً مروياً، أو يرسم مشهداً قصصياً، فيحيط به من كل جوانبه، ويستقصى فى توضيح المشهد، فيضع الهيئة الجسمية بإزاء الخلجة الشعورية، ويوازى بين الحدث الجزئى والكلمة من الحوار أو الوصف.

ولأهمية التصوير فى إبراز المعنى وتصوير الحدث قد تبنى بعض الحلقات من القصص القرآنى على مجموعة من المشاهد المتتابعة، يغلب عليها الحوار، ويقل السرد والوصف إلى أقصى درجة ممكنة؛ مما يجعل هذا القصص قريباً من أسلوب المسرحيات ومن أمثلة ذلك قصة «إبراهيم» فى سورة الأنبياء وقصة «سليمان» وملكة سبأ وقصة «موسى» فى سورة الشعراء.

وهذه القصة الأخيرة يمكن تقسيمها إلى سبعة مشاهد، يطول بعضها ويقصر بعضها الآخر حسبما يقتضيه الحوار، وما تستدعيه الأحداث، وهذه المشاهد يعتمد معظمها على الحوار اعتماداً كلياً فى تصوير الحدث، وقليل منها يختلط فيه الحوار بالوصف، وللحوار فيها أثر بعيد فى إحياء المشاهد، وفى تمكينها من التأثير بالكلمة تأثيراً لا يبلغه التأثير بالصورة أو الحركة، فالحوار حقق فى المشاهد سمة الحضور حتى إن القارئ كأنه يرى ويسمع، يرى أشخاصاً يتحاورون، فتخرج الكلمة من فم صاحبها محملة بنبضه وأحاسيسه ومشاعره، أو كأنها تحمل قسماً وجهه وما انطبع عليه من آثار.

فلا سجل هذه المشاهد واحداً واحداً ليرى القارئ أطراف الحوار، ويرى هيئاتهم وربما التفات أحدهم أحياناً، وذلك من خلال الكلمات المحملة بالعواطف والانفعالات أيضاً.

يقول تعالى ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ

(١) انظر: التصوير الفنى فى القرآن : ص ٢٦ : ٢٧ .

أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴿١﴾

هذا هو المشهد الأول من مشاهد القصة، مشهد تكليف "موسى" - عليه السلام - بالرسالة، و يبدأ بوصف سريع خاطف: ﴿ القوم الظالمين قوم فرعون ﴾ ولكن هذا الوصف يحمل سمة الحوار أيضاً، ﴿ وإذ نادى ﴾ فالنداء وضع موضع القول، فهو يحمل معناه، وبذلك تضع القصة - بأسلوبها - القارئ في قلب الأحداث مباشرة ودون تمهيد، وقد جاء هذا الوصف السريع معبراً، لأنه كشف عن إحدى القوتين كشفاً واضحاً؛ فهم قوم ظالمون «ظالمون حين كفروا، وظالمون حين أذلوا بني إسرائيل.

وجاءت جملة الحوار الأولى على لسان « موسى » متساوقة تماماً مع إحياءات هذا الوصف؛ فعبر عن خوفه أن يكذبه هؤلاء الظالمون، وأن يضيق صدره ويحتبس لسانه فلا يستطيع الكلام بسبب تكذيبهم. ورتب على هذه المخاوف الثلاثة (٢) طلب إرسال الله إلى أخيه "هارون"، ثم يكرر "موسى" ذكر الخوف مرة ثانية، وهو خوف معلل بما فعله هو نفسه قديماً مع واحد من شيعة فرعون يوم وكزه موسى فقضى عليه، فهو يخاف أن يقتله فرعون قوداً بهذا الرجل.

ويسمو الحوار القرآني إلى ذروة الإعجاز ﴿ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا... ﴾ كلا هذه

(١) سورة الشعراء : من الآية ١٠ : ١٧ .

(٢) يرى الأستاذ سيد قطب: أن خوفه - عليه السلام - ليس من مجرد التكذيب، ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين ، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده.

ويرى الزمخشري مثل هذا الرأي : ويرجع أن يكون التكذيب من القوم سبب ضيق الصدر، وضيق الصدر سبب حبس اللسان. ويرى القرطبي : هذا الرأي الأخير فقط.

انظر : في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٥٨٩ .

و : الكشف : ج ٢ ص ٢٠٢ .

و : تفسير القرطبي ج ٧ ص ٤٨٠-٨ .

اللفظة التي تستعمل أساساً في الردع، تستعمل هنا في الطمأنينة وبث الهدوء والسكينة في نفس «موسى»، كلاً لن يحدث شيء واحد مما تخافه، فلن يضيق صدرك، ولن يحتبس لسانك، ولن يقتلوك قوداً. وقد بقى طلب «موسى» في الإرسال إلى «هارون»، فكيف أجب عنه الأسلوب القرآني؟ إنه لم يزد على أن وجه الكلام إلى «موسى» و«هارون» معاً ﴿اذهبا﴾ ليفيد القارئ أن طلب «موسى» قد حظى بالقبول، وفيه لفظة أخرى معجبة وهي أن الأمر بضمير المثنى فيه طمأننة لموسى إلى أن أخاه «هارون» مازال حياً بمصر، وكان «موسى» حين تلقى هذا الأمر الإلهي بطور سيناء، ويمكن أن يوحي التعبير بضمير التثنية بتغيير المشهد، بمعنى انتهاء مشهد المناجاة الذي كان في سيناء، وبدأ مشهد جديد في مصر، أحد طرفيه موسى وهارون معاً، وفي ذلك عجيبة أخرى؛ إذ كيف انتهى المشهد الأول وابتداء المشهد الثاني هكذا دون تدخل أو تنبيه من السياق إلا هذا الضمير الذي زاد في الكلمة !!! وكيف طوى ما بين المشهدين من أحداث استغرقت زمناً ليس بالقليل (١)؟!

ثم يأتى التعبير ﴿بآياتنا﴾ ليمثل السلاح المادى لموسى بعد أن اطمأن إلى مصيره ومصير أخيه، وقد عاين «موسى» من هذه الآيات العصا واليد البيضاء، ولكن السياق يختصرهما هنا اكتفاءً بهذه المعاينة، واعتماداً على تفصيلهما، في مواضع أخرى من القصة، ولكي يدلف القارئ إلى مشهد الحوار الجدلي على بعد كلمات منه.

طلب موسى الحماية فطمأنه الله إلى أنه معه يصحبه صحبة نصر وتأييد ﴿...إنا معكم مُسْتَمِعُونَ﴾ فهو يرسمها في صورة الاستماع الذي هو أشد درجات الحضور والانتباه وهذا كناية عن دقة الرعاية وحضور المعونة، وذلك على طريقة القرآن في التصوير (٢).

وهناك تناسق لفظي دقيق بين قوله تعالى على لسان «موسى» ﴿إني أخاف أن يكذبون﴾ وقول الله تعالى ﴿إنا معكم مستمعون﴾؛ فالتكذيب يكون بالأكفاظ والكلمات

(١) انظر : بدائع الإضمار القصصى في القرآن الكريم، ص ١٤٠ وما بعدها .

(٢) انظر : في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٥٩٠ .

وآلة إدراكها الأذن السامعة، ومن هنا ناسب ذلك التعبير بقوله تعالى ﴿مستمعون﴾ أى أسمع كلامهم الذى يحمل تكذيبهم دعوتك.

وبقدر تناسق هذا التعبير مع كلمات «موسى» بقدر ما يوحى أنه مقبل على جدل وحوار تتراشق فيه الكلمات كما يتراشق المحاربون بالنبال.

ويتكرر الأمر بالذهاب، بل بالإتيان؛ إذ فيه معنى القدوم والدخول على فرعون، وقد قدم الرسولان بكلمة واضحة لا لبس فيها وأمرًا بقولها ﴿فقلوا إنا رسول رب العالمين﴾. ومن الواضح أنهما اثنان أرسلتا برسالة واحدة فهما رسول واحد لأن غايتهما واحدة، وكانت مهمتهما تتلخص فى استنقاذ بنى إسرائيل من براثن فرعون، وإطلاقهم من قبضته.

والى هنا ينتهى مشهد الرسالة والوحى والتكليف ليبدأ مشهد جديد، مشهد المواجهة بين «موسى وهارون» من جهة وبين «فرعون» وملاؤه، من جهة ثانية وقد طوى الأسلوب القرآنى بين المشهدين كثيراً من الأحداث والمواقف؛ إذ كيف سار موسى من سيناء إلى مصر، وكيف التقى ببنى إسرائيل الذين جاء لانقاذهم وكيف التقى بأخيه هارون، وكيف جد عزمهما على الذهاب إلى فرعون، ثم كيف كانت بداية اللقاء بينهما وبين «فرعون» كل ذلك طوته القصة لأنها تفصيلات يمكن تصورها دون إخلال ببناء القصة، ويفاجأ القارئ بأنه انتقل من مشهد المناجاة فى طور سيناء إلى مجلس فرعون فى مصر وهو يلقى «موسى» بهذا الجواب الذى يبدأ به المشهد الثانى (١).

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ

(١) انظر : الكشف ج ٣ ص ٢٠٥

و : تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٢٢٢ .

و : فى ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٥٩٠

و : القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ص ١٣٢

و منهج القصة فى القرآن : ص ٤٤ . ٤٥ .

عَبَدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهاً غَيْرِي
لَأَجْعَلَ لَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ
لِلنَّازِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ
أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ
(٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴿١﴾

إن الفجوة بين هذا المشهد والذي قبله ليس المقصود بها طي الأحداث المعلومة
للقارئ فحسب، ولكن لها أثراً عظيماً في نفس المتلقى حين يفاجأ بهذه النقلة المكانية
الزمانية التي حدثت، والتي ترتب عليها هذا الحضور الفوري المفاجئ الذي نقله من موقف
إلى موقف في لحظة خاطفة، فطوى فيها أبعاد الزمان والمكان دون أن يفتقد المرء
الإحساس بهما، وإن هذا الحضور الناشئ من الفجوة بين المشهدين ليدلف بالقارئ -
دون أن يشعر - إلى مسرح الحوادث، وإذا هو يرى ويسمع كل ما وقع وما قيل في هذا
الموقف، وكأنه واحد ممن حضروه أو شاركوا فيه (١).

وللقارئ أن يلحظ الفرق بين أول الحوار وآخره في هذا المشهد، فالبدائية تشبه
التحرش والمناوشة، وفي الكلمات ما يشبه التثاقل والبطء، وفي الأسلوب طول وامتداد من
طرفي الحوار.

ففرعون يقول ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)
وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) ﴾.

(١) سورة الشعراء : الآيات ١٨ : ٢٧ .

(٢) انظر : القصص القرآني في منطقته ومفهومه : ١٢٢ .

وموسى يرد عليه : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ .

انتهى المشهد الأول بطلب «موسى» أن يرسل «فرعون» معه بنى إسرائيل، ولكن «فرعون» يمسك عن الرد على هذا الطلب الواضح، ويحول دفة الحوار إلى قضية أخرى تلك هى قضية تربية «موسى» فى قصره حين كان وليداً، ونشأته فى سنواته الأولى بين يدي «فرعون» ويعرض بموسى، بأنه لم يحدثه عن رب العالمين - الذى يتحدث عنه اليوم - فى سنوات عمره الأولى، وبأنه لم يحفظ جميل «فرعون» عليه حين رباه ونشأه فى بيته، بل أنكر هذا الجميل حين فعل فعلته الشنيعة التى لا يناسبها الكلمات المكشوفة، فقتل واحداً من شيعته، وكأنه يقول لموسى : أفعلت هذه الفعلة الشنيعة وأنت كافر برب العالمين الذى تدعونا إليه اليوم؟

لقد حسب «فرعون» أنه جابه «موسى» بكل ما من شأنه أن يسكته ويرده عن دعوته، وخاصة حكاية قتل القبطى، التى يمكن أن يقتل «موسى» قصاصاً فيها، فتهديده كان من وراء الكلمات.

ولكن «موسى» يفند دعاوى «فرعون» ويرد اتهاماته واحداً بعد الآخر فى تناسق لفظى يبلغ بأسلوب الحوار القصصى إلى ذروة الإعجاز، فالذى يتأمل ردود «موسى» يجد أنه رد على القضايا الثلاث التى أثارها «فرعون»، ولكنه رد القضية الثالثة أولاً، وثنى بالرد على أوسطها وآخر الرد على الأولى^(١)، وبيان ذلك :

إن قول موسى ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ . تقع بإزاء قول فرعون ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ... ﴾ . كأنه يريد أن يقول : ما كانت تربيتى فى بيتك وليداً إلا من جراء استعبادك لبنى إسرائيل وقتلك أبناهم . مما اضطر أُمى أن تلقينى فى التابوت، فتقذف بالتابوت فى الماء، فتلتقطونى، فأربى فى بيتك لا فى بيت أبوى، فهل هذا هو ما تمنه على ؟ وهل هذا فضلك العظيم؟^(٢) .

(١) فى ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٥٩١ ما يوحى بهذا المعنى وإن لم يكن مصرحاً به.

(٢) فرعون فى القرآن ، أبو الأعلى المودبى ، ط المختار الإسلامى للطبع والنشر ص ٩٩.

ويقع قول موسى : (فوهب لى ربي حكما وجعلنى من المرسلين) بإزاء قول فرعون : (ولبثت فينا من عمرك سنين) فكلام فرعون - كما قلت - فيه تعريض بموسى، وأنه لم يتحدث فى سنوات نشأته الأولى عن رب العالمين، فرد موسى بأنه لم يكن أوتى الرسالة حتى يحدثهم عنها ويبلغهم بها . وينهض التعبير القرآنى بأداء المعنى أحسن ما يكون ، فموسى يقول (وجعلنى من المرسلين) ولم يقل : مرسل، لأنه ليس بدعاً من الرسل، وإنما هو واحد منهم، وقد أرسلوا جميعاً بعد سن الشباب، ويقع قول (موسى) : (فعلتها إذا وأنا من الضالين) فى مقابلة قول «فرعون» : (وقعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين) يريد «فرعون» أن يلصق به تهمة الكفر بهذا الإله الذى يدعو إليه اليوم، فرد «موسى» هذه التهمة بأنه حين قتل القبطى لم يكن كافراً، وإنما فعلها عن جهل وغفلة .

وبعد هذا الحوار الطويل نسبياً، يشتد الصراع ، فتجئ الكلمات قوية متقطعة، وتخرج من أفواه المتحاورين كأنها السهام .

ففرعون يسأل عن صميم دعوة «موسى» : (قال فرعون ومارب العالمين) فيجيب «موسى» بالصفة المشتمة على ربوبيته للكون كله (قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) إنه يريد أن يهدم أهم دعاوى فرعون التى ادعاها لنفسه، وهى دعوى الإلهية إذ قال : (أنا ربكم الأعلى)، «وموسى» يقول له : كلا إن الملك الذى تفخر به لا يساوى ذرة فى ملكوت رب السموات والأرض .

فالتفت عن «موسى» وإن القارئ ليرى التفاتته عنه إلى من حوله من الملقائلا : (قال لمن حوله ألا تستمعون) .

هو يستغرب دعوة «موسى» ويريد أن يشرك معه الملقى الاستغراب، ولكن «موسى» فاجأه بقوله : (قال ربكم ورب أبائكم الأولين) .

وفى هذا مساس بفرعون نفسه ، فرب العالمين ربه هو نفسه، فهو ليس إلها كما يدعى ، وهو رب الآباء أيضاً، فهم جميعاً، ومنهم فرعون عبيد له .

فالتفت «فرعون» إلى بنى إسرائيل يريد أن يحرضهم على رسولهم (قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) .

أراد فرعون أن يخرج بالحوار عن حد المعقول ، وأن ينسرب من الجد والاتزان إلى

الصياح واللفظ حيث تختلط الأصوات، ويضيع صوت الحق، فعُدل "موسى" بالحوار إلى طريق التحدى، وهنا تتطور الأحداث في المشهد تطوراً مهماً حتى تبلغ غايتها في المواجهة، كما أراد لها «موسى» وقد أعد أسلحته، ولكنه لا يلقي بها فجأة ودون مقدمات : (قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) وفي ذلك نوع من التحدى لفرعون، فإن المشرق والمغرب والشرق والغروب منظران مألوفان فهل يستطيع فرعون أن يدعى تصريفهما على هذا النسق العجيب إذا كان لا يستطيع ذلك فليعلم أن الذى يصرفهما إنما هو رب العالمين الذى جئت من عنده .

وهنا يضرب الانفعال فرعون فيريد أن ينهى الحوار ، ويهدد موسى بأن مصيره سيكون السجن إن ظل متمسكاً. يدعواه . (قال لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين) .

ويمسك "موسى" بزمام الحوار، فإذا كنت يافرعون قد عجزت عن ادعاء شئ يثبت إلهيتك المزعومة وربوبيتك المدعاة فسأى أنا بشئ يثبت صدق دعوتى ورسالتى : (قال أولو جئتكم بشئ مبين)

(قال فأت به إن كنت من الصادقين) : إن كنت من الصادقين فى أنك رسول وأن عندك شيئاً مبيناً .

(فألقي عصاه فإذا هى ثعبان مبين) (ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين) والتعبير هنا يدل على أن العصا تحولت إلى ثعبان تدب فيه الحياة، وأن يده حين نزعها كانت بيضاء فعلاً، يدل على هذا بقوله (فإذا هى) فلم يكن الأمر تخيلاً كما هى الحال فى السحر الذى لا يغير طبائع الأشياء ، إنما يخيل للحواس يغير الحقيقة^(١) . أحس فرعون ضخامة هذه المعجزة فأراد أن يغطى على وقعها المزلزل فى نفسه وفى نفوس القوم فحاول أن يغريهم بموسى .

(قال للملاء حوله إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحر فماذا تأمرون) فماذا تأمرون به؟ . لأول مرة على امتداد هذا الحوار يريد فرعون أن يشاور الملاء، بل ذهب إلى ما هو أبعد من المشاورة، إنه يوحى إليهم أنهم أصحاب الأمر، وبماذا

(١) فى ظلال القرآن ج ٢ ص ٩٢٣ .

يأمرون بعد أن لقنهم التهمة التى ألصقها بموسى (إن هذا لساحر عليم)؟ وبماذا يأمرون؟! بعد أن زور فى المهمة التى جاء بها هذا النبى، لاشك أنهم سيرون رأيه وينزلون عليه .

إن هذا الاستفهام يوحى بل يصور الظلال النفسية الكثيرة لدى فرعون، لقد أراد أن يبدو هادئاً مستقراً ولكن التعبير فضحه وعراه، فضحه حين كشف عن الذعر الذى بداخله، وعراه من الهدوء الذى ادعاه، فمتى كان أمثال فرعون يتلقون الأوامر من رعيتهم وهم له يسجدون؟! .

ويبدو أن حيلته انطلت على قومه لسدأ جتتهم التى قد تكون متعمدة فاستجابوا لظاهر كلامه وتبرعوا بإسداء النصيح .

(قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحار عليم) .

لقد بدأ المشهد بطيئاً متثاقلاً وكان فى أسلوبه طول وامتداد ، فلما جاشت النفوس بالانفعالات، وحس الصراع صارت الحركة سريعة متلاحقة، وفى هذا تصوير صادق للانفعالات المتولدة فى الحوار، ولذا خرجت الكلمات كأنها السهام تنطلق من أقواسها بلا توقف أو انحراف (١) .

إنتهى المشهد الثانى بنصيحة الملأ أن يرجئ فرعون المواجهة مع "موسى" حتى يجمع كل سحار عليم، ويأتى المشهد الثالث ليبين عملية جمع السحرة .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٢٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٢٩) لَعَلَّكُمْ تَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) (٢) .

بيد أن عملية الجمع لم تكن للسحرة فقط وإنما حدث ما يشبه التعبئة العامة فالسحرة (جمعوا) بهذا اللفظ الموحى، وكأنهم أشياء فاقدة الحس والإدراك والشعور بل فاقدة العقل نفسه، والجاهير أيضاً اجتمعوا بفعل التحميس والإهاجة التى تعرضوا لها، اجتمعوا ليتربحوا فوز السحرة وغلبتهم على موسى .

وبلى هذا المشهد مشهد قصير آخر يظهر فيه فرعون كأنه القائد الذى اجتمع

(١) انظر : القصص القرآنى فى منطق ومفهومة ص ٤٣١ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ٢٨ : ٤٠ .

بجنوده لإلهاب حماسهم قبل أن يدخلوا المعركة ، فهم يطلبون منه الأجر ، إن كانت لهم الغلبة ، فيوافق على ذلك ، ويمنيهم بما هو أكثر من الأجر ، يعدهم بتقريبهم إليه والدخول فى حاشيته .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿ (١) .

ونلاحظ أن المشهدين السابقين قد خصصا لمعسكر فرعون نون أن ترد كلمة واحدة عن موسى وأخيه ، وهذا يعطى انطباعاً بأن فرعون وملاه قد أخذوا الأمر مأخذ الجد البالغ ، وأنهم حشدوا كل ما يستطيعون من قوة ، حتى إذا وقعت الهزيمة بهم فى المشهد الثانى وقع انقلاب مفاجئ للقارئ يوازى الانقلاب الذى حدث للسحرة ، وهب أن القارئ يقرأ القصة للمرة الأولى فلا بد أن يقع له هذا الانقلاب ، وحتى إذا كان يقرأها وهو يعرف أحداثها وتفصيلاتها فهو - لاشك - سيقف أمام هذا التحول الذى وقع فى الأحداث بعد أن عرف قوة المعسكر الذى حاقت به الهزيمة .

ثم يأتى المشهد الخامس ، مشهد المباراة الكبرى بما فيها من أحداث وتحولات خطيرة .

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ (٤٢) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥١) ﴿ (٢) .

ينتهى المشهد الرابع فى مكان ما بعيداً عن عين "موسى" ويبدأ هذا المشهد الخامس فى مكان آخر . وإذ بالأسلوب يعبر عن هذا التغير المكانى ، ويعبر عن دخول "موسى"

(١) سورة الشعراء ٤١ : ٤٢

(٢) الشعراء ٤٢ : ٥١

فى قلب المشهد الجديد، يعبر عن ذلك كله بكلمات ثلاث : (قال لهم موسى) وقد عكست كلمات موسى ظل الطمأنينة والهدوء الذى فى نفسه، فلم يزد على أن قال لهم (ألقوا ما أنتم ملقون) فمهما كان ما تلقون فلن يؤثر فى نفسى .

ومما يؤكد هذا الشعور بالهدوء أن السياق اكتفى بقوله تعالى : فألقوا حبالهم وعصيهم) ولم يشر إلى خوف "موسى" ليبقى ظل الطمأنينة والثبات . ولينتهى سريعاً إلى نتيجة المباراة .

ويبرز الأسلوب القرآنى الحدث مصوراً ، فعصا موسى تلقف ، واللقف هو الحركة السريعة للأكل، فإن ما يحدث من العصا إنما هو حقيقى لا تخيلى ، والسحرة يعلمون ذلك جيداً : لأنهم أعلم الناس بحقيقة السحر وما يحدث فيه من تخيل إلى المشاهدين، أما ما صنعه موسى فليس سحراً ولا شيئاً يشبه السحر، إن عصاه ابتعلت ما صنعوا فعلاً، وبذلك يمهّد السياق للتحوّل الكبير فى قلوب السحرة وفى نفوسهم، ويصور الأسلوب أيضاً سرعة السحرة فى التحوّل من الكفر إلى الإيمان ، فقد ألقوا إلقاءً دون إرادة منهم ودون تفكير، وتحركت ألسنتهم بكلمة الحق ناصعة واضحة وعطف هذا الفعل بالفاء دون غيرها (فألقوا) .

وأسقط فى يد فرعون فلم يجد بداً من أن يتهم هؤلاء السحرة بالولاء لموسى كبيرهم الذى علمهم السحر، «وهى تهمة عجيبة لا تفسير لها إلا أن بعض هؤلاء السحرة - وهم من الكهنة - كانوا يتولون تربية موسى فى قصر فرعون أيام أن تنبأه، فار تكل فرعون إلى هذه الصلة البعيدة، وقلب الأمر، فبدلاً من أن يقول : إنه لتلميذكم قال : إنه لكبيركم ليزيد الأمر ضخامة فى أعين الجماهير»^(١) .

وأخذ «فرعون» يهددهم ويتوعددهم بالعذاب والقتل والتصليب فى جذوع النخل، ولكنهم لا يكثرثون به ولا بعدابه، إن الذى يشغلهم هو الغفران الذى يرجونه من الله رب العالمين .

وينتهى هذا المشهد دون أن يفصل القرآن كيف وقع القتل على السحرة ودون أن يصور منظر التصليب الذى كان ، ليحتفظ المشهد بجلاله وعمقه : جلال الإيمان الصحيح

(١) فى ظلال القرآن الكريم ج٥ ص ٢٥٩٧

وعمقه في نفوس المؤمنين .

ويأتى المشهد السادس بشقيه ، يرى القارئ في أحد شقيه «موسى» عليه السلام - يخرج ببني إسرائيل من مصر ليلاً بعد أن أوحى الله إليه بالخروج ، لأن فرعون سيتبعهم ، ويرى في الشق الثانى «فرعون» مغيطاً مهتاجاً يرسل رسله فى مدن مملكته يجمع الجنود ويحشد القوى . ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنَّ أَهْلَ بَيْتِهِ الَّذِينَ تُحِبُّونَ فَلْيُخَوِّفْهُمْ فَلْيُخْرِجْهُمْ مِنْ مِصْرَ ۖ وَلْيُلْهِمْهُمُ ابْنَ مَرْيَمَ ۚ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَفَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ ۝٥٦ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ ﴾ (١) .

وبين هذا المشهد والذى يليه ثلاث جمل وصفية وهى قوله تعالى عن قوم فرعون: فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ ۝٥٩ (٢) .

لقد خرجوا من مصر يقفون أثر «موسى» وقومه ، فكان خروجهم هذا هو الأخير ، وكان إخراجاً لهم من كل ما هم فيه من جنات وعيون وكُنُوز ومقام كريم ، فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم ، لذلك ذكر هذا الخروج تعجيلاً بالجزاء الذى وقع على الظلم والبغي . ولعل ذكر هذا الخروج يجعل القارئ فى شوق إلى معرفة النهاية ، إن كان لا يعرفها فالوصف ليس دخيلاً على القصة ، ولكنه استخدم ليحمل العبرة منها ، كما استخدم فنياً فى تشويق القارئ ليتطلع إلى النهاية التى أعقبت هذا الخروج أو الإخراج كما عبر القرآن ، وبعد هذا الوصف يأتى المشهد الأخير .

﴿ فَأَتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُوكَ ۝٦١ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ۝٦٤ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦٨ ﴾ (٣) .

(١) الشعراء : ٥٢ : ٥٧ .

(٢) الشعراء : ٥٧ : ٥٩ .

(٣) الشعراء : ٦٠ : ٦٨ .

وعلى عادة القرآن فى التصوير بالألفاظ ترسم الآية الأولى صورة متحركة لجيشين متوالين يقطعان العباب، ويثيران الغبار، ولم يذكر الأسلوب أن موسى خرج ببني إسرائيل بعد أن تلقى وحى ربه ، ولكن القارئ يعرف ذلك من قوله تعالى «فَاتَّبَعُوهُمْ» فموسى وبنو إسرائيل فى المقدمة ، وفرعون وجيشه المحشود وراءهم، وقد أو شكوا على اللحاق بهم فى الصباح . وكما صور الأسلوب الحركة صور النفوس أيضاً؛ إن موسى وقومه أصبحوا أمام البحر، وفرعون من خلفهم فلاهم يستطيعون أن يخوضوا لجة البحر، وليس معهم من السلاح ما يمكنهم من قتال الجيش الذى وراءهم ، فقالوا :«إنا لمدركون» وهو تعبير يحمل من الهم والفرع أكثر مما يحمله أصحاب «موسى» ويقدر ما يحمل القوم من خوف بقدر ما يحمل «موسى» من ثقة بربه ويقين من النجاة، وإن كان لا يدري كيف تكون، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر، ولا يتمهل السياق ليقول إنه ضرب البحر بعصاه لأنه مفهوم ومعروف، ولكن ما النتيجة ؟ (فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم)، وخرج بنو إسرائيل من الشاطئ الآخر، وهلك فرعون ومن معه غرقاً .

إن بناء هذه القصة على المشاهد أدى إلى تعاظم دور الحوار فيها، من حيث نهوضه بتطوير الحدث والانتقال به من نقطة إلى أخرى، ومن حيث اضطراره بتصوير الشخصيات المشتركة فيه وبيان انفعالاتها حيث تنفعل، وهيئاتها حين يطرأ على حركتها أدنى التفاتة، وقد ظهر كيف أن الكلمة الواحدة قد تحمل دلالة لغوية مغايرة تماماً لدلالاتها الأصلية .

كما أدى بناء القصة على المشاهد إلى الاستغناء عن كثير من التفاصيل التى يطرأها السياق القرآنى، وإلى طي الأحداث التى يستطيع القارئ أن يتمثلها بسهولة وذلك فى الفجوات التى يتركها السياق بين المشاهد ، ويبدل عليها أحياناً من طرف خفى . إن هذه الفجوات التى يتركها السياق بين المشاهد توشك أن تكون أصلاً من أصول البناء الفنى للقصة القرآنية، وعلى الباحث أن يتأمل بعض الأمثلة الأخرى ليعلم أن لهذه الفجوات دوراً فى إحياء المشاهد وتحقيق الحضور لها، وشد القارئ عن طريق التشويق إلى متابعة القصة والسير معها حتى نهايتها .

إن الفجوة بين المشهد والمشهد كما يطوى فيها كثير من الأحداث التى يستطيع

القارئ أن يتخيلها، يطوى فيها عنصر الزمن مهما امتد، ويطوى فيها المكان مهما كانت رحابته واتساعه، ومن العجب حقاً أن بعض هذه الفجوات تحقق الانتقال من عالم إلى عالم مختلف عنه تماماً، من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، على بعد ما بين العالمين زمناً ومكاناً حسب مقاييسنا البشرية .

جاء في سورة «يس» :

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾
 ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؕ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (١).

جاءت هذه الكلمات على لسان رجل جاء يحاج أصحاب القرية ويدافع عن رسل الله إلى أهلها، وقد سلك معهم كل طرق الحجاج والإقناع عسى أن يجد منهم أذانا صاغية، وكانت آخر كلماته في مواجهة أصحاب القرية : (إني آمنت بربكم فاسمعون) ولكن القوم قتلوه (٢) لينتهي المشهد الذي في عالم الشهادة ويبدأ مشهد آخر في عالم الغيب وقد جاء فيه على لسان الرجل :

(قيل ادخل الجنة قال يليت قومي يعلمون . بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) وليس في السياق ما يدل على القتل الذي لحق بالرجل ، ولكن الأسلوب يؤكد هذا الحادث الذي وقع وأضمرة السياق، فالمشهد الجديد يبدأ بقول لايعرف القارئ مصدره : أهو رب العزة - سبحانه - أم ملائكة الرحمة ؟ أياً ما كان القاتل فالهم هو مقول القول : (ادخل الجنة) ولايعقل الأمر بدخول الجنة إلا بعد أن ينتقل الإنسان إلى عالم الآخرة، وقد نقلت

(١) سورة يس من الآية ٢٠ : ٢٧ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ج١ ص ٥٤٦٣ .

و : ابن كثير ج ٢ ص ٦٨٥

و : الكشاف ج ٤ ص ١٠٠

و : بدائع الإضممار القصص في القرآن الكريم ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

القصة القارئ إليه فى لحظة، لتطوى أبعاد الزمان والمكان فى هذه الفجوة على هذا النحو العجيب .

واضمار الحدث هنا لم يأت لغرض الاختصار فى عرض الأحداث فقط، وإنما جاء لتحقيق الغرض الدينى من القصة، فإن التصليب فى الدفاع عن دين الله، والثبات على كلمة الحق خير لصاحبه مهما أودى وعذب ، بل إن القتل فى سبيل ذلك يعقبه مباشرة دخول المقتول فى نعيم الله - سبحانه وتعالى .

إن الحذف وعمل الفجوات بين المشاهد لا يحدث إلا إذا كانت الأحداث المحذوفة مما يستطيع القارئ تخيلها ، أو إذا كان تتابع المشاهد بما بينها من حذف يحقق حضور العرض لدى المتلقى قارئاً كان أو سامعاً، أما إذا كان هذا الحضور سيتحقق دون حذف ودون فجوات بين المشاهد فإن القصة القرآنية تحافظ على الأحداث وتذكرها فى مكانها اللائق بها . جاء فى قصة أصحاب الجنة :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ اغْدُوا عَلَيْنَا حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ (١)

إنها جنة من جنات الدنيا لاجنة الآخرة، وأصحابها يبيتون فى شأنها أمراً، وهو ألا يتركوا للفقراء من ثمرها نصيباً، واستقر رأيهم أن يقطعوا ثمرها فى الصباح الباكر، دون أن يستعينوا بالله على تنفيذ مشيئتهم .

هذا هو الجزء الأول من الحدث، أما الجزء الثاني فيها هو ذا يقع أمام عيني القارئ دون أن يراه هؤلاء الرجال أصحاب الجنة ، لقد طاف على هذه الجنة طائف فاقتلعها من جذورها، وهذا هو الحدث الذي ذكر في القصة فأضفى عليها جوا من السخرية بهؤلاء الرجال الذين أرادوا حرمان المساكين فسخر منهم المساكين وسخر منهم الناس أجمعون. وتبلغ السخرية مداها حين تصور القصة أصحاب الجنة في خديعهم يتنادون متخافتين خشية أن يدخل المساكين عليهم جنتهم وهم يقطعون ثمرها .

وتزداد السخرية أكثر وأكثر حين يفاجأ أصحاب الجنة بما حدث ، لقد حسبوا أنهم ضلوا الطريق إلى جنتهم، ولكنهم سرعان ما عرفوا خطأهم وتأكدوا أنهم حرموا رزقها بسبب نيتهم المبيتة للفقراء والمساكين. وتختتم القصة بالدعاء إلى الله أن يبدلهم خيراً من جنتهم بعد أن تابوا إليه .

فهل كان من الممكن أن يتحقق جو السخرية والتهكم الذي شاع في القصة لو حذف هذا الحدث ؟

هذا عن المشاهد في القصة القرآنية، أما عن الأحداث فإن القصة تسبق أحياناً بتمهيد لأحداثها يكون كالمقدمة لهذه الأحداث، وتختلف هذه المقدمة من قصة إلى أخرى طولاً وقصراً، وتختلف أيضاً في مضمونها .

وقد تحتوي المقدمة عملاً معجزاً يجذب الانتباه إلى القصة فيشدد القارئ إلى متابعتها كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ ۖ﴾ (١٠) ﴿١﴾

ومن ذلك مقدمة قصة سليمان: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ۖ﴾ (١٦) ﴿٢﴾

وقد يكون هذا الشيء العجيب مهما ولكنه يأتي في مقدمة القصة ليثير الانتباه، كما في قوله تعالى في بداية قصة أهل الكهف: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِن آيَاتِنَا عَجَبًا ۖ﴾ (٩) ﴿٣﴾

(١) سبأ : الآية : ١٠ .

(٢) النمل : الآية : ١٦ .

(٣) الكهف : الآية : ١٢ .

وكانت مقدمة هذه القصة طويلة إلى حد ما، وفيها ملخص مجمل للأحداث، وفي هذه المقدمة إشارة إلى بعض الأحداث الضخمة التي تناولتها القصة بالتفصيل بعد ذلك. ومن المقدمات الطويلة أيضا مقدمة قصة "موسى" في سورة القصص، التي جاءت محملة بعاقبة القصة وكشفت عن نتائجها النهائية: وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُفِضَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) (١) ولكن علم القارئ بخاتمة القصة وبما فيها من المقدمة لم يفقده الحماس لمتابعة الأحداث، ولم يفتر شوقه إلى معرفة السبيل الموصلة إلى هذه النتيجة (٢).

وقد يكون التمهيد لأحداث القصة مقدمة تحمل نوعاً من الرمز الفنى، يسير مع القصة في طولها ليكون مفتاحها الذى تنبنى عليه حبكتها كلها، وهذه ذروة الفن والحرفة القصصية، ومن هذا القبيل ما جاء في سورة يوسف «أحسن القصص» في صورة رؤيا يوسف - عليه السلام - الذى رأى (أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين)، فكانت رؤياه هذه مفتاح القصة، بأن كانت سبباً في البلاء الذى أصابه من حسد إخوته من جهة، وكانت إرهاباً بنبوته وآية عليها بالرؤيا الصادقة، والقدرة على تعبير الرؤى (٣) والتمهيد في قصتى "موسى" و"يوسف" السابقتين يحمل ملامح البيئة التى تجرى فيها الأحداث، فموسى - عليه السلام - ولد في قوم مستضعفين هم بنو إسرائيل، وقد سلط عليهم فرعون بجبروته وطفيانته، فكان يقتل رجالهم ويستحيى نساءهم، وصرحت مقدمة القصة بنوع الصراع فيها، وبالنتيجة التى تحمل تغيير الأوضاع في هذه البيئة على نحو ما سبق.

وإذا كانت البيئة في التمهيد السابق بيئة عامة تشمل طبقات المجتمع فإن التمهيد في قصة «يوسف» يحمل ملامح البيئة الخاصة التى يعيش فيها «يوسف» في بيت أبيه، وهذه الملامح تتمثل في حقد إخوته عليه لمكانته من نفس أبيه، وأن هؤلاء الأخوة يمكن أن

(١) القصص: الآيتان ٦٠، ٦١.

(٢) انظر الحديث عن التفصيل والإجمال، المبحث الأول من الباب الثانى من هذا البحث.

(٣) انظر: بدائع الإضممار القصص في القرآن الكريم ص ١٠٢، ١٠٣.

يكيدوا له، وقد صدقت حوادث القصة ماوشت به المقدمة فكانت مؤامرة الإخوة على أخيهام سبباً في تطور أحداث القصة على النحو المعروف، وهو بذلك يكون تمهيداً فنياً للأحداث العامة للقصة، وهناك تمهيد فني للحدث الجزئي في أثناء القصة، فأحياناً تأتي جملة سرد أو حوار ربما لا يلتفت إليها القارئ إذا مر بها، ثم يسترسل مع أحداث القصة، حتى إذا ما وقع حدثٌ مأكراً راجعاً إلى هذه الجملة التي مر بها أنفاً ليكتشف ما تحمل من إرهاب بالحدث.

يقول تعالى عن مراودة امرأة العزيز ليوسف: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)﴾ (١)

وفي هذه الآية قاعدة قصصية يقدمها القرآن في روعة فنية أخاذة (وقدت قميصه من دبر)، إنك إذا قرأت هذه الجملة دون أن تكون عارفاً ببقية القصة لما أُلقيت إليها أدنى اهتمام، إنها كلمة أُلقيت، وكأنها أُلقيت عن غير عمد، هذا هو التمهيد الفني للحدث في أروع صورته، ثم أرأيت إلى المفاجأة الواقعة عند الباب، زوجة تراود رجلاً عن نفسه، ثم تفاجأ بزوجها عند باب الغرفة المغلقة، إنها مفاجأة أخذة لاتكاد تفيق منها حتى تشدك مفاجأة أخرى أقسى وأنكى: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)﴾ إذا فقد أُلقت التهمة جميعها على يوسف في سرعة خاطفة، فلم يقل القرآن فكرت ماذا تفعل، أو حاولت في أمرها وأمر ذلك الرجل معها، لم يقل شيئاً من هذا، وإنما صك النفوس بالتهمة في مفاجأة فنية مذهلة، وتمضى القصة بعد ذلك في فنية بارعة:

﴿قَالَ هِيَ رَأَوْدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)﴾ (٢)

أرأيت محاكمة الدليل فيها قاطع كهذا.. ثم أرأيت إلى الكلمة التي أُلقيت إلقاءً وكأنها غير متعمدة ماذا أصبحت الآن: إنها براءة يوسف مما وجه إليه من اتهام (٢).

(١) يوسف الآية : ٢٥

(٢) يوسف الآيات : ٢٦ : ٢٨

(٣) انظر: السرد القصصي في القرآن الكريم : أ . ثروت أباطة ص ٢٦ - ٢٨

إن القرآن الكريم هو الصدق المطلق ، الصدق الذي لا تشويه شائبة أو شبهة، والقصص القرآني ليس أحداثاً مؤلفة، إنما هو حقائق مروية في أسلوب بياني معجز رائع، وتبدو روعته وإعجازه حين يصور النفس البشرية وما يلزم بها من أحداث، إن الأسلوب القرآني ليتسرب إلى أعماق النفس لتتضح الكلمات بمكنونها وتستخرج المشاعر الدفينة من مكانها، فإذا صاغ القرآن قصة هذه النفس الإنسانية صارت القصة كاللوح المجسم وقد عرضت للمشاهدين، فيرى كل منهم فيها صورة نفسه هو لو قدر له أن يتعرض للموقف الذي مر به صاحب اللوحة المرسومة .

إن من الممكن أن يتحول الإنسان من الرضا إلى السخط، ومن الحب إلى البغض لكلمة يسمعها، أو لحدث يقس له، فالتحول في الإنسان طبيعة من الطبائع المقررة، ولكن الذي لا يتحول في الإنسان، أو هو يتحول ولكن بصعوبة بالغة جداً، هو العقيدة التي يعتقدونها والدين الذي يعتقدونه ، ولكي يحدث تحول في هذا المجال لابد أن يحدث للإنسان حدث تتزلزل له نفسه وتهتز من جذورها، وقد يحدث هذا التحول سريعاً جداً، وذلك تبعاً لضخامة الحدث وشدة تأثيره به وعنف الصدمة التي يسببها؛ وذلك كإيمان السحرة في قصة «موسى» عليه السلام - حين رأوا معجزته الكبرى فعرفوا صدقها، وتيقنوا أنها ليست سحراً كالذي يتعاطونه، ولكن المعجزات لا تحدث كثيراً في دنيا البشر، وإذا حدثت فإنها لا تكون بضخامة المعجزة التي أيد الله بها «موسى» .

إن صدق القرآن في الحديث عن النفس البشرية وتحولها من دين إلى دين يتضح جلياً من خلال هذا الموقف القصصى الذي حكاه عن ملكة سبأ مع نبي الله «سليمان» - عليه السلام - ويتضح أيضاً كيف كان ببطء المرأة في التحول عن دينها، وكيف مهد القرآن لهذا الحدث الضخم بأحداث جزئية مذهشة وعجيبة .

كان «سليمان» يدعو إلى دين الله وعبادته وحده لا شريك له، وأخبره الهدد أن هناك امرأة تعبد هي وقومها الشمس من دون الله، فأرسل إليها للدخول في دينه فاحتالت على ذلك بأن أرسلت إليه بهدية، ولكن «سليمان» ردها، ثم علم بمجيئها إليه ، فأراد أن يقنعها بالدخول في دينه، فأجرى أمامها بعض الأحداث الغريبة فماذا صنع ؟

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٢٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنْ

الْجَنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ (١)

إن أقوى وسائل الإقناع بالإقناع بالصورة ، أى الإقناع بالحدث، إن غرض سليمان من الإتيان بعرشها قبل أن يرتد إليه طرفه لم يكن الإطمئنان إلى أنه يملك هذه الوسائل التى لم تنتهيا لإنسان من قبل أو من بعد، ولكن الغرض أن يستطيع إقناع تلك الملكة التى تسجد هى وقومها للشمس أن تسجد لله رب العالمين .

هذا الحدث التمهيدى هو بعض ما أعد هـ سليمان ليثير دهشة الملكة، فادخل على العرش بعض التعديلات : (قال نكروا لها عرشها ننظر أتهدى أم تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين) .

وهنا يبدو الصدق القرآنى المطلق والعرض الفنى المعجز» فالقرآن لم يقل إنها حين رأت أمنت من فورها، فالنفس الإنسانية لا تترك دينها عند الوهلة الأولى، وإلا فهى ليست نفساً إنسانية، أو هى لم تكن مقتنعة بما كانت تؤمن به، ولو لم تكن مقتنعة لتركت هذا الذى تعتبره دون حاجة إلى الصورة أو الحدث، لابد للنفس التى كانت مؤمنة بشئ أن تتروى وتمعن النظر وتتند حتى تطمئن إلى هذا الدين الجديد الذى تنوى أن تعتنقه» (٢) . كان مجئ العرش هو الحدث الأول فى التمهيد للحدث الضخم، أعنى إيمان الملكة وتحولها عن دينها، وهناك حدث ثان يوضح للملكة مدى اتساع مملكة سليمان ومدى سيطرته على أعضائها وماذا يصنعون له :

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٤) (٢)

(١) سورة النمل : الآيات من ٢٨ : ٤٠ .

(٢) السرد القصصى فى القرآن الكريم، ص : ٨٤ ، ٨٥ .

(٣) النمل : الآية ٤٤

«لعل الملكة قد كبر عليها أن تحسب هذه القوارير لجة من ماء، فهي تكشف عن ساقبها خشية أن يمس الماء ثيابها فحين عرفت أنها إنما تمشى على قوارير من زجاج أمنت؛ لأن الذى يصنع هذا لا يستطيع أن يتقنه إلا أن يكون الله قد سخر له مالم يسخره لغيره من قوى لاحدود لها فأمنت» (١).

وهكذا يكون التمهيد للحدث وخاصة حين يتعلق بالنفس الإنسانية التى تألف ماتعتاد عليه وتتمسك به، وتبى أن تتزحزح عنه، أماصك الأسماك بالأحداث الضخمة دون تمهيد لها فهذا ليس موجوداً إلا فى القصص البشرى المتهافت .

إن مجئ عرش بلقيس بهذه السرعة الخاطفة حدث ضخم ولكن القرآن لم يقف عنده إلا بوصفه دليلاً على ما آتاه الله - سبحانه - لنبيه "سليمان" - عليه السلام - وبوصفه تمهيداً لحدث أضخم منه وهو إيمان الملكة، لقد وقع الحدث نفسه لقاص بشرى هو الأستاذ "توفيق الحكيم" فسود فيه عدداً لابأس به من الصفحات وزور أحداثه بعض التزوير على ماسيتضح فى الباب الثالث إن شاء الله .

إن القرآن لا يطيل الوقوف عند الأحداث القصصية الضخمة إلا بقدر ما يخدم الغرض الدينى فى القصة أولاً، وبقدر ما يبين الإعجاز الفنى فيها ثانياً، فالقصة القرآنية لاتعمد إلى الإثارة غير المجدية فى تصوير الأحداث مهما كانت ضخامتها وغرابتها ومن الأمثلة الواضحة على ذلك :

أولاً : حادثة انفلاق البحر لموسى - عليه السلام - وردت هذه الحادثة فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم، ومنها :

قوله : ﴿ قَدْ عَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ (٢٢) فَأَسْرَ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ (٢٣) وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ (٢٤) (٢)

وقوله : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (٦٣) وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثَمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴾ (٦٦) (٣)

(١) السرد القصصى فى القرآن الكريم ص ٨٢ : ٨٦ .

(٢) الدخان : الآيات : ٢٢ : ٢٤ .

(٣) الشعراء : الآيات : ٦٣ : ٦٦ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ (٢)

إن هذا الحدث فى الحقيقة مكون من حدثين: أولهما : خروج "موسى" ومعه بنو إسرائيل من مصر ليلاً هرباً من "فرعون"، وبالمعايير البشرية كان هذا الحدث بما يستتبعه من اتصال خبره بعلم فرعون وحكومته، وجمعه لجنوده ومحاولة اللحاق ببني إسرائيل، ومنعهم من تنفيذ خطتهم ، وإعادة لهم لسلطانه، والانتقام منهم ، كان هذا الحدث جديراً بأن يحتل من حكاية أنباء "موسى" وتطوراتها الصدارة، وأن يكون هو قمة الأزمة فى القصة ، حيث يحبس السامعون أو القارئون أنفاسهم ، وتتنبه إلى أقصى الغاية حواسهم، وهم يتابعون صفوف بنى إسرائيل الفقراء المهزولين الضعفاء، ومن خلفهم مواشيهم وأطفالهم، وهم جميعاً ينتزعون أقدامهم من الأرض انتزاعاً، والجميع يسودهم الخوف والقلق مشفقين من المصير الذى يتهددهم .

والحق أن التأمل فى هذا الموقف يبعث فى نفس الإنسان من الخوف والقلق والتطلع والإشفاق ماتبعته أكثر القصص القائمة على الإثارة والمفاجأة، والقبض على خناق القارئ والمشاهد بعنف، حتى لا يجد الفرصة لالتقاط نفسه (٣) .

والحدث الثانى : حدث مكمل للأول ، ويبلغ الحدثان معاً مبلغاً لم يعهده القارئ فى تحريك الفضول وإلهاب التطلع، إذ يأتى فى خلف الصورة ملك مصر، وحوله قواده وجنوده ومعهم أسلحتهم على اختلاف ألوانها وأشكالها، ثم يبلغ الهاريون مشارف البحر، فتتعرش خطاهم، ويحسون أنهم مدركون، ولكن نبيهم يقول لهم فى ثقة واطمئنان: (كلا إن

(١) طه : الآيتان : ٧٧ : ٧٨ .

(٢) يونس : الآية : ٩٠ .

(٣) انظر : القصة القرآنية ، ص : ١٥٣ .

معى ربي سيهدين)، ثم يأتى الأمر الإلهى فى هذه اللحظة الحرجة^(١) : ﴿ اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ .

هذه محاولة لتلخيص الحدث الكبير، وهى محاولة خالية من التصوير، ومما هو قريب من التصوير ، فليرجع القارئ إلى النصوص القرآنية التى صورت هذا الحدث، ليعلم أن أقل هذه النصوص ألفاظاً قد أحاطت بالحدث على نحو معجز .

فإذا استبعدنا من آيات سورة الدخان هذه الآية ﴿ فدعا ربه أن هؤلأ قوم مجرمون ﴾ لكان مايتصل بصميم الواقعة مباشرة : (فأسر بعبادى ليلاً إنكم متبعون واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون) وهى ألفاظ قليلة لكنها تحتوى على كل عناصر هذه الواقعة الفسيحة المديدة المترامية الأطراف .

الهرب من مصر والخروج ببني إسرائيل ليلاً
ملاحقة "فرعون" وجنوده لبني إسرائيل الفارين .
جعل البحر فى حالة يستحيل معها لفرعون وجنوده إدراك موسى وقومه .
وصول "فرعون" ومن معه إلى البحر . ثم غرقهم فيه .
ومؤدى هذا أنه لم يبق من هذه الواقعة المعنة فى الغرابة والضخامة شئ أفلت من هذه الألفاظ القليلة^(٢) .

وهذه العناصر تجمعها آيات سورتي الشعراء وطه مع اختلاف فى الألفاظ يحمل زيادات فى المعانى، إلا أنها تشترك فى بيان مصير فرعون وقومه .
أما آية سورة «يونس» فتفيد القارئ أمرين : تفيد أن "موسى" ومعه بنو إسرائيل قد قطعوا البحر فعلاً . «وجوزنا ببني إسرائيل البحر»، كما تفيد لأول مرة أن "فرعون" نفسه كان من المغرقين، وهو المعنى الذى جاء عاماً قبل ذلك : «إنهم جند مغرقون» وأنه عرف بطلان ماكان يملكه من سلطان، وزيف ما كان يتمتع به من سؤدد، وأنه حاول الإيمان بإله "موسى" فلم ينفعه إيمانه .

ثم ، لم كان الإيجاز والاقتضاب فى سرد هذا الحدث رغم ضخامته وغرابته ؟ لعل

(١) القصة القرآنية ، ١ . فتحى وضوان ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) انظر : القصة القرآنية ص ١٥٦ .

الغرض الدينى من القصة هو الدافع إلى ذلك، فالقرآن - ومنه القصص - إنما جاء لتثبيت العقيدة فى النفوس ، وتحويل المشركين عما كان يعبد أبائهم من الأصنام والحجارة التى ألفوا عبادتها أزمانا متطاولة، ولو أن حديث الخوارق والمعجزات وحده كان مجدياً فى تحقيق الهدف الذى جاء من أجله القرآن لأطال الوقوف عند هذه المعجزات التى أيد الله بها "موسى" ، كيف وهى لم ينتفع بها أهلها الذين وقعت لهم؟ فما هى إلا أيام قليلة بعد أن نجاهم الله من "فرعون" حتى أعلنوا التمرد على "موسى" وعلى من أرسله، والعجيب حقاً أن القرآن الكريم يوضح هذا التمرد فيحكيه معطوفاً على حديث المعجزة نفسه : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (١٣٨) (١) ولكن المعجزة فى نفسها ليست نهاية المطاف .

إن حدث هرب بنى إسرائيل وانغلاق البحر لموسى حدث ضخم حقاً وجدير بأن يفسح له مكان مناسب لضخامته مع تلوين عناصره وإبراز غرائبه لو أن الغاية من إيراد وإيراد مقدماته ونتائجه هو التاريخ فى ذاته، أو الإثارة والتشويق والإيقاع ، ولكن كل ما يدخل فى نطاق السرد والقصص فى القرآن موضوع فى خدمة تثبيت العقيدة التى نزل بها القرآن الكريم، فلا غرابة إذاً أن يكون الفن والتاريخ فى خدمة الغاية الدينية (٢) .

لقد ذاعت القصة فى العصر الحاضر، وأصبحت تحتل المرتبة الأولى بين الفنون القولية فى زعم كثير من الدراسين، وبلغ الاحتفاء بها - إبداعاً ونقداً - حداً لم تبلغه من قبل، وتعددت أشكالها وأسمائها؛ فهناك: الرواية، والقصة، والقصة القصيرة والأقصوصة (٣) .

(١) سورة الأعراف: الآية : ١٢٨ .

(٢) انظر : القصة القرآنية ص ١٥٨ ، والسرد القصصى فى القرآن الكريم ص ٧٠ .

(٣) للفرق بين هذه الأشكال القصصية ينظر : فن القصة د: محمد يوسف نجم ص ٩ ، وفن كتابة القصة - محسن

القبايى، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانتباء والنشر ص ٨ .

و : دراسات فى نقد الرواية ، د. طه وادى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ م ص ٧١ .

و : النقد الأدبى أصوله ومناهجه أ : سيد قطب . ط دار الشروق ، الطبعة الرابعة ١٩٨٠ ص ٧١ .

و : اتجاهات القصة المصرية القصيرة د: سيد حامد التساج . ط دار المعارف ١٩٧٨ ص ٩٠ .

وفى القصة القصيرة - أكثر أنواع القصة شيوعاً - يشترط النقاد عدة شروط؛ من أبرزها :

أولاً وحدة الزمان؛ فالمفروض فى القصة القصيرة «أنها حادثة صغيرة على جانب كبير من الأهمية بحيث تلفت نظر الكاتب، وتجعله يسجل هذه الحادثة، فهي إذاً لحظة من الحياة يمسك بها الكاتب ، ويمنعها أن تسير مع تيار الزمن العادى، فهو يثبتها ويعمقها، ويضع لها الإطار الفنى فتقف ولا تصبح نقطة عادية من تيار الزمن السائر الرتيب»^(١) .

ثانياً . أن يتكون الحدث فيها من ثلاث مراحل .

أ - البداية ، أو مرحلة التعرف .

ب - الوسط وفيها تتطور الأحداث إلى ذروتها .

ج - النهاية : أو لحظة التنوير ، وهى النقطة التى تتجمع فيها وتنتهى إليها خيوط الحدث كلها، فيكتسب الحدث معناه الذى يريد الكاتب الإبانة عنه^(٢) .

ثالثاً : يجب أن لا تكون كثيرة الأشخاص، فالقصة القصيرة لا تسمح لشخص يظهر فيها إلا إذا كان مهما غاية الأهمية بالنسبة إلى الحدث^(٣) .

رابعاً : إن نسيج القصة من لغة ووصف وحوار وسرد يجب أن يقوم على خدمة الحدث، فيسهل فى تصويره وتطويره^(٤) .

تلك هى أهم الشروط التى وضعت للقصة القصيرة .

فلنقرأ معاً هذه المعجزة الإلهية فى هذه القصة القصيرة :

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهِدِينَ ۖ ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠)
فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا

(١) السرد القصصى فى القرآن الكريم ص ٥١

(٢) فن القصة القصيرة ص ٩٣ ، ٩٢ .

(٣) انظر: السرد القصصى فى القرآن الكريم ص ٥٢

(٤) النقد الأدبى أصوله ومناهجه ص ٧٩ : ٨٠ .

و : فن القصة القصيرة ص ١١٠

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَقَدَيْنَاهُ بِذُبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴿١﴾

فى أقل من سبعين كلمة اكتملت قصة معجزة :

من ناحية الزمن لحظة ، أب يهم أن يقتل ابنه ويثله للجبين، فيوحى إليه ربه قد صدقت الرؤيا فينقذ الابن ولاعبرة (٢) هنا بالزمن الطويل الممتدين وقوع البشارة بإسماعيل ويلوغه مع أبيه مبلغ السعى، لأنه خارج عن إطار الحدث الذى صورته القصة بل ساعد هذا الزمن الطويل على تعميق لحظة الحدث .

من ناحية الموضوع واحد لم يتغير، أب يقول لابنه إنه أوحى إليه أن يقتله، فيقول الابن فى روعة الإيمان وعظمته وأمنه المطمئن : افعل ماتؤمر به، لم تحد القصة عن موضعها قيد أنملة .

من ناحية الأشخاص اثنان لا ثالث لهما، وليس أقل من الاثنى إلا الواحد، وما أحسب أن الواحد يستطيع وحده أن يصنع قصة .

من ناحية البداية والقمة والنهاية .. البداية : (رب هب لى من الصالحين) . القمة (أفعل ماتؤمر) (وتله للجبين) النهاية : (وقدیناه) البداية أروع ما تكون البداية؛ فالقصة تبدأ منذ إسماعيل، دعاء يتوجه به إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه؛ والقمة أروع ما تكون القمة؛ ، أب يقتل ابنه امتثالاً لأمر الله، وابن يرحب أن يقتل فى سبيل الله، والنهاية أروع ما تكون النهاية، لقد وضع الله نبيه وابنه فى بلاء عظيم يمتحن صبرهما حتى إذا أبدياه واضحاً جلياً عفأ، وأعاد الابن إلى أبيه والحياة إلى الابن ، فكلاهما معاً فى فرح مقيم لاشك أنه الإعجاز (٣) .

ومما اشترط النقاد فى القصة أن يكون الحدث فيها متكاملأً، والحدث المتكامل يتحقق حين يصور الكاتب شخصياته وهى تعمل عملاً له معنى، وهذا المعنى ينشأ من

(١) الصافات: الآيات ٩٩ - ١٠٧

(٢) كثير من المفسرين على أن إسماعيل كان ابن ثلاث عشرة سنوات يوم تعرض لحادثة الذبح، انظر: القرطبي ج٤ ص ٥٤٣ .

و : الكشف ج٤ ص ٥٣

(٣) انظر: السرد القصصى فى القرآن الكريم، ص: ٥٣ - ٥٤ .

الحدث نفسه فهو جزء لا يتجزأ منه .

والمعنى بالنسبة إلى كاتب القصة ركن من أركان الحدث وجزء لا يتفصل عنه، ولذلك فإن الفعل والفاعل، أو الحوادث والشخصيات يجب أن تقوم على خدمة المعنى من أول القصة إلى آخرها، فإن لم تفعل ذلك كان المعنى دخيلاً على الحدث، وكانت القصة بالتالي مختلة البناء (١).

ومعنى ذلك أنه من المحذور - في قانون القصة البشرية - أن يأتى المعنى منفصلاً عن القصة، وإذا حدث ذلك فإنها تبعد عن الفن، وتدخل في باب الموعظة، المباشرة، وهنا وقفة - لا بد منها - مع المعنى في القصص القرآنى، لا لمحاكمته إلى قواعد القصة الفنية، ولا لقياسه عليها، ولكن ليعرف القارئ كيف تحمل القصة القرآنية معناها، وكيف تلقى به إلى المتلقى .

إن النظرة المتعمقة في قصص القرآن تؤكد أن المعنى القصصى يأتى من خلال الأحداث التى تسردها القصة، وينبع من تصرفات الشخصيات فيها، ويتطور ويتضح مع كل حدث يقع، ومع كل تصرف لأى من الشخصيات على نحو يعجز عنه كتاب القصة الفنية إلا إذا استقوا قواعدهم من القرآن نفسه .

ومن خير ما يمثل ذلك قصة داود التى صورها القرآن الكريم على هذا النحو :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ

(١) انظر: فن القصة القصيرة ص ٥٨ : ٥٩ .

النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ (١).

فليُنظر القارئ إلى قوله تعالى : ﴿ وهل أتاك نبؤ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف ﴾ لقد أقام القرآن في هذه الكلمات المعدادة عالماً فسيحاً ، ينتقل فيه القارئ من معنى إلى معنى ، ويستقبل منه أمواجاً متتابعة من المشاعر الإنسانية المتضاربة المتناقضة ، ومع رحابة هذه المعاني يجد القارئ إشارة من طرف خفى إلى معنى مقصود ومحدد ، وهو أن شيئاً ما قد كان من "داود" ، وأن هذا الشيء لا ينبغي أن يكون من نبي .

وآيات القصة لا تشير إلى هذا الشيء الذي حدث من داود ، لأنه لا يتعلق به لذاته غرض معين ، وإنما المتعلق في صفة هذا الأمر ، وأنه بصفته الكريمة تلك لا يصح أن يكون من نبي ، كما أن في الإضراب عن ذكره رعاية لمقام النبوة ، وحفاظاً لمشاعر هذا النبي . وهذا الشيء الخفى هو ما تود القصة أن تشير إلى معناه ، منذ البداية ، والأحداث ومدلولات الألفاظ هي التي تنهض بهذه الإشارة ، فالخصمان يقتحمان على "داود" مجلسه في يوم لا يجلس فيه للحكم بين المتخاصمين ، وإنما يقتحمان عليه محرابه ، ويأتيانه من السور لا من الباب ، ونتيجة لهذا الحدث المفاجئ الذي جاء على غير المعتاد ، وبلا استئذان يفزع داود ، ولكن الخصمين يبادران إلى اطمئنانه : (لا تخف .. خصمان بغى بعضنا على بعض) .

وراء هذا المعنى الظاهر للأحداث معنى خفى آخر مستور ، فحدث التسور المفاجئ المفزع يدل على أن اختلا لأحدث في مملكة "داود" المنظمة ، وأن هذا الاختلال ، كان من جهته هو ، ولذلك فقد أخذ نصيبه من نتائج ، وأصبحت رعيته لا يدخلون عليه من بابه ، بل يتخطون الحراس ويصلون إليه من السور ، فلقد انقلبت الأوضاع واختلت أسس النظام ، وفي فزع "داود" منهما ما يوحى بهذا المعنى - أيضاً - حيث يفزع القاضي من المتقاضين . وشئ آخر يؤكد هذا المعنى المنسرب في أحداث القصة الضارب في حناياها ، إذ متى رأى الناس الخصوم ينصحون القاضي أن يحكم بالعدل؟ فما جلس القاضي في

مجلسه إلا ليحقق هذه الغاية، ولكن في هذا الكلام تلميحاً إلى أن ميزان العدالة قد اهتز من قبل هذا الموقف هزة شاع أمرها في الناس وذاع، حتى عرفه هذا الخصمان اللذان لم يعرف داود لهما وجهاً من قبل^(١) .

لقد طرح أحد الخصمين - وهو المدعى - قضية على القاضي، وكان صاحب حق جليّ فبادر القاضي إلى الحكم له دون أن يسمع رد المدعى عليه، وقد يكون الحق في جانبه، وقد يكون لديه من الأدلة ما يثبت حقه في القضية .

وفي التسرع بالنطق بالحكم إشارة واضحة إلى المعنى السابق ، وهو وقوع الخلل في مملكة داود، وأن هذا الخلل جاء من قبله هو، وهذا هو المعنى الذي تضافرت القصة بأحداثها وشخصياتها على إظهاره وتوضيحه، وفي التعقيب على القصة ما يزيد هذا المعنى وضوحاً وتجلياً : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) وفي إصلاح هذا الخلل إرساء لقيمة العدل في الملك وفي الحكم بين الناس على حد سواء .

وإخراج القصة على هذا النحو من التعريض لا التصريح دعا "الزمخشري" إلى الاستفهام عن علة ذلك ، وأجاب : "لكونها أبلغ في التوبيخ ، من قبل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه، وأشد تمكناً من قلبه، وأعظم أثراً فيه. وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبية على الخطأ فيه من أن يبادره به صريحاً ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة .

وخرجت القصة على وجه التحاكم إلى داود ليحكم بما حكم به من قوله (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) حتى يكون محجوجاً بحكمه ومعتزلاً على نفسه^(٢) .

هذا مثال حي للمعنى في القصة القرآنية حين يجيء ملتجماً بينائها الفني، فالأحداث تحمله منذ بدايتها، والشخوص بأفعالها وحوارها تساعد على إظهاره وتوضيحه ثم تزيده النهاية وضوحاً وإظهاراً .

إن الطاقة التعبيرية للألفاظ القرآنية، ومنها القصص، أعظم من أن يضاهيها واحد

(١) انظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص: ١٥٩ : ١٦٠ .

(٢) الكشف، ج ٤ ص: ٨١ : ٨٢ .

من البشر فى كتاباته مهما أوتى من القدرة البَيانية الخلاية ، ولذلك فإن الطاقة التأويلية للأساليب القرآنية أعظم من أن يحيط بها واحد أو مجموعة من الناس مهما كانت ثقافتهم ، وهذا هو الذى يفسر عطاء القرآن المتجدد على مر العصور والأزمان ، ومنزل القرآن (جل فى علاه) يعلم ذلك ، ويعلم أن الناس متفاوتون فى الفهم والإدراك ، فإذا استطاع بعضهم أو أقلهم أن يكشف عن بعض هذه الطاقة التعبيرية فإن جلهم لا يستطيع ذلك ، فأراد الله أن يؤتى كلا نصيبه مما يحمل القرآن من معان ، ولعل هذا - والله أعلم - هو السر فى أن القصة القرآنية تحمل فى أثنائها أحيانا وفى نهاياتها غالباً المعنى المراد فيها بالفاظ صريحة الدلالة واضحة فى أداء المعنى الذى يحمل العظة والعبرة منها .

وما يجىء من آيات لكشف العبرة وإبراز المضمون ليس من أحداث القصة ، وليس من الواقع الذى تنقله ، وإنما هى إضافات جاء بها القرآن بعد أن أنهى القصة وأوقف سير الأحداث عند الغاية المرسومة لها .

فقصة داود السابقة تنتهى عند قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَتْهُ فَاستَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِن لَّهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَّآبٍ ﴾ .

ويجىء التعقيب الذى يوضح معنى القصة ويكشف مغزاها على هذا النحو :

﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ (١)

وهذا التعقيب يحمل الحقائق المضمرة فى أثناء القصة ، والتى تنكشف لبعض الناس ولا تنكشف لكثير منهم ، فكان إبرازها على تلك الصورة فى أعقاب القصة مما

اقتضته حكمة الحكيم العليم حرصاً على تمام الفائدة مما فى القصة من عبر وعظات ، ورحمة بمن قصرت أفهامهم عن أن تدرك شيئاً وراء ظاهر القصة، أو أدركت شيئاً وغابت عنها أشياء (١).

وقد يأتى المعنى من القصة فى أثنائها كما جاء فى أثناء عرض قصة مريم : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمَهِمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٤٤) (٢)

والذى يتأمل هذه الآية يجد أنها أضافت إلى أحداث القصة حدثاً جديداً ، فالقصة أخبرت قبل ذلك أن كفالة مريم كانت من نصيب زكريا ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ (٣) ولكن الآية المذكورة تفيد أن كفالة مريم كانت محل خلاف وخصومة بينهم .

وقد يأتى المغزى فى بداية القصة، كما جاء قبل عرض قصة آدم : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنْمَأَ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) ﴾ (٤)

«إن الناقد المحترف قد يرى أن القصة القرآنية بعيدة عن قواعد القصة العادية ، لأن الموعظة فيها تقترب بالعرض، وهذا الناقد إن فعل يكون مجانباً للصواب مجافياً للنظرة المتعمقة، فالقصة التعليمية أصبحت الآن مذهباً فنياً معروفاً، والقصص القرآنى قصص من نوع خاص، فهو ليس فناً خالصاً يقدمه صاحبه ليعنيه فيه الجانب الخلقى، إنما قصص القرآن قصص أنزله الله - سبحانه وتعالى - ليكون مثلاً للناس، وهو لابد أن يكون المثل الرفيع فى الخلق والإيمان» (٥) .

إن القصة فى القرآن ترد مقيدة بغرض دينى، وترد أساساً للدعوة لهذا الغرض

(١) انظر: القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ص ١٦٢ : ١٦٣ .

(٢) آل عمران : الآية ٤٤

(٣) آل عمران: من الآية ٣٧.

(٤) ص: الآيات ٦٧ : ٧١

(٥) السرد القصصى فى القرآن الكريم ص ٦٠ هـ

الدينى، «ولقد كان من المفروض - طبقاً لهذا التقييد - أن تجئ القصص خالية من القيمة الفنية ونحن نعرف الآن أنه يستحيل على كاتب من البشر أن يوظف فنه للدعوة لشيء ويستطيع أن ينتج فناً راقياً فى الوقت نفسه .

يثير الدهشة العميقة أن ينكسر هذا القانون فى قصص القرآن ، فإذا نحن أمام قصة تدعو مباشرة إلى شيء وهى فى الوقت نفسه عمل معجز .

يستحيل على بشر مهما أوتى من عبقرية أن يقدم أدباً ودعاية فى وقت واحد، يستحيل أن يقدم فناً معجزاً ودعوة مباشرة فى الوقت نفسه، غير أن قصص القرآن تفعل هذا كله بشكل ناعم لاتحس فيه بالجهد، وإنما يدهشك أن يكون غير ماهو كائن ولعل هذه أول إشارة لافتة لإعجاز القرآن وكونه من عند الله»^(١) .

إن القصة القرآنية قد تشارك القصة البشرية فى القاعدة أو الأساس الفنى الذى تبنى عليه، ولكن البعد بينهما فى تطبيق هذا الأساس الفنى شاسع جداً كالبعد ما بين الأسلوب القرآنى والأسلوب البشرى .

إن القصة البشرية تشترط فى أحداثها مايسمى بعنصر تطوير الأحداث عبر مراحل القصة ، وهذا التطوير هو الذى يبعث فى القصة القوة والحركة والنشاط، وهو العصا السحرية التى تحرك الشخصيات على صفحات القصة، وتسوق الحوادث الواحدة تلو الأخرى حتى تؤدى إلى النتيجة المريضة المقنعة، حتى ليقال : إن الحدث هو تصوير الشخصية وهى تعمل^(٢) ، وبالتعرف إلى الأشخاص يمكن التعرف إلى الدوافع التى أدت إلى وقوع الحدث بالكيفية التى وقع بها .

إن كل قصص القرآن - باستثناء الحلقات المكررة السريعة من القصص المكرر والقصص القصيرة جداً التى لاتتعدد أحداثها - تحقق هذا الأساس الفنى على نحو مبهر بل معجز، فتطوير الأحداث وترباطها وتسلسلها بارٍ بوضوح فى هذا القصص الذى وصفت، ويزداد الأمر وضوحاً وإعجازاً كلما طالت القصة أو الحلقة من القصة، لأن الطول يؤدى بلا شك إلى زيادة الحوادث المعروضة ، ومن ذلك قصة يوسف - عليه

(١) أنبياء الله . أحمد بهجت ص ٢١ .

(٢) انظر : فن القصة د: محمد يوسف نجم ص ٢١ .

و : فن القصة القصيرة د : رشاد رشدى ص ٢٥ .

السلام- والحلقات الطويلة من قصة "موسى"، والحلقات الطويلة من قصة "نوح" وإبراهيم"، وقصة "يحيى" و"زكريا" و"مريم"، وقصة ميلاد "عيسى" فى كثير من المواضع التى وردت فيها هذه القصص .

وقد اخترت قصة موسى - عليه السلام - فى سورة القصص لبيان سمات العرض القرآنى للأحداث، وبيان طرائقه فى تطويرها وتسلسلها والربط بينها، واختيار هذه القصة بذاتها كان لجملة أسباب :

- ١ - أنها الموضوع الوحيد الذى ذكرت فيه قصة موسى من أولى حلقاتها ، حلقة ميلاده .
- ٢ - أن فيها زيادة لم ترد فى غير هذا الموضوع - أيضا - كمرحلة فتوته وما وقع فيها من قتل القبطى، وتأمير فرعون وملأه عليه، وهربه إلى مدين وزواجه فيها .
- ٣ - أن القصة مسبقة بما يرسم الجو الذى تنور فيه الأحداث، ويوضح الظروف التى تجرى فيها القصة، ويكشف عن الغاية المخبوءة وراء الأحداث التى سبقت القصة من أجلها .

قسمت القصة - فى هذا الموضوع - إلى ثلاث حلقات : (١)

الأولى : حلقة مولد "موسى" - عليه السلام - وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية فى ظاهرها، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته .

الحلقة الثانية : حلقة شبابه وفتوته، وما أتاه الله من الحكم والعلم، وما وقع فيها من قتل القبطى، وتأمير فرعون وملأه عليه، وهربه من مصر إلى أرض مدين، وزواجه فيها وقضاء سنوات العمل لدى شعيب .

الحلقة الثالثة : حلقة النداء والتكليف بالرسالة ، ثم مواجهة فرعون وملأه وتكذيبهم لموسى وهارون ، والعاقبة الأخيرة - الفرق - وهى مختصرة سريعة .

وقسمت الحلقات إلى مشاهد تزيد وتنقص حسب ما يستدعيه السياق ، وطول الحلقة ، فالحلقتان الأولى والثانية طويلتان لأنهما جديدتان فى القصة، ولم تذكر فى أى موضع آخر على كثرة تكرار قصة موسى .

سبقت القصة بمقدمة تحمل - فيما تحمل - عاقبة القصة ومغزاها، أو بمعنى أدق

(١) انظر: فى ظلال القرآن ج٥ ص٢٦٧ .

تكشف عن نهاية الأحداث قبل أن تبدأ : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُفَعِّلُهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ هَآمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝ ﴾ (١) وإذا كان القارئ يتابع قصة ما، فلنرى كيف يعرف نهاية أحداثها، والأمر هنا على غير المتوقع؛ فالقرآن وضع القارئ أمام النهاية، أو وضع النهاية أمام القارئ، وفي ذلك نوع من التشويق للقارئ يجذبه إلى متابعة القصة والسير مع أحداثها حتى يعرف كيف وصلت إلى هذه النهاية التي انقلبت فيها الأوضاع، فصار المستضعفون أئمة، وورثة لمثل هذا النعيم الذي تركته هذه الفئة القوية المتسلطة .

وفي القصة الفنية يعتمد كثير من الكتاب على المفاجأة في نهاية القصة ويعتمدون في تشويق القارئ على أسلوب القصة البوليسية التي تحتفظ بالمفاجأة إلى النهاية ، ولكن هذه الطريقة قد عفا عليها الزمن حتى إن بعض القصص يبدو أن قصصهم بما انتهت إليه ، مبرهنين أن قصصهم يمكن أن تغرى قراءها بالمتابعة بالرغم من أن نهايتها معروفة منذ البداية، ويكون الدافع الرئيسي للقارئ هو اكتشاف كيف تطورت الأمور حتى وصلت إلى تلك النهاية ؟ نهاية الأحداث وإن ذكرت في البداية (٢) .

وبعد أن كشفت قصة موسى عن نهايتها في مقدمتها تعود فتؤكد هذه النهاية في أول آياتها : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ ﴾ (٣)

إن القارئ يعرف قصة موسى، ويعرف أنه صار نبياً، وهذه حقيقة توضع أمامه منذ البداية، ولكن هذه المعرفة لاتفقده تطلعه إلى مواصلة القراءة واستعادة الأحداث . ويأتي هذا التطلع من هذا الأمر الغريب الذي أوحى إلى أم موسى، فقد جرت العادة على أن أمن الطفل وسلامته لا يتحققان إلا إذا كان أمام عيني أمه، وأن اطمئنانها عليه لا يتحقق

(١) القصص الأيتان ٥ ٦٠ .

(٢) القصة القصيرة نظرياً وتطبيقاً، يوسف الشاروني، سلسلة كتاب الهلال العدد : (٢١٦) ص ٧١

و : النقد الأدبي الحديث ص ٥٥٧ .

(٣) القصص الآية ٧ .

إلا إذا كان بين يديها، ولكن الأمر هنا على غير العادة، فشفار الجزار ستتاله إن اكتشف بين أحضان أمه، وفي فمه ثديها، وهذا مبعث الخوف، وتبديد الخوف يتحقق بتنفيذ هذا الأمر الغريب (فألقيه في اليم، ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين). ولا يكاد القارئ يستوعب هذا الحدث الغريب، حيث الأم تلقى بوليدها في اليم، حتى يفاجأ بحدث أغرب منه (فالتقطه آل فرعون)، وهل كانت الأم تخاف عليه إلا من فرعون وأمه؟ نعم، ولكن الذى ساق الوليد إلى فرعون إنما هى يد القدرة الإلهية، فى هذا التحدى السافر المكشوف، وهى تكشف عن مقصدها مكشوفاً أيضاً . (ليكون لهم عدواً وحزناً) عدواً يتحداهم، وحزناً يدخل الهم على قلوبهم .

ولكن القصة لا ترجع إلى أم موسى قبل أن تطمئن القارئ إلى مصير الطفل بعد أن وصل إلى بيت عدوه، والقارئ يعلم أن مصيره سيكون القتل ، وأنه لاحق له فى دفع هذا المصير عن نفسه، فكيف ينجو من هذا المصير المحتوم ؟

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٩﴾ (١)

وهنا يتطور الحدث ويتقدم إلى الأمام، ليس بالتفريق والمصادفة، ولكن بما يتمشى مع منطق العقل، ويتفق وطبائع الأمور، وإن كانت يد القدرة الإلهية قادرة على أن تخلق من الأسباب ما يجبه هذا الفرعون ويمنعه من الوصول إلى موسى، والقصة - فى عرضها لهذا الحدث - صبغته بصبغة إنسانية خالصة بفمن الطبعى أن تشفق امرأة فرعون على هذا الطفل الضعيف المسكين الذى أوشك أن يموت غرقاً، خاصة إذا صح قول بعض المفسرين بأنها كانت لاتلد (٢)، أو لم يكن لها ابن من فرعون (٣) لقد هان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف (٤)، حب امرأته للطفل .

وينتهى هذا المشهد بعد أن اطمأن القارئ على موسى وعرف ما كان من شأنه، وتعود القصة إلى أمه بعد أن نفذت وحى الله لها، وألقت طفلها إلى الماء، يصورها

(١) سورة القصص الآية ٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج٧ ص ٤٩٦٩ .

(٣) ابن كثير ج٢ ص ٢٨١ .

(٤) فى ظلال القرآن ج٥ ص ٢٦٧٩ .

الأسلوب القرآنى على هذا النحو : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

يقولون إن الحدث المتكامل هو تصوير الشخصية وهى تعمل عملا له معنى (٢)، فماذا ينتظر من أم أَلقت وليدها فى اليم بيدها؟ ليس أدل على حالتها النفسية من هذا التصوير المعجز، ففؤادها أصبح فارغاً لاعتقل فيه ولا وعى ولا قدرة على نظر أو تصريف، فهى كادت تذيع أمرها فى الناس، وكادت تهتف : أنا أَلقيت ابنى فى اليم .

«وإذا كانت القصة قد قدمت شيئاً غريباً لم يعهده المجتمع من ناحية الوقائع والأحداث التى تجرى حولها القصة فإنها - مع ذلك - لم تغفل عن تقديم ردود الفعل النفسية الطبيعية التى يعرفها المجتمع، والقارئ حيث يطالع هذا اللون من القصص يريد أن يعرف أمراً غريباً أو واقعة عجيبة على ما لوف عاداته، ثم يسمك به التشويق أن يعرف كيف تصرف الشخص الذى واجه هذه الواقعة العجيبة، ومن هنا نستطيع أن ننفذ إلى قاعدة قصصية تغيب عن كثيرين» (٣) .

وكان من تصرفات الأم أنها لم تكف عن البحث والمحاولة، فأرسلت ابنتها فى أثر الصبى لكى تعرف خبره، وتقف على مصيره، وأين مقره ومرسأه إن كان حياً؟ ونفذت البنت أمر أمها فإذا بها تبصره بين يدي خدم فرعون يبحثون له عن ثدى يرضعه ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١١) وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٤)

ويبدو تطوير الحدث وتسلسله المنطقى، فلو أن الوليد قبل ما عرض عليه من أئداء النساء لظل فى بيت فرعون، ولكنه رفض كل الأئداء التى عرضت عليه، فكانت الفرصة

(١) سورة القصص الآية ١٠ .

(٢) فن القصة القصيرة ص ٣٥ ، ٥٨ .

(٣) السرد القصصى فى القرآن الكريم ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٤) سورة القصص الآيات ١١ : ١٣ .

مناسبة لأخته التي تتابعه لكي تشير عليهم بما فيه صلاح حال الصبي، وفيه راحتهم أيضاً، ومن هنا كان رجوع الطفل إلى أمه منطقياً، ومما يستدعيه تطور الحدث .

هذه هي المرحلة الأولى من القصة ، وكان عمر موسى فيها لا يتعدى الشهور الأولى، وفي المرحلة الثانية من القصة تبدأ الأحداث وموسى في مرحلة الشباب والفتوة وقد أضربت القصة عن هذه المساحة الزمنية العريضة من حياة موسى بما فيها من أحداث النشأة وبواكير مرحلة الشباب، وفي هذه الانتقال السريعة الوامضة تنتقل القصة من مدة زمنية إلى مدة أخرى ، وكأنها نقلة من قصة إلى أخرى ، وقد امتدت القصة الفنية الحديثة إلى ذلك مؤخراً^(١).

تبدأ المرحلة الثانية بحدث مفاجئ يقع من موسى - عليه السلام - وكان لهذا الحدث تأثيره المباشر على بقية الأحداث بعد ذلك طوال هذه المرحلة، إنه حدث قتل موسى لأحد أقباط مصر، وهذا هو سياق الحدث :

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ (٢)

ويبدأ السياق بتعبير له دلالة (ودخل المدينة) فمن أى مكان جاء فدخلها ؟ هل جاء من قصر فرعون ؟ أو كان قد اعتزل القصر والمدينة كلها ثم جاء ودخلها على حين غفلة من أهلها .

وعلى أية حال فقد دخل المدينة فرأى رجلين يقتتلان، وكان أحدهما إسرائيلياً من شيعه موسى، والآخر قبطياً من المصريين، فاستغاث الإسرائيلي بموسى مستنجداً به على عدوهما القبطي فضربه موسى ضربة كان فيها هلاكه .

(١) السرد القصصى في القرآن الكريم ص ٢٤ .

(٢) سورة القصص الآيات ١٥ : ١٧ .

وتنعكس آثار هذا الحادث على موسى؛ فقد تنبه لساعته أنه أخطأ وأن هذا الخطأ كان بمساعدة الشيطان، فتوجه إلى ربه يطلب المغفرة، وأحس أن الله غفر له بالطمأنينة تسرى بين جوانحه، فتوجه إلى ربه بالشكر وعامده أنه لن يكون بعد اليوم ظهيراً للمجرمين .

هذه هي الآثار الفورية للحادث وانعكاساتها على موسى، فأما الآثار المزاجية فتظهر في هيئة موسى الذى أصبح في المدينة خائفاً يترقب، خائفاً من افتضاح أمره، يترقب الأذى، ولفظ يترقب يصور هيئة القلق الذى يتلفت ويتوجس ويتوقع الشر في كل لحظة، والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ، كما أنه يضخمها بكلمتى « في المدينة » فالمدينة عادة موضع الأمن والطمأنينة، فإذا كان خائفاً يترقب في المدينة، فأعظم الخوف ما كان في مأمن ومستقر (١) .

وبينما هو على هذه الحال وتلك الهيئة إذ هو يطلع فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه، ولكن صورة قتيل الأمس لاتزال تتخيل لموسى، وتذكر ندمه واستغفاره وعهده الذى قطعه مع ربه، أحس ذلك كله فأبدى امتعاضه من هذا الذى يستصرخه، ووصفه بأنه غوى مبين، لأن لا يكف عن العراك والتشاجر مع القبط، واستشاط موسى غيظاً من القبطى - أيضاً - فاندفع يريد أن يبطش به، فقال : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس (٢) .

ويبدو أن الرجل القبطى أنهى إلى ملا فرعون أن موسى هو القاتل ولكن السياق لم يذكر ذلك بل يفاجئ القارئ بمشهد جديد : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٢٠) ﴿ (٣)

ولعل القارئ لاحظ أن شخصيات أم موسى وأخته وامرأة فرعون قد توارت عن

(١) في ظلال القرآن ج٥ ص ٢٦٨٢ .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٣٠٤ .

و : في ظلال القرآن ج٥ ص ٢٦٨٤ .

ومعظم العلماء والمفسرين على أن قاتل هذا هو الإسرائيلى، إذ ظن أن موسى يريد أن يبطش به هو، ولكن الرأى الآخر له وجهاته .

(٣) سورة القصص الآية ٢٠ .

محيط الأحداث، لأن دورها انتهى، ولم يعد لأى منهن أى أثر فى الأحداث، والآن تبرز إلى محيط الأحداث شخصية جديدة لايدرى صاحبها وإنما هو رجل أى رجل ، وليس ضرورياً أن يعلم المتلقى من هو، وإنما المهم أن ظهوره قد حول مجريات القصة وعدل فى أحداثها ، بالنسبة إلى الشخصية الأساسية موسى - عليه السلام - وذلك مع أن ظهوره كان وامضاً سريعاً .

إن حادثة مقتل القبطى على يد موسى لم تكن حادثة قتل عادية من عشرات الحوادث التى تحدث فى المجتمع كل يوم، ولكنها تتصل بأُس النظام الطبقي الذى قام عليه المجتمع المصرى آنذاك ، ولذلك استحققت اهتمام فرعون نفسه، ومعه حاشيته والملا من قومه، ولخطورة هذه الحادثة وأهميتها فى سير القصة وقف عندها السياق القرأنى طويلاً .

وقد تسببت هذه الحادثة فى تقوية جانب فرعون فى صراعه مع موسى وتسببت فى إضعاف جانب موسى، ولذلك كان خائفاً يترقب، ولكن القصة - بإعجاز بنائها الفنى - لاتدع هذا الموقف دون أن تحقق فيه نوعاً من التعادلة ولو كان يسيراً، إذ إن عجز أحد طرفى الصراع فى القصة عن المقاومة يؤذن بانتهاء أحداثها وبلوغ نهايتها، خاصة إذا كان هذا العجز من نصيب القوة الخيرة فى الصراع ، لأن الجانب الأقوى لن يدع غريمه دون أن يسلبه كل قدرة على المقاومة بل إنه دون شك سيقضى عليه قضاء مبرماً .

وكان هذا التعادل بين طرفى الصراع ناشئاً من ظهور هذا الرجل النكرة الذى حذر موسى استثمار الملا به، ونصحه بالخروج، وبذلك حافظت القصة على بقاء طرفيها، لتتأخر المواجهة ويتأخر الصراع إلى حين ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢١) (١) ويتبعه السياق خارجاً من المدينة خائفاً يترقب وحيداً فريداً غير مزود إلا بالإيمان بالله وهو حسبه ، فقط يحدد السياق وجهته ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (٢٢) (٢)

وفى لمحة سريعة يطوى السياق القرأنى الزمن، كما يطوى المكان على رحابته

(١) سورة القصص. الآية: ٢١ .

(٢) سورة القصص. الآية: ٢٢ .

واتساعه ليضع القارئ في مكان جديد ويواجهه بأحداث جديدة، بل قصة جديدة : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)﴾ (١)

إن الأحداث هنا تأتي متلاحقة سريعة في جمل قصيرة أيضا سرد سريع فيه إبانة ووضوح، وجمل حوار خاطفة ولكنها مصورة، فموسى ورد ماد مدين، وسقى واستراح، وجاءته إحداهما تبليغه دعوة أبيها قدم عليه وقص عليه قصته ، وأمنه الرجل، كل ذلك في بي آيات قليلة ونقلات سريعة متلاحقة تلهث وراءها الأنفاس في متعة رائعة، ولعلك لاحظت كلمة «على استحياء» إنها الإعجاز، لقد وقع موسى من نفس الفتاة موقعاً حسناً، ولكن القرآن لا يذكر ذلك، وإنما يشير إليه هذه الإشارة المعجزة، فالاستحياء هنا من نفسها، إذ تحس أنه وقع من نفسها، وهي تستحي من هذه المشاعر التي تخالجهما، والكلمة في الوقت نفسه تمهيد مفر لما سيقع بعد ذلك من أحداث (٢) .

إن القصص القرآني يحكى وقائع تاريخية ويروى أحداثاً خرجت إلى الوجود في زمن سحيق ، ومنزل القرآن- سبحانه - يعرض علينا الوقائع والأحداث أحسن عرض بأبهى لفظ وأحسن أسلوب، وهو- سبحانه - قادر على أن يخضع أعناق عباده ويقسرها على ما يريد، وقادر أن يغير طبائع الأشياء ويسلبها خواصها كما سلب النار خاصية الإحراق في قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام- : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ (٣) فما بال قصة موسى تسير على هذا النحو؟ إذ تتوارى مظاهر القدرة الإلهية وتدفع بالأحداث إلى الظهور حدثاً إثر حدث ، حقاً إن مشيئة الله لا تتخلف لحظة ، وقد رته لا تنتفك برهة من زمن عن رقاب المخلوقات جميعاً، وقد مر- في بداية هذا الموضع من القصة كيف وقعت بعض الأمور الدالة على قدرة الله ومشيئته، فهذا هو

(١) سورة القصص : ٢٣ : ٢٥

(٢) السرد القصصى فى القرآن الكريم . ص ٦١ ، ٦٢ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٦٩

الأمر بالقاء موسى فى اليم، وها هو ذا موسى يصل إلى أيدي أعدائه، ثم يعود سالماً لأمه، فقدرة الله لاحتاج الى دليل، ولكن معظم أحداث هذه القصة تجرى على نسق آخر غير نسق القدرة المهيمنة ، وتتصطبغ بصيغة أخرى هى الصيغة الإنسانية، فمثلاً علم موسى بمؤامرة فرعون ضده عن طريق إحدى شخصيات القصة ولم يخبر بوحي من عند الله - سبحانه - وكان هذا الإخبار سبباً فى نجاته من المؤامرة والقتل وكان سقيه للفتاتين سبباً فى أن يجد ملجأ وملأذاً له فى أرض مدين .

ثم ها هى ذى القصة تضرب بجذورها فى عالم الإنسانية : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (٢٦) ﴿١﴾

وهنا وقفة لابد منها ليعلم كتاب القصة الفنية كيف يقنعون قراءهم بالأحداث التى يوردونها فى قصصهم، وكيف يأتى هذا الإقناع من الحدث نفسه حين يأتى متساوفاً مع الحال النفسية التى تتلبس بها الشخصية الفاعلة للحدث .

إن موسى سقى للفتاتين دون أجر، ثم استدعاه والدهما بعد أن أخبر تاه بأمره، ثم جاء فقص عليه، فأمنه، ولعله أطعمه وسقاه فاطمأن، وعزم على المقام فى هذه المنطقة الآمنة، فما موقف الرجل وابنتيه فى هذه الحال ؟ أيتركون موسى يمضى فى سبيله ليستأجره إنسان آخر رغم أنهم أحوج ما يكونون إليه ؟ أم يستبقونه عندهم إن ذلك سيكون داعياً إلى إطلاق ألسنة الناس بالباطل، والأجير يمكن أن يترك مستأجره عند أول هفوة تقع منه، لعل ذلك كله دار فى خلد الفتاتين، وفى خلد أبيهما أيضاً، فلا بد من البحث عن سبب يجعل مقام هذا الشاب، الغريب فى بيت هذا الشيخ مقاماً مشروعاً، إنه الزواج ولاشئ غيره، وإذا كان الأمر كذلك فممن يأتى العرض ؟ أمن موسى ؟ كيف وهو غريب فريد فقير لا يملك نقيراً ولا قطميراً ؟ وربما غلب على ظنه أنه لو عرض نفسه لرفض ،بقى الولد وابنتاه، أما الوالد فإنه لا يدرى كيف يقع هذا العرض فى نفس الفتى، وهل يميل إلى أى الفتاتين إن كان ذلك، أو أن أيا من الفتاتين تميل إليه ؟ وبقي الفتاتان ولابد لإحدهما أن تجلى هذا الموقف المتشابك الخيوط، لاضرورة للتصريح، فالتصريح لا يناسب المرأة فى هذا الأمر بالذات ، ولكن لها أن تعرض بما تريد دون أن تجبر على ما ينافى فطرتها

(١) سورة القصص الآية ٢٦ .

وطبعها، وقد كان، فأرسلت إحداهما الكلام كالسهم النافذ (قالت إحداهما يأت استنجره) وهذا يكفي ليعلم الأب أن ابنته راغبة في الفتى ثم هـ تلقى بقضيتها وتفصح عن رغبتها في ألفاظ قليلة، فالموقف لا يحتاج إلى أكثر من التلميح، ويكفي من الأدلة ما ينهض على صلاح هذا الفتى للاستنجار فهو قوى أمين، والقوة والأمانة إذا اجتمعتا في رجل واحد فلا شك أن كل فتاة ستتهفو إليه .

وينمو الحدث في هذا الوقت على يد والد الفتاتين، فإذا به يستجيب لرغبة ابنته، ويجمع في عرضه على موسى بين غايتين : استنجاره وزواجه من إحدى ابنتيه : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمَنْ عِنْدَكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (٢٨) ﴿ (١)

إن هذا الأسلوب لا يحمل الأحداث فقط ولكنه يحمل مشاعر صانعي الأحداث أيضاً، إن الزواج والاستنجار حدثان صغيران جداً بالنسبة إلى الكلمات الكثيرة التي جاءت على لسان الرجل، وإنما القصد إلى بيان الألفة التي حدثت بين موسى والرجل، ولذلك أسهب الرجل في كلامه، فهو يريد أن يستبقه أطول مدة ممكنة، وهو يطمئنه إلى أنه لن يشق عليه، يعده أن يكون معه من الصالحين، ويستعين على ذلك بمشيئة الله - سبحانه - وكان من الممكن أن تسكت القصة عن رد موسى وتأتي بما يفيد موافقته، وهي قد أتت به فعلاً في قوله (قلما قضى موسى الأجل)، ولكن رد موسى هنا له مغزاه، لأن العقد بينهما عقد نكاح وهو يستدعي موافقة الطرفين، فإنه لو سكت لظن أنه غير راغب في الزواج، وقد قدم والد الفتاتين أمر الزواج وأخر الاستنجار، فهو يغري موسى بالبقاء، ويجعل من وجوده في بيته أمراً مشروعاً، وثمة شيء آخر وهو أن صوت موسى كان غير مسموع بالمرّة في مساحة طويلة من القصة، فأخر عهد للقارئ به حين قال : (رب إنني لما أنزلت إلى من خير فقير)، والآن أن له أن يتحدث وأن يبدى موافقته الصريحة .

ويفيد الحوار السابق أمراً آخر حين يكشف عن نوع العلاقة، ونوع المعاملة التي

سادت بين موسى وحميه فى هذه السنوات العشر التى اختتمت بها المرحلة الثانية من القصة، وبدأت بعدها المرحلة الثالثة بقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَنَا نَادَىٰ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَانَهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾ (١)

انتهت المرحلة الثانية من القصة وكانت يغلب عليها الطابع الإنسانى، أما فى هذه المرحلة الجديدة فتأخذ القصة اتجاهاً آخر، وتصطبغ بصبغة أخرى، فالاتجاه يميل إلى ذكر الأحداث الغريبة التى لا يستطيع البشر أن يستوعبوها لغرابيتها، وصعوبة إدراكها أو حتى تخيلها، فبينما موسى يسير بأهله إذ هو يرى نارا فيستأنس برؤيتها ، لأنها فى العادة تدل على وجود قوم آخرين، فهل استأنس بالنار لأنه كان قد ضل الطريق ؟ لعل ذلك كان أو لأنه وزوجته كانا يعانيان برد الصحراء (٢)؟ لعله أيضا كان ، إن طريقة العرض القرأنى ترغم على التفكير فيما وراء الألفاظ حتى يندمج المرء مع القصة القرآنية ويعيش فيها ينبضه وإحساسه وتفكيره كله، وتلك هى قمة الإعجاز فى العرض القصصى. ثم يأتى هذا التحديد الدقيق للمكان لينبئ أن حدثاً جليلاً سيحدث ، وأن أمراً لم تعرف الأرض مثله سيبهزها هذا، فإن الذات الإلهية تخاطب إنساناً : (إنى أنا الله رب العالمين) ثم يعقب الخطاب أمر بلقاء العصا، ذلك الشئ المألوف فى يد موسى، فإذا بها حية تهتز كالجان، وإذا كان القارئ لم يستوعب هذا الحدث الغريب المفاجئ، فإن موسى نفسه حين رأى ذلك ولى مدبراً ولم يرجع ليعرف ما بها (٣) .

وإذا كان للقارئ أن يعجب لما يرى من أحداث عجيبة فله أن يعجب أيضا لهذا

(١) سورة القصص: الآيات: ٢٩ : ٣٢ .

(٢) التفسير الكبير، للفخر الرازى، المجلد الثانى عشر: ج ٢٤ ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٤٥ .

(٣) انظر: السرد القصص فى القرآن الكريم ص ٦٣ ، ٦٤ .

التعاقب بين الأمن والخوف فى نفس موسى: فى لحظة يخاف، وفى لحظة تالية ينتفى الخوف ويسود الأمن، وقد خاف قبل ذلك وأمن، ولعل هذا التعاقب بين الأمن والخوف فى نفس موسى يكشف عن الصراع الذى يعاينه سواء أكان صراعاً ضد الظروف المحيطة به، أم كان بينه وبين غيره من الشخصيات فى القصة أم كان صراعاً داخلياً، ولست أعنى بالصراع الداخلى هنا أن هناك تنازاعاً بين عقل موسى وهواه وإنما أعنى هذا الاضطراب الذى يحسه نتيجة لتعاقب الشدائد والأهوال والأحداث المفاجئة .

ماكاد موسى يهدأ ويطمئن من تحول العصا ثعباناً حتى وقع له حدث غريب آخر، إذ أمر أن يدخل يده فى فتحة ثوبه فنفذ الأمر ثم أخرجها فإذا هى بيضاء لامعة من غير مرض، فيخاف موسى - عليه السلام - فيؤمر أن يضم يده إلى صدره ليذهب خوفه وليطمئن. وكان هذان الحدثان الغريبان اللذان سببا الخوف لموسى مقدمة لأمر عظيم سيتلقاه موسى، ذلك هو أمر الرسالة : (فذاك برهنان من ربك إلى فرعون وملأه إنهم كانوا قوم فسقين) ، وهنا يتذكر القارئ بداية القصة أو بمعنى أدق يتذكر وعد الله إلى أم موسى يوم كان صبيهاً صغيراً : (إنا رآوه إليك وجاعلوه من المرسلين) وقد صرح السياق بأن موسى سيكون رسولاً فلما جاءت لحظة الإرسال حذف السياق ما يشير إليه وكأن التصريح به فى البداية أغنى عن إعادة ذكره، وإنما اكتفى بتحديد المرسل إليه وهم فرعون وملأه وفى ذلك تناسق فنى بل إعجاز فى البناء القصصى .

إن آخر عهد للقارئ بما حدث بين موسى وقوم فرعون هو مقتل ذلك القبطى على يد موسى، وخروجه من مصر إلى مدين، وقد قفز هذا الحادث إلى ذهن موسى حين سمع الأمر الإلهى بالذهاب إلى فرعون، فعاوده الخوف مرة أخرى، وهو خوف له ما يبرره، فإن فرعون ربما يتلقفه فيقتله بذلك القبطى الذى قتله قديماً، فتضيع الرسالة التى يحمل أمانتها، وهناك خوف آخر ، إنه الخوف من التكذيب الذى قد ينشأ عن تقصير موسى فى الإبانة أمام فرعون، ولذا طلب من ربه أن يعضده بأخيه هارون لأنه أفصح لساناً منه، وأقدر على الدفاع عن الدعوة : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) ﴾ (١)

(١) سورة القصص: الآيتان: ٣٣، ٣٤ .

إن الحديث عن آيتي العصا واليد البيضاء وضع القصة في إطار الحوادث الغيبية التي تستعصى على الفهم الإنساني ، وأدخلها في محيط القدرة الإلهية المهيمنة ، وكان موسى - عليه السلام - خشى - بعد أن تلقى أمر ربه بالذهاب إلى فرعون - أن تعود الأحداث الى محيطها الإنساني الذي دارت فيه القصة في حلقتها الثانية، ولكن الله - سبحانه - طمأنه إلى أنه لن يواجه فرعون منفرداً، ولن يواجهه بمعزل عن القوة الإلهية، فالقدرة ستتجلى على مسرح الحوادث، وتؤدي دورها مكشوفاً بلا ستار من قوى الأرض، لتكون الغلبة بغير الأسباب التي تعارف عليها الناس ، فأجاب الله دعاءه، وشد عضده بأخيه، وزاد على هذه الإجابة البشرية بأنه لن يذهب هو وأخوه إلى فرعون مجردين، وإنما سيذهبان إليه مزودين بسلطان لا يقف له في الأرض سلطان، وزيادة في البشرية طمأنه الله إلى أن الغلبة ستكون له ولأخيه في صراعهما المقبل مع فرعون وملاه . (١)

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ (٣٥) ﴿ (٢)

بهذه الآية ينتهي مشهد موسى - عليه السلام - في سيناء ويأتي بعده اختصار سريع للمحاورات التي دارت بين موسى وفرعون، ثم نهاية القصة التي تذكر مجملة أيضاً:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿ (٤١)

(١) انظر : في ظلال القرآن - ج ٥ ص ٢٩٦٢ .

(٢) سورة القصص: الآية ٥٢

وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴿١﴾

قلت : إن ماورد فى هذه الآيات اختصار سريع للأحداث والمحاورات بين موسى وفرعون ، ويبدو ذلك من الآية الأولى التى تقفز إلى الحديث عن الآيات التى أبداهها موسى لفرعون، وهى العصا واليد، ولذلك جاء رد فرعون وملأه عليه بقولهم : ما هذا إلا سحر مفترى، وهم لم يتهموا موسى بأنه ساحر إلا بعد أن قطع شوطاً غير قصير فى جداله مع فرعون ويوضح ذلك سياق هذا الموضع فى سورتى : طه (٢) والشعراء (٣) وقد جاء الاتهام بالسحر على لسان فرعون وملأه جميعاً ولذا عبر السياق بـ (قالوا) فى حين أن هذا الاتهام جاء على لسان فرعون وحده فى سورتى طه والشعراء ، وجاء على لسان الملأ وحدهم فى سورة الأعراف (٤) (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لسحر عليم) فكان السياق هنا جمع قول فرعون وقول الملأ، مما يدل على أن فى القصة هنا تكثيفاً للمحاورات على غرار ما جاءت عليه قصة نوح - عليه السلام - فى سورة هود (٥)

ويوضح هذا التكثيف - أيضاً - العطف بالواو فى قوله تعالى : (وقال موسى ربى أعلم بمن جاءبى الهدى...) وقوله : (وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ..) هذا العطف بالواو يوضح أن بين هذه الأقوال فاصلاً زمنياً ، وأن ما قاله كل طرف من الطرفين كان فى مجالس عديدة، وهذا للتهكم من فرعون : (فأوقد لى يهمن على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكذابين) هذا التهكم لم يرد إلا فى مرحلة متأخرة من محاورات موسى وفرعون على ما هو واضح من سياق قصة الرجل المؤمن من آل فرعون فى سورة غافر (٦).

وفى ختام هذه الحلقة من القصة يرد الحدث الذى يضع النهاية المنتظرة لهذا العتو والتكبر من فرعون وملأه : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ

(١) سورة القصص: الآيات: ٤٢-٤٦ .

(٢) سورة طه: الآيتان: ٥٦ : ٥٧ .

(٣) سورة الشعراء: الآيات: ٢ : ٣٤ .

(٤) سورة الأعراف: الآية: ١٠٩ .

(٥) سورة هود: الآيات: ٣٥ : ٣١ .

(٦) سورة غافر: الآيات: ٤٥-٤٣ .

عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾
وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ (١)

ونلاحظ على هذه النهاية بعض الأمور :-

أولاً : الإيجاز الدال المصور، الدال على السرعة في وقوع الحدث، (أَخَذُ فَنَبَذُ) هكذا في سرعة خاطفة، المصور: لهؤلاء المأخوذون المقنوفين في اليم، وكأنهم حصاة تقذف أو حجر يرمى .

ثانياً : هذا اللفظ المشترك بين حدث البداية وحدث النهاية، لفظ اليم، إنه ليس لفظاً فقط، وإنما هو عامل حاسم في أحداث القصة؛ فبينما هو في البداية عامل مساعد على تطور الأحداث ونموها يوم كان اليم مأمناً وملأذاً لموسى وأمه الخائفة، إذ هو في النهاية سبب الهلاك للقوة الباغية العادية، وشتان ما بين موسى وفرعون وجنوده، لقد وضع موسى في اليم وهو طفل صغير لاحول له ولا قوة فخرج منه سليماً معافى ، وقذف فرعون وجنوده فيه فلم يخرجوا منه، وإنما ابتلعهم رغم قوتهم وجبروتهم.

ثالثاً : هناك لفظ مشترك آخر بين مقدمة القصة ونهايتها، إنه لفظ (أئمة)، ففي المقدمة ﴿وَنريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾ وفي النهاية جاء عن فرعون وقومه ﴿وجعلنهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيمة لا ينصرون﴾ لقد شاعت إرادة الله أن يجعل لبنى إسرائيل الإمامة في الدنيا فكانت، وجعل لفرعون وقومه نصيباً من الإمامة أيضاً، ولكنها إمامة من نوع آخر، إنها إمامتهم للمجرمين في الآخرة إذ يدعونهم إلى النار ولا يكتفون بأن يكونوا منهم.

رابعاً : هذا التداخل بين مشاهد النهاية ، وهو تداخل بين مشاهد متباعدة زمنياً ومكاناً، وليست مشاهد عادية من القصة تجمعها وحدتا الزمان والمكان بهذا التداخل واضح في قوله تعالى : (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. وجعلنهم أئمة يدعون

إلى النار)، فالمشهد الأول فى الدنيا وهو مشهد الفرق، والمشهد الثانى يعبر الحياة الدنيا ويجتازها فى لمح البصر، ويصور فرعون وجنوده فى هذا المنظر العجيب حيث يدعون إلى النار ويقوبون إليها الأتباع والأنصار (١)

وهذا التداخل - فى صياغته المعجزة - يحمل معنى النهاية بل يحمل معنى الأحداث كلها مغلقة بهذا الغلاف الشفيف، إن معنى القدرة الإلهية الكائنة وراء هذه النقلة العجيبة للأحداث من عالم إلى عالم، القدرة الإلهية القادرة على إلحاق الهزيمة بالطرف الباغى فى الدنيا فى المشهد الأول، والقدرة أيضا على إلحاق الهزيمة به فى الآخرة فى المشهد الثانى.

وهناك معنى آخر واضح تحمله التعقيبات التى تلت القصة ، ويدور هذا المعنى حول دلالة إيراد هذه الأحداث المتصلة على صدق دعوى الوحي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين - ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم وأيتنا ولكننا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) (٢)

فى قصة موسى السابقة يجد القارئ أن الأسس الثلاثة الرئيسة التى تعتمد عليها القصة فى بنائها الفنى وهى الحدث، والشخصية، والحوار والسرد، يجدها متوفرة فيها بمعنى أن العنصر السائد فى القصة هو مجموع هذه الأسس الثلاثة، وقد يطفى الحدث فى بعض أجزائها ويحتل مكان الصدارة، وتسود الشخصية فى أجزاء أخرى وقد يسود الأسلوب أحياناً، مع بقاء التوازن بينها جميعاً على مدار القصة .

وفى القصص الأدبى الحديث قد تسود الحادثة وتصبح هى العنصر السائد فى القصة وهو ما يعرف بقصة الأحداث، فالكاتب يعتمد فى قصته اعتماداً كلياً على حركة الأحداث (٣)، ولذا كان هذا النوع من القصص أقل من غيره فى المرتبة الفنية ، وكانت منزلته الأدبية أقل كثيراً من أجناس القصة الحديثة الأخرى (٤) ، تلك هى القصة

(١) انظر : فى ظلال القرآن ج٥ ص٢٦٩ .

(٢) سورة القصص الآيات ٤٣ : ٤٦ .

(٣) فن القصة د: محمد يوسف نجم ص ٣٢ .

(٤) النقد الأدبى الحديث ص ٥٣٠ .

البوليسية، التي تضع للتسلية وإزجاء الوقت ثم لاشيء بعد هذا، فلاهى تحمل فى طياتها معنى آخر، ولا هى تهدف إلى فكرة أو هدف، ولكنها - فى الوقت نفسه - أمتع أنواع القصص، لأنها تعتمد فى بنائها على الغموض، إذ تبدأ بحدث معين يدعو إلى الدهشة والانبهار، ثم تمضى بقرائنها، وهو يضع التفسيرات لهذا الحدث وينشئها فى ذهنه، وتتغير هذه التفسيرات مع كل منعطف للسرد، ولايزال القارئ بين إمتاع بما وصل إليه ظنه وانصراف عنه، حتى تنتهى القصة إلى تفسير قد يكون بعيداً كل البعد عما أنشأه هو نفسه (١).

ومعنى هذا أن القصة الأدبية تأبى أن تجمع بين المتعة الكاملة والهدف النبيل فى وقت واحد إذ أقصى ما تطمح إليه القصة البوليسية المتعة أن تحظى بقدر ضئيل جداً من التحليل النفسى لايقاس بنظيره فى قصة الفكرة أو القصة ذات الرسالة كما يسمونها (٢).

وهناك أمر آخر فى القصة الأدبية وهو ما يعرف (بالتصميم) ويعنى به تليفق الحوادث وجمعها بعضها إلى بعض مع وجود علاقة بينها، ومنه ما يعرف بالتصميم البسيط، والتصميم المركب بمعنى أن يكون تصميم القصة الطويلة، مكوناً من قصة واحدة، أو أن يكون مكوناً من قصتين أو أكثر، ويقتضى التصميم المركب أن تكون الأجزاء مترابطة، ويفقد جودته إذا كانت القصة الطويلة مكونة من قصتين أو أكثر ليستا متداخلتين تداخلاً صحيحاً (٣).

وإعجاز القرآن يتبدى فى أن قصة واحدة جمعت ذلك كله فى طياتها، قدم القرآن قصة الحدث ذات البناء الفنى المحكم الذى يعتمد على الحدث وحده معروضاً - فى سرد شائق أخاذ معجز، وفى الوقت نفسه تجعل القصة من هذا السرد قصة ذات هدف بل أهداف.

والأعجب من ذلك أن القصة نفسها جمعت بين أصول القصة القصيرة وأصول القصة الطويلة فى وقت معاً، إنها قصة موسى مع العبد الصالح، فلنقرأها :

(١) السرد القصصى فى القرآن الكريم ص ٧٠، ٧١.

(٢) النقد الأدبى الحديث ص ٥٢.

(٣) النقد الأدبى : أحمد أمين ط: مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ ص ١٢١.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا فَلَمَّا
بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ
إِنِّي أَخَذْتُ غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي
نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ
ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ
مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَنَ مَا عَلَّمْتُكَ رَشِدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا
وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ
أَمْرًا قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾
﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ
شَيْئًا إِثْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيًّا بَغِيرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ
شَيْئًا نَكِرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا
فَلَا تَصْلِحْ لِي مِنْهُ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا
جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي
وَبَيْنِكَ سَأَتَّبِعُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ
وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ
يُزْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا وَأَمَّا

الْجِدَارَ . فَكَانَ لَغُلَّامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتَهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿١﴾ .

إن الآيات الخمس الأولى تعد تمهيداً لأحداث القصة، بل لأحداث القصص الثلاث والتمهيد في نفسه يكاد يكون قصة وحده يجتمع فيها شخصيتان فقط، موسى وخادمه، وكانا في سفر سبب لهما النصب والتعب، وحدثت لهما بعض الحوادث العجيبة، وما إن ينتهي التمهيد وتبدأ الأحداث الأساسية للقصة حتى يفاجأ القارئ بأول خصيصة من خصائص القصة الطويلة، لقد اختلفت شخصية فتى موسى، وظهرت شخصية جديدة، فالشخصيات في الرواية يظهرون شيئاً فشيئاً في تتابع، إنه العبد الصالح، وقد يبدو أنه لن يكون له أثر فعال في القصة، ولكن ما هي إلا أن تنتقل إلى الآية التالية حتى تدرك أنه قد أخذ مكان البطولة جميعاً ويدور بينه وبين موسى الذي أصبح تابِعاً له حوار تظهر فيه شروط المتبوع حين يملئها على التابع الراغب في مصاحبته .

وفى إملاء هذه الشروط تشويق جذاب يشد القارئ إلى الأحداث قبل أن يبدأ العرض ، فما ظننا به حين تبدأ الأحداث وتتلاحق في سرعة وغرابة ١٩ لن تستطيع معي صبراً، ثم لاتسألني حتى أخبرك، إذا فالعبد الصالح يعلم أنهما سيلاقيان في مسيرتهما هذه عجباً، وأن موسى سيرى أشياء يذهل لها، وأنه سيسأل .

ثم تبدأ الأحداث بانطلاق موسى والعبد الصالح وركوبهما سفينة تحمل جماعة من الناس، وإذبا لعبد الصالح يمد يده فيخلع بعض ألواحها فيحدث بها خرقاً، فأنكر عليه موسى فعلته واتهمه بأنه أتى أمراً منكراً، حين أراد أن يفرق السفينة بأهلها،

وينبه العبد الصالح موسى إلى ما اشترط عليه قبل صحبته له، فيعتذر له موسى متعللاً بأنه نسي ما بينهما من شرط وعهد على عدم السؤال . وبهذا تنتهي القصة الأولى ويبقى تفسير هذا الحدث الغريب مجهولاً عند موسى .

ثم ينطلقان فيقع حادث غريب آخر على مرأى من موسى ، حين لقيهما غلام صغير فقتله العبد الصالح دون ذنب جناه فهو لم يسيئ إليهما ولم يعرض لهما بشئ، وأنكر عليه

موسى الأمر أيضا قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا .

ويذكره العبد الصالح مره ثانية بما بينهما من شرط وبما قاله له فى بداية الصحبة ، ولكن موسى يحسم الأمر بينهما فيحل العبد الصالح من صحبته إن سألّه عن شئ بعد ذلك . وهنا تنتهى القصة الثانية وقد ازداد موسى عجباً .

وينطلقان مرة ثالثة وقد أصابهما الجوع ، فطلبيا الطعام من أهل قرية من القرى التى مرا بها فرفضوا إطعامهما ، ويرى العبد الصالح بيتاً من بيوت القرية يوشك أن يتساقط فيمديده إلى جدره فيقيمها ، فيعجب موسى لهذا الموقف المتناقض من العبد الصالح ، إنهما لم يلقياً من أهل القرية غير الجفاء والمنع ، ثم يقوم العبد الصالح بإصلاح أحد بيوتها دون أجر ، ففاضت مشاعر موسى فأتكر هذا الفعل الذى لم يقع فى موقعه حسب ظنه ، قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً فنحن أحوج ما نكون إلى الأجر . وهذه كانت الفاصلة بينهما - على ماشرط موسى على نفسه - ففارقه العبد الصالح بعد أن أخبره بأسرار هذه الأحداث العجيبة التى رآها فأنكرها .

وفى كشف أسرار الأحداث تكمن الأهداف التعليمية من القصة ، وهى ليست أهدافاً خاصة بموسى وحده ، وإنما هى تعليم لكل من يقرأ القصة ، فالسفينة لمساكين يعملون فى البحر فأراد أن يعييبها حتى لا يستولى عليها ملك ظالم كان يتربص بأصحاب السفن فيأخذها منهم غصباً ، فكأن فى عييبها سلامة لها ، وضمنا لأصحابها المساكين ، لاشك أن هذا السبب لم يكن ليخطر على بال موسى ، ولا على بال أحد أبداً وهذا هو الهدف الأول . والغلام المقتول كان أبواه مؤمنين . وكان العبد الصالح يخشى أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فخلصهما منه لكى يهب الله لهما خيراً منه وأقرب رحماً ، وهذا هو المعنى الرفيع الذى يتخفى وراء هذه القصة ، ولاشك أن الأبوين حسبا هذا القتل كارثة حلت بهما ، لأنهما لا يطلعان على الغيب ، فوراء هذا الحدث العجيب : أنه رب كارثة حاقت بإنسان ما ، فإذا اطلع على الغيب رآها نعمة أحسن الله - سبحانه - تقديره هاله .

فما شأن الجدار إذا ؟ إنه لغلّامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحت كثر لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأراد الله - سبحانه - أن يحفظ لهما الكنز حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من الله بهما (١) .

(١) انظر : السرد القصصى فى القرآن الكريم . ص ٧٢ : ٧٦ .

و : القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه . ص ١٧٣ : ١٧٦ .

ثم إن العبد الصالح يخبر موسى بأن مافعله ليس بأمره هو وإنما كان أداة لتنفيذ مشيئة الله - سبحانه - وذلك لكي يستل ما عساه أن يكون في نفس موسى من غضب لهذه الأحداث التي لم يطق السكوت عليها .

إن العنصر السائد هنا هو عنصر الحدث، وعليه يقوم التشويق في القصة ، من البداية حتى النهاية، فالأحداث متلاحقة وغريبة بل عجيبة إلى درجة أن موسى الذي كان في قلبها أنكرها، والقارئ منكر لها أيضاً، ولا يجد لها تعليلاً قريباً ولا بعيداً ، ولكنه يهدأ وتستقر نفسه حين يصل إلى النهاية التي يكشف فيها العبد الصالح عن أسرار هذه الأحداث التي تسبب الدهشة وقمة التشويق تكون حين تحتفظ القصة بالمفاجأة إلى النهاية على نحو ما ورد في هذه القصة .

ولم يمنع سيطرة عنطر الحدث على القصة من أن تجمع في طياتها هذه الأهداف النبيلة التي عرفناها . فكل قصة من القصص الثلاث لها هدف مقصود ولكنها جميعاً تتضافر على إبراز هدف عام ينتظم القصة الطويلة كلها .

يقول النقاد : إن العلم هو عماد القوى المتصارعة في القصة التي تعتمد على الحدث وحده (١) فهل يستطيع كاتب من البشر أن يجعل العلم محور التصارع في قصة كما هي الحال في هذه القصة القرآنية ؟ إن موسى هنا لا يرى من الأشياء إلا ما على السطح، أو ما وراء السطح بقليل، أما أعماق الأشياء، وأما صميمها فليس له إليه سبيل مهما بلغ علمه ، ومهما كانت معارفه، إن له حدوداً لا يتجاوزها وله مجالات لا يخرج عنها، وفي هذه الحدود يعمل، وفي هذه المجالات يتحرك، حسب تقديره وتفكيره ، أما العبد الصالح فإنه يرى من الأشياء ما غاص في الأعماق ، فيجاوز سطح الحدث إلى قلبه وعمقه فيرى ما لا يراه غيره ومن ثم فحدوده أرحب وأوسع لأن علمه وافر ، ومعارفه لا حدود لاتساعها .

وهذا الاختلاف في العلم بين القوتين جعل الأحداث تسير في اتجاهين مختلفين تمام الاختلاف، اتجاه يسير فيه الظاهر في مستوى الحياة التي يحكمها منطق الناس، وتحتمله مدركاتهم، وتناله عقولهم، واتجاه آخر على مستوى عال بعيد عن ماكوف الحياة،

(١) النقد الأدبي الحديث ص ٥٢٩ .

وخارج عن نطاق الإدراك الذى يتعاملون بمقتضاه، إنه على أعماق بعيدة لم تصل إليها رؤية الناس بعد^(١) .

إن هذه الرؤية الثانية العميقة ماهى إلا رؤية القدر أتاها الله - سبحانه - لمن اصطفاهم من خلقه فجعلهم كائنهم أصحابها وماهم - فى الحقيقة - إلا أداة لتبليغها إلى الناس، والعبد الصالح هنا هو الأداة المختارة لتبليغ رسالة القدرة إلى البشرية كلها فالله يقول عنه : (وعلمنه من لدنا علماً) وموسى يقول له : (هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً) فموسى يعترف له بفضلله، ومع ذلك لا يصبر على التعلم منه لأنه لا يدرى قدر الله فى هذه الأحداث وما أحسن قول القائل^(٢) :

(ألا من يرى غايته قبل مذهبه ومن أين والغايات بعد المذاهب ؟)

فلو علم موسى - عليه السلام - الغاية من الأحداث لقص علينا من هذه الأعاجيب الكثير ، ولذا صح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما»^(٣).

ويبدو هذا المزج العجيب بين القصص الثلاث التى عرضتها القصة القرآنية، فكل واحدة منها جزء أساس من بناء القصة الطويلة لا يمكن أن تفصل عنها، ولا تصلح إحداها إلا بالآخرى ، فإذا أراد النقاد والقصاص أن يتعلموا كيف يكون «التصميم» والمزج بين القصص المتعددة فى الرواية فليتعلموه من هذه القصة المعجزة .

بقى فى هذه القصة أمران فى غاية اللطف والدقة. لا يتصلان بالبناء الفنى للحدث، ولكن يتصل أولهما بالأسلوب التعبيري، ويمثل الآخر نوعاً من الإسقاط فى القصة القرآنية .

الأمر الأول : خاص بأسلوب التعبير فى نهاية القصة، فنسمع العبد الصالح - حين يفسر الأحداث الثلاثة - ينسب الفعل الأول إلى نفسه حين أسنده إلى ضميره خاصة فقال (فأردت أن أعيبها) وذلك من باب الأدب مع الله ، لأن المراد هنا عيب، فتأدب ثم نسب العيب إلى نفسه، وأسند الفعلين فى الحدث الثانى إلى ضمير الجماعة أو المعظم

(١) القصص القرآنى فى منطقته ومفهومه ص ١٧٣، ١٧٦، ١٧٧ .

(٢) البيت لابن الرومى ، ديوانه ج ١، ص ١٢٨، تحقيق : د. حسين نصار، ط ١٩٧٦، القاهرة، دار الكتب المصرية.

(٣) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، ج : ٨ ص ٢٦٢

نفسه (فأردنا أن يبدلها ربهما) (فخشينا أن يرهقهما) والظاهر أنه يجرى مجرى مايقوله خواص الملوك حين يقولون : أمرنا بكذا وديبرنا كذا ، وإنما يعنون : أمر الملك ، وديبر الملك، ولذا أسند الفعل في الثالثة إلى رب العزة - سبحانه - فقال : (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) لأن الفعل هنا خير محض لاشبهة فيه ، وهذا من الدقة التي لايجدها المرء إلا في القرآن الكريم (١).

الأمر الثاني : خاص بالإسقاط في الحدث في القصة القرآنية، والإسقاط هنا لايعود على حدث من أحداث هذه القصة هنا، وإنما يعود من أحداث القصة الثالثة على ثلاثة أحداث في قصة أخرى، هي قصة موسى في سورة القصص، روى القرطبي في تفسيره قال : «وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر : إنها حجة على موسى ، وعجبا له، وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودى : ياموسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت (مطروحاً) في اليم ! فلما أنكر أمر قتل الغلام قيل له : أين إنكارك هذا من وكزك القبطى وقضائك عليه ! فلما أنكر إقامة الجدار نودى : أين هذا من رفك حجر البثر لبنات شعيب دون أجر !» (٢).

إن هذا الإسقاط بين الأحداث الثلاثة قد أفاد أمرين :

أولهما : تأكيد المعنى العام المراد من القصة كلها ، وهو التفاوت في العلم بين إنسان وآخر، وأن الإنسان الأقل علماً قديرى مايدعشه ويفزعه، فماذا يكون سلوكه؟ إن القصة تريد أن تقول إن المسارعة إلى إنكار الأمور الغريبة أمر غير محمود، فلايد من التروى والتأنى ، فهذا موسى أغفله التسرع في إنكار الأمور عما وقع له وما وقع منه من أحداث كالتى ينكرها تماماً .

الأمر الثاني : إن الانصراف إلى دراسة المعانى الجزئية في أى القرآن الكريم وسورة نفعه قليل إذا قيس بمنهج الدراسة حين تتناول القرآن كله بوصفه نصاً واحداً مرتبطاً ببعضه ببعض، لقد توجه جهد الأستاذ سيد قطب إلى دراسة السورة القرآنية بوصفها موضوعاً واحداً يجمع بين أجزائها، فهل مثل هذه اللفتة من قصص موسى تريد أن توجهنا إلى تخطى مرحلة وحدة السورة أيضاً بعد أن تخطى علماؤنا المحدثون مرحلة

(١) انظر:الكشاف ، ج : ٢ ص ٧٤٨ .

(٢) تفسير القرطبي ج٦ ص ٤٠٧٢ .

المعانى الجزئية؟ لعل ذلك يكون من مقاصد هذه اللفتة من قصة موسى ، ولعل لها مقاصد أخرى غفلت عنها .

وأخيراً فلعلنا لاحظنا فى القصة أمراً فى غاية الأهمية ، وهو علاقة الشخصية بالحدث فى القصة القرآنية، وتتخلص هذه العلاقة هنا فى أن الشخصية تقفز إلى قلب الحدث مادام دورها مؤثراً وفعالاً فى إدارته وتطويره كما حدث لشخصية العبد الصالح . كما أن القصة القرآنية تذكر الشخصية مادامت فى بؤرة الأحداث فإذا انتهى دورها لم تذكرها، كما حدث مع شخصية فتى موسى الذى ذكر فى بداية القصة ثم تلاشى دوره تماماً فأهملته القصة ولم تعد تذكره ثم ركاب السفينة والغلام . الذى قتل ، ظهوراً جميعاً ظهوراً خاطئاً ثم لم تعد القصة إلى أى منهم بعد ذلك .

وفى سورة القصص^(١)، ذكرت القصة زوجة موسى لما قضى الأجل وسار بأهله .. فلما انتهى دورها لم يرد لها ذكر بعد ذلك، وفى قصة آدم تلمح القصة إلى زوجه ، لأنها عنصر رئيس فى الحدث وذلك فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم، ثم لانتهم القصة بذكرها كما اهتمت بذكر آدم - عليه السلام - - وكذلك الشأن فى القصص القرآنى كله، وتفصيل ذلك وغيره مما يتعلق بالشخصيات فى القصة القرآنية هو موضوع المبحث القادم.

(١) القصص الآية : ٢٩ .

المبحث الثاني

الشخص والنماذج البشرية

الشخص عنصر أصيل من عناصر القصة وأساس لا بد منه، فهم الذين يفعلون الأحداث ويتلقونها ويتفاعلون معها ، وهم الذين يتخاطبون فيما بينهم ويتحاورون ، وكما أن القصة "لا يمكن أن تخلو خلواً تاماً من عنصر الحدث لا يمكن أن تخلو - أيضاً - من عنصر الشخصية"^(١) . وقد تكون الشخصية في القصة حيواناً أو طيراً أو جماداً، وهذه الثلاثة الأخيرة خارجة عن نطاق الشخص الإنسانى التى أولاها الكتاب والنقاد المحدثون عنايتهم البالغة .

وبلغ من عنايتهم بها أن كثيراً من النقاد المحدثين يميلون إلى عد الشخصية أهم عنصر من عناصر الفن القصصى ، وذلك نظراً للاهتمام الكبير الذى يوليه الكتاب المعاصرون لها ، ونظراً لوجود مدارس متعددة فى شرحها ورسمها وتصويرها وبيان أهميتها^(٢) .

والنقد الحديث يميز بين نوعين من الشخصيات القصصية :
أولاً : الشخصية الإنسانية . ويقصد بها (الأفراد) رجالاً أو نساءً ، وهذه لا بد أن تكون لها مشخصاتها الدقيقة ، وخصائصها المميزة، وقسماتها الفارقة، وبذلك تختلف وتتميز عن غيرها من الشخصيات الأخرى .

ثانياً : النموذج البشرى ويعرف بأنه "تجسيم مثالى لسجية من السجاياء، أو لنقيصة من النقائص أو بطيئة أو مجموعة خاصة من الناس ، وهو يحوى جميع صفاتها وخصائصها الأساسية"^(٣) .

فالنموذج قد يكون فرداً ولكن الكاتب يركز على صفة بعينها من الصفات الموجودة فيه ، فيسلط عليها الأضواء ، ويستقصى فى ضرب الأمثلة التى توضحها وتبرزها فيعطيه بذلك صفة النموذج . وقد يكون النموذج طبقة خاصة من الناس تجمعهم صفات معينة يوضحها الكاتب ويبرزها .

ولا يكون للنموذج - فرداً أو جماعة - قيمة فنية إلا إذا استطاع الكاتب أن يجعل

(١) الأدب وفنونه ، د: عز الدين إسماعيل ، ط : دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية ١٩٥٨ م من : ١٦٨ .

و : النقد الأدبى : أحمد أمين ، ص ١١٧ .

(٢) انظر النقد التطبيقي التحليلي ، د: عثمان خالد عبد الله ، ط : دار الشؤون الثقافية بغداد، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م . ص ٦٦ .

(٣) فن القصة ، د : محمد يوسف نجم ، ص ١٠٥ .

منه مثلاً نابضاً بالحياة، ووسيلته إلى ذلك التصوير الفنى الجيد الذى يجعل النموذج أكثر إقناعاً وأعمق من نظائره فى الطبيعة (١).

والنقد الحديث يميز بين نوعين من القصة :

أولهما : قصة الحوادث، وفيها تنصب عناية القاص إلى الأحداث وتكون الشخوص مسخرة لتعقيد الحوادث وتوليدها .

ثانيهما : قصة الشخصيات ، وفيها يبرز عنصر الشخصية ويتوارى عنصر الحدث، ولا يتوجه إليه الاهتمام إلا بالقدر الذى يجعله يلقي الضوء على عقل الشخصية ونفسيته (٢). ومن هذا النوع نشأت قصص التحليل النفسى التى يتوجه كتابها إلى دراسة النفس الإنسانية وتحليلها ، وشغل هذا اللون كثيراً من الكتاب فى القرن العشرين (٣)، وفى رحاب قصص التحليل النفسى ولدت أحدث طرائق العرض القصصى ، تلك التى عرفت باسم "تيار الوعى" أو "المونولوج الداخلى" (٤).

★★★

فى نهاية الفصل السابق أشرت إلى أن فى القرآن الكريم ما يسمى بقصة الحدث، وأن قصة موسى مع العبد الصالح تمثل هذا النوع أصدق تمثيل ، وإن كانت تفتقر عن قصة الحدث التى تعارف عليها النقاد والقصاص فى أمر مهم غاية الأهمية ، وهو أنها ذات مغزى تعليمى واضح، فقد جمعت بين الفائدة والمتعة ، وهما ضدان لا يجتمعان فى قصة الحدث التى يكتبها القصاص .

أما قصة الشخصية أو القصة النفسية أو التحليلية فليس هناك ما يؤكد وجودها فى القصص القرآنى فليس فى القرآن قصة ممحضة للتحليل النفسى من أولها إلى آخرها بالمعنى الذى تعارف عليه النقاد ، وذلك ربما يرجع إلى عدة أمور :

(١) انظر : النماذج الإنسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة ، د: محمد غنيمى هلال، ط : دار نهضة مصر ، ١٩٥٧ م ص ٥٠ .

و : الأدب المقارن ، للمؤلف نفسه ، ص ٢٩٣ .

و : الأدب المقارن ، د: حسن جاد حسن ، ط : دار الطباعة المحمدية ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥ م ، ص : ١٨٣ .

(٢) انظر فن القصة ، د: محمد يوسف نجم ، ص : ١٤٣ ، وما بعدها .

و : بناء الرواية ، تأليف : إدوين موير ، ترجمة : إبراهيم الصيرفى ، ط : دار الجيل للطباعة نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانتباء والنشر ، ص : ٤ وما بعدها .

(٣) انظر النقد الأدبى الحديث ، ص : ٥٢٦ ، ٥٢٧ .

(٤) انظر فن القصة ، ص : ٧٨ : ٨٢ .

أولاً : أن قصة التحليل النفسى تكاد تكون خالية من الحركة وأن الصراع فيها يكون خافتاً أو منطوياً فى داخل الإنسان ، والقرآن كتاب توجيه يعنيه أن يتعامل مع الظاهر المعلن ، صراع الإنسان فى مواجهة الإنسان ، وصراع الحق فى مواجهة الباطل ، ويؤثره على الصراع الخافت المتوارى .

ثانياً : أن قصة التحليل النفسى تتبع الطريقة التحليلية فى رسم الشخصيات وهذه ليست الطريقة المفضلة فى القصص القرآنى ، وإنما يفضل القصص القرآنى الطريقة التمثيلية فى رسم الشخصيات .

ثالثاً : أن القصة القرآنية تريد أن تؤكد قيمة معينة من قيم الحق والخير ، ولا يتسنى ذلك إلا من خلال اعتماد القصة على الصراع الخارجى ، الذى يكون له نتيجة ملموسة مشاهدة ، تبرز القيمة المرادة وتؤكدها ؛ وليس معنى ذلك أن القصص القرآنى خال من التحليل النفسى تماماً ، بل العكس هو الصحيح ، ففى كثير من قصص القرآن نجد إشارات مصورة أصدق تصوير للنفس البشرية ، غاية الأمر أنها - كما قلت - إشارات ولفقات معجلة وليست وقفات طويلة مسهبة .

ومن خير هذه اللفقات ما جاء فى قصة صاحب الجنتين من قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (٣٢) كُلَّا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) ﴾ (١).

إنها قصة الرجل الذى يملك الوفرة من المال والكثير من الولد ، فيدفعه ملكه إلى الغرور والزهو والتعالى على من لا يملك ، وقد مهد القرآن لذلك كله بالوصف المسهب للجنتين ، وما فيهما من ألوان الثمار والزروع ، حتى إذا عرض علينا بخيلة نفسه وخباياها كان لهذا الوصف انعكاساته الموضحة لهذا العرض ، وحتى إذا دخل جنته بهذه الأحاسيس والمشاعر المقضوكة رأيناها أوضح ما تكون فى هذا الموقف الذى

(١) الكهف : الآيات ٢٢ ، ٣٦ .

يوازى القرآن فيه بين كم الملك ، ونوعه ومشاعر المالك وأحاسيسه المنبعثة من حيازته لهذا الملك العريض، ومما يدلنا على ذلك قول القرآن على لسان الرجل وهو يحاور صاحبا له : (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) .

ويبدو أنه قال قولته هذه وهما فى الطريق إلى الجنتين ، أو وهما على الباب^(١). إذ جاء بعده . (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) . إن الوصف بالظلم للنفس كلمة جامعة لكثير من خصال الشر، فهو يقصد به فخره وتعالىه على صاحبه ، كما يقصد به أموراً أخرى توضحها أقواله الآتية بعد، ولكن قبل النظر فى هذه الأمور ينبغى النظر فى الأسلوب القرآنى المعجز الذى يوضح عاقبة الرجل عن طريق إحياء الألفاظ قبل أن يوضحها مفصلة فى نهاية القصة .

إن الأسلوب القرآنى أفرد الجنة بعد التثنية "وهو لا يقصد الجنتين ولا واحدة منهما" ، وإنما القصد إلى القول بأنه "دخل ما هو جنته التى ماله جنة غيرها، يعنى أنه لا نصيب له فى الجنة التى وعد المؤمنون ، فما ملكه فى الدنيا جنته لا غير"^(٢). وفى مثل هذه الإحياءات اللفظية تتجلى روعة القرآن ، كما تتجلى روعته وعظمته أيضاً فى أنه فضح الرجل صاحب الجنتين وكشف ما بنفسه فى كلمتين اثنتين (ظالم لنفسه)؛ إذ إن الوصف - كما قلت جامع لكثير من خصال الشر، وكأن ما بعده من مقولات الرجل يأتى بيانا لهذا الشر الذى فى نفسه، وهى مقولات تؤكد أن الشر يغرى بالشر وأن الشرود يدفع إلى الحماقة والسخف، ثم يسلم ذلك كله صاحبه إلى الكفر، وكانت أولى بوادر الشر فى نفس الرجل أنه حين دخل جنته وهو ظالم لنفسه قال :

(ما أظن أن تبيد هذه أبداً)

يقول هذا وكأنه رأى شيئاً يخلد فى هذه الحياة !! إنه لم ير شيئاً من هذا القبيل ، ولكن نفسه التواقة إلى النعم هى التى تهفو إلى الخلود فى ظلال جنته الوارفة، وكانت هذه أول رمية من رميات الطيش القاتلة ، وقد أصابت صاحبها قبل أن تصيب أى شئ آخر، أصابته فى الصميم من بصيرته فعمى عمى مطبقاً ، فرمى تلك الرمية الأخرى التى أصابت مقاتله : (وما أظن الساعة قائمة)

إنه لم يعد يرى سوى جنتيه، وكان من أمانيه أن تخلص هاتان الجنتان ويخلد هو

(١) التصوير الفنى فى القرآن الكريم ، ص ٥٥ .

(٢) الكشف ج ٢ ، ص ٧٢١ .

بخلودهما ، ولذلك فهو يستبعد قيام الساعة ، ويدفع عن خياله كل تصور يطوف به عنها .
ويبدو أن صاحبه كان يذكره الساعة والجزاء ، كما أن الواقع يؤكد له أن ليس
هناك خلود لأحد في هذه الدنيا ، فهاهي ذى الأحداث التي تدور من حوله لا تترك له
لحظة يهنأ فيها بهذا الأمل الخادع الكاذب ، ولكنه - مع ذلك - مازالت عنده في كنانة
الطيش سهام وسهام فليرم منها ما يصيد له طائر شؤم جديد عسى أن يجيئه بهذا الأمل
الكاذب : (ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً) !

فإذا فرض وكان بعث وكانت قيامة فهو واجد عند ربه بدل جنتيه جنات (١).

إن الصراع في هذا الجزء من القصة صراع نفسى محض ، صراع بين عقل
الرجل وهواه ، وقد كشف القرآن عنه بأسلوب معجز ، وذلك بأن أظهر الرجل وقد ألقى
عقله واتبع هواه وإلا ما نطق بهذا الكفر الصراح ، وتدرج الأسلوب معه في مشاعره
وخواطره ، فسجل تفاخره وزهوه بالمال والولد ، ثم أضاف إلى ذلك استيعاده ببسوة
جنته ، ورغبته في الخلود ، ثم أورد كلمة الكفر التي نطق بها لسانه حين استبعد قيام
الساعة ، وأخيراً سجل عليه قسمة الذي يؤكد ثقته في أنه سينال أضعاف ما هو فيه من
سعادة إن كان هناك بعث وكانت هناك قيامة .

لقد سيطر الصراع النفسى على هذا الجزء من القصة ، ولكن القصة القرآنية تؤثر
الصراع الخارجى على الصراع الداخلى لما فيه من حركة متماوجة ، ولأنه يكون معلنا ،
وله نتيجة ملموسة عن طريقها تؤكد القصة قيمة من قيم الحق وتبرزها ؛ ولذلك : تأخذ
القصة بعداً آخر حين تظهر شخصية صاحب الرجل الذى يملك الجنتين فيحاوره
ويجادله ويفند ما جاء على لسانه من مقولات الطيش والكفر ، وكان مما جاء على لسانه
قوله تعالى :

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ
رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ
مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ (٢)

إن ظهور شخصية صاحبه هذا ومحاورته معه أخرج الصراع من نفس صاحب
الجنتين وجعله صراعاً خارجياً ملموساً ، صراعاً بين قوتين إحداهما كافرة جامدة

(١) انظر : القصص القرآنى فى منظومة مفهومة ، ص ٢١٢ .

(٢) الكهف ، الآيات : ٣٧ : ٣٩ .

والثانية مؤمنة راشدة، وقد نما هذا الصراع بينهما حتى وصل إلى درجة التحدى حين قال الرجل الذى يمثل القوة المؤمنة :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يَأْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ (١)

ولو ظل الصراع حبيسا فى نفس الرجل ما وصلت القصة إلى هذه المرحلة الفاصلة فى أحداثها ، وما كانت هذه النتيجة الملموسة التى جاءت استجابة لتحدى الرجل المؤمن :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأُصْبِحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (٢)

وأخيراً فإن القصة تريد أن تؤكد بعض القيم :

منها : "أن الإنسان قد يهزم ويغلب هواه على عقله ، ولكن لابد للحق أن ينتصر على الباطل، حتى يكون فى ذلك عبرة لمن يعتبر .

ومنها : أن الإنسان الغاوى الضال لابد أن يقوم له من مجتمعه أناس عقلاء راشدون يأمرونه بالمعروف وينصحونه بالخير حتى وإن لم يستطيعوا الدفاع عن هذا الخير بوسائل مادية ملموسة .

ومنها: أن فى كل إنسان شعلة متقدة من الحق والخير ، قد تعصف بها عواصف الشر الكامنه فى نفسه ، ولكنها تظل - مع هذا - تومض ومضات من النور حتى وهى غارقة فى سحب الظلام الكثيفة (٣).

ولى مع هذه القيمة وقفة فى صفحات قادمة إن شاء الله :

هذه إحدى اللقطات الكاشفة المصورة للنفس البشرية أصدق تصوير ، والقارئ للقرآن يجد كثيراً منها فى القصص وغير القصص ، ولكنها - على كثرتها - سريعة خاطفة .

لقد حاول كثير من النقاد أن يفصلوا فصلاً تاماً بين ما يسمى قصة الحدث وما يسمى قصة الشخصية ، وحاولوا - أيضاً - أن يصنفوا القصص على هذا الأساس ، وأن يصنفوا الكتاب كذلك ، ولكن الملحوظ أن الفصل بين هذين النوعين من الناحية

(١، ٢) الكهف : الآيات : ٤٠ - ٤٢ .

(٣) انظر القصص القرآنى فى منظوقه ومفهومه ، ص ٢٦٤ .

النظرية أكثر سهولة من الناحية العملية^(١) والقرآن الكريم لا يعترف بهذا الفصل بين عنصرى القصة : الحدث والشخصية ، فكل منهما أساس لا بد منه وعنصر لا غنى عنه ، ومنهج القصة القرآنية يقوم أساساً على المزج والمزاوجة بين العنصرين حتى فى أكثر قصصه اعتماداً على الأحداث الغريبة المشوقة : أعنى قصة "موسى" والعبد الصالح التى سبق أن قلت عنها : إنها تمثل قصة الحدث فى القرآن الكريم ، صحيح ، أن فيها تقليدا لعنصر الحوادث ولكن كل حدث فيها يضيف إلى الشخصيتين الأساسيتين فى القصة أو إلى إحدهما ما يؤكد صفة من صفاتها .

وفى القصص الذى تبرز فيه الشخصية الإنسانية بروزاً واضحاً وترسم صفاتها وملامحها نجد الحدث يسير مع الشخصية فى خطين متوازيين ، فلا تطفى الشخصية على الحدث ، ولا يطفى الحدث على الشخصية ، حتى وإن ظهر أن لأحدهما بروزاً على الآخر فى موقف من المواقف ، والمعجب حقاً أن التصوير لكل من الحدث والشخصية يبلغ الغاية من الإعجاز فى القصة القرآنية الواحدة .

ولكى تتضح هذه الخصيصة بجلاء نقرأ قصة بقرة بنى إسرائيل : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتُخَدُّنَا هُزُوراً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا أَشْبَهَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ (٧٣)﴾

(١) انظر : فن كتابة القصة ، حسين القبانى ، ص : ١٢٤ وما بعدها .

و : فن القصة ، د . محمد يوسف نجم ، ص ١٤ ، ١٤٢ .

و : بناء الرواية ، إدوين موير ، ص ١١ وما بعدها .

(٢) البقرة : الآيات ٦٧ - ٧٣ .

يذكر العلماء والمفسرون في مناسبة هذه القصة أن رجلاً من بنى إسرائيل قد قتل على يد بعض أقربائه طمعاً في إرثه ، وقد طمعوا في ديتة أيضاً فحاولوا أن يلصقوا التهمة بغيرهم ، فآلقوا جثته في حى بعيد عنهم ، ثم ذهبوا إلى موسى - عليه السلام - لكي يعرف لهم القاتل، ويحكم لهم بالدية ، فأمرهم أن يذبحوا بقرة ، ولكنهم خافوا أن ينكشف أمرهم فمأطلوا في تنفيذ أمر الله - سبحانه - وأظهروا عنهم لموسى (١).

تبدأ أحداث هذه القصة من نهايتها (٢) خروجاً على منهج القصص القرآنى الذى جرى على ترتيب أحداث قصصه وفقاً لترتيب حدوثها زمنياً ، والخروج على النسق القرآنى هناله دلالاته التى سنعرفها بعد إن شاء الله .

تبدأ القصة بأمر غريب وحدث عجيب هو أمر الله - تعالى - لبنى إسرائيل أن يذبحوا بقرة والغربة هنا ليست تابعة من الأمر في ذاته، ولكن من شدة المفارقة بين ما يطلبونه من "موسى" ، وهو معرفة القاتل وما يأمرهم به من ذبح البقرة ؛ إذ ما العلاقة بين معرفة القاتل وذبح البقرة! إنها مفارقة لم تتسع لها عقولهم ، لأنهم قوم لم يكونوا من الناس وليسوا على طبيعة الناس ، إنهم قوم متعنتون ديدنهم الشقاق والإرهاق لأنبيائهم ، ولذا كان هذا الطلب - لغرابته لديهم - وسيلة لكشف نفوسهم المطبوعة على الشقاق والجهل والسفة ؛ إذ سرعان ما اتهموا "موسى" بأنه يستهزئ بهم ، وهو اتهام يحمل جهلهم هم ويكشف عن قصر نظرهم ، فإذا كان في اختيار البقرة بالذات وجه من العجب والاستغراب فهو الامتهان لعقولهم ، والجدع لأنوفهم ، وما البقرة إلا شئ من الأشياء شأنها شأن عصا "موسى" التى كانت قطعة من الخشب ، ولكنها حين أمدتها قدرة الله أتت في يدى "موسى" بكثير من المعجزات (٣).

وهكذا - مع أول آية في القصة - يمتزج الحدث بالشخصية ، ويكون لكل منهما

(١) انظر تفسير الطبرى : ج ١ ، ص : ٢٢٧ .

و . تفسير ابن كثير : ج ١ ، ص ١٠٨ .

(٢) معظم المفسرين على هذا الرأى ، وعللوا له تعليقات مقنعة . انظر مثلاً التفسير الكبير للفخر الرازى : ج ١ ، ص ٣٧٢ .

و : تفسير القرطبي : ج ١ ، ص ٢٨٧ .

و : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، لبرهان الدين البقاعي ، ط مجلس دائرة المعارف العثمانية ، والهند ، الطبعة الأولى ١٩٦٩م ، ج ١ ، ص : ٤٦٧ ، ٤٧٤ .

و : تفسير المنار ، ج ١ ، ص : ٢٨٧ .

(٣) انظر : القصص القرآنى في منطق ومفهومه ، ص ٨٨ ، ٩١ .

دوره وأهميته في بناء القصة ، وفي النهوض بإبراز العنصر الآخر الموازي له في البناء القصصي ، فالحدث هنا هو المختبر الذي يكشف عن معدن شخصيات هؤلاء الإسرائيليين ويقدّمهم في صورتهم الحقيقية التي لا لبس فيها ولا تزوير ، وشخصية بنى إسرائيل معروضة هنا عرضاً واقعياً صادقاً من خلال تفاعلهم مع الحدث ، وقصور أفعالهم عن استيعابه .

ثم إن القصة لا تقف عن هذا الحد ، بل تقدمهم وقد استبد بهم العمى حتى لم يعودوا يرون هذه البقرة التي أمروا بذبحها إلا أن تكون بقرة غير عادية ، اعتقاداً منهم أن أية بقرة عادية لا تستطيع أن تتحمل معجزة من المعجزات ^(١) ، فلجوا في عنادهم وإعنتهم لموسى ، ولكنه كان يتحمل عنادهم ويصبر على لجاجهم - على غير عادته - عليه السلام - معهم ، إذ كثيراً ما كان يضجر منهم ويعنفهم كما هو واضح من سيرته معهم في القرآن الكريم .

كانوا كلما فتحوا باباً للعناد واللجاج سار معهم فيه ، إمعاناً في الهزء بهم ، ورغبة في زيادة المشقة على أنفسهم لأنهم هم الذين طلبوها وسعوا إليها .

ويبدو أنهم كانوا في مرية من إله "موسى" ولهذا فهم لا يتورعون عن القول : (ادع لنا ربك) وكأنه ربه هو وحده لا ربهم هم أيضاً ، وكأنهم ما زالوا يبحثون عن أرباب منذ أن عبر بهم البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا ياموسى اجعل لنا إلهاكما لهم آلهة .

لقد سألوا "موسى" عن البقرة وأوصافها ثلاث مرات ، وفي كل مرة كان يعين لهم بعض صفاتها حتى عثروا عليها فأخذوها بمال كثير ، ولو أنهم قصدوا أية بقرة من أول الأمر لأجزأتهم ، ولكنه العناد الذي انطوت عليه نفوسهم والذي أرادت القصة أن توضحه وتكشف عنه في هذا الجزء منها .

وكما بدأت القصة بحدث غريب ختمت بحدث غريب أيضاً ، إنه حدث إحياء هذا القتل الذي كان من أجله ذبح البقرة ، لقد أمروا أن يضربوا القتل ببعض هذه البقرة التي ذبحوها ففعلوا فقام وأخبر عن قاتله من هو .

ومن الملحوظ أن ختام القصة قد خلا من أى حديث عن بنى إسرائيل ، فلم يجزلهم ذكر ، وكأن دورهم انتهى عند ذبح البقرة ، ولم يصف القرآن تأثير حدث إحياء

(١) انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، د محمد سيد طنطاوى ، مطبعة السعادة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م ، المجلد الأول ج ١ ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

القتيل عليهم ، حتى لكانهم غابوا عنه ولم يشهدوه ، فهل وراء ذلك سر ؟ لعل القرآن الكريم أراد أن يجعل من قضية إحياء الموتى قضية عامة تخص البشر أجمعين ، ولا تخص بنى إسرائيل وحدهم ، وأراد أن يجعل العبرة منها عبرة دائمة متصلة عبر الأزمان ، ولذا أهملت القصة ذكر بنى إسرائيل فى ختامها ، لذلك يمكن أن نفهم الخطاب فى قوله تعالى : (كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون) خطاباً عاماً لكل منكر للبعث ، بل لكل إنسان على تعدد الأمم وتعاقب الأزمان .

أما وقع هذا الحدث على هؤلاء القوم المتعنتين غلاظ القلوب فيمكن أن يفهم من الآية التالية للقصة وهى قوله تعالى مخاطباً إياهم (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ... الخ) يمكن أن نفهم أن إحياء القتيل شدهم ولوى أعناقهم ورقق قلوبهم مدة من الوقت ، ثم عادت قلوبهم إلى القسوة والغلظة ، وبذلك لا تغيب الشخصية عن مواكبة الحدث فى القصة وإن ظن غيابها .

أما لماذا التقديم والتأخير فى أحداث القصة ، فلعله يرجع إلى أمرين : أولهما : أن ذلك جعل القصة قصتين ، وفى كل منهما جناية من الجنايات التى وجدت من بنى إسرائيل فأراد الله - سبحانه - أن يقرعهم على كل جناية كانت منهم . ولو ترك التقديم والتأخير لكانت قصة واحدة (١).

ثانيهما : تعدد المفاجأة فى أول القصة وآخرها ، فى أولها لأن أمر موسى بذبح البقرة لم يسبقه ما يمهد له ، فالمفاجأة بهذا الأمر والجدال الذى وقع فيه يثير النفوس ويشوقها إلى معرفة السبب (٢)، وفى آخرها لأن المفاجأة حين تأتى مصحوبة بالعبرة من القصة تكون أوقع فى النفس وأشد تأثيراً (٣) .

إن القصة القرآنية حين تمزج بين الحدث والشخصية على هذا النحو تريد أن تصنع منهجاً معتدلاً يقوم على أساس التوازى بين الأسس الفنية للقصة ، وبذلك تقدم للكتاب منهجاً قوياً فى الكتابة يقوم على التعادل بين العناصر ، التعادل الذى يلغى التطرف والانحياز إلى الحدث وحده أو إلى الشخصية وحدها .

(١) انظر الكشاف : ج ١ ، ص ١٥٤ . والتفسير الوسيط للقرآن الكريم ، المجلد الأول ، ج ١ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٢) انظر تفسير المنار : ج ١ ، ص ٢٨٧ .

(٣) انظر بدائع الإضممار القصصى فى القرآن الكريم ، ص ١٠٦ .

وهذا المنهج القائم على التعادل والتوازي بين الشخصية والحدث لو أراداه واحد من الكتاب أو بمعنى أصح لو أراد أن يقسر نفسه عليه ما استطاعه وما انتقاد له أيضاً .
وذلك أن القصة القرآنية تخضع لمنهج آخر لا يخضع له البشر في كتاباتهم ؛ تخضع لمنهج القرآن ولغرض القرآن ؛ فهي هداية ونصح وتوجيه وتربية للنفوس وترتب على ذلك أن الشخصية في القصة القرآنية ليست مرادة لذاتها ، مهما كان مركزها التاريخي ، وإنما المراد من القصة أن نعرض الشخصية بوصفها نموذجاً يتحرك في الحياة الخيرة أو الشريرة ، وفي صراعها مع الخير والشر وفي تجاوبها أو تعاندها مع الأخيار والأشرار .

وكذلك الحدث ليس مراداً لذاته ، وإنما هو معرض للإنسان (النموذج) ولذا يعرض الحدث في القصة القرآنية بالقدر الذي يطلع المتلقى على معدن هذا الإنسان ، ويريه مواطن القوة والضعف فيه ، وينفذ بهذا المتلقى إلى منازع الإحسان والإساءة في كيان هذا الإنسان .

فالشخصية والحدث في القصة القرآنية كل منهما وسيلة لغاية محددة واضحة: الشخصية شاهد من شواهد الإنسانية في مختلف حالاتها ، والحدث معرض يجلي الشخصية أو النموذج الإنساني الذي تقدمه القصة (١).

أما القصة الأدبية الفنية فإنها تهدف إلى الفن ولا شئ غير الفن ، وكاتبها ليس له من هم إلا أن يخلد اسمه في سجل الفنانين المشهورين ، ولذا فهو لا يخضع لمنهج آخر غير منهج الفن الطليق ، ومن الكتاب من تستهويه المتعة والإثارة فيسعى إلى جذب انتباه القراء عن طريق الأحداث المثيرة التي تبعث الفضول لدى الجمهور ، ويبالغ في رسم العقدة والحبكة ويحرص على تحقيق المفاجأة المذهلة ، وقيس نجاحه أو إخفاقه بقدر ما ينجذب إليه القراء أو ينصرفون عنه، وعند هؤلاء الحدث غاية في ذاته لأنه هو الذي يحقق لهم الشهرة والنجاح ، وكتاب آخرون يميلون إلى جانب الشخصية فيدرسونها ، ويشرحون عواطفها وانفعالاتها، ويسودون كثيراً من الصفحات بدعوى التحليل النفسي واستبطان الذات ، والحق أن لمحة واحدة من لمحات القرآن الكريم خير من عشرات

(١) انظر أهم الملامح الفنية للقصة القرآنية بحث ألقاه الدكتور إبراهيم عوضين في ندوة الأدب الإسلامي بكلية الآداب جامعة عين شمس ، ص ٤٠ .

الصفحات التى سودها هؤلاء تحت هذه الدعوى الزائفة .

إن هذا الكلام لا ينبغى أن يفهم على أنه عيب للقصة الفنية وإهدار لقيمتها . وإنما هو محاولة لفهم منهج القصة القرآنية والتعليل لهذا المنهج ، والتعليل - أيضاً - لمنهج القصة الفنية .

ليس من شك فى أن ما جاء به القصص القرآنى من شخوص وأحداث هو الحق المطلق والصدق المصفى الذى لا يتلبس به تمويه ، أو يدخل عليه لون من ألوان الخداع والتخيل ، وأية ذلك أن القصص القرآنى استخدم طريقة الحكاية فى عرضه للأحداث ، وهى طريقة تؤذن المتلقى بأنه إنما يسمع أخباراً قد ذهب أشخاصها فى التاريخ وانتهى دورهم فى الحياة ، وأنهم - فى هذا العرض - إنما هم فى بعث جديد ، أو أن المتلقى فى رحلة زمنية عبر القرون الماضية إليهم .

ولعل طريقة الرواية هذه - بوصفها طريقة فنية للعرض القصصى - قد أفادت أمرين :

أولهما : أن مشاعر المتلقى وأحاسيسه تقوم على مقام واحد وهو أنه إنما يسمع أخباراً ، وأن هذه الأخبار تجى من جهة عالية عالمة بما تحوى الأزمنة والأمكنة من أحداث وأشخاص ، فما يسمع ويشاهد إنما هو صادر عن أشخاص حقيقيين ، يتحدثون عن أنفسهم وينطقون بأسمائهم .

ثانيهما : أن أقوال هؤلاء شخوص الحقيقيين وحكاية أفعالهم وحركاتهم تنقل وتصور كما حدثت فعلاً دون زيادة أو نقص ودون تزوير ، لأن الطعن - فى طريقة الرواية - إنما يأتى من جهة الراوى ، وهذا ما لا يمكن أن يأتى من جهة القرآن وأخباره التى يحدث بها (١) .

وبالنظر فى القصة الفنية نجد أن الكتاب يقرون لأنفسهم ويقر لهم النقاد بمبدأ الحرية الفنية ، تلك الحرية التى تبيح للكاتب أن يتصرف فى شخصيات قصصه ، حتى وإن كانت قصصاً تاريخية تحكى عن أشخاص حقيقيين معروفين ، فيغير ويبدل فى هؤلاء الأشخاص ، وينسب إليهم ما لم يقولوه وما لم يفعلوه ، وبهذا لا تكون الشخصيات صورة حقيقية تعكس الواقع ، بل يبعد بها الفن والخيال عن الواقع بقدر ما يهدف الفن إلى

(١) انظر : القصص القرآنى فى منظومه ومفهومه ص : ٨٠ - ٨٢ .

تصوير المعانى الإنسانية ، وبهذا التحوير فى الشخصية فى القصة الفنية - تختلف الشخصية فى القصة عنها فى الحياة ، لأن الفن والحياة شيئان متباينان ، والوجود فى أحدهما يختلف عن الوجود فى الآخر (١).

ومعنى ذلك أن الكاتب له أن ينحرف بالشخصية التاريخية ، أو بالشخصية التى لاحظها فى الواقع ، ويزور فى تصرفاتها طبقاً لما يمليه عليه خياله ، والكتاب والنقاد يعدون ذلك حقاً من حقوق الكاتب لأنه فنى مبدع .

وهذا الفرق يعد واحداً من أهم الفروق بين القصة القرآنية والقصة الفنية ؛ فالصدق فى إيراد الشخصية وفى تصويرها هو سمة القصة القرآنية والتلفيق والتزوير هو سمة القصة الفنية ويتجلى صدق القرآن الكريم فى تصوير الشخصية فى أمور :
أولاً :

أن القصة القرآنية لا تدع الشخص يفترون ويروحون على مسرح الحوادث دون أن تعلل سلوكهم ، بل على العكس فإن سلوك الشخص معلن فى دوافعه ونتائجه ، وخاصة عندما يكون الحدث المتعلق بهذا السلوك حدثاً مهماً فى تطور القصة والوصول بها إلى النهاية المرسومة ، وهذا التعليل مقصود به الإقناع بالحدث ، والاقتران به أيضاً .

فى قصة يوسف - عليه السلام - ألقى الإخوة أخاهم فى غيابة الجب لكى يتخلصوا منه ولكى يخلو لهم وجه أبيهم ، ثم جاءت سيارة فأرسلو واردهم فاستخرج الغلام من البئر ، هى قافلة تجارية إذاً عرضهم التجارة والربح فلا لهم أن يبيعوا هذا الغلام ، ولكن لماذا يبيعونه بثمن بخس ؟ ولماذا لم يبالغوا فى ثمنه ؟ القصة تعلل ذلك بكلمات قلائل . ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ (٢) . إنهم زاهدون فيه لأنهم لا يعرفون قيمته ، ولو كان هؤلاء السيارة يعرفون قيمة "يوسف" وما سيصير إليه أمره لما اكتملت القصة ، لو كانوا يعرفون قيمة "يوسف" عند أبيه لرجعوا به إليه ، وما اكتملت القصة وإنما هم فيه زاهدون .

(١) انظر : فن القصة ، د : محمد يوسف نجم ، ص : ٩٠ - ٩٣ .

و : النقد الأدبى الحديث ، ص : ٥٧٣ .

و : القصة من خلال تجاربى الذاتية ، عبد الحميد جودة السحار ، ط ، دار مصر للطباعة ص : ٦٥ : ٨٠ .

(٢) من الآية : ٢٠ سورة يوسف .

وفى الآية لمحة قصصية أخرى وهى تتعلق بالنكرات المسرحية ، فهؤلاء الأشخاص الذين التقطوا يوسف وباعوه نكرات قصصية أو مسرحية ، ولذلك لم تهتم القصة بهم، فلم تقل : من هم ، وماذا كانوا يفعلون ، ولماذا ذهبوا إلى مصر ، لأن ذلك كله لا يهم القصة فى شئ ، إن شخصياتهم لا تؤثر فى الحدث ذاته ، ولكنهم أداة للحدث فحسب^(١).

ولعلنا لا حظنا أن التعليل للسلوك فى الآية السابقة كان عن طريق السرد، وقد يكون التعليل عن طريق الحوار بين الشخصيات ، فالشخصية قد تنطق ببعض الجمل الحوارية التى تعلل ما أثرته من أحداث تبدو غريبة فى نظر الشخصيات الأخرى ، ومن ذلك قول امرأة فرعون حين أثرت بقاء موسى فى بيتها : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾^(٢) ومن ذلك أيضا قول عزيز مصر : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾^(٣).

فامرأة "فرعون" مالت إلى استبقاء هذا الطفل الرضيع- موسى عليه السلام-، وأرادات استنقاذه من شفار القصايين، الذين سلطهم زوجها على صبيان بنى إسرائيل ، خشية أن يخرج منهم من يكون زوال ملكه على يديه، وماكان لها أن تنجح فى محاولتها استبقاء الصبى دون أن تضرب على هذا الوتر الحساس فى نفسها وفى نفس زوجها على حد سواء؛ إنها قريرة العين مسرورة بهذا الصبى، وهى ترجو أن يكون قررة عين لزوجها أيضا، فإن لم يسر به الزوج ولم يأنه لسرور زوجته، فعسى أن ينتفع بهذا الصبى حين يشب ويكبر، وعسى أن يتبناه، ويتخذه ولداً يرث ملكه من بعده، فلا يخرج الملك من بيته .

ونلاحظ أن امرأة فرعون نوعت فى أسلوبها ، ففصلت وأفردت الضمير فى (قرت عين لى ولك) ثم جمعت الضمير وتركت التفصيل فى (لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)؛ لأن حصول السرور بالطفل لا يكون إلا لها ولزوجها ، وقدمت نفسها على زوجها

(١) السرد القصصى فى القرآن الكريم ، ص : ٢٢ .

(٢) القصص : من الآية : ٩ .

(٣) يوسف : من الآية : ٢١ .

بما يدل على تدللها عليه ، وحرصه على مصلحتها ، وأن في إبقاء الصبى إرضاءً لها ، أما جمع الضمير في نهياها إياهم عن قتله فلكي يشمل النهى زوجها وغيره من المأمورين بقتل الصبيان ، وكذلك الرجاء في النفع يعم المرأة وزوجها ، والمملكة كلها إن شب هذا الصبى وصار ملكا عليهم لأن مخايل العظمة والأبهة بادية عليه (١).

بهذا الأسلوب المنظم وبهذه الحجج المغنعة استطاعت امرأة فرعون أن تستبقى الصبى وأن تنقذه من القتل ، في وقت كان زوجها يفرق من رؤية الصبيان ويغتم لسماع أنباء ولادتهم في بنى إسرائيل ، ولو كان "فرعون" يعلم أن في بقاء هذا الصبى بالذات شقاء وزوال ملكه لما استجاب لرغبة زوجته ، ولما وجدت حججها لديه آذنا صاغية ، ولكن القصة تريد أن تعطى للقارئ ملمحا من ملامح الغرابة في إيراد الحدث ، وأن تعطية أيضاً قسطاً وافرأ من السخرية بهذا الفرعون العاتى .

أما ما جاء على لسان عزيز مصر حين اشترى يوسف عليه السلام - وهو غلام صغير فيختلف عما جاء على لسان امرأة فرعون ، وذلك ناشئ من الفرق بين الموقفين ، فموسى مطلوب للقتل وهو بين يدي طالبيه لا يملك حولاً ولا قوة لصفره ، ويوسف غلام يقف على أعتاب مرحلة الشباب وقد جاء من قاع جب مظلم ، وربما كان يخشى الهلاك فيه ، فكان وصوله إلى بيت الذي اشتراه مسأمة له خاصة إذا سمع هذا الأمر بإكرام المثنوى ، ولذلك ما زاد العزيز على أن قال لزوجته (عصى أن ينفعنا أو نتخذة ولدا) فهو ليس في حاجة إلى أكثر من ذلك؛ فالسرور بيوسف موجود في نفسه وفي نفس امرأته .

ثانياً:

ومن مظاهر صدق القرآن في تصوير الشخصية أن القصة القرآنية تعلق - أحياناً كثيرة - على سلوك الشخصيات بما يحث عليه إن كان هذا السلوك خيراً ، وبما ينفر منه إن كان شراً ، وأحياناً تظهر القصة الطابع العام للشخصية إن كانت خيرة أو شريرة .

نقرأ مثلاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (٢).

وقوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٣).

(١) انظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لشهاب الدين محمود الأكوي ، ط : دار إحياء التراث العربي ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٥ م ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

(٢) هود - الآية : ٧٥ .

(٣) ص : الآية : ٢٠ .

وقد ينتظم التعليق على السلوك مجموعة من الشخصيات كما جاء في سورة مريم إذ أثنى الله سبحانه على "إبراهيم" وإسحاق" ويعقوب" وموسى" وهارون" - عليهم السلام، - ثم ذكر إسماعيل وإدريس فقال ﴿وَإِذْ ذَكَرْنَا فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٥﴾ وَإِذْ ذَكَرْنَا فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ (١).

وهذه الأوصاف متوافقة مع الطابع العام لشخصيات هؤلاء الأنبياء، كما أنها أوصاف نابغة من سلوكهم الوارد في القصص القرآني .

ومن الشخصيات الشريرة التي رصدت القصة القرآنية سلوكها وعلقت عليه شخصية إبليس التي عرضت في القرآن الكريم معارض متعددة ، وفي كل معرض منها تبرز القصة أهم صفاته وهي صفة التكبر والاستعلاء والإباء ، والتركيز على هذه الأوصاف المشينة في شخصية إبليس يجعل منها شخصية شريرة منفردة يأنف ذوو الفطرة الصحيحة من التشبه بها .

كذلك هناك شخصيات بشرية كثيرة شريرة فضحها القصص القرآني ورغم أن التعليق على هذه الشخصيات يأتي موجزاً غالباً نراه جامعاً لكثير من أبعاد هذه الشخصيات مبينا طابعها العام الذي يطبعها ويتحكم في سلوكها وأفعالها .

ومن ذلك التعليق على شخصية فرعون بقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ٢٦﴾ (٢).

وقوله تعالى عن "فرعون" أيضاً : ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٢٧﴾ (٣).

وقوله تعالى عن قوم "فرعون" : ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

فَاسِقِينَ ٢٨﴾ (٤).

(١) مريم : الآيات : ٥٤ : ٥٧ .

(٢) يونس : من الآية : ٨٣ .

(٣) القصص : من الآية : ٤ .

(٤) الزخرف : الآية : ٥٤ .

وقوله تعالى عن قوم لوط الذين أصيبوا بفساد الفطرة : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١).

وفي القصص القرآني بعض التعليقات على السلوك المجرد من النسبة إلى الخير أو الشر ، ولكن السلوك الخير والشرير هو الذي كان محور الاهتمام في القصة القرآنية والملاحظ في القصص القرآني أن الشخصيات الخيرة التي تمثل جانب الإيمان القوى والثقة المطمئنة قد يعترى بها بعض الضعف الذي يعترى البشر جميعاً ، وهذا الضعف يعبر عنه القرآن ويقف عنده ليبرز ويوضحه لأن ذلك من تمام الصدق في رسم الشخصية وتصويرها ، وأوضح ما يمثل ذلك إبراز القرآن بعض الهنات اليسيرة التي وقعت من بعض الأنبياء - عليهم السلام - ومنهم "إبراهيم" الذي طلب من ربه - سبحانه - أن يريه كيف يحيى الموتى لكي يزداد قلبه اطمئناناً إلى قدرة الله ، "ويوسف" حين همت به امرأة العزيز فهم بها ثم صرف الله عنه السوء والفحشاء ، "وموسى" حين وكز المصري فقتله ثم تاب وعاهد ربه على ألا يعود لمثلها .

وكذلك الشخصيات الشريرة يصورها القرآن مفرقة في الإثم والضلal ، وربما ينطق بعضها كلمة الكفر ، ثم يعترى بها لحظات تفيق فيها وتتذكر أن لها رباً وإلاها ، فتلجأ إليه وتتوب ويسيطر عليها الندم ، يسجل القرآن هذه اللحظات ويبرزها ، لأن ذلك من طبيعة النفس البشرية التي يعنى القرآن بتصويرها تصويراً صادقاً أميناً ، ومن أوضح ما يمثل ذلك صاحب الجنتين - الذي كان لى من قصته شاهد فيما مضى - إذ تكبر واستعلى واغتر بما يملك ، فلما وقع ما يحذره ودمرت جنتاه أفاق وتذكر ربه وندم على كفره وعناده فقال : ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٢).

ومن ذلك أيضاً ما سجله القرآن عن "فرعون" حين أدركه الفرق وأيقن من النهاية المفزعة التي ما كانت تخطر له على بال ، حين ذلك عرف أن "موسى" - عليه السلام - على حق وأن أله هو الحق ، فاعترف بإله موسى وبنى إسرائيل، وأعلن إيمانه، وتلك هي ومضة الخير التي اهتم القرآن بتسجيلها واضحة ، بل قل إنها صحوه الفطرة الإيمانية نفضت ماران عليها من شرور في نفس هذا الرجل الباغى، وليس ذلك بالأمر

(١) الحجر : الآية : ٧٢ .

(٢) الكهف : من الآية : ٤٢ .

الغريب على الإنسان لأنه هكذا خلقه الله - سبحانه وتعالى - مركباً من الخير والشر .
ومعنى هذا المنهج الذى اتبعه القرآن فى رسم الشخصيات وتصويرها أن القصة
القرآنية لا تقرر للرومانسيين والواقعيين بما أتوا به فالكاتب الرومانسى ينظر إلى
شخصياته نظرة إعجاب وتقدير، حتى إن إعجابه بالشخصية ينسبه أحياناً واجبه الفنى
نحوها فينسى أنها شخصية إنسان يصيب ويخطئ ويأتى أفعال الخير والشر على سواء
والكاتب الواقعى ينظر إلى شخصياته نظرة سخط واحتقار، فيدفعه ذلك إلى
ظلمها بإغراقها فى مستنقع الشر دائماً، وينسى هو الآخر أنه أمام إنسان يأتى الخير
كما يأتى الشر^(١).

ويعلل الرومانسيون تعاطفهم مع الشخصيات بأن ذلك يؤدى إلى إثارة الرحمة
بالبائسين ، والاعتداف بحرية الفرد وحقوقه أمام نظم المجتمع التى تدفع المجرمين إلى
الانزلاق إلى جرائمهم .

كما يعلل كتاب الواقعية قسوتهم على شخصياتهم وتصويرهم فى مستنقع الشر
بأن ذلك ليس إغراء بالشر ، وإنما دعوة إلى علاجه ، لأن علاج الشر لا يكون إلا بعد
معرفة جوانب النفس الشريرة^(٢).

ومهما قيل فى تعليل منهج هذين المذهبين الأدبيين فإن منهج القصة القرآنية يبقى
هو المنهج القويم الأولى بالاتباع ، لأنه يتفق وطبيعة الإنسان الذى يتجاور فيه الخير
والشر .

ثالثاً:

ومن مظاهر صدق القرآن الكريم فى تصوير الشخصية التبرير المقبول للتحويل
الحاد فى سلوك الشخصيات لكى يكون مقنعاً فنياً ، وهذه إحدى القواعد المهمة التى
سبق القرآن إلى إرسائها وتأكيداتها؛ فالقصة القرآنية تسير مع الشخصية متجاوزة
الأحداث واحداً تلو الآخر، والشخصية مقتنعة بنمط فكرى أو عقدى معين ، ثم يحدث
انقلاب فى فكر أو عقيدة هذه الشخصية ، يجعل صاحبها يتحول من النقيض إلى
النقيض . هنا تهتم القصة القرآنية بتسجيل هذا التحول ، وتهتم أيضاً بتسجيل الدافع
الذى كان وراءه حتى لا يكون إيراد الحوادث من قبيل اللغو ، وحتى يكون سلوك

(١) انظر : فن القصة ، د محمد يوسف نجم ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) انظر : النقد الأدبى الحديث ، د محمد غنيمي هلال ، ص ٥١٩ ، ٥٢٤ .

الشخصيات في تحولها الحاد معللاً تعليلاً قنياً مقنعاً .

والحدث هو الركيزة الأساسية للقصة القرآنية للإقناع بهذا التحول ، كما نرى في تحول سحرة "فرعون" من الكفر إلى الإيمان بإله "موسى" ، هذا التحول الحاد يعتمد على حدث كبير هو انتصار "موسى" عليهم جميعاً ، ولقف عصاه وحدها ما ألقوا من حبال وعصى كثيرة ، ومن ثم تيقنهم أن ما جاء به "موسى" ليس سحراً كالذى يتعاطونه هم ويخيّلون به إلى الناس .

والحدث أيضاً هو الوسيلة للإقناع بتحول ملكة سبأ إلى الإيمان والدخول في دين "سليمان" - عليه السلام - ويتمثل الحدث في مجئ عرشها من اليمن إلى قصر "سليمان" ببلاد الشام في لحظات ، كما يتمثل في الصرح الممرد من قوارير الذى انبهرت به ملكة سبأ حتى حسبته لجة من ماء .

إن جل النقد - إن لم يكن كلهم - يؤكدون هذه القاعدة القصصية ومع ذلك نجد كثيراً من الكتاب يأتى بما يشبه الهذر أو اللغو في بناء الشخصيات وتصويرها دون مراعاة للبعد النفسى الذى يحكم هذه القاعدة القصصية ، وهناك أعمال قصصية تقدم شخوصاً فضفاضة تنتقل من أقصى حدود الشر إلى أقصى حدود الخير بسبب جملة واحدة أو حديث عابر ، وهذا التحول السحري العجيب للشخصية يعد عيباً خطيراً من العيوب التى تعترى الأعمال القصصية^(١).

ومن الخير للكاتب أن يعتمد على الحدث بوصفه مسوغاً للتحول في سلوك الشخصيات ، متأسياً في ذلك بالقصة القرآنية ، لأن الحدث أقرب وسيلة للإقناع بالتحول، خاصة إذا نجح الكاتب في اختراع حدث ضخم مساو للتحول الذى يصيب الشخصية ومع التمهيد لذلك كله في أثناء القصة ، أما الاعتماد على الموعظة بين الشخصيات وجعلها مسوغاً للتحولات الكبرى فذلك ما يقف منه قارئ القصة موقف الرافض إن لم يكن موقف الساخر .

إن مما اهتم به نقاد القصة وأكثوه ما يسمى بالأبعاد الثلاثة للشخصية ، ويعنون بها : البعد الخارجى أو الشكلى ، والبعد الداخلى أو النفسى ، والبعد الاجتماعى ،

(١) انظر : النقد التطبيقي التحليلي ، ص . ٧٤ ، ٧٥ .

و - فن كتابة القصة ، حسين القبانى ، ص . ٧٥ - ٧٧ .

ويرون أن إخفاق الكاتب في إبراز أي من هذه الأبعاد يعد عيباً في قصته (١).

وقد يغلب الكاتب واحداً منها على الآخرين ، ويرجع ذلك إلى طبيعة المذهب الأدبي الذي يسير عليه ، « فالمذهب التقليدي يولي البعد النفسي عنايته واهتمامه ، والمذهب الواقعي النقدي يولي الأهمية الكبرى للبعد الاجتماعي ، أما المذهب الطبيعي فيركز على البعد الشكلي الجسدي وإذا اهتمت هذه المذاهب بالأبعاد الأخرى للشخصيات فإن هذا الاهتمام يأتي في المرتبة الثانية » (٢).

والناظر في القصة القرآنية يجد ثراءً واسعاً في استخدام هذه الأبعاد الثلاثة ، لا من حيث الاهتمام الفائق بها ، ولكن من حيث التنوع في استخدامها ، ومن حيث طريقة الاستخدام ، وما ترمى إليه القصة من وراء استغلال اللقطات الكاشفة عن البعد المقصود تجليته .

فالبعد الخارجي - مثلاً - تهمله القصة القرآنية أحياناً إهمالاً يكاد يكون تاماً ،

ولنقرأ هذه القصة :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) ﴾ (٢).

فلا نجد أثراً للبعد الخارجي لأي من شخصياتها ، رغم تنوعها بين إنسان وحيوان وطيور ، فليس هناك ذكر لأسماء الأناسين ، ولا بيان لأشكالهم وأحجامهم ، وليس هناك أيضاً ذكر للفيلة من حيث عددها وقوتها ، وكذلك الطير لم يذكر نوعها ولا أشكالها ولا ألوانها ، كل ما ذكر عنها أنها كانت أبابيل ؛ أي جماعات تأتي من اتجاهات متعددة ، ويمكن أن نعتد في القصة بهذه الشخصية الجمادية وهي الحجارة التي أمطرت بها الطير أصحاب الفيل فدمرتهم ، ومع ذلك تبقى مجهولة الحجم والشكل والعدد .

وإهمال التعريف بشخصيات هذه القصة وجلاء بعدها الخارجي الشكلي لا يقدر

(١) انظر : النقد الأدبي الحديث ، ص : ٦٢٤ ، ٦٢٦ .

و : دراسات في نقد الرواية ، د : طه وادي ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) الأدب وفنونه ، د : محمد منتور ، ص : ١٠٠ ، ١٠١ .

و انظر : النقد الأدبي الحديث ص : ٦٢٤ .

(٣) سورة الفيل .

فيها ، لأن القارئ ليس فى حاجة ماسة إلى معرفة المزيد عنها ، إذ من اللغو أن ينصرف القارئ بالأسماء والأوصاف التى لا قيمة لها عن هذا الحدث العجيب الذى وقع ، وعيانه كثيرون من أهل مكة الذين نزل فيهم القرآن ، فالاهتمام بالحدث هنا - لغرابته وقوة تأثيره - هو الذى حدا بالقصة إلى الإضراب عن التعريف بالشخصيات رغم تنوعها ، ونقرأ هذه القصة :

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

فنرى القرآن أهمل البعد الخارجى للشخصية إهمالا يكاد يكون تاماً؛ فاسم الموصول (الذى) عرف القارئ أن صاحب الشخصية هنا رجل لا امرأة ، أما اسمه ، وشكله ، وسنه فليس فى القصة ما يشير إلى شئ من ذلك ، ولو أن هذه القصة وقعت لقاص بشرى لكتب فيها رواية مطولة ، ولأسهب فى ذكر الأوصاف والأشكال الخارجية ، للرجل ، وللحمار ، وللمكان ، والطعام والشراب ، وغير ذلك مما يرضى خيال الإنسان ويشبع نهمه إلى معرفة كل غريب وعجيب .

ولكن الواضح أن شيئاً من ذلك كله لا يعنى به القرآن لا فى قليل ولا فى كثير ، لأنه ليس كتاب أدب وتسليه ، إنما هو كتاب دين وعقيدة ، ولذا كان الحدث هنا هو الأهم ، لا الشخصية ، لأنه هو المؤكد للعقيدة الباعث على الاهتمام إلى الدين .

وأحياناً تعطى القصة القرآنية البعد الشكلى قدرأ من الاهتمام فتذكر الاسم وتذكر بعض الصفات الشكلية الخارجية ، وذلك حين يكون الهدف من القصة هو التأثير بالشخصية لا بالحدث ، ومن ذلك كثير من قصص الأنبياء المذكورين فى القرآن ومنهم : "نوح" وإبراهيم" ويوسف" وموسى" ، فهؤلاء وغيرهم مذكورون بأسمائهم فى القرآن ، وذكر لكل واحد منهم عدة صفات تطبع شخصيته بطابع خاص يميزه من غيره من

الأنبياء،^(١) وتذكر هذه الصفات بصورة مباشرة أحياناً وتغلف أحياناً فى أسلوب بديع معجز ، وذلك لأن المراد هو إعطاء القدوة بشخصيات هؤلاء الأنبياء .

وغالباً ما يكون للشكل الخارجى الذى تبرزه القصة دور مؤثر فى سير الأحداث وتصاعدها ، أو يكون له دلالة معينة فى موقف من مواقف القصة، والقرآن يأتى من ذلك بالعجب العجاب .

إن القارئ يسير مع قصة "يوسف" من أولها ، ويمر معه بمحنة المراودة ، ويسمع لوم النسوة لامرأة العزيز لأنها راودت غلامها عن نفسه، والقارئ حتى هذه اللحظة لم يقرأ كلمة واحدة عن جمال يوسف وحسنه ثم يقرأ هذه الآية .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢).

فيسمع فيها حكاية الجمال وقصة الحسن ويرى تأثيره دون أن يقرأ وصفا للجمال والحسن ؛ إنها صورة مرئية متحركة أخاذة تحمل الدليل الذى لا يستطيع أى كلام أن يصفه ، لقد ذهلت النسوة عن أنفسهن فأعملن السكاكين فى تقطيع أيديهن بدلا من تقطيع الفاكهة . إن الآية لم تصف الجمال لأنه فوق الوصف وفوق الكلام ، ولكنها جعلتنا نحس أثره النفسى فى قلوب النسوة ، ونرى أثره المادى فى أيديهن، ونسمع دليل براءة يوسف حين شهدن له بطهارة الملائكة .

ولعل النسوة قد خرجن من هذا اللقاء وقد التمسن العذر لامرأة العزيز ، ولعل هذا ما سعت إليه وخططت له؛ أن تقدم العذر لنفسها أمام نساء المدينة ، وأن تسوغ ما حدث منها مع فتاها .

ومن الواضح أن هذا الوصف الشكلى الذى أثبتته القصة كان له دور فعال قبل المراودة وفى أثنائها ، وكان له دور فيما يأتى من أحداث؛ ولذا أعلنت المرأة فى تبجح واستهتار غريبين :

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجُنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (٣).

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ، ص : ١٩٩ - ٢١٥ .

(٢) يوسف : الآية : ٢١ .

(٣) يوسف : الآية : ٢٢ .

بل أثبتت القصة أن النسوة قد حاولن استماله "يوسف" إليهن أيضاً؛ إذ جاء قوله تعالى على لسان الملك يخاطبهن :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (١).

فالحديث عن جمال "يوسف" إذاً كان له دور مؤثر في الأحداث ولذا اهتمت القصة بإبرازه على هذا النحو .

ومن المواقف التي كان للشكل الخارجى دلالة فنية - أو على الأصح كان له أثر - في البناء الفنى للقصة ما جاء فى بعض حلقات قصة "موسى"، إذ من المعروف أنه كان فى لسانه بعض العجمة فى الكلام (٢) ، فكان لا يفصح أحياناً إفصاحاً كاملاً ، ولذا دعا ربه أن يحل عقدة لسانه فقال ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي (٣٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ (٣). وفى موقف آخر أعلن خشيته أن يحبس لسانه أمام فرعون : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ (٤). وفى موقف ثالث دعا :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ (٥).

وفى هذه المواقف الثلاثة إشارة إلى هذا المظهر الخارجى لموسى - عليه السلام - ومن الواضح أن هذه العجمة فى لسان "موسى" كان لها تأثير فى نفسه ، ولذا حرص على الاستعانة بأخيه "هارون" ، وفى ذلك بيان للارتباط بين البعد الخارجى والبعد النفسى فى شخصية "موسى" ، وهذا يؤكد أن الارتباط بين الأبعاد الثلاثة ليس من اختراع النقاد والكتاب المحدثين ، بل إن القرآن قد سبق إلى تأكيد ذلك فى قصصه .

والذى أريد أن أوضحه هنا أن أثر العجمة وعدم الإفصاح فى نفس "موسى" كان هو المحور الذى بنيت عليه إحدى حلقات قصته فنياً وذلك فى قوله تعالى فى سورة

(١) يوسف : من الآية : ٥١ .

(٢) انظر . تفسير القرطبي ، ج٦ ، ص ٤٢٣٢ .

و . الكشف للزمخشري ، ج٣ ، ص ٦١ .

(٣) طه : الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) الشعراء : الآيتان : ١٢ ، ١٣ .

(٥) القصص : الآيتان : ٣٣ ، ٣٤ .

الزخرف:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿ (١) 》

إن الملحوظ أن ما ورد من حديث على لسان "موسى" هنا لا يزيد على أربع كلمات : (إنى رسول رب العالمين) وبقيّة الآيات موزعة بين السرد القصصى وحكاية ما جاء على لسان "فرعون" وقومه من سخرية بموسى ، وافتخار بما يملك "فرعون" من أنهار تفيض عليه بالخيرات فى أرض مصر الخصبة .

ثم تختتم الآيات بهذه الغميمة التى أراد بها "فرعون" أن يحط من شأن "موسى" ، هذا الرجل الذى يدعى أنه رسول من رب العالمين، وكأنه يريد أن يقول لموسى : لو كنت رسولا حقا لأعطاك ريك فصاحة فى اللسان وإبانة فى النطق حتى نفهم عنك ما جئت تبلفنا به .

ولعل هناك علاقة بين اقتصاد "موسى" - عليه السلام - فى الكلام وانطلاق "فرعون" فى السخرية به وتعبيره بعدم الإبانه فى النطق ، إذ يبدو أن اشتداد "فرعون" وحدته ناتجة عن سكوت موسى ، وكأنه وجد الفرصة مهيأة لكى يحقق الغلبة لنفسه فى غياب "هارون" - على ما يبدو من ظاهر الموقف - وإلا لا تبرى فى الدفاع عن أخيه فى هذا الموقف الذى لم ينطق فيه "موسى" إلا بأربع كلمات فقط .

ولعل هذه المفارقة تزداد وضوحاً إذا راجع القارئ الحلقات التى ورد فيها ذكر "هارون" فى سور طه والشعراء والقصص ، ففيها محاورات طويلة بين "موسى" و"فرعون" ، أسهب فيها "موسى" وأقصح عما فى نفسه ، فلم يدع لخصمه أن يستغل مظهره الشكى وعجمة لسانه لتعبيره وإهانته .

(١) الزخرف - الآيات : ٤٦ : ٥٢ .

والبعد الاجتماعي للشخصيات له حظ أيضا في استخدامات القصة القرآنية ، غير أنها لا تعطيه اهتماماً زائداً شأنه شأن البعدين الشكلي والنقسي ، وذلك لأن الهدف من القصة القرآنية ليس الفن في المقام الأول ، وإنما الفن فيها مسخر لهدف أسمى هو الهدف الديني .

القصة القرآنية تعطى إشاراً^١ سريعة إلى المركز الاجتماعي للشخصية وغالباً ما يكون ذلك في بداية القصة ، أو عندما يأتي ذكر الشخصية لأول مرة إذا كان لها دور بارز في الأحداث ، ثم تدع الشخصية بعد ذلك تتفاعل مع الأحداث انطلاقاً من هذا المركز الاجتماعي المشار إليه .

ففي قصص الأنبياء غالباً ما يشار في بداية القصة إلى أن صاحب القصة والشخصية الأولى فيها نبي كقوله تعالى : وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إذ أبق إلى الْفُلْكَ الْمَشْحُونِ ﴿١﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٣) .

ويلحظ أن القصص التي تبدأ بالإشارة إلى جانب النبوة في حياة النبي غالباً ما تركز على جانب الدعوة ، ومحاولة إبلاغ الرسالة ، والتدافع الذي يحدث بين النبي وقومه ، كما هو واضح في قصص الأنبياء في سور : الأعراف ، وهود ، والشعراء .

فإذا لم يكن جانب الدعوة وإبلاغ الرسالة هو الأهم في حياة النبي أهملت القصة ما يشير إليه ، وركزت على جانب آخر من حياة النبي على ما هو واضح في قصة "داود" و"سليمان" - عليهما السلام - فهي تبدأ في سورة النمل على هذا النحو :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ

(١) الصافات : الآيتان : ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) نوح الآية ١٠ .

(٣) النمل : الآية : ٤٥ .

المؤمنين (١٥) وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين (١٦) وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴿١﴾.

وهذه البداية تتفق مع ما ركزت عليه القصة في حياة "سليمان" وهو جانب الملك ، وهو جانب عريض ممتد في حياة هذا النبي .

وهذا المنهج نفسه هو الغالب مع شخصيات غير الأنبياء في القرآن؛ إذ تأتي اللمحة السريعة كاشفة عن البعد الشكلي أو الاجتماعي للشخصية ، ويكون السلوك متساوقاً مع المركز الاجتماعي الذي ألمحت إليه القصة .

فهؤلاء أصحاب الكهف : فتية آمنوا بربهم إنها لمحة سريعة ولكنها كافية تماماً للإقناع بكل ما حدث من هؤلاء الفتية ، إذ التعبير بالفتوة والإيمان يعطى صورة واضحة عن إصرار الفتى المؤمن على بلوغ غايته مهما لاقى في سبيلها من صعاب ، قالشباب داع للتحمل، والإيمان داع ودافع إلى الصبر .

وفي قصة "موسى" والعبد الصالح جاء قوله تعالى :

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فوجدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِبْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٦٥).

ثم تأتي أحداث القصة ومفاجأتها متفقة تماماً مع هذا اللمحات التي كشفت عن شخصية العبد الصالح .

ثم نقرأ هذه اللمحة الكاشفة عن شخصية قارون :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ (٦٦).

إنه رجل من قوم "موسى" - عليه السلام - ولكنه شق عليهم ببغيه وظلمه وتسلبه ، وهو ثرى بالغ الثراء ، ثم هو فرح بذلك كله ، ولذلك فالقصة تظهره وهو يتصرف تصرف الأثرياء المختالين بأموالهم، وبما أعطاهم الله من نعم كابوا يفتنون بها كثيراً من ضعاف

(١) النمل الآيات ١٥ - ١٧ .

(٢) الكهف الآية ٦٥ .

(٣) القصص - الآية - ٧٦ .

النفوس.

إن كثيراً من نقاد القصة يؤكدون أن الجانب الاجتماعي له آثاره وانعكاساته على الجانب النفسى للشخصية ، وعلى سلوكها فى أثناء القصة ، ويقاس نجاح القصة فى بناء الشخصيات بقدر ما يحدثه الكاتب من توائم واتساق بين أبعادها^(١) . فهل يجد النقاد خيراً من هذه الأمثلة القرآنية التى تؤكد سبق القرآن الكريم إلى إرساء ما نادوا به فى هذا المجال ؟

إن القصة القرآنية قد تستخدم البعد الاجتماعى للشخصية فى إحداث نوع من المفاجأة القصصية ، وذلك حين تقدم الشخصية من خلال تفاعلها مع الأحداث ، ودون أن تشير - لا من قريب ولا من بعيد - إلى مركزها الاجتماعى ، ثم تكشف للقارئ ما أخفته عنه فتحدث لديه نوعاً من المفاجأة قد تصل إلى حد الصدمة .

ومن خير ما يمثل ذلك ما يراه القارئ من أسلوب معجز فى تقديم شخصية امرأة العزيز فى قصة "يوسف" - عليه السلام - فالقارئ يسير مع "يوسف" حتى يطمئن على مقامه فى بيت سيده فى مصر ، وذلك من خلال أمر الرجل لامرأته أن تكرم مثواه ، وأن تلحظه بعين الرعاية والكرم ، وإن لم يعرف القارئ شخصية السيد ولا شخصية امرأته ومن يكونان ، وما وضعهما الاجتماعى فى مصر ! لأن القصة أضربت عن ذكر ذلك كله ، فلم تذكر منه شيئاً .

ثم تمر السنون ويبلغ "يوسف" مبلغ الرجال ، ويفاجأ القارئ بهذا الحادث الخطير ، فالمرأة - التى لا نعرفها حتى الآن - تراودفتاها ورييبها عن نفسه وتدعوه إلى الفحشاء ، ولكنه أبى أن يخون سيده الذى أكرمه ، وينجلى الموقف عن حضور الزوج وشهادة الشاهد أمامه ببراءة "يوسف" وإدانة المرأة ، ثم يلتفت الزوج إلى "يوسف" أمراً بإياه أن ينسى ما حدث ، وألا يجرى له ذكراً على لسانه ، ويلتفت إلى امرأته أمراً بإياها أن تتوب وتستغفر .

إلى هنا وشخصية الزوجة وشخصية زوجها الخنوع شخصيتان مجردتان لا يعرفهما القارئ ، وإن كان يتعجب من الزوجة لإباحيتها واستهتارها ، ويتعجب أكثر من هذا الزوج لاستسلامه المخزى أمام جموح زوجته ثم يقرأ القارئ هذه الآية التى تحمل

(١) انظر فن كتابة القصة ، حسين القبانى ، ص ٧٨ ، ٧٩ .
و القصة القصيرة نظرياً وتطبيقياً ، يوسف الشارونى ، ص ٦٨ .

المفاجأة

﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسها قد شغفها حباً إننا لنراها في ضلال مبين﴾ (١).

والمفاجأة التي تحملها الآية هي الكشف عن وجه هذه المرأة وعن مكانتها الاجتماعية في المجتمع ، فلماذا الكشف عن وجهها الآن ؟ ولماذا لم يكشف عنها فيما مضى ؟

إن الله - سبحانه - أعلم بمراده ، ولكن ظاهر القصة يوحي بأن الأحداث السابقة كانت تجري على المستوى المألوف في حياة الناس عامتهم وخاصتهم على السواء ؛ بمعنى أن أى رجل في مصر كان من الممكن أن يشتري "يوسف" ، وأن أية امرأة كان من الممكن ، أو من غير المستحيل ، أن تراوده عن نفسه ، سواء أكانت امرأة من خاصة الناس أم من عامتهم ، زوجة لملك أو وزير أم زوجة خبان أو راع أو غير ذلك ، إنها امرأة بغض النظر عن وضعها في المجتمع الذي تعيش فيه ، ولذا لم تهتم القصة ببيان وضعها الاجتماعي .

أما حين يقع الحدث من امرأة من علية القوم وخاصتهم فحينئذ يكون له ذكر ، ويكون له شأن يستحق الكشف عن أثره في المجتمع وفي نفوس أفرادها ؛ لأن الأمر يختلف بالنسبة إلى من يتعلق به الحدث من حيث وضعه في المجتمع ، ورياسته للناس ، وهذه المرأة زوجة كبير وزراء مصر ، أى الرجل الثانى بعد الملك ، ولذا تسرب الخبر من القصر إلى الشارع والبيوت ، لأن الناس - عادة - يهتمون بأخبار السادة والرؤساء مهما كانت صغيرة أو تافهة ، ومن هنا كان من الأولى للقصة أن تكشف عن وجه المرأة التي أثارت اهتمام الناس بأخبارها ، وشغلتهم بالحديث عنها ، وأن تعلن هذا مع الإعلان عن الفضيحة العامة التي نشأت عن انتشار الخبر في المدينة (٢).

ومن العجيب أن الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله قد استخدم هذه الوسيلة الفنية في إحدى قصصه ، وهى التى قدم فيها شخصية "سلمان الفارسي" (٣). الصحابى الجليل ، إذ ظل الكاتب يقدمه ببضعة ألقاب ، فكان يقول : الفتى ، أو الشاب ، أو

(١) يوسف : الآية : ٢٠ .

(٢) انظر القصص القرآنى في منظومة هومفهومه ، ص ٤٣٦ .

و فى ظلال القرآن ج٤ ، ص ١٩٨٢ .

(٣) الباحث عن الحقيقة ، محمد عبد الحليم عبد الله ، ط دار مصر للطباعة .

الفارسي، وجعل أباه يناديه ب (ياأنا)^(١). دلالة على حبه الشديد له ، ولما سئل سلمان عن اسمه قال : اسمي ابن الدهقان ^(٢).. ولم يفصح الكاتب عن اسم بطل قصته إلا بعد أن أوشكت القصة على الانتهاء ^(٣).. وقد أجاد الكاتب اختيار التوقيت الذي أعلن فيه عن اسم سلمان ، إذ جلعه ينطق به أمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويعد أن طاف بلاداً كثيرة في عمورية والشام إلى أن استقر به المقام في المدينة المنورة ، فكان "سلمان" وجد اسمه يوم وجد الحقيقة التي كان يبحث عنها ، يوم وجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهل اهتدى الكاتب إلى هذه الطريقة المشوقة في تقديم شخصية "سلمان" بفطرته أو أنه تأثر بأسلوب القرآن الكريم في تقديم شخصية امرأة العزيز ؟

ومن الشخصيات التي برزت بوضوح في القصص القرآني شخصيات النساء وذلك تأكيداً بأن للمرأة مكانتها ووظيفتها في الحياة مع الرجل ، صحيح أن التكوين العضوي يختلف في كل منهما عن الآخر ، ولكن هذا الاختلاف يطبع كلا منهما باستعدادات خاصة تؤهله لوظائف خاصة لا يقدر عليها الآخر ، ولكنهما معا هما الإنسان ، كل منهما ذهب بأحد شطريه، فهما متفقان ومختلفان في وقت واحد .

ومن خلال هذه النظرة القرآنية تتضح صورة المرأة في القصص القرآني فمن حيث اتفاقها مع الرجل في أنها إنسان مثله تحتل مكان الإنسان في القصة ، ومن حيث اختلافها العضوي عن الرجل وما يترتب عليه من اختلاف الإمكانيات والاستعدادات والعواطف تحتل مكان الأنثى وفي كل من الموقفين تطبعها القصة بما يناسبها ، وتنسب إليها من الأحداث ما يلائم طبيعتها ، ولهذا فإن القارئ يشهد في كل نشاط بشري تحتله إنسانيتها وأنوثتها في مجال الحدث القصصي في القرآن ^(٤).

ففي مجال إنسانية المرأة نجد القرآن يساوي بينها وبين الرجل أحياناً وذلك حين يظهرها بمظهر الإنسان المؤهل لتلقى الوحي من السماء ، كما هو الشأن بالنسبة إلى "مريم" وأم "موسى" .

وهي تظهر أيضاً في صورة الإنسان العاقل الرشيد ، صاحب العقل ، الذي يزن الأمور ويتدبرها ، ويختار أقومها وأجداها وأنفعها له، صائراً في ذلك كله عن إرادة قوية لا ترهب ولا تخاف بطش الباطشين .

(١) السابق . ص ٩٠ .

(٢) السابق . ص ٢٢ .

(٣) السابق . ص ١١٨ .

(٤) انظر : القصص القرآني . مطبوعة ومفيدة ، ص ١٠٥ .

وخير ما يمثل هذه الصورة الإنسانية العاقلة للمرأة : امرأة "فرعون" ، فقد كانت الدولة كلها تدور فى فلك زوجها ، تاتمر بأمره وتنتهى بنهيه ، وهى لم تشذ عن هذا الفلك الدائر ، فلما عرفت صحة الدعوة التى جاء بها "موسى" ، وأمنت بما جاء به من الهدى ، انسلخت عن زوجها ، وخلعت ربقة الطاعة له من عنقها ، دون خوف من وعيده ويطشه ، وقد استحققت - لذلك - أن تكون مضرب المثل فى القرآن ، ليس لبنات جنسها فحسب ولكن لكل إنسان عاقل ذى إرادة متحررة . يجرى على سلطان الضلال ويدخل فى دين الله ، يقول تعالى

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

إن المتأمل فى موقف امرأة فرعون يجدها توازى تماماً الرجل المؤمن الذى خرج على سلطان فرعون ، رغم أنه من قومه ، إذ وقف يدافع عن "موسى" ضد ظلم "فرعون" وآله ، وهو المذكور فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ (٢)

ولعل إيمان امرأة "فرعون" كان أقوى من إيمان الرجل ، لأنها لم تكتفِ إيمانها على العكس منه ، ولعل موقفها يكون أكثر تأثيراً وأشد وقعاً فى الرعية من موقف الرجل ، لأنها زوجة خرجت على سلطان زوجها وهى أول المستفيدين منه ، وإن مجاهرتها بالخروج لمما يضعف زوجها ويزلزل أركان ملكه ؛ لذلك كان عنف "فرعون" معها شديداً ، فقد قتلها بعد أن أنزل بها أشد العذاب على ما يروى المفسرون (٣).

وهناك وجه آخر للمرأة الحرة ذات الإرادة ، إنها الزوجة حين تعمل عقلها ، وتختار بإرادتها ، فتجمع كالأتان الوحشى ، متخيلة عن زوجها حتى ولو كان نبيا مرسلأ ، يقول تعالى :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ

(١) التحريم . الآية . ١١ .

(٢) غافر . من الآية ٢٨ .

(٣) انظر . تفسير القرطبي ج ١٠ ، ص ٦٦٨٢

الدَّاخلين ﴿١﴾

ومع بعد الشقة بينهما وبين امرأة قارعون فإن كلا منهن تمثل وجه المرأة العاقلة ذات الإرادة المستقلة عن زوجها وعن الناس أجمعين .

ونلاحظ أن القرآن لم يعرف أياً من هؤلاء النسوة باسمها ، لتبقى كل منهن علم جنس للمرأة المساوية للرجل في العقل وفي الاختيار ، بحيث إذا شاعت أن تهتدى كانت من المهتدين ، وإذا شاعت أن تضل كانت من الضالين (٢).

وفي القصص القرآني مايزيد صورة المرأة الإنسان وضوحاً؛ إنها المرأة الملكة التي تحكم الرجال فيخضعون لها ، ويأتمرون بأمرها ، لأنها تحتل مكان الحكم والقيادة ، وهي تقيم حكمها على العقل ، وحسن التدبير ، وعلى الشورى أيضاً ، تلك هي ملكة سبأ التي عرض القرآن قصتها مع "سليمان" - عليه السلام - عرضاً مثيراً .

إنها تتصرف في هدوء ورباطة جأش كما يتصرف أقوى الملوك من الرجال ، وهي تتكلم كلام الخبراء المحنكين الذين يعرفون ويلات الحرب، وما تخلفه من دمار وتخريب ، ولذلك فهي لم تفرع حين جاءها خطاب "سليمان" يأمرها بالخضوع والإسلام له، ولم تغلبها نوازع المرأة التي كثيراً ما تسيطر على النساء في مثل هذه المواقف الشديدة ، بل جمعت رجال بلاطها وحاشيتها لتشركهم في البحث عن مخرج لهذه الأزمة التي تكاد تعصف بمملكتهما ، وعلى عادة العسكريين أبدى قوادها استعدادهم للنزال ، وتأهبهم للمعركة الوشيكة ، وما عليها سوى أن تصدر الأمر إليهم فتتحرك الجيوش وتبدأ المعركة، ولكنها لم تخذع لاستعراض القوة من قوادها ، لأنها - بحنكتها - أدركت أن من يقتحم مملكتهما يمثل هذا الأمر الحاسم لايد أنه يملك من القوة فوق ما تملك هي وقوادها المتحمسون (٣).

إن الواقعية الصادقة للقصة القرآنية تأتي أن تصور المرأة كالرجل تماماً بتمام ، فالصدق يحتم أن يكون هناك خيط ولو رفيع جداً يفصل بين المرأة والرجل حتى في أشد المواقف تماثلاً وتوافقاً بينهما ، ولذا لجأت الملكة إلى تجريب الحيلة مع "سليمان" - عليه السلام - قبل أن تدعن لأمره ، فأرسلت إليه بهدية ، فإن قبلها فقد فتحت بذلك

(١) التحريم الآية ١٠ .

(٢) انظر : القصص القرآني في منطقته ومفهومة - ص : ١٠٦ .

(٣) انظر - المرجع السابق، ص : ١١١ ، ١١٢ .

بابا بينهما للمفاوضات ، وإن ردها علمت أن أمره جد لا هزل فيه ولا رجوع عنه ، وهو ما انتهى إليه الأمر إذ جاءت الملكة إلى "سليمان" معلنة ولاعها وإسلامها معه لله رب العالمين ، ولكنه ولاء وإسلام نابع من سلطان العقل ، وقوة الإرادة السليمة .

وفى القصص القرآنى وجه آخر للمرأة مختلف تماماً عن الوجه الذى رأينا ، إنه وجه المرأة الأنثى ، بكل ما فيها من عواطف وانفعالات تتميز بها الأنثى من الرجل ، وجه تتضح فيه غرائز الأنثى وما تستتبعه هذه الغرائز من تصرفات ومن سلوك لا يكون إلا من المرأة ، إن من أهم ما تتميز به الأنثى هو الشوق الصارخ إلى إشباع عاطفة الأمومة فى نفسها ، فإن ولدت المرأة مارست عاطفتها فى قوة وانفعال ، وإن لم تلد سعت إلى تعويض نفسها عما فقدته فى قوة وانفعال أيضاً ، وهذه وتلك صورها لنا القصص القرآنى .

ومن العجيب حقاً أن صورة المرأتين قد ارتسمت فى قصة واحدة ومارست كل منهما عاطفتها فى صبي واحد هو "موسى" - عليه السلام - حين كان طفلاً رضيعاً ، فأمه التى ولدت ألقته فى اليم تنفيذاً لأمر ربها ، فلما بعد عن عينيها طارت شعاعاً من أجله ، وتحركت عاطفتها نحوه ، فلما تلقته امرأة فرعون سرت به سروراً عظيماً ، ودفعها سرورها إلى دفع أذى زوجها عنه حين أمر بقتله ، وكانت رغبته فى إشباع عاطفة الأمومة هى السلاح الذى دفع الله به الأذى عن هذا الصبى الصغير ، ولعل حب امرأة فرعون لموسى ورغبتها فى اتخاذه ولداً يقويان مذهب إليه بعض المفسرين بأنها لم تلد من فرعون (١) .

وتتضح صورة المرأة بصفتها أنثى تتوق إلى الأمومة فى قصة "إبراهيم" - عليه السلام - إذ جاعته الملائكة - فى طريقهم إلى إهلاك قوم لوط - فقدم إليهم طعاماً فلم يقربوه فأوجس منهم خيفة ، ثم كان هذا الموقف وهذا الحوار بين زوجة "ساره" وبين الملائكة :

وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ

أمر الله رَحِمْتُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿١﴾

كانت "سارة" واقفة لقضاء مصالحها ، أو لأجل خدمة ضيوف زوجها وكانت تسمع ما بينهم وبين زوجها من حوار فضحكت سروراً وابتهاجاً بسبب زوال الخوف عن إبراهيم ، أو بسبب علمها بأن الضيوف ملائكة أرسلهم الله تعالى - لإهلاك قوم لوط ، فبشرتها الملائكة بمولودها "إسحاق" ، كما بشرتها بأن "إسحاق" سيكون من نسله "يعقوب" ، فهي بشارة مضاعفة ، إذ إنها تحمل في طياتها أنها ستعيش حتى ترى حفيدها .

وقد أخذتها الدهشة لهذه البشارة العجيبة ، فنطقت بما ظاهره الدعاء على نفسها إذ قالت (ياويلتى) ولكن المراد هنا التعجب من وقوع البشارة بأنها ستكون أما بعد عشرات السنين التى قضتها فى انتظار هذا الأمر المحبب إلى نفسها ، فيا للعجب ألد وأنا امرأة عجوز قد بلغت سن اليأس من الحمل من زمن طويل ، وهذا زوجى إبراهيم شيخاً كبيراً متقدماً فى السن ، إن هذا الذى بشر تمونى به لشيء عجيب فى مجرى العادة عند النساء» (٢) .

وقبل أن تطمع المرأة فى إشباع عاطفة الأمومة لديها فإنها تتطلع إلى الرجل ، لأنه شطر الوجود الإنسانى، وباجتماعه إليها تستطيع أن تلد الحياة وتحقق أمومتها .
والقصص القرآنى يصور تطلع المرأة إلى الرجل بطريقة مشروعة فيرىنا المرأة (الأنثى) تستجيب لطبيعتها فى طلب الزوج ، وفتح منافذ وصوله إليها ، فى تल्पف ومدارة ، دون أن يخدش حياؤها ، أو يجرح كبرياؤها وذلك ما كان من ابنة "شعيب" مع موسى - عليهما السلام :-

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٣) .

فالفتاة جاءت إلى "موسى" تمشى على خفر واستحياء ، إنها إنما جاءت إليه فى

(١) هود الآيات ٧١ ٧٣ .

(٢) القصة فى القرآن الكريم ، د محمد السيد طنطاوى ، ط دار المعارف ، ١٩٩٢ م سلسلة اقرأ (٥٧٩) ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) القصص . الآية ٢٥ .

صورة أنثى تهتف بالرجل : أنها المرأة (الزوجة) الصالحة له، إن كان له فى الزواج أرب.

وليس للقارئ أن يمر على قوله تعالى (تمشى على استحياء) دون أن يلحظ ما فيه من روعة الإعجاز المبين ؛ "لقد تجسد الحياء قصار بساتين ممدوداً تمشى عليه ، إنها لا تمشى على الأرض التى تمشى عليها النساء ، ولكنها تمشى على حياء ، تكاد تتعثر فيه قدماءها ويضطرب له كيائها .

فإذا انتهت به إلى أبيها لم تشأ أن تترك الأمور تجرى فى مجاريها، بل أرادت أن يكون لها دور فى هذا الموقف ، وأن تعلن رأيها فى تطف .

وتفتح لأبيها مداخل الحديث إلى ما يوثق الصلة بينه وبين "موسى" ، ويقيمه قريباً منها" (١) ، ولعلها المعنى بقوله تعالى (٢) :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (٣)

وكما فى النساء من تتدثر بالحياء - الذى هو أخص خصائص المرأة - فهن أيضاً الأنثى التى يستبد بها الحب ويغلبها الهوى ، فتندفع إلى الرجل فى غير حياء وتميل إليه فى غير احتشام ، لا بوصفه زوجاً يسكن إليها وتسكن إليه ، ولكن بوصفه رجلاً يشبع غرائزها فقط ، وهى فى هذه الحال تندفع بكل عاطفتها نحو الرجل ، وتستخدم كل ما أوتيت من دهاء وحيلة .

والقصة القرآنية تصور هذه اللحظة العاصفة فى حياة المرأة من خلال موقف امرأة العزيز مع "يوسف" - عليه السلام - وهو موقف كثيراً ما يقع فى الحياة ، ولكن أسلوب القصة القرآنية يجاوز هذا الموقف سريعاً ويتعداه إلى غيره ، لأن القرآن لا يحفل بتصوير لحظات الضعف البشرى ولا يتوسع فى عرضها بحجة أنه يرينا الواقع ، بعكس الكتاب من البشر، الذين يتخنون من العواطف الجامحة ، محافل مثيرة يفتنون فى عرضها فى قصصهم ومسرحياتهم ، ويعيدون ذلك بطولات ، ليروجوا بضاعتهم لدى الجماهير العريضة من الشباب الذين يبحثون عن التسلية .

(١) القمصن القرآنى فى منطقته ومفهومه ، ص : ١١٠ .

(٢) انظر : الكشف ، للزمخشري ج ٢ ، ص ٤٠٢ .

و ابن كثير ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

و روح المعاني ، للآلوسى ج ١١ ، ص ٦٥ .

(٣) القصص ، الآية : ٢٦ .

لقد أسرع القرآن في عرضه للحظة الضعف ، ليسلط الأضواء على لحظة الإفاقة من سكرة الهوى ، ولأنه لم يرد أن يجعل من ذلك معرضاً للجمال والإغراء حتى لا يحصر أشواق الإنسان في تلك اللحظة العابرة ، لأن للإنسان من الأشواق العليا ما يتصل بصميم الكون والحياة (١).

وذلك فرق واضح جداً بين قصص القرآن وغيره من القصص والمسرحيات التي "يبرر كاتبوها الانحراف ، ويعتزون عنه للساقطين والساقطات ، وقد أثرت هذه الكتابات تأثيراً سيئاً على عقول النشء فجعلتهم يستهترون وينحرفون؛ ولاشك أن من أهم أسباب ضياع الجيل الحاضر عقلينه الضعيفة التي انتهت بها إليه هذه التجارة الرخيصة في الحكايات الغرامية المثيرة والمبتذلة" (٢).

ويعلل أحد المثقفين انصراف العرب والمسلمين الأوائل عن المسرح اليوناني والأوربي بقوله " والمسلمون لا يستبيحون استعراض النساء على خشية المسرح أو غيره ، والمرأة هي نصف الناس ، ولا يتصور أهل المسرح مسرحاً من دونها ، وجسدها عورة إلا لمحارمها ، والمسرحيون لا يتصورون مسرحاً للمحارم ؛وقوام المسرح المأساة والملهاة ، وكل منهما يقوم على الخيال الذي لا يتسع له الواقع ، والعرب "عمليون" وواقعيون بطبعهم ، وخيال شعرائهم من عصر المعلقات إلى عهد "المنتبى" و"البحترى" لا مصدر لصوره إلا الواقع نفسه ... والمنهج العلمي الإسلامي منهج موضوعي يقوم على الواقع ... وإن انقضاء ثلاثة عشر قرناً على المسلمين نون الاقتراب من المسرح دلالة على واقعيتهم وموضوعية فكرهم ، وليس على قصورهم أو قصور خيالهم عنه ".

"والقصص في القرآن تاريخ لحقائق واقعة يعلم الله بها الناس، والقصص لفظ قرأني يشير إلى الأثر بمفهوم الاهتداء، بالاتباع والتتبع لمعالم الطريق الصحيح ، طريق الحق ، الذي نعرفه بالقصص الحق" (٣).

ومعنى ذلك أن العرب والمسلمين الذين تربوا على القصص القرآني الحق يجب عليهم أن يرفضوا هذا العبث الخلقى الذي جاغهم من أوربة، كما رفضه أسلافهم

(١) انظر : سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ٤٠٩ .

(٢) قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح ، أحمد موسى سالم ، ط دار الجيل ، بيروت ١٩٧٨ م ، ص

٣٤٧ ، ٣٤٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤٨ ، والكلام للمستشار عبد الطيم الجندي من حديث مع مؤلف الكتاب .

القدامى وأن يعودوا إلى القرآن بكل ما فيه من صدق فى تصوير الواقع الإنسانى .
ومن أهم ما يميز القصة القرآنية فى عرضها لشخصيات النساء أنها لا تهتم بذكر المرأة إلا إذا كان لها دور فى الأحداث ، أو بمعنى أصح إذا كانت الأحداث تستدعى وجودها ، وتستوجب مشاركتها ، فإذا لم يكن لها دور يستدعيه الموقف ويوجبه الحدث فلا يجرى لها ذكر ، ولا يكون لها مكان فى القصة ، وكم من قصة قرآنية خلت من شخصية المرأة وكانت تجرى على مستوى قصة "يوسف" - مثلاً - فى الإثارة والتشويق والروعة .

أما غير القصص القرآنى فهيها أن يستغنى عن وجود المرأة ، وإن حدث كان باهتا شاحباً يمل القارئ منه ولا يصبر على قراءته، ولذلك يستجلب الكتاب المرأة ويصطنعون لها أدواراً بغرض الإثارة والتشويق لجذب القارئ ولضمان عدم انصرافه عن القراءة .



وفى القصص القرآنى شخصيات كثيرة غير بشرية ، منها ما ينتمى إلى عالم الغيب ، ومنها ما ينتمى إلى عالم الحضور والشهادة ، ويشاركنا معاً فى أن بعض هذه الشخصيات تؤدي أدواراً إيجابية فى القصة، بمعنى أنها تسهم أحياناً فى صنع الأحداث القصصية، ويصدر عنها حوارات مع غيرها من الشخصيات .

فمن الشخصيات الغيبية الملائكة وحوارهم مع رب العزة فى قصة "آدم" فى سورة "البقرة" ، وحوارهم - أيضاً - مع "إبراهيم" - عليه السلام - وإهلاكهم قوم "لوط" .
ومنها شخصيات الجن وزعيمهم إبليس ، ودوره فى قصة "آدم" مؤثر فى كثير من أحداثها ، وقد طبع القرآن شخصيته بالتكبر والتمرد ، أما الجن فى قصة "سليمان" فهم عبيد مسخرون ، يعملون له ما يشاء .

ومن الشخصيات التى تنتمى إلى عالم الشهادة شخصيات الحيوانات والطيور والحشرات ، ومنها ما يذكر دون أن تنطق، أو يكون لها دور مؤثر فى الحدث القصصى القرآنى، كبقرة بنى "إسرائيل" ، وحمار العزيز ، وكلب أهل الكهف ، وطيور "إبراهيم" - عليه السلام - وغراب ابنى "آدم" ، ومنها ما ينطق نطق العقلاء من البشر، ويتصرف تصرفهم ، وأبرز ما يمثل ذلك "النملة" والهدد" فى قصة "سليمان" .

فالنملة تحذر أخواتها الهلاك تحت أقدام "سليمان" وجيشه ، وتنصحهم أن يدخلوا مساكنهم فتبسم سليمان ضاحكا من قولها .

أما الهدهد فوقف من "سليمان" موقف المطلع الذي يعرف من أخبار الممالك الأخرى ما يجهل النبي ، ويعرف من أمر الملكة وقومها ما يعد الأمر الغريب لدى "سليمان" وذلك ما تصوره الآيات الكريمة .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (١)

إن القارئ ليعجب أشد العجب من هذا الطائر الواعى الحصيف اليقظ لكل ما يدور من الملكة وقومها من الناحية الدينية، وهو إذ ينكر عليهم عبادتهم للشمس وسجودهم لها من دون الله يرى أن الشيطان هو الذي زين لهم هذا العمل وصدهم عن السبيل ، بل يذهب إلى أبعد من هذا؛ فيشير إلى الأسباب التي تدفع إلى عبادة الله من إخراج الخبء ، ومن علمه بما يخفى الناس وما يعلنون ، ولا تخفى جراته وثقته حين فاجأ "سليمان" - عليه السلام - بقوله : أحطت بما لم تحط به .

وفى هذه العبارة - التي افتتح بها الهدهد كلامه - يظهر التشويق على أحسن ما يكون؛ إذ كيف يطلع الهدهد ، ذلك الطائر الصغير ، على ما لم يطلع عليه نبي الله "سليمان" وهو صاحب الملك العريض الممتد ، إنها عبارة تجذب القارئ وتشده ، وخاصة حين تصدر من الهدهد ، وتجعله يرهف سمعه إلى كل كلمة ينطق بها من بعد ، ثم يفاجأ القارئ بأن الهدهد يتحدث عن عقيدة التوحيد في أوضح مجاليتها ، وعن ما يشوبها من شرك على يد هذه الملكة وقومها حين يسجدون للشمس من دون الله .

لقد أثارت شخصية الهدهد بما تحمل من وعى بمسائل العقيدة الصحيحة اهتمام أحد الباحثين، فنعى على المفسرين محاولتهم شرح ما كان من الهدهد مع «سليمان» فقال ولو أن هؤلاء المفسرين درسوا المسألة على أساس من الخلق الفنى للشخصيات

، وأنها ما وجدت إلا لتؤدى أدوارها فى القصة لما وقعوا فى تلك الحيرة ، ولما كان دفاع واتهام ؛ وإنا نلاحظ فى القصص الحديث أن بعض الأدوار الرئيسية فى القصة تسند إلى بعض الحيوانات، ولعلنا لم ننس بعد شخصية (لاسى) ذلك الكلب الذى يضطلع بالبطولة فى قصة : (لاسى يعود إلى منزله)، وهى بطولة تتجلى فيما يرتسم على وجهه من انفعالات إنسانية ، وفيما يحركه من عواطف بشرية ، ويتحرك (لاسى) فى القصة كما يتحرك الانسان النابه الممتاز ، الذى يملك رقة عواطف البشر، ودقة إحساساتهم ، ويمتاز بما يمتاز به النابهون من ذكاء . وفى الأدب القديم يكفينا كتاب (كليلة ودمنه) فقيه المثل الصالحة للدلالة على ما يقوم به الطير والحيوان من عمل ، وما ينطقان به من حكم وأمثال (١).

ومن الواضح أن الباحث يتشكك فى شخصية الهدد ، ويستبعد أن يكون نطق بهذا الحديث الدال على الوعى والحصافة، وإلا مارد ذلك كله إلى مسألة الفن الخالص ، وأن الأمر كله لا يعدو أن يكون على أساس الخلق الفنى للشخصيات .

وفى غمرة هذا التشكيك نسي الباحث قوله تعالى فى صدر القصة ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مِنْ نَتَقِ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (٢).

فإذا كان "سليمان" يعلم لغة الطير كما علمه الله فليس فى الأمر غرابة أن يتلقى من الهدد هذا الخبر ، كما أنه ليس من الغرابة فى شئ أن يكون الهدد - وهو على فطرته - منكرًا لما عليه القوم من ضلال وكفر" (٣).

وإلى هذا فقد شاء الباحث أن يشكك فى وصف القصص القرآنى بالحق فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ (٤). إذ يقول : لا يقصد من هذا الوصف ما فى القصص من جزئيات الأحداث ، وإنما يقصد منه وصف التوجيهات الدينية الواردة فى القصة ، أو وصف المقاصد التى من أجلها نزلت الأناصيص والأمثال (٥).

(١) لفن القصصى فى القرآن الكريم ، د. محمد أحمد خلف الله ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢) النمل : الآية ١٦ .

(٣) القصص القرآنى فى منطق ومفهومه ، ص ١١١ .

(٤) آل عمران : من الآية ٦٣ .

(٥) لفن القصصى فى لقرآن الكريم ، ص ٢٥٩ .

ومعنى ذلك أن الهدف والمقصد من القصة القرآنية هو الذى يوصف بالحق ، أما الوسيلة إلى تحقيق هذا الهدف والمقصد فليس من اللازم أن توصف بالحق والصدق ، والوسيلة هنا هي الشخصية والحدث على حد سواء ، ولذا فهو يصرح بقوله : إن الأحداث والأشخاص فى القصص القرآنى من المواد التى يكون بها البناء ، وهى مواد قد تكون تاريخية ، وقد تكون خيالية ، وقد تكون صوراً فى الأذهان ، أى معتقدات ومسلمات (١).

إما الموازنة بين شخصية الهدد وشخصيات الحيوان فى الأدب الحديث فليست ذات قيمة ، لأن شخصية الكلب "لاسى" التى تحدث عنها الباحث إنما شغلت مساحة كبيرة من القصة ، وأدت هذه الأعمال عن طريق التدريب والمران ، وليس بالفطرة والطبع أو الإلهام من الله - سبحانه - كما كان من الهدد ، وما أبعد شخصيات الحيوان فى الأدب الحديث عن النطق والإبانه، كما نطق الهدد وأيان .

وأما ما جاء فى "كليلة ودمنة" من نطق الطير والحيوان فإنما كان ذلك على لسان المؤلف ليس غير ، وهو نوع من الرمز ربما يكون مدفوعاً إليه بفعل الظروف السياسية أو غيرها ، أو هو نوع من الخيال الذى لا ينكره صاحبه ومؤلفه (٢) ، أما نطق الهدد فكان على سبيل الحقيقة ، وبالله التى يعرفها أمثاله من بنى جنسه وعلمها الله - سبحانه - سليمان - عليه السلام .



سبق أن تصديت لتعريف النموذج البشرى (٣) من وجهة نظر أصحاب الدراسات الأدبية ، وعرفنا ما يشترطونه لنجاح الكاتب فى تصوير نماذجهم، وضمان انتشارها وظلوعها فى عالم الأدب .

وأول ما يلاحظ على النموذج البشرى المعروف فى الفن الأدبى أنه نموذج محدود ، بمعنى أنه يبدأ من شخص بعينه - غالباً - ثم ينتهى بأن يكون نموذجاً لنمط معين من الناس، فمثلاً نموذج العاشق الموله، الهائم بمحبوبته، يمثله فى الأدب العربى القديم الشاعر المشهور "قيس بن الملوح" وهو شخص ، ثم انتقل إلى الأدب الفارسى ، وصار

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٢) انظر كليلة ودمنة، ترجمة عبد الله بن المقفع، ط لمركز لى لى للنشر بالإسكندرية دت ص ٣٦ وما بعدها .

(٣) انظر : الصفحة الأولى من هذا المبحث .

نموذجاً بشرياً عالمياً ، فأصبح -بالإضافة إلى كونه محباً- نموذجاً للصوفي المتعبد الذي يتقرب إلى الله طبقاً لفلسفته الخاصة المميزة له، وأصبح في صوفيته ذا سمات لم تعرفه بها البيئات العربية من قبل ، ثم دخل مجال الأدب القصصي والمسرحي ، فصار ممثلاً لتيارات عامة فكرية وفلسفية (١) وفي كل أدب انتقل إليه هذا النموذج أضيفت إلى أبعاده أبعاد أخرى هي أبعد ما تكون عن شخصية الأولى التي ظهرت من قبل في الأدب العربي ، فالصفة الأولى للشخصية أضيفت إليها صفات أخرى كثيرة، فصارت نموذجاً لا يصدق على الشخصية الأساسية للنموذج فحسب، ولكن يصدق على نمط أعم وأشمل منه .

وعلى العكس من ذلك نجد أن النموذج البشري في القصة القرآنية وفي القرآن بعامة يبدأ شاملاً عاماً - في الغالب - بمعنى أنه لا يبدأ من شخص ولكن يبدأ من فكرة تصدق على نمط معين من الناس ، وهذا لا ينفي وجود نماذج الأشخاص في القصص القرآني ، لأنها موجودة بكثرة ، ولكن نماذج الفكرة أكثر وجوداً .

والمراد بنموذج الفكرة : أن تجتمع للنموذج منذ البداية مجموعة من السمات الشخصية ، تجعله لا يقتصر على شخص معين ، بل يتعداه إلى أن يصدق على نمط من الناس ، تجتمع فيهم هذه السمات ، بغض النظر عن البيئة المحلية التي ولد فيها هذا النموذج (٢).

ومما يوضح ذلك هذا النموذج الذي أفاض القصص القرآني في وصفه ؛ ويمثله الملائم المعارضون لدعوات أنبياء الله، ويقوم بتوضيح فكرة المحاكاة أو المتابعة التي آمن بها هؤلاء الملائكة ، والمتابعة لأبائهم ، وأسلافهم الذين ورثوا عنهم عباداتهم، كما ورثوا عنهم أموالهم ، وقد دفعهم إيمانهم بمتابعة آبائهم إلى الصد عن كل جديد جاء به الأنبياء ، وقد سجل القرآن ذلك بقوله :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (٣).

(١) انظر النماذج الإنسانية في الدراسات الأنبيائية المقارنة ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) انظر النماذج الإنسانية في القرآن الكريم ، د أحمد محمد فارس ، ط دار الفكر لعربي بيروت ، الطبعة الثانية

١٩٨٩ م ص ٣٣ .

(٣) البقرة الآية ١٧٠ .

إن أول صفة من صفات هؤلاء هي غلبة العاطفة ، فهم يعدون اتباع ما ورثوه عن آبائهم نوعاً من الوفاء لهم ، ودفعهم ذلك إلى التعتن برفض دعوة الأنبياء ، والاستنكاف عن قبول ما أنزل الله وهم يتسمون أيضاً بالجدل واللجاج .
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (١).

فهم رفضوا هذا الدين الجديد بدعوى أنهم ليسوا في حاجة إليه . وهم يتسمون أيضاً بالحمق؛ إذ يعدون أن ترك ما كان يعبد آبائهم وعبادة الله وحده جريرة من الأنبياء في حقهم ؛ فيتجهون إلى كل رسول بإنكار دعوته ؛ فقال قوم عاد .
﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢).

وقال قوم موسى :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

بل إن بعض هؤلاء المتابعين حاولوا أن يدخلوا انبيهم في ملتهم التي ورثوها بدلاً من أن يدخلواهم في دينه الجديد :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ (٤).

وهؤلاء المتابعون لا يريدون جديداً ولو كانوا على خطأ من أمرهم فهم ينسبون هذا الخطأ إلى آبائهم ، وكان الأمر لا يعنيه في شيء ولا يقدر في عقولهم التي لم يتعودوا إعمالها :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ

(١) المائدة : من الآية : ١٠٤ .

(٢) الأعراف : من الآية : ٧٠ .

(٣) يونس : من الآية : ٧٨ .

(٤) الأعراف : الآية : ٨٨ .

بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾.

إن أخطر ما يتسم به هذا النموذج المتابع هو إهمال العقل وتعطيله ، والسير وفق الهوى ، لأن ذلك يدعو إلى الشطط والفلو ، ولذا استحق أن يبرزه القرآن ، ويؤكد على الفكرة التى يعتنقها أقراده وهى فكرة المتابعة ، وعرض القرآن لهذا النموذج عرض موجز (٢) لأن السباق يبين كيف تنعدم إنسانية الإنسان عندما يرفض أن يفكر ، وكيف يصبح ضعيفا مضحكا عندما تتحول حياته إلى مجموعة من العادات الموروثة ، التى لا يطرأ عليها أى تغيير ، وإن أصابها التغيير فهو تغيير إلى الأسوأ وليس إلى الأحسن ، وتتضح شمولية هذا النموذج البشرى حين نستحضر متابعه الابن لأبيه والبنات لأمها والتلميذ لأستاذه ، وهى متابعة مشروعه مادام التابع فى طور الطفولة الحقيقية أو العلمية ، أما حين يشتد عود الابن والبنات ، وينضج عقلهما ، وحين يأخذ التلميذ عن أستاذه ما يؤهله لتكوين شخصيته ، العملية ، فلا بأس أن يعمل كل واحد من هؤلاء عقله فى غير ما نفور عن المتبوع ، ودون تأب على نصيحته ، وخاصة إذا كان المتبوع مثالا فذا فى أبوته أو فى علمه .

ويترتب على شمولية نموذج الفكرة فى القصص القرآنى صدقة على كل من تتوافر فيه سمات النموذج فى كل زمان ومكان وفى أية بيئة ، بعكس النموذج البشرى فى الفن الأدبى ، إذ تختلف سمات النموذج من زمن إلى زمن ، ومن بيئة إلى بيئة .

والمثل الواضح جداً على هذا الاختلاف نموذج "أوليس" (٣) . الذى ابتدعه الشاعر اليونانى الشهير "هوميروس" فى "الإلياذة" ، وكان يتصف بالذكاء والحكمة والشجاعة والحزم (٤) . ثم جعله بطلا لملمحته الثانية "الأوديسا" وغير فى صفاته بعض التغيير ، أو التطوير ، فوصفه بالحنكة ، وحسن التقدير ، واللباقة فى معالجة الأمور ، والقدرة على

(١) الأعراف : الآية : ٢٨ .

(٢) النماذج الإنسانية فى القرآن الكريم ، ص : ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) أوليس واحد من أشهر النماذج البشرية فى الأدب اليونانى القديم ، وفى الآداب الأوربية الحديثة . وهو فى الأصل أحد أبطال حرب طروادة التى صورها "هوميروس" فى ملحمته "الإلياذة" . انظر نماذج بشرية ، د محمد مندور ، ط دار نهضة مصر ، الطبعة الرابعة ، بون تاريخ ، ص ١٥٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٥) السابق ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

فهم النفوس (٥). وكان ذلك فى القرن العاشر قبل الميلاد .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد جعله الشاعر "سوفوكليس" بطلا لمسرحية "فيلوكتت" ويصوره فيها فى صورة النموذج الخبيث ، الجبان الذى لا يقيم للمبادئ والخلق أى وزن ، ولا يتورع عن فعل أى شئ (١).

ثم دخل هذا النموذج طوراً جديداً فى أدب القرون الوسطى ، والآداب الأوربية الحديثة ، فأصبح ذا طابع خاص عند كل من تناوله من شعراء هذه الآداب مثل : "دانتي" ، الشاعر الإيطالى (ق ١٤ م) "ودى بللى" الشاعر الفرنسى (ق ١٦ م) ، "الفريدتيسون" الشاعر الإنجليزى (ق ١٩ م) (٢). وذلك ما دعا الدكتور محمد مندور إلى القول : "والذى لا شك فيه هو أن "أوليس" اليونان لم يعد - كما قلنا - نموذجاً بشرياً ، بل مجموعة من الرموز يأخذ منها الشعراء والكتاب ، كل ما يحلوه للعبارة عما فى نفسه من إحساس ، أو فى عقله من فكر" (٣).

(١) السابق ، ص ١٧٣ .

(٢) السابق ، ص ١٨١ : ١٨٣ .

(٣) السابق ، ص ١٨٦ .

المبحث الثالث

الحوار والسرد

الحوار والسرد يشكلان مع الأسلوب المستخدم في إيراد الحوادث وتطويرها وفي رسم الشخصيات في القصة الفنية، والأسلوب هو أول ما يقابل القارئ في القصة، ومن هنا تأتي أهميته، فهو إما أن يجذب القارئ إلى المتابعة وإما أن يصرفه عنها قبل أن يدلف إلى الحوادث ويتعرف إلى الشخصيات، وعن طريق الأسلوب يستطيع الكاتب أن يصطنع الوسائل القصصية المتعددة التي بين يديه فيخرج منها عملاً فنياً متكاملًا^(١).

ويعنى بالحوار: ما يدور من حديث بين الشخصيات في القصة. والمقصود بالسرد: الطريقة التي يصف به الكاتب جزءاً من الحدث أو جانباً من جوانب الزمان أو المكان اللذين يدور فيهما، أو يصور ملمحاً من الملامح الخارجية للشخصية^(٢).

ولكل من الحوار والسرد قيمة أو ميزة في البناء الفني للقصة: فالحوار يساعد على إبراز الفكرة وتوضيحها، لأن كل طرف من أطراف الحوار يحاول أن يثير الجوانب التي يؤمن بها ويدافع عنها، كما يتميز الحوار بأنه يساعد على تجسيد المواقف وإحياء المشاهد حتى يشعر القارئ بالحياة تدب في المشهد وتتحرك، وحتى يعيش لقارئ مع الأحداث من خلال أبطالها الذين يشعر بهم وهم يتحركون أمامه كما لو كان حاضراً معهم، يشعر بالحدث كما شعروا وينفعل به مثملاً انفعلاً.

أما قيمة السرد القصصي فتتمثل في أن الكاتب يستطيع أن يلاحق الجوانب الصغيرة الدقيقة للأحداث، كما يتمكن - عن طريق السرد - من أن يقف موقف المرشد الذي يقود تفكير القارئ وينبهم إلى القضايا التي يريد إثارتها من خلال الموقف القصصي^(٣).

“ومعيار الجودة في كل من الحوار والسرد أمران:

الأول: القدرة على تحريك الحدث وتصعيده في مراحل مختلفة.

الثاني: الإفصاح عن المعاني بدقة، ودون إخلال بتقصير أو إملال بتطويل^(٤).

(١) فن القصة، د: محمد يوسف نجم، ص ١١٢.

(٢) أنظر: دراسات في نقد الرواية، ص: ٤٢، ٤٧.

(٣) أنظر: الحوار في القرآن، محمد حسين فضل الله، ط دار المعارف للطبوعات، بيروت الطبعة الخامسة، ١٩٨٧.

م ص: ٢١٦.

(٤) بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، ص ٧٣.

والحوار هو الوسيلة الفنية فى بناء المسرحية ، أما فى القصة فيشترك الحوار والسرد معا فى تشكيل الوسيلة الفنية للبناء القصصى ، ولذا تعد حرية كاتب القصة أوسع من حرية كاتب المسرحية ، وهذه الحرية الواسعة - التى يكفلها تعدد وسائل التعبير للكاتب القصصى - يقابلها التزام شديد يقع على عاتقه ويتمثل فى أن الكلمة فى القصة وضعت أصلا لتقرأ ، فى حين أن الكلمة فى المسرحية وضعتا لنقال ، أى أن الكلمة فى القصة تؤدى ما تؤديه الكلمة مع الصورة فى المسرحية ، وفى العصر الحديث عرف العالم فن الخيالة (السينما) وهو فن أغنى وأكثر حرية من المسرح من حيث تنوع المناظر، والسرعة فى إيراد الحدث ، وتشترك الخيالة مع المسرح فى أنها تؤدى المعنى أو الفكرة من طريق الكلمة المنطوقة مع الصورة المشاهدة ، ومع ذلك يبقى للكلمة المطبوعة على صفحات القصة ميزتها ، وهى أنها عندما تصف شخصا أو مكانا أو حدثا فإنها تترك للقارئ حرية تخيل هذا الشخص أو المكان أو الحدث ، وتتيح له محاولة تجسيده بحواسه المتعددة من بصر وسمع ولمس وشم بعد أن يستدعى خبراته الخاصة ويستجمع قدرته على التخيل ، ومن هنا تختلف الصورة النهائية لقراء القصة باختلاف قدرة كل منهم على التخيل والتجسيد (١).

والملاحظ أن للقرآن الكريم أفانين شتى تحكم توزيع الحوار والسرد فى القصص الوارد فيه؛ فطول القصة وقصرها ليس هو العامل الوحيد الداعى إلى بنائها على الحوار والسرد معاً أو إقامتها على السرد وحده ، فقد نجد قصة قصيرة جداً جاءت فى آية واحدة ومع ذلك يختلط فيها الحوار والسرد معاً كقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحِبِّي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحِبِّي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢).

(١) انظر : النقد الأدبي الحديث ، ص ٦٦٩ ، ٦٧١ .

٠ القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا . يوسف الشارونى ص ١٧

(٢) البقرة الآية ٢٥٨

وجاء بعد هذه القصة مباشرة قصتان قصيرتان هما : قصة الذى مر على قرية ، وقصة طير إبراهيم عليه السلام ^(١)، وقامتا على الحوار والسرد معا رغم قصرهما إذ جاءت كل قصة منهما فى آية قرآنية واحدة .

وقد نجد قصة أطول نسبياً من القصص السابقة ومع ذلك تقوم على عنصر السرد وحده ، كقصة داود وسليمان عليهما السلام فى سورة الأنبياء ^(٢) ، وقصة داود أيضاً فى سورة سبأ ^(٣) ، وكهذه القصة التى يظهر فيها إعجاز السرد القصصى القرآنى كأوضح ما يكون قال تعالى :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَأَمْنُوا فَفَتَحْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿ (٤)

إن هذه القصة تؤكد قاعدتين فى غاية الأهمية يمكن أن يفيد منهما كتاب القصة الفنية ونقادها

الأولى : أن الأقصوصة والقصة القصيرة يمكن أن تستغنى عن عنصر الحوار وتقوم على السرد وحده بشرط أن يتمكن الكاتب من اللغة بحيث لا يضطر إلى بتر الحدث القصصى أو تشويهه ، أو الاستغناء عن بعض العناصر القصصية الضرورية ، والحق أن الصحف تطالعنا بكثير من الأقاصيص التى تعتمد على السرد القصصى وحده ، ولكن كثيراً من كتابها تنقصهم مهارة استخدام الوسيلة اللغوية الفنية ، فيأتى الحدث عندهم مجتزأ غامضاً ، وقد تفقد الأقصوصة عند هؤلاء عنصر التشويق فيفقد القارئ اهتمامه بها ويحس أنه إنما يقرأ خبراً لا أقصوصة فنية .

(١) البقرة : الآيتان : ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٢) الأنبياء : الآيات : ٧٨ : ٨٢ .

(٣) سبأ : الآيات : ١٠ : ١٤ .

(٤) الصافات : الآيات : ١٢٩ : ١٤٨ .

الثانية : أنه لا يجوز للقاص أن يصف إلا ما يدعم الحدث الذي اختاره ليدير حوله قصته ، وذلك بأن يتخلى عن كثير من التفاصيل التي لا تفيد القارئ في شئ، وأن يكتفى بالخطوط العريضة التي تحدد ملامح الصورة ، وعلى الأحداث بعد ذلك أن تكمل الملامح إذا كان لابد لها أن تكتمل وهذه القاعدة الفنية واحدة من أهم القواعد القصصية التي اهتدى إليها كتاب القصة في السنوات القريبة الماضية^(١).

وقد رأينا القصص القرآني يسبق إلى هذه القاعدة ويؤكد لها ، ففي قصة "يونس" السابقة تحقيق لبدا الاقتصاد الفني في أروع صوره وبأجمل ما يمكن أن يتحقق ، وذلك بطرح التفاصيل التي لا تعنى القارئ في شئ ، أو التي لا تفيد القصة ، أو التفاصيل التي يمكن إفادتها من خلال الأسلوب القرآني المعجز ، ومن ذلك :

١ - أن القصة لم تذكر السبب الذي من أجله ترك يونس - عليه السلام - قريته وأبقى إلى الفلك ، ولكن يمكن معرفة هذا السبب من الآية الأخيرة من القصة (فأمنوا فمتعهم إلى حين) ؛ إذ إن إيمانهم بعد عودته إليهم^(٢) يفيد أنهم لم يؤمنوا قبل خروجه عنهم وذهابه مغاضبا لهم كما صرحت به سورة الأنبياء^(٣) ، وربما لا تكون في حاجة إلى هذا الفهم البعيد بعض الشئ ، فالنظر إلى الفعل (أبقى) يدل على نوع الخروج الذي كان من يونس - عليه السلام - وأنه خرج دون إذن من ربه - سبحانه - ودون أن يكمل إبلاغ الرسالة التي أرسل من أجلها ، ولذلك عبرت القصة عن خروجه بالإباق وهو هرب العبد من سيده ، ولا يخفى أن هذا الفعل بمدلوله قد ساعد على تحقيق الاقتصاد الفني ، إذ إنه أغنى عن جملة من الوصف .

٢ - أن القصة لم تشر إلى ركاب الفلك من حيث عددهم ولا هيئاتهم ولم تذكر وجهتها ولا شيئاً من هذه الأمور التي لا تؤثر في البناء القصصى ، ولا تفيد القارئ ، وإنما اكتفت بالإشارة إلى أن الفلك مشحون ، أى مملوء ، وذلك يعنى أن القرعة - حين

(١) السرد القصصى في القرآن الكريم ، ص ١٠٦ .

(٢) في الكشف ج٤ ص ٦٢ ، والقرطبي ج٨ ص ٥٥٧٤ ما يفيد أن يونس أرسل إلى أهل نينوى بعد نجته ، وأنهم

هم الذين خرج مغاضبا لهم من قبل

(٣) الأنبياء الآية ٨٧

خرجت على "يونس" من بين خلق كثيرين لكى يلقى به فى البحر - كانت تنبيهها له إلى خطأ خروجه عن قومه بغير إذن ربه .

٢ - لم تذكر القصة وصف الحوت طولاً وعرضاً ، ولكنه مستفاد أيضاً من السياق القرآنى المعجز ، فهو حوت استطاع أن يبتلع رجلاً بأكمله ، وهذا يغنى عن أى وصف مهما دق .

٤ - تتضح قيمة السرد القصصى القرآنى فى أن القصة تريد أن تخلص إلى الغاية من الحدث - مهما كان عظيماً وغريباً - فى لمحة سريعة وبأسلوب معجز ، فلولا أن يونس - عليه السلام - كان من الذاكرين لله المسبحين بحمده لظل فى بطن الحوت إلى يوم البعث ، فالسرعة فى السرد هنا هدفها تأصيل القيمة الدينية من القصة، وهى أن المؤمن إذا كان على صلة وثيقة بخالقة ذاكراً له كانت النجاة من الشدائد والكروب هى المكافأة الربانية له ، ولو أبطل الأسلوب القرآنى وتوقف عند وصف ما كان من يونس وهو فى بطن الحوت ، وما انتاب به من مشاعر وأحاسيس لما برزت هذه القيمة الدينية على هذا النحو المعجب .

٥ - ولا ينبغى أن نغفل عن هذه البساطة التى يتميز بها أسلوب القصة فى سرد الأحداث العظيمة وإيرادها ، فهذه شجرة اليقطين نبتت فجأة وفى سرعة ، وفى بساطة لا تصدر إلا عن رب العالمين - سبحانه - أما كيف نبتت وأين وكيف كان حجمها وشكلها فهذا لا يهم القارئ .

إن قاعدة الاقتصاد الفنى فى سرد الأحداث تنبى كتاب القصة إلى أمر فى غاية الأهمية وهو أن على الكاتب أن يدع لقراءة أموراً وأحداثاً يفهمها هو بنفسه ويتخيلها ، لكى يكون قارئاً مشاركاً بإيجابية فى خلق الجو وتحيل البيئة التى تدور فيها أحداث القصة(١)



إذا كان بعض القصص القرآنى قد بنى على عنصر السرد وحده - كما أشرت - فإن الكثرة الكثيرة من قصص القرآن تقوم على المزوجة بين الحوار والسرد معا فى

القصة الواحدة وإدراك ذلك أمر فى غاية السهولة والبسر ، غير أن الملاحظ أن كل عنصر من العنصرين يأتى فى مكانه المناسب تماماً فى القصة القرآنية ، فالحوار يأتى حين يجمل أن يكن العرض حوارياً ، والسرد يأتى حين يجمل أن يكون تقديم الحدث أو الشخصية سرداً روائياً ، ولا يجوز أن يستبدل أى من العنصرين فى مكانه بالعنصر الآخر ، وفى القصة القرآنية نجد الانتقال من السرد إلى الحوار أو العكس يكون طبعياً وسهلاً ، حتى إن القارئ ربما لا يدرك هذا الانتقال إلا إذا كان واعياً يقطا وتظهر هذه الخصائص واضحة فى القصة التالية :

﴿ واذكر فى الكتب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلما زكيا قالت أنى يكون لى غلم ولم يمسنى بشر ولم أك بغياه قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴾ (١) .

بدأت القصة سرداً روائياً تضمن بعض الأحداث المهمة ، فمريم تركت ديار أهلها وخلت بنفسها فى مكان بعيد ، وبينها وبين أهلها حجاب ، لا تراهم ولا يرونها ، فهى إذا وحيدة فريدة ، ثم هى فتاة خجول يسيطر عليها ما يسيطر على مثلها من المشاعر والاحاسيس ، وخاصة مع انفرادها واطمئنانها إلى هذا الانفراد ، وإن هى تجد أمامها شاباً سوياً ، تام الخلق قوياً فتفزع لما ترى ، وإن كنا نحن نعلم من الأسلوب أنه روح الله جبريل - عليه السلام - فهى لا تعلم إلا أنه رجل ، وهنا يتمثل الخيال تلك الفتاة البريئة التى تربت تربية دينية صالحة ، وكفلها زكريا بعد أن نذرت لله جنيناً ، إنها - لابد - قد اهتزت هزة نفسية عنيفة .

وقد انتقل الأسلوب من السرد إلى الحوار ، وجاءت النقلة طبيعية سهلة ، كأنها الطريق الحريرى الممهّد ، تسير فيه الكلمات طيعة مواتية ، و"مريم" هى التى ابتدأت الحوار ، وجاءت كلماتها معبرة أدق تعبير عن نفسها المذعورة من لقاء هذا الشاب الذى

لا تعرفه ، ولذلك أرادت أن تستثير في نفسه التقوى، ولكنه طمأنها إلى أنه رسول من استعازت به، جاء ليهب لها غلاماً زكياً طاهراً وهكذا يأتى الحدث المعجزة فى جملة حوار على لسان جبريل فى سهولة ويسر ، وفى صراحة وبألفاظ مكشوفة لا تحتتمل التأويل .

وهذه الصراحة من "جبريل" تقابلها صراحة أيضاً من "مريم"؛ فهى والرجل فى خلوة، والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفاً، فما تعرف هى بعد كيف يهب لها غلاماً ، فهى ليست تفجر مع الرجال بغياً ، فهى أبعد ما تكون عن الحمل والولادة ، لأنها لا تتصل بالرجال حلاًلاً أو حراماً^(١) .

ولكن "جبريل" ينهى الحوار بكلمات قاطعة الدلالة على أن ما بشرها به سيكون ، وأن هذا الغلام سيأتى بطريقة غير معتادة ليكون آية دالة على قدرة الله - سبحانه - وأن أمر ميلاده مقضى لا محالة لأن الله قضى بذلك .

ومع سهولة الانتقال من السرد إلى الحوار فى الآيات السابقة نلاحظ أن الحوار على لسان "مريم" جاء معبراً عن شخصيتها أدق تعبير، وأن الحوار وحده هو الأسلوب المناسب لإبراز مشاعرها وأحاسيسها المضطربة ، ولنا أن نلاحظ أيضاً أن ما جاء من حوار على لسان "جبريل" كان يتقدم بالحدث القصصى قدما مع كل جملة ينطق بها ، فى حين أن ما جاء على لسان مريم كان يساعد - فى المقام الأول - على رسم شخصيتها وإبراز عواطفها ، فالحوار واحد ولكنه ينصب على الحدث فى أحد طرفيه ، وينصب على الشخصية فى الطرف الآخر ، ومع التقدم فى الحدث والشخصية معا تتقدم القصة كلها إلى الأمام ، لتبدأ مشهداً جديداً تزوج فيه بين الحوار والسرد على هذا النحو المعجز .

﴿ فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يلىتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . فنادها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً وهزى إليك بجذع النخلة تسقط عليك رطبا جنياً ، فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾^(٢) .

بدأ هذا المشهد - أيضاً - سرداً روائياً ، ولكن الكلمة الأولى منه (فحملته) تحمل

(١) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ، ص : ١٩٧ .

(٢) مريم الآيات ٢٢ - ٢٦ .

المعجزة التي ما كان عقل "مريم" يعرف كيف تحدث، وما كان عقل القارئ - أيضاً - يعرف كيف تكون هذه الهبة التي بشر بها "جبريل" في حوارها السابق مع "مريم"، ولكن ما هو ذا الحمل قد تم، لا نعرف كيف لأن السياق لم يشأ أن يخبرنا، ولكنه ترك فجوة فنية كبرى، تركها للخيال يتخيلها كما يحلو له، حتى تمضي أحداث القصة في سرعة إلى مرحلة التصعيد والتأزم.

ويلاحظ على أسلوب السرد هنا السرعة في إيراد الأحداث وتواليها، فهذه الفاءات الثلاث (فحملته فانتبذت فأجاءها) تدل على توالي الأحداث ووقوعها دون إبطاء، وقد تكون الفاء في (فأجاءها) ذات دلالة في ترجيح ما رآه بعض المفسرين من أن مدة الحمل بعيسى - عليه السلام - لم تستمر إلا ساعات معدودة، بعدها ^(١) جاءها المخاض وكانت الولادة.

وينتقل الأسلوب مرة أخرى من السرد السريع إلى الحوار نقلة لطيفة لا تكاد تحس، وذلك حين قالت "مريم" فيما يشبه النجوى

"يَالَيْتَنِي مِت قَبْلَ هَذَا، قَوْلُهَا هَذَا يَعْرِضُ نَفْسِيَّتَهَا عَرْضًا سَافِرًا وَاضِحًا، فَهِيَ تَعَانِي أَلَامَ الْحَمْلِ وَالْمَخَاضِ مَنفُودَةً وَحِيدَةً، فَلَا عِلْمَ لَهَا بِشَيْءٍ وَلَا مَعِينَ لَهَا فِي شَيْءٍ، ثُمَّ هِيَ تَوْشِكُ أَنْ تَوَاجِهَ الْمُجْتَمَعَ بِأَمْرٍ لَمْ يَأْلَفُوهُ، أَمْرَ الْفَتَاةِ الَّتِي تَلِدُ دُونَ زَوْجٍ، وَبِالْتَّالِي سَيُوَاجِهُهَا الْمُجْتَمَعُ بِالْفُضِيحَةِ، فَالْأَلَامُ الْجَسَدِيَّةُ وَالنَّفْسِيَّةُ الَّتِي اجْتَمَعَتْ عَلَى مَرْيَمَ هِيَ الَّتِي دَفَعَتْهَا إِلَى تَمَنَّى الْمَوْتِ، فَإِذَا هِيَ قَالَتْ: (يَا لَيْتَنِي مِت قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا) فَإِنَّا لَنَكَادُ نَرَى مَلَامَحَهَا، وَنَحْسُ اضْطِرَابَهَا، وَنَلْمَسُ مَوَاقِعَ الْأَلَمِ فِي جَسَدِهَا وَنَفْسِهَا.

لعل تمنى الموت كان خاطراً في نفس "مريم" ترجم عنه لسانها في كلمات مسموعة على الرغم منها، بمعنى أنها لم تكن تخاطب أحداً بهذه الكلمات، ولم تكن تريد أن تبدأ حواراً مع أحد لأنها وحيدة، ولكن المفاجأة العظمى أن الطفل الذي ولد للحظة يناديها من تحتها، ويمهد لها مصاعبها، ويرشدها إلى طعامها وشرابها، ولعلها دهشت طويلاً

(١) انظر: القرطبي، ج ٦، ص ٤١٢١.

والكشاف، ج ٣، ص ١٢.

وذكر ابن كثير أن الفاء تفيد تعقيب كل شيء بحسبه، وأن مريم حملت بعيسى كما تحمل النساء انظر تفسير ابن

كثير ج ٣، ص ١١٦

ويهتت طويلاً قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليسا قط عليها رطباً جنياً .

إنها لابد قد جربت ما أرشدها إليه الصبى لتتأكد على الأقل ، ويطمئن قلبها إلى ما تواجه به أهلها ، ولكن السياق القرآنى لم يتسع لذكر ما يفيد ذلك ؛ لأن معجزة نطق الصبى المولود للحطة تغنى عن التأكيد على ما سواها من معجزات ، ولأن الأحداث هنا تجرى على نسق غير النسق الذى اعتادت أن تجرى عليه فى أذهان البشر أو على أيديهم.

إن القرآن يقدم المعجزة فى كلمات قليلة وبطريقة سهلة يسيرة لا يصاحبها ضجيج ، لأن المعجزة حين تأتى تحمل معها ضجيجها وإثارتها ، ولكن القرآن إكتفى ببيان أن "مريم" التى كانت خائفة مذعورة تتمنى أن تموت أصبحت مطمئنة هادئة واثقة فى نفسها ، لأنها تحمل بين يديها معجزة تشهد ببراعتها حين تواجه قومها :

﴿فأتت به قومها تحمله قالوا مريم لقد جئت شيئاً فرياً يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً . قال إني عبد الله ءاتنى الكتب وجعلنى نبياً وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصنى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبرأ بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلم على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون﴾ (١).

إن دراسة القصة القرآنية فرصة عظيمة للكتاب والنقاد ليتعلموا أين يكون السرد وأين يكون الحوار. إن الكاتب - أى كاتب - يستطيع أن يصنع سرداً وحواراً ، ولكن الكاتب المتمكن وحده هو الذى يستطيع أن يضع الحوار فى مكانه اللائق به من القصة ، وهو الذى يعرف متى يخرج من السرد إلى الحوار ، لأن الدخول إلى الحوار ليس ميسوراً لكل كاتب ، فالكاتب البارع وحده هو الذى يجعل القارئ ينتقل إلى الجزء الحوارى من قصته دون أن يشعر أن هناك نقلة من السرد الروائى إلى السرد الحوارى (٢).

(١) مريم ٢٧ ٣٤

(٢) انظر السرد القصصى فى القرآن الكريم ص ٩٠

لقد جاء المشهد الأخير من القصة تتصدره جملة سرد ، وختم أيضاً بجملة سرد ، وفيما بين الجملتين جاء الحوار ، وكل من السرد والحوار جاء فى مكانه المناسب تماماً .

جملة السرد الأولى هى قوله تعالى عن "مريم" (فأنت به قومها تحمله) وهى تفيد أن مريم جاء قومها وهى تحمل صبيها الصغير بين يديها مجاهرة به قومها غير خائفة ولا وجل ، لأنها اطمأنت - كما قلت - إلى انتصارها عليهم فى المواجهة المنتظرة بينها وبينهم ، وفى تقديم الجار والمجرور (به) ما يوحى بأنها أتت به وحده دون ما سواه من مخاوف ووساوس كانت تتنابها من قبل ، ثم إنها هى التى أتت قومها ولم يأتها القوم فى مكانها ، فهى إذا مهية لمواجهةهم ، وأنها هى التى اختارت توقيت هذه المواجهة .

هذه الجملة الواحدة كافية لتهيئة الجو الجديد فى القصة ، وبعدها يبدأ الحوار ، ولن تبدأه "مريم" كما بدأت فى الموقفين السابقين ، لأنها هنا مطمئنة واثقة بوهناك كانت قلقة خائفة ، هنا هى تريد أن تتلقى الاتهامات من قومها حتى ترد عليهم بهذه المعجزة الإلهية التى تحملها بين يديها ، وفى الموقفين السابقين كانت تريد أن تدفع الأحداث بعيداً عنها لأنها فوق طاقتها وقدرتها .

هذه الجملة كافية لأن "مريم" - وقد تخلصت من الهزات النفسية - ما عليها إلا أن تأتى قومها تحمل صبيها حتى تنتقل هذه الهزات النفسية إليهم هم ، ولذلك ما إن شاهدوها حتى بدعوا حوارهم معها على الفور ، وهنا ينتقل الأسلوب من السرد إلى الحوار ، وقد انطلقت ألسنتهم بالسخرية والتهكم على "أخت هارون" ، وفى تذكيرها بهذه الأخوة مافيه من مفارقة ، فهذه حادثة فى هذا البيت لا سابقة لها ^(١) فى زعمهم ؛ فهى تنمى إلى أبوين معروفين بحسن الخلق وطهارة الذيل .

ولكنها لم ترد على حوارهم معها بل اكتفت بالإشارة إلى الصبي ، ولكنهم أبوا أن يكلموا من كان فى المهد صبياً واستبعاداً منهم أن ينطق ، ولكنها كانت مطمئنة إلى تكرار المعجزة أمام القوم .

وهنا نلاحظ أنهم لم يسألوا "عيسى" - عليه السلام - وإنما نتكلم هوبون أن يسألوا ، فهم إذاً قوم عقلاء لا يتصورون أن يخاطبوا هذا الطفل فى مهده ، فحين تجيبهم المعجزة

يصبح وقعها عليهم عنيفاً مزلزلاً : فإن عقولهم الراسخة الثابتة لم تكن لتقبل هذه المعجزة لو لم يروها بأعينهم " (١)

إننا نحن قراء القصة أو نظارة المشهد نرى أطرافاً ثلاثة لهذا الحوار : طرف يسأل ويطلب الإجابة ممن يملكها وهم قوم "مريم" أو بنو إسرائيل، وطرف ثان يسأل فلا يجيب وهي "مريم" ، وطرف ثالث لا يتوقع منه حوار وهو الطفل في مهده وإن كنا نحن المتلقين نعرف إمكانية صدور الحوار عنه لأننا جربناه من قبل ، ولولا ذلك لوثبنا على أقدامنا فزعاً حين اشتبك في الحوار ، ورد اتهامات القوم عن أمه الصائمة عن الكلام ، ولذا لنا أن نتخيل مقدار الدهشة والعجب الذي أصاب القوم لنطق هذا الصبي الذي لم يمض على ولادته سوى بضع ساعات

إن كل كلمة نطق بها الصبي أمام القوم تحمل جزءاً من أصول العقيدة الصحيحة في جوانبها المتعددة من عبادات ومعاملات واجتماعيات تحكم الناس فيما بينهم ، ثم هو يقرر حقيقتين دار حولهما جدل كبير بين الناس من بعده وخاصة بين أتباعه ، وهما : أنه عبد الله ، أى أنه خلق من خلق الله ، وليس إلهاً كما ادعى المتطرفون من أتباعه ، وأنه يجرى عليه ما يجرى على عباد الله جميعاً من ولادة وموت وبعث .

ثم تأتي جملة السرد الأخيرة من القصة مشيرة إلى "عيسى ابن مريم" بأنه قول الحق ، أى عبد الله حقاً وصدقاً وليس ابن الله كما يقال عنه ، وبهذه الجملة تنفى القصة كل ما أثير من شبهات وتجاوزات حول شخصية "عيسى بن مريم" - عليهما السلام .

قلت - من قبل- : إن أهم ما يميز القصة من المسرحية أن القصة نغتمد على الحوار والسرد معا في تحريك الحدث وتطويره ، وأن المسرحية تعتمد على الحوار وحده ، وإن هذه الاختلاف الأسلوبى جعل من كل من القصة والمسرحية فنا مختلفا عن الآخر ، فى طبيعته وربما فى هدفه المراد منه، طبيعة القصة تسمح للمؤلف أو الراوى أن يتدخل بالوصف والسرد ، ليصف حدثاً أو شخصاً أو منظراً من المناظر ، وطبيعة المسرحية تقتضى المؤلف أن يختفى تماماً بعد أن يضع الحوار على ألسنه شخصيات مسرحيته ليدعهم يؤدون أدوارهم على خشبة المسرح ، وكأن الأحداث التى يعرضونها حقيقية ، ولذا

فالهدف من المسرحية هو استغراق المشاهد فى العمل المسرحى حتى نهايته وقطعه عن واقعه ، أما السرد وتدخل المؤلف بالوصف فى القصة فإنه ينبه المتلقى دائماً إلى الواقع ويمنعه من الاستغراق فى العالم القصصى الذى يتخيله حين يقرأ القصة (١)

إن التسليم بأن القرآن الكريم لا يبغي من اختلاف وسائل العرض القصصى انتاج قصة أو مسرحية بالمعنى الفنى المعروف لا يمنعنا من ملاحظة أن أكثر قصصه يقوم على المزاوجة بين الحوار والسرد كما رأينا فى قصة "مريم" السابقة ، وفى قصة "يوسف" وقصة "موسى" فى "القصص" ، وطه" مما يعنى أن الاسلوب القصصى والأسلوب المسرحى المعتمد على التكتيف وتحقيق روح الحضور فى العرض يتجاوران ويتداخلان معافى القصة القرآنية الواحدة .

وقد ترد القصة القرآنية الواحدة مرة يتغليب روح الحضور فى المشهد ، وتكتيف الحوار كقصة "موسى" فى سورة "الشعراء" ، ومرة بتغليب أسلوب السرد القصصى كقصة "موسى" فى "النمل" و"الزخرف" و"النازعات" .

وقد ترد قصة قرآنية بأسلوب الحوار ، وترد قصة تالية لها فى سورة واحدة بأسلوب السرد كقصتي "شعيب" و"موسى" فى سورة "هود" .

والملاحظ - أيضاً - أن القصة القرآنية حين يغلب على موضوعها الجدل والفكر وتصارع الآراء والمواقف تعتمد على الحوار أو تغلبه على الوصف والسرد وحين يغلب على موضوعها كثرة الحركة فى الزمان والمكان والشخوص فإنها تعتمد على السرد القصصى أو تغلبه على الحوار .

وإذا كانت طبيعة الموضوع لها صلة وثيقة بأسلوب العرض فى القصة القرآنية فإن اختلاف طبائع البشر من زمان إلى زمان، ومن جنس إلى جنس ، واختلاف المؤثرات الأسلوبية لديهم تبعاً لذلك ، كل ذلك له صلة وثيقة أيضاً بتنوع أساليب العرض فى القصص القرآنى ، لأن القرآن أنزل إلى الناس كافة ، أو على الأقل أنزل إلى المؤمنين بالإسلام ، وهؤلاء مختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً ، وما يؤثر فى جنس منهم ربما لا

(١) انظر : الأدب وفنونه ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٩ .

ويدائع الاضمار القصصى فى القرآن الكريم ص : ٢٢١

و المسرحية والقصة دراسة نقدية ، د . أحمد جاد ، ط مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

يؤثر في جنس آخر ، وأن هذا الاختلاف داعية من دواعي التكرار في القرآن ، فجاء القصص بأساليب متباينة ليناسب كل الناس على اختلافهم (١).

يرى نقاد القصة أن الحوار القصصى له مهمتان رئيستان ، الأولى المساعدة في تكوين الشخصية والتعبير عن آرائها ومواقفها ، وإبراز تصارع الشخصيات بعضها مع بعض على صفحات القصة . والثانية : المساعدة على تطوير الأحداث ودفعها قدماً إلى الأمام وصولاً بها إلى الذروة والحوار الذي لا يؤدي وظيفة من هاتين الوظيفتين يعد في نظر الفن غريباً على العمل القصصى (٢).

وبالنظر في القصص القرآني نجد أنه قد سبق النقاد إلى إرساء هذه القاعدة الأساسية وطبقها أحسن ما يكون التطبيق ، وعلى نحو أبدع مما يمكن للكتاب أن يأتوا بمثله .

فالبنسبة إلى الوظيفة الأولى نرى أن الحوار القرآني أسهم إسهاماً فعالاً في رسم معالم الشخصيات الإنسانية بالتعبير عن خواطرهم وآرائهم ومواقفهم ، عن طريق الحكاية عنهم ، ونقل أقوالهم نقلاً أميناً لا مبالغة فيه ولا افتعال ، فصاغ معانيها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لأعلى الصيغة التي صدرت فيها ، إذا كانت هذه الشخصيات من غير أهل اللسان العربي ، وهذا يعني أن الإعجاز البياني للأقوال المحكية إعجاز للقرآن وليس لتلك الأقوال ، فما نقله القرآن عن هؤلاء يعد ترجمة كاملة لا نقص فيها ولا زيادة ، وترجمة دقيقة لا تحريف فيها ولا اختلال ، لأنها من خالق اللغات - سبحانه - صدق الله إذ يقول : ومن أصدق من الله حديثاً (٣).

وفي المبحث السابق ظهر بوضوح دور الحوار القرآني في تقديم الشخصيات ورسم معالمها من خلال عرض عدد من الشخصيات في القصص القرآني ، وأضيف هنا بعض اللامحات الكاشفة بما يزيد الأمر وضوحاً وبياناً .

(١) انظر : بدائع الاضمار القصصى في القرآن الكريم ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٢) انظر : فن القصة ، د. محمد يوسف نجم ، ص ١١٩ .

و : القصة من خلال تجاربي الشخصية ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٣) انظر : اللآلئ الحسان في علوم القرآن ، د. موسى شاهين لاشين ، مطبعة دار التأليف ١٩٦٨م ص ٣١٠ .

و : سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ٤١١ .

لقد أفاض القصص القرآنى فى بيان معالم شخصيات بنى إسرائيل ، قوم موسى - عليه السلام- وأظهر بوضوح صفات التجبر والعنف وملازمتهم للشقاق على أنبيائهم بولعل قصة البقرة التى أمروا بذبحها والحوار الذى دار بينهم وبين موسى خير ما يكشف عن شخصيتهم هذه ، وقد مر بنا من قبل .

ولكن لهم حوارات أخرى مع "موسى" تكشف عن معدنهم الخبيث، وتؤكد ما طبعوا عليه من شقاق وعناد ، ومنها هذا الحوار الذى دار بينهم وبين موسى فى أخريات حياته معهم ، قال تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِن فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾ (١)

تبدو فى هذا الحوار حكمة "موسى" - عليه السلام - وتلطفه مع قومه فى إلقاء الأمر عليهم بدخول الأرض المقدسة، وهذه الحكمة اكتسبها "موسى" من طول مصاحبته لهؤلاء القوم، وكثرة معاناته منهم ، واختلافهم عليه ، فقد أراد أن يوطئ نفوسهم لاستقبال الأمر بقوة وعزيمة فذكرهم ببعض نعم الله عليهم ، ومنها أنهم أكثر خلق الله استقبالا للأنبياء ، وأن الله أنقذهم من خدمة المصريين وجعلهم يملكون أمرهم ، وآتاهم من النعم ما لم يُوْتِ أَحَدًا من أهل زمانهم ، والذى دفعه إلى هذه التوطئة ومحاولة شد عزائهم أنه يعرف خصالهم وطبائعهم من سابق عهده بهم ، وشدة غنتهم له وجراتهم عليه .

ولما ظن أنهم وعوا مقالته، وتذكروا نعم الله عليهم ألقى إليهم الأمر بدخول الأرض المقدسة ، وبين لهم أن هذا الأمر من الله - تعالى - ، وأن الله قدر عليهم أن يدخلوا هذه

الأرض بالذات ، ثم حذرهم أن يعودوا سيرتهم الأولى معه فى النكوص عن تنفيذ أوامر الله - سبحانه - فينقلبوا على أعقابهم ويرتدوا على أدبارهم فيصبحوا من الخاسرين .

ونلاحظ أن بسط الحوار من جانب "موسى" على هذا النحو يناسب شخصية بنى إسرائيل ، الذين لا يكفى معهم إلقاء الأمر مختصراً ، مجرداً مما يحض على المسارعة إلى تنفيذه ، لأنهم أبعد الناس عن سرعة الامتثال لأوامر الله ولأوامر أنبيائهم وليسوا كأصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - كما سنرى بعد .

ورغم هذا البسط والتفصيل من "موسى" نجد ظلمهم وفسقهم وبشاعتهم فى حوارهم مع نبيهم ، فقد جاهره بالرفض القاطع الحاسم لتنفيذ الأمر بدخول الأرض المقدسة ، متعللين بشدة بأس أصحابها وقوتهم البادية فى طول أجسامهم وضخامتهم ؛ وهذا يبين جبن بنى إسرائيل فرقهم من الجبارين سكان الأرض المقدسة لمجرد أنهم طوال الأجسام ، فالجرب بينهم وبين هؤلاء محسومة لصالح الجبارين ، ولكن بنى إسرائيل يراوغون موسى - عليه السلام - إذ يبدون استعدادهم لدخول الأرض المقدسة سلماً لأحرباً ، أى أن يسلمها لهم الجبارون ، بأن يخرجوا منها ليدخلوها هم .

ومن العجيب أن حياة "موسى" مع بنى إسرائيل لم تثمر الثمرة المرجوة منها فى هؤلاء القوم ، إذ لم تتمخض هذه الحياة سوى عن رجلين فقط كانا يخافان الله ، ويعلمان أن وعد الله بالنصر لبنى إسرائيل إذا قاتلوا الجبارين حق ، رجلان فقط من بنى إسرائيل أنعم الله عليهما بالإيمان الكامل بموسى وبدعوته وبصدق وعد الله له ، أما بقية القوم فإن إيمانهم ناقص ، وقتلويهم منكراً أو متشككة فى تأييد الله لنبيه ، ولذلك لم يلتفتوا إلى نصيحة الرجلين اللذين أنعم الله عليهما ، بل بلغ بهم الفسق والمجون حداً بشعاً ، دفعهم إلى أن قالوا مقاتلتهم الشنيعة : (إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ، ولهذه الجرأة منهم على الله ورسوله أنزل الله بهم عقوبة التبه ، فظلوا فى أماكنهم من الأرض جبارى أربعين سنة ، يصبحون حيث أمسوا ، ويمسون حيث أصبحوا (١) .

لقد كانت هذه المقالة الشنيعة من فساق بنى إسرائيل عمدة الموقف بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين أصحابه يوم غزوة بدر ، إذ قفزت هذه المحاوره بكل ما فيها من شقاق وعنت إلى أذهان المسلمين الأوائل ، يوم خرج الرسول وأصحابه

(١) انظر : تفسير القرطبي ، ج ٤ ، ص ٢١٢٦ .

للاستيلاء على غير قريش بقيادة "أبى سفيان بن حرب" ففاتهم ، وعلم رسول الله أن ليس من الحرب بد ، فاستشار أصحابه ، فجاءت مقالة المقدادين الأسود للرسول على النقيض تماماً من مقالة بنى إسرائيل لموسى ؛ إذ قال : يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : (إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههما فاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق نبيا لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من نونه حتى تبلغه^(١) . ، "فعمت بنى إسرائيل - كما وصفه القرآن - قفز إلى الموقف المشهود يوم بدر ، ليؤدى دوره فى تربية الرعيل الأول من المسلمين ، ولولا ما لمسوه من أوصاف بنى إسرائيل التى برزت من خلال حوارهم مع موسى ما وردت القصة إلى أذهانهم"^(٢).

لقد انتهى حوار موسى مع بنى إسرائيل بوصول أحداث القصة إلى ذروتها ، ثم كانت نهاية القوم بالدخول فى التيه عقوبة لهم ، وهى العقوبة التى دامت بهم بعد موت موسى وهارون - عليهما السلام - حتى أرسل الله لهم نبياً ، أذن لهم بالخروج من التيه على يديه ، فطلبوا من هذا النبى أن يعين لهم ملكا يقاتلون تحت إمرته ، ويدخلون الأرض المقدسة ، فأخبرهم بأن الله بعث لهم طالوت ملكا ، ولكنهم عابوا من جديد إلى الخلاف والشقاق والعنت لنبينهم ، ولم يسلموا بأمر الله - سبحانه - ودار بينهم وبين نبيهم هذا الحوار بشأن الملك المبعوث إليهم .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٣).

إن القوم هم الذين طلبوا من نبيهم أن يعين لهم شخص الملك الذى سيقاثلون تحت إمرته على ما هو مفهوم من قوله تعالى فى بداية هذه القصة : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير و تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين ط دار الريان للتراث ط الأولى ١٩٨٨م ج ٢ ص

٢١٦ .

(٢) بدائع الإضممار القصصى فى القرآن الكريم ، ص ١٠٩ .

(٣) البقرة : الآية : ٢٤٧ .

إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١﴾ .
 ورغم ذلك كان العناد والشقاق منهم ، ورغم أن النبي لم يعينه من تلقاء نفسه وإنما عينه
 بوحى من الله - سبحانه - نراهم يعترضون - أيضاً - ويتعجبون من اختيار أحد
 الفقراء ملكاً عليهم رغم أن هذا الاختيار من الله - سبحانه - وهم يرون أنهم جميعاً
 أحق بالملك ممن اختاره الله ، لأنهم - يزعمهم - يملكون مقومات الملك وهو الغنى والمال .
 إنهم يعترضون على أمر الله ولا يبالون به ، ورغم أنهم - فى ذلك الوقت الذى
 وقعت فيه المحاورة - كانوا ينفذون عقوبة النية لإجترأ أسلافهم على موسى كما بينت فى
 المحاورة السابقة ، فهم لا ينتصحوون ولا يتعلمون من دروس التاريخ ، ولذلك اضطر نبيهم
 إلى أن يبين لهم مقومات اختيار طالوت بالذات ملكاً عليهم ، وهو أنه على علم متين بأمور
 الحرب والقتال ، وأنه أوتى بسطة فى الجسم ، وذلك يضيف عليه كثيراً من المهابة
 والعظمة (٢) .

إن القرآن الكريم لم يقل لنا إن بنى إسرائيل أهل شقاق وعنت وعناد ، ولكنه ترك
 كلامهم ينبئ عنهم ، ويبين مقدار ما سببوه لأنبيائهم من عنت وإرهاق ، وإن حوارهم مع
 أنبيائهم ناطق بأوصافهم مظهر طبيعتهم المتبجحة ، ومعدنهم الخبيث ، ومثل هذا الحوار
 الناطق المصور أبلغ فى الدلالة على طبيعة الشخصية من الوصف مهما دق .

إن بنى إسرائيل ظلوا على عنادهم وخلافهم على أنبيائهم الكثيرين الذين بعثوا
 إليهم بعد موسى ، حتى جاءهم آخر أنبيائهم ، "عيسى بن مريم" - عليه السلام - واتبعه
 خلق منهم وآمنوا به ، واصطفى عيسى منهم فرقة جعلهم حواريه وخلصاءه ، فكانوا
 يمثلون صفوة الصفوة من بنى إسرائيل، ورغم ذلك نجد هذه الصفوة المنتقاه تنهج نهج
 الأسلاف القدامى ، وتسال عيسى بعض الأشياء الغريبة التى تجعله يتأذى منهم ويشك
 فى إيمانهم وإخلاصهم له ، إنها قصة المائدة كما سجلها الحوار التالى :

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ
 (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ

(١) البقرة من الآية ٢٤٦ .

(٢) الكشف ج ١ ، ص ٢٩٢

السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَتَكُونُ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾

إن من العجب حقا أن يسجل الأسلوب القرآنى على الحواريين شهادتهم لأنفسهم بحسن الإيمان بالله وبرسوله ، وإشهادهم على أنفسهم بالإسلام قبل أن يبدأ حوارهم مع رسول الله عيسى بن مريم، حتى إذا جاءت أولى كلمات الحوار ناضحة بالشك فى إيمانهم^(٢) كانت المفارقة عجيبة والتناقض واضحاً بين ما ادعوه لأنفسهم وما توحى به كلماتهم إنهم يطلبون من عيسى بن مريم هذا الطلب الغريب بأسلوب يدل على نقص إيمانهم رغم أنهم على بعد كلمات يسيرة من شهادتهم لأنفسهم بالإيمان الحسن .

إنهم يسألون عيسى ابن مريم بقولهم : (هل يستطيع) وكأنهم فى شك من قدرة الله سبحانه ، ويقولون (ربك) وكأنه رب عيسى وحده ، لا ربهم هم أيضاً ، ثم يريدون أن تنزل المائدة عليهم هم لا على عيسى ، يتلقونها ويأكلون منها ! لذلك كله رد عيسى على طلبهم الغريب بقوله (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى لا تشكوا فى قدرة الله تعالى إن كنتم حقا من المؤمنين به وبما جئت به من عنده ، فقد جاعكم من الآيات ما فيه غنى^(٣) .

ومن المعجب - أيضاً - فى الأسلوب القرآنى المعجز ما بين عجزى الآيتين الأوليين من اختلاف ؛ فالحواريون قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ، أى أنهم ادعوا لأنفسهم بالإيمان ، وأشهدوا الله أو أشهد رسولهم على أنفسهم بالإسلام ، فكانهم حققوا الإيمان بقلوبهم كما حققوا الامتثال بحوارجهم ، وفى عجز الآية الثانية يشك عيسى فى إيمانهم ، كما أن طلبهم المائدة بالسننهم بهذا الأسلوب الخاطئ يتنافى مع إسلامهم وامتثالهم ، فكان كلا من الإيمان والإسلام لم يسلم لهم .

(١) المائدة الآيات ١١١ - ١١٥ .

(٢) انظر الكشف ج ١ ، ص ٦٩٣ .

(٣) انظر القرطبي ج ٤ ، ص ٢٤٦١ - ٢٤٦٣ .

ولو أنهم وعوا ذلك ما تماردوا في حوارهم مع رسول الله "عيسى بن مريم"، ولكنهم راحوا يعللون طلبهم المائدة بجملة أسباب ، بعد أن نهوا عن ذلك، فقالوا نريد أن نأكل منها ، وكأنهم تذكروا أسلافهم في عهد "موسى" إذ كان يأتيهم المن والسلوى ، فيأكلون ويشربون ، دون جهد منهم ، فأرادوا أن يكونوا مثلهم ، وتطمئن قلوبنا ، إلى أن الله تعالى بعثك إلينا نبيا ، ونعلم أن قد صدقتنا بأنك رسول الله (١) ، ونكون عليها من الشاهدين لله بالوحدانية(٢) ولك بالنبوة .

إن جملة هذه الأسباب التي أبداها الحواريون تؤكد أن إيمانهم في حاجة إلى تمحيص رغم أنهم خلصاء نبي الله عيسى وأنصاره إلى الله، وقد طلب المائدة لهم ، فوعده الله سبحانه بإنزالها مع الوعيد لمن كفر بعدها أن يعذبه عذاباً لا ينال مثله أحد من العالمين .

إن هذه المحاورات الثلاثة التي كان بنو إسرائيل طرفا فيها تبين إلى حد كبير صفات هؤلاء القوم، وتظهر بوضوح أن الطريقة التمثيلية المعتمدة على الحوار في تقديم الشخصية هي الطريقة المفضلة في قصص القرآن الكريم ، وهي الطريقة الغالبة فيه أيضاً .

إن الحوار حين ينهض برسم الشخصيات يساعد على بيان انفعالاتها ، وإبراز مشاعرها ، وتصوير ملامحها ، لأن الشخصية هي التي تتحدث عن نفسها ، وتقدم صورتها للقارئ واضحة لا غموض فيها ولا تشويه ، كما أن الجملة الواحدة من الحوار قد تحمل من ملامح الشخصية وانفعالاتها ما لا يحمله الوصف المسهب المطول .

أما الوظيفة الثانية للحوار وهي المساعدة في تقديم الحدث وتطويره فتبدو بوضوح في هذه الحلقة من قصة إبراهيم - عيه السلام - يقول تعالى .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ

(١) السابق : ج٤ ، ص ٢٣٦٤ .

(٢) انظر : الكشف : ج١ ، ص ٦٩٣ .

بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾
 وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جَذَاذَا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ
 لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا
 فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ
 ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ
 إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ
 نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
 مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَلِكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
 ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا
 وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

إن هذه المحاوراة الطويلة نسبياً عبارة عن مشهد واحد، وقع في مكان واحد باستثناء حادث الإحراق بالنار في الآية قبل الأخيرة، وقد حدث في المشهد عدة تغيرات من دخول أشخاص إلى ساحة المكان وخروجهم منها، وعودتهم إليها على ما سيتضح بعد، وسيطر الحوار على هذا المشهد سيطرة شبه كاملة، فالحوار هو المحرك الأساسي للأحداث باستثناء بعض الجمل السردية التي لا بد منها، والتي جاءت قصيرة جداً حتى لا تقطع تسلسل الحوار وانسيابه، وفي مقابل هذه الجمل السردية القليلة المذكورة نجد أن السياق القرآني قد حذف من السرد والوصف أضعاف ما ذكر حتى يحقق للمشهد روح العرض، وحتى يؤدي الحوار دوره في الوصول بالأحداث إلى ذروتها، وصولاً بالقصة إلى نهايتها.

تمثل المواجهة بين "إبراهيم" وقومه أساس البناء في هذا المشهد، تمر هذه المواجهة بثلاث مراحل متعاقبة، في كل مرحلة تختلف قوة كل من الطرفين المتصارعين، فمرة يحدث ما يشبه التعادل في القوة، ومرة يحدث ما يشبه الانقلاب في صالح قوة الخير

التى يمثلها "إبراهيم"، ومرة ثالثة يحدث ما يشبه السيادة للقوة الأخرى، وفى النهاية تأتى النتيجة على عكس ما تظن قوة الطيش والبغى، وفى هذه المراحل المتعاقبة للصراع كان الحوار هو العنصر السائد والمحرك الأساسى للأحداث

فى بداية المواجهة نرى نوعاً من الهدوء فى تصعيد الحدث، لأن طرفى الصراع شبه متعادلين أو متكافئين، برغم أن "إبراهيم" - عليه السلام - كان فرداً فى مقابل جماعة كثيرة العدد، ولكنه فرد يحمل العقل والعلم والرشد، وهم جماعة يتصفون بالسفاهة وضعف العقول، ولأنه يعرف موطن الضعف فيهم فإنه يجابهم بما يسفة أحلامهم ويظهر سوء اختيارهم للآلهة التى يعبدونها من أول كلمات الحوار، فقد سمي ألهمهم بأسمائها الحقيقية وهى التماثيل، ويسأل: ماهذه؟ وكأنه لا يعرف ما هذه التماثيل، ولكنه نوع من الاستنكار الرائع والسخرية الهادئة المتأبىة، ولذلك انطلت الحيلة على القوم فراحوا يشرحون له سبب عبادتهم لها، وهو يتلخص فى أنهم ورثوا عبادتها عن آبائهم.

وبذلك أعطوه الفرصة لى يبين لهم أن التقليد ومتابعة الآباء على هذا النحو إنما هو الضلال المبين، لأنهم ألغوا عقولهم وعطلوها، كما أن آباءهم أسأوا الاختيار من قبل إذ عبدوا أصناماً لا تنفع ولا تضر، ولا تستطيع أن تدفع الأذى عن نفسها.

ورغم هذه المعانى الواضحة فى حوار "إبراهيم" نرى القوم لم يفتنوا إلى مرامية؛ ولذا سألوهم فى غياب شديد: أهذا الذى جئتنا به حق وجد أم هزل ولعب؟ ومتى كان هدم عقائد القوم التى يقدسونها ويحرصون عليها لعباً وهزلاً؟ ولكنه ضعف العقول حين يصيب الرجال فيفقدهم رشدهم، ومتى عرفوا عن "إبراهيم" الهزل فى القول والميل إلى اللعب واللهو! ولم يجب "إبراهيم" عن سؤالهم المستفز، لأن جانب الحق واضح فى كلامه، ولكنه عرض عليهم البديل الصحيح فأرشدهم إلى أن ربهم هو رب السماوات والأرض، وأنه من الشاهدين على ذلك الموقنين به.

إلى هنا يبدو أن "إبراهيم" قد استنفذ جهده ووقته فى محاولة إقناع القوم بأن ما هم عليه باطل، ولذا نراه يببى فى نفسه أمراً يخفيه عن القوم، ويخبرنا به نحن نظارة المشهد، وهو عزمة على تحطيم الأصنام، ليثبت لهم أنها لا تستطيع أن تدفع عن نفسها

الأنى ، وقد دفعه إلى ذلك الجمود الذى أصاب الحوار معهم ، إذ لم يعد مجديا ، وإبراهيم يريد للأحداث أن تتصاعد وتنمو على أى وجه ، ويريد لها أن تنتهى إلى أية نتيجة مهما كانت .

إن الأقرب إلى القبول أن "إبراهيم" قال : (وتالكه لاكيدين أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) فى نفسه ، ولم يعلن بها القوم ^(١) ، ولكن روعة القرآن أنه لا يقول وأسر "إبراهيم" فى نفسه، أو قال "إبراهيم" فى نفسه ، وإنما أنتقل السياق من الحوار المعلن إلى الحوار الذاتى ، دون أية إشارة، معتمداً على ذكاء القارئ ، الذى لا يمكن أن يتصور أن "إبراهيم" سيعلن قومه بأنه سيحطم آلهتهم ، كما أن مجريات القصة بعد ذلك تدلنا على أن القوم لم يكونوا يعلمون بما أزمع "إبراهيم" بشأن الأصنام ، ولكنهم تذكروا فقط جداله معهم بشأنها ، ولذا قالوا "سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم" وليس من الممكن عقلا أن يسمع القوم تهديد "إبراهيم" بالكيد لأصنامهم دون أن يحرسوها ، خشية أن ينفذ تهديده .

ومن روعة القرآن الأخاذة أن ينتقل الأسلوب من الحوار الداخلى إلى السرد الذى يحمل الحدث الأكبر والأهم فى القصة ، هكذا فجأة وبدون توقع من القارئ ، الذى يفاجأ بأن "إبراهيم" قد نفذ ما بيته فى نفسه ، ومن الروعة أيضاً أن يرد هذا الحدث الكبير فى هذه الجملة القصيرة السريعة ، والروعة هنا تكمن فى أن إبراهيم قد حطم دين القوم بهذه الجملة البسيرة ، والقارئ لا يمكن أن يتصور وصفا للحدث إلا بهذه الجملة ، لأنها إن طالت فقدت قوتها وترفعها ورهبتها ^(٢) .

ثم ينتقل الأسلوب من السرد القصير إلى الحوار مرة أخرى ، وذلك لكى يترك الحدث للحوار يحركة ويصعد به نحو قمته فى سرعة لاشك أن السرد كان سيحد منها ، إن الأسلوب لم يقل لنا إن القوم ذهبوا إلى معبدهم أو إلى بيت الأصنام ، ورأوها محطمة ، فدهشوا لذلك ، وفكروا فيمن يكون قد فعل ذلك ، ولكنه تجاوز ذلك كله وربما ماهو أكثر

(١) انظر : الكشف ج ٣ ، ص ١٢٣

و : السرد القصصى فى القرآن الكريم ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

و : بدائع الإضممار القصصى فى القرآن الكريم ص ١٩٧ .

(٢) انظر : السرد القصصى فى القرآن الكريم ، ص . ٤٤ .

منه لكى يقفز فوراً إلى نتيجة تشاورهم ويحثهم عن الفاعل ، وقد عرفوا أنه "إبراهيم" ذلك الفتى الذى سمع يعيب آلهتهم . ومن السخرية المرة فى كلامهم أنهم ما زالوا يطلقون على أصنامهم لفظ الآلهة حتى بعد أن صارت جذاذاً .

ومن اليسير أن يدرك القارئ أن القوم كانوا خارج المكان حين حطم "إبراهيم" الأصنام بدليل أنهم فوجئوا بتحطيمها ، ولكن السياق حذف السرد الذى يفهم منه ذلك اطمئناناً إلى أن الحوار وحده كفى بالدلالة على ما حذف . ومثل ذلك ما حذف من السياق بين قولهم بعضهم لبعض (قالوا) فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون وقولهم فى خطاب إبراهيم :

(قالوا أ أنت فعلت هذا بآلهتنا بإبراهيم)

إذ من الواضح أن "إبراهيم" كان خارج المكان حين دخل القوم ، فأرسلوا من يأتيهم به، وانتظروا حتى جاءوا، ثم بادروه بقولهم هذا، وفى الحوار دلالة قوية إلى المحذوف ، سواء فى قولهم "فأتوا به" ، وفى قولهم مخاطبين إياه بعد قدومه : "أ أنت فعلت" والحذف هنا يحقق الحضور فى العرض؛ أى استقلال الحوار بالحدث وتبعييده، وأن التغير الذى طرأ على المشهد هو دخول إبراهيم (١).

لقد حرك "إبراهيم" الأحداث بتحطيمه الأصنام ، فأخذ الحوار شكلاً آخر ، إذ خرج من الجمود الذى أصابه فى المرحلة الأولى من المواجهة ، إنه ترك كبير الأصنام سليماً ولم يمسه بسوء ، ليكون رجوع القوم إليه دليلاً على سفاهتهم ، ولذا أجابهم بأن كبيرهم هو الذى حطمها، فأسألهم إن كانوا يملكون رداً على سؤالكم ، إنها سخرية تعتمد على المنطق والعقل ، لأنه يريد أن يقول لهم إنكم تعتقدون أنهم آلهة ، فهى إذا تحيا وتسمع وتعقل ، فلماذا لا يكون كبيرهم هو الذى حطمهم ، وقد فعل هذا المنطق فعله فى نفوس القوم للحظات، فرجعوا إلى أنفسهم متهمين إياها بالظلم ، يربون على اتهامهم من حطم الأصنام من قبل حين قالوا "من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظلمين" واتهامهم أنفسهم بالظلم يظهرهم وكأنهم ثابوا إلى رشدهم ، وفى هذه اللحظة حدث ما يشبه الانقلاب فى المواجهة لصالح "إبراهيم" الذى يمثل قوة الخير والرشد فى المحاوراة . ولكن هذا الانقلاب لم يدم طويلاً ؛ فسرعان ما عاد القوم إلى حالة الانقلاب التى كانوا عليها من قبل

(١) انظر : بدائع الإضممار القصصى فى القرآن الكريم ، ص ١٩٩ .

والتعبير القرآنى هنا مصور أبلغ تصوير (ثم نكسوا على رؤوسهم) وكأنهم اعتدلوا للحظات ثم انقلبوا مرة أخرى) .

ويستغل "إبراهيم" لحظة الانقلاب هذه ليعلن تضجره وتأففه من رجوعهم إلى عبادة الأوثان ، بل من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم، ووضوح الحق وزهوق الباطل والضجر هنا ليس منصبا على القوم فقط، وإنما على أصنامهم أيضاً ، لأنها أكبر دليل على فقدان القوم لعقولهم .

وفي المرحلة الثالثة من المواجهة تميل القوة إلى جانب معسكر البطش الممثل في قوم "إبراهيم" ، ولكن هذه المرحلة تمر سريعاً حتى تصل القصة إلى نهايتها المرجوة بأخصر لفظة وأوضح بيان .

(قالوا حرقوه وانصروا ءالهنكم إن كنتم فعلين)

(قلنا ينار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم)

والآية الأخيرة هي الآية الوحيدة في المحاورة التي خرجت عن وحدة المكان ، لينتهى المشهد الأول الطويل الذى دارت أحداثه فى بيت الأصنام، ويبدأ مشهد جديد فى مكان بعيد اختاره القوم لإشعال النار وإحراق "إبراهيم" ، ومن الواضح أن بين المشهدين فجوة كبيرة ، إذ حذف السياق كل ما بين المشهدين كاستعداد القوم لإعداد النار وجمع الحطب لها ، ولا شك أن ذلك استغرق مدة زمنية طويلة ، ويلاحظ أن الانتقال تم من نهاية المشهد الأول إلى نهاية المشهد الثانى مباشرة ، لياتينا بما يطمئن على "إبراهيم" ، لأن طاقة الإنسان محدودة وصبره قليل ، إذ كيف يصبر الإنسان على مشاهدة كل هذه الفظائع ، دون أن يشفق على هذا الفتى من مثل هذا المصير المؤلم .

لقد ظن القوم أن هذه النهاية ستكون حاسمة ، ولكن القوة الغبية التى كان "إبراهيم" ينتصر لها أخرجته من هذه المحنة ، لتنتهى القصة بعكس ما كان يظن لها عندما تعقدت أحداثها (١) .

إن من أهم ما يلحظ على الحوار فى القصص القرآنى أن كل كلمة ، وكل جملة ترد

فى الحوار على لسان شخصية من الشخصيات إنما تعبر عن هذه الشخصية، وعن مشاعرها ، وذلك هو ما يعرف بذاتيه الحوار ، فما يرد على لسان الشخصية هو ترجمة أمينة وصادقة عما فى ذاته هو، وليس عن ذات أحد آخر غير ذات الناطق بالحوار .

وهناك كثير من الأدلة الصادقة التى توضح هذه الذاتية منها :

أولاً : أن الحوار الذى يرد على لسان شخصية ما يختلف عن الحوار الذى يرد على لسان الشخصية نفسها إذا تغير الطرف الآخر من طرفى الحوار ، والسبب فى ذلك أن تغير أحد طرفى الحوار يعطى للموقف القصصى أبعاداً أخرى ، تنبع من اختلاف لون الصراع ، ومدى احتدامه بين الطرفين المتحاورين، ويتضح ذلك حين نوازن بين حوار "إبراهيم" السابق مع أبيه وقومه بشأن الأصنام ، وبين حوار مع أبيه فى سورة "مريم" ومنه قوله تعالى :

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ١﴾

إن أوضح ما يتميز به هذا الحوار من - جانب إبراهيم - هو هذه اللهجة الحانية التى يحدث بها أباه ، الذى تربطه به لحة النسب ، ويبدو هذا الحنان فى ألفاظ الحوار ، وفى أسلوب "إبراهيم" - عليه السلام - الذى نادى أباه أربع مرات بقوله : (يأبت) ، ثم إنه يزجى إليه النصحية مرة فى صورة استفهام (يأبت لم تعبد) ، ومرة بترغييه فيما عند ولده من علم اختصه الله به ، ومرة بنهيه عن عبادة الشيطان ، ومرة رابعة بإعلان خوفه العاطفى على أبيه أن يناله عذاب من الرحمن ، واختيار أسم الله (الرحمن) بالذات هنا يحمل شحنات قوية من الرجاء فى رحمة الله - سبحانه - حتى لا يكون فى نفس الأب أدنى ذرة من اليأس من رحمة الله .

إننا على ذكر من أسلوب "إبراهيم" فى محاورته قومه فى سورة الأنبياء والتى وقفنا

معها سلفاً ، ومن الواضح أن ما فيها من سخرية موجهة إلى قومه وإلى ما يعبدونه من أصنام لا نلمح أى أثراً لها هنا ، فى محاورته مع أبيه . كما وصل استهزاء "إبراهيم" بالآلهة قومه إلى حد أنه حطمها وجعلها جذاذاً ، وفى محاورته مع أبيه لا نجد أى أثر للانفعال أو العنف ، بل على العكس تماماً ، نجد أن رحمة إبراهيم تزداد بأبيه مع عنفه معه ، وتهديده بالرجم . ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (١)﴾ .

إن "إبراهيم" كان يمثل ذاته وشخصيته ويعبر عن مشاعره هو فى كل من الحوارين ، واختلاف الأسلوب ناشئ من إختلاف الطرف الآخر الذى يحاور "إبراهيم" - عليه السلام - فالموقف مختلف ، ولون الصراع أيضاً مختلف ، الموقف فى حوار مع قومه ناشئ من الجدال حول الأصنام التى يعبدونها ، فكان على إبراهيم أن يبين لهم زيف هذه الأصنام وعدم نفعها ، بالحوار الساخر تارة وبالتحطيم تارة أخرى ، أما موقفه مع أبيه وإن كان يتصل بالعقيدة أيضاً ، إلا أن لعاطفة النسب بين المتحاورين دوراً فى تخفيف حدة الصراع بينهما ، ولذلك لا نرى تصعيداً كما فى الحوار الآخر ، وإنما اكتفى "إبراهيم" بهجران أبيه واعتزاله ، ورضى أبوه برحيله عنه ، ذلك الرحيل المصحوب بالسلام والوعد باستغفار الابن لأبيه .

إن المقصود بالذاتية فى الحوار يتضح هنا إذا قلنا إن حوار "إبراهيم" مع أبيه لا يصح أن يوضع مكان حوار مع قومه بشأن الأصنام ، وحواره مع قومه لا يصح أن ينقل فى مكان حوار مع أبيه ، لأن لكل حوار موقفاً يناسبه ، كما أن لكل موقف حواراً يناسبه ، وكذلك لكل شخصية حوار يناسبها حالة تلبسها بموقف معين .

ثانياً : إذا كان "إبراهيم" - عليه السلام - قد اختلف حوار مع أبيه عن حوار مع قومه مع أنهم - الأب والقوم - ينتمون إلى مجتمع واحد تحكمه عادات وقيم اجتماعية وخلقية واحدة ، فإنه من باب أولى أن يختلف الحوار إذا اختلف طرفاه معاً ، فما يرد على لسان نبي من الأنبياء يختلف عما يرد على لسان غيره ، لأن لكل حوار مقوماته التى يستمدّها من الشخصيات المتحاورّة ، ومن ظروف المجتمع الذى تعيش فيه هذه الشخصيات .

ويتضح ذلك من الموازنة بين حوار "نوح" - عليه السلام - مع قومه وحوار "شعيب" - عليه السلام - مع قومه ، وجاء الحواران معا في سورة هود .
قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِبْدِهِ فَهِيَ عَلَىٰكُمْ أَنْزِلُكُمْ مِنْهَا وَانْتُمْ لَهَا كَاِرْهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣)﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي

وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتَهُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ
مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا
شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا
أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ
ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)

هاتان المحاورتان تعدان من أكثر المحاورات جدالاً في القصص القرآني ، وهما
أيضاً من أغنى المحاورات القرآنية في الأخذ والرد ، والتدافع بين المتحاورين ، وبين
المحاورتين بعض أوجه الاتفاق وبينهما أوجه اختلاف متعددة توضح شخصيات
المتحاورين ، والفروق بينها من الناحية النفسية والناحية الاجتماعية التي يمثلها محاورو
كل من النبيين ، وتنعكس هذه الفروق على أسلوب كل من طرفي المحاورتين ، "نوح"
والملا من قومه في الأولى ، و"شعيب" وقومه في الثانية .

إن أول ما يلاحظ على المحاورتين هو اختلاف الوظيفة الاجتماعية لمحاورى كل من
"نوح" و "شعيب"؛ فالمحاورون مع "نوح" هم سادة القوم، والمحاورون مع "شعيب" هم عامة
قومه، ولذلك نجد أن دقة التعبير القرآني تبرز التقارب الاجتماعي بينه وبينهم بذكر كلمة
الأخوة (وإلى مدين أخاهم شعيباً)، وفي المقابل لانجد لفظ الأخوة في مقدمة قصة "نوح"
بل اكتفى الأسلوب بقوله: (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) وقد انعكس هذا الفارق
الاجتماعي للمحاورين على أسلوب المحاورة (٩٤) . بما يبين أن ما ينطق به السادة لا ينطق
به العامة ، وما ينطق به الرؤساء لا ينطق به الدماء من القوم ، والعكس صحيح ، فكل
يعبر عن نفسه بأسلوبه هو ، الذي يكشف عن مشاعره ، ويظهر مستواه العقلي ، الذي

(١) هود : الآيات : ٨٤ - ٩٣ .

(٢) انظر أسلوب المحاورة في القرآن الكريم د. عبد الحليم حقني ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٧٧ م . ص ٨١

يختلف عن غيره من المستويات الاجتماعية الأخرى .

ونرى مظاهر هذا الاختلاف فى الأسلوب على مدى المحاورتين ، فى أولهما وفى وسطهما ، وفى نهايتهما .

أولاً: لأن محاورى "نوح" كانوا من السادة ، فقد سيطرت عليهم نزعة التعالى ، وركزوا فى محاورتهم على إظهار معنى التميز والمفاضلة بين الناس ، فإن أول ما بدعوا به قولهم (مانراك إلا بشرا مثلنا) ، لأن نفوسهم مرتكزة على أنه مالم تكن للشخص ميزة تميزه عن سائر القوم ، فلا يجوز له أن يسمو على الناس ، ولأنهم السادة فهم لا يسلمون لمدعى النبوة بأن يرتفع عنهم إلا لصفة خاصة ، كأن يعطى صفات الملائكة، ولا يكون بشراً مثلهم ، وكذلك كان تفكيرهم مركزاً على الفوارق الاجتماعية حينما قالوا عن أتباع "نوح" (وما نراك اتبعك إلا الذين هم إرذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل) فالوظيفة الاجتماعية هى الغمزة التى يغمزون بها أتباع "نوح" .

أما محاورو "شعيب" فلم يظهر فى أسلوبهم ميل إلى تحكيم الفوارق الاجتماعية بينهم وبين "شعيب" وأتباعه ، لأنهم جميعاً متساوون اجتماعياً ، وقد أشاروا فقط إلى ضعف "شعيب" ، وبالتالي إلى قوتهم ، على أن ضعف "شعيب" لم يكن اجتماعياً ، وإنما كان فى ناحية واحدة ، هى قلة عدد تابعيه من المؤمنين، أما من الناحية الاجتماعية فقد كان كفواً لمحاوريه^(١) ولذلك قالوا (ولولا رهطك لرجمتك) ، وهم يعنون بذلك قرابته ، كثيرى العدد^(٢) ، أو الذين لا يزالون على ديننا ، فلم يختاروك علينا ، ولم يتبعوك دوننا^(٣) .

ثانياً: لأن محاورى "نوح" هم السادة والقادة فقد نضح أسلوبهم بما يبين طابع سلوك هذه الطبقة ، وهو التحدى ، فقالوا لنوح متحدين : (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصدّقين)، أما محاورو "شعيب" فقد خلا أسلوبهم من لهجة التحدى.

ثالثاً: حاول محاورو "نوح" - وهم السادة - الاعتماد على المنطق والعقل فى محاورتهم

(١) انظر : أسلوب المحاوره فى القرآن الكريم ، ص ٨٢ .

(٢) انظر : الحوار فى القرآن ، ص ٣٠٥ .

(٣) انظر : الكشف ، ج ٢ ، ص ٤٢٢ .

هذا فيما يخص الاختلاف فى محاورى كل من "نوح" و"شعيب" - عليهما السلام - أما فيما يخص النبيين فهناك اختلاف بين كل منهما فى أسلوب تبليغ الدعوة، واختلاف أيضاً فى إنهاء المحاوره ، ويمكن توضيح ذلك فى نقطتين .

الأولى : أن هناك اختلافاً فى أسلوب تبليغ الدعوة ، فمحاوره ، نوح منصبة كلها على العقيدة ، وهى وحدانية الله ، لأنه إذا نجح فى إقناع محاوريه من السادة بذلك فإن تغيير سلوكهم سيأتى تبعاً لذلك ، ولذا لم يزد على قوله موضحاً موضوع رسالته : (ألا تعبدوا إلا الله)

أما محاوره شعيب فكانت شاملة للعقيدة والسلوك معاً ، لأنه يرى أن الموضوع كل لا يتجزأ ولعل فى نوعية المحاورين أثراً فى ذلك ، فإن انحرافات السلوك ، وظهور المساوئ فى سلوك العامة ، وهم محاورو "شعيب" أوضح منها فى سلوك السادة وهم محاورو "نوح" ، لأن السادة أقرب الى تجنب مساوئ السلوك ، أو على الأصح أقرب إلى إخفائها ، على الأقل للمحافظة على مظاهر السيادة ، التى يتمتعون بها ؛ وبناء على ذلك يكون أوضح مساوئ محاورى "نوح" هى العقيدة ، فصبب المحاوره عليها ، أما محاورو "شعيب" فكانت مساوئهم شديدة الوضوح فى العقيدة والسلوك معا (١) .

الثانية : نجد كلا من "نوح" و "شعيب" فى بداية محاورته - يتودد إلى محاوريه - عسى أن يستميل قلوبهم إليه ، ويكسبهم إلى جانب دعوته ، واستمر هذا التودد فى أثناء المحاوره ، فكان كل نبي ينادى محاوريه (يقوم) حتى وهم يتحدونه ، أو يسخرون منه ، ولكن فى نهاية محاوره "نوح" نجده يتخلى عن هذا النداء ، وربما كان هذا دليلاً على أنه بدأ ينسلخ منهم نفسياً لإحساسه اليأس من استجابتهم وميلهم إليه أما "شعيب" - عليه السلام - فلم يتخل عن تودده إلى قومه ، فظل يضيفهم إلى نفسه حتى الكلمات الأخيرة من محاورته معهم ، ولنا أن نلاحظ أيضاً أنه يقول فى آخر كلماته معهم (ارتقبوا إني معكم رقيب) إن هذه المعية تفيد فى ظاهرها الصحبة ، وهى وإن لم تكن موجودة فى الواقع إلا أن إظهارها يعد عاملاً من عوامل استمالتهم إلى دعوته .

(١) انظر : أسلوب المحاوره فى القرآن الكريم ، ص ٨٢ .

وربما كان طول المدة التي قضاها "نوح" مع قومه هو السبب في إحساسه باليأس من استجابتهم لدعوته ، إذ لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ولعل هذه الحلقة من قصته تحكى لنا آخر ما دار بينه وبينهم من حوار ، فيكون الشعور باليأس هنا نتيجة طبيعية لعنادهم واستكبارهم رغم طول لبثه فيهم ، والقصة نفسها ترشدنا بعد ذلك مباشرة إلى أن قومه لن يؤمن منهم أحد غير من آمنوا ، إذ يقول تعالى ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا قدءامن فلا تبش بمآكانوا يفعلون ﴾ .

إن الموازنة بين المحاورتين - على النحو السابق - تؤكد أن كل كلمة جاءت على لسان أحد المتحاورين إنما تمثله هو ، تمثل شخصيته ، وتمثل ذاته ، وترجم عن شعوره وإحساسه ، فما جاء على لسان محاورى "نوح" لا يمكن أن يأتى على لسان محاورى "شعيب" ، والعكس صحيح . لأن لكل طرف منهما شخصياتهم المستقلة ، وذواتهم الواضحة ، والتي جاءت كلماتهم تعبيراً صادقاً عنها . وما جاء على لسان "نوح" لم يكن من الممكن أن يأتى على لسان "شعيب" في مواجهة قومه بما فيهم من أمراض اجتماعية ، والعكس صحيح أيضاً ، وذلك هو المراد بذاتية الحوار في القصص القرآنى .

ولعل هذه الوقفة مع ذاتية الحوار في القصص القرآنى تدحض فرية من ادعى : "أن أسلوب القرآن في التعبير عن أفكار الأنبياء أو المرسلين أو الأقوام لا يشاكل الواقع ، وإنما يمشى على وتيرة واحدة في القصة الواحدة ، وهو الأمر الذى يحاول أن يمضى القصص على خلافه في هذه الأيام ، إذ نرى الحوار يمثل نفسية المتحاورين وأسلوبهما في الحديث والمخاطبة ، وعقليتهما في التفكير ، وفي الحركات الذهنية ، كما قد يمثل الحرف والصناعات (١) .

ويستثنى الكاتب من هذا الاتهام قصتين فقط من قصص القرآن إذ يقول :
 "ومرات قليلة تلك التي نجد الحوار فيها يمثل شخصية المتحاورين ، وما فيها من قوة وجبروت ، وما لها من عظمة وكبرياء وهى تلك المحاورات التي يقصها القرآن الكريم على لسان فرعون ، أو على لسان إبليس حين يحاور كل واحد منهما شخصية الرسول

(١) الفن القصصى في القرآن الكريم ، د: محمد خلف الله ، ص ٢٠٥ .

الذى قام إلى جانبه فى القصة ، كشخصيات "موسى" و"آدم" - عليهما السلام - وهى مرات لا تجعلنا نطمئن إليها أكثر من اطمئناننا إلى الأمر الآخر ، وهو أن الحوار إنما يمثل أكثر من كل شئ الدعوة الإسلامية ونفسية محمد عليه الصلاة والسلام^(١) .

إن الأمثلة القرآنية لذاتية الحوار كثيرة متعددة ، ولذا فإن لى وقفة أخرى فى مبحث قادم إن شاء الله ، لنرى مدى تحقق هذه الذاتية فى حوارات القرآن الكريم ، وفى حوارات القصص الفنية .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

الباب الثالث

تطبيقات

المبحث الأول :

طبيعة المشهد في القصة القرآنية ونظيره في الأجناس الأدبية

المبحث الثاني :

طبيعة الحوار في المشهد القصصي في القرآن الكريم ونظيره في

الأجناس الأدبية

المبحث الثالث :

الحوار والسرد في القرآن الكريم والفن القصصي

المبحث الأول

طبيعة المشهد في القصة القرآنية

ونظيره في الأجناس الأدبية

المشهد في الأعمال الأدبية - هو المنظر الذي يقدم جزءاً من الحدث العام للقصة ، ويقوم على دعامة أساسية هي وحدة المكان . وهو جزء من الفصل في المسرحية الحديثة^(١).

والمقصود بطبيعة المشهد ، كيفية تقديم الحدث الجزئي ؛ والأسلوب المتبع في هذا التقديم ، وتصميم المشاهد من حيث الطول والقصر ، تبعاً للموقف الذي ينضوي تحته المشهد ، وتبعاً للمرحلة التي يمر بها الحدث في القصة ، والدلالة على التغييرات الحاصلة في المشهد ، كالحديث الداخلي ، أو الحديث الجانبي بين بعض الشخصيات ، أو دخول شخص أو خروجه من ساحة المشهد .

إذا كان فن المسرح قديماً قدم اليونان فإن العصر الحديث أتى بوسائل علمية كثيرة ومتقدمه جداً ، فنحن نرى الآن فن الخيالة (السينما) ، ونشاهد من خلالها كثيراً مما يسمى بالأفلام السينمائية، ونرى أيضاً التلفاز ، ونشاهد من خلاله كثيراً مما يسمى بالمسلسلات الدرامية الحديثة ، وتتكون هذه الأفلام والمسلسلات من عدد من المشاهد يحكى كل مشهد منها جزءاً من الحدث الذي يقوم عليه هذا العمل الفني أذاك ، تماماً كما في العمل القصصى أو المسرحي^(٢)، والمشهد في الأعمال الفنية الحديثة وفي المسرح يقوم على تنفيذه عشرات من العاملين في هذه الفنون ، ويهتم هؤلاء بتصميم وتنسيق المشاهد والمناظر ، ويحرصون على أن يبدأ المشهد من نقطة معينة ، وينتهي عند نقطة معينة ، لأن ذلك يساعد على إبراز الحدث بالطريقة التي يريدونها ، والتي تضمن جذب المشاهد إلى هذا العمل الفني المعروض^(٣) .

وتتميز الخيالة والدراما الحديثة المصورة - دون المسرح - بحرية الانطلاق في أرجاء الأماكن، فيمكنها أن تصور مشهداً على سطح الأرض، يعقبه مشهد في قاع البحر، أو تصور مشهداً في الجو يعقبه مشهد في باطن الأرض ، كل ذلك في أقل زمن

(١) انظر : المبحث الأول من الباب الثاني من هذا البحث

و : الأدب وفنونه ، ص : ١٠٨ ، ١٠٩ .

و : بدائع الإضممار القصصى في القرآن الكريم : ص ٢٠٩ .

(٢) انظر : السيناريو السينمائي الفن والتجربة - صلاح أبو سيف ، ط دار المعارف الطبعة الثانية ، ضمن سلسلة "اقرأ" العدد ٤٧٩ ، ص ١٣ .

(٣) انظر : بدائع الإضممار القصصى في القرآن الكريم ، ص ١٢٢ .

ممکن ، ويتابع المشاهد ذلك بون أن يبرح مكانه (١) .

كانت هذه مقدمة لابد منها قبل أن نقرأ الآيات التالية، يقول تعالى في قصتي

"إبراهيم" و"لوط" عليهما السلام :

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَّيُلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ (٢٥) فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُم لَنَآتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَتَنكُم لَنَآتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئِلًا بِهِمْ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيْنَ الْأَقْلَامِ (٣٥) يَعْقِلُونَ (٣٥)﴾ (٢) .

ذكرت هذه الآيات طرفاً من قصة "إبراهيم" وقصة "لوط" - عليهما السلام، وجاءت القصتان معا في مشاهد متتابعة ومتداخلة ، وهي مرتبة على وفق ترتيب الأحداث زمنياً في القصتين ، وبعض هذه المشاهد يأتي سريعاً خاطفاً ولكنه ذو دلالة قوية ، وتأثير

(١) انظر : السيناريو السينمائي الفن والتجربة ، ص ٦٥ - ٦٧ .

(٢) العنكبوت : ٢٤ : ٣٥ .

ملحوظ فى الأحداث وبعضها يأتى طويلاً - نسبياً - وكل يأتى على ما يقتضيه الموقف القصصى .

فى الآيات السابقة من قصة "إبراهيم" عرفنا أنه بلغ قومه دعوة ربه ، فأمرهم بعبادة الله وحده ، كما أمرهم بالتقوى ، وبين لهم أن دعوته هذه خير لهم من عبادة الأصنام التى يعبدونها ، لأنها لا تملك لهم رزقاً ، وإنما الرزق عند الله وحده ، وطوف بهم "إبراهيم" فى كثير من مظاهر قدرة الله ، فى مشهد طويل مؤثر ، علمهم يقتنعون بما يدعوههم إليه .

ثم تبدأ الآيات التى معنا بآية تستكمل مشهد "إبراهيم" مع قومه، وفى نهايته نسمع جوابهم على دعوته ، هذا الجواب الذى جاء بطريق القصر ، ما وإلا؛ لنعرف إصرارهم على التخلص منه ومن دعوته : (اقتلوه أو حرقوه) عقوبتان أصر القوم على تنفيذ إحداها . ومع نهاية الكلمة الثانية (حرقوه) ينتهى المشهد بانتهاء المحاورة بين الطرفين ، ثم نرى الأسلوب القرأنى يقفز فوق ذرا الأحداث الكبيرة الخطيرة ليصل بنا إلى نهاية مشهد جديد ، وهى نهاية متأخرة جداً ؛ فالنجاة من النار هى نهاية مشهد الإحراق ، وهو المشهد الذى أضمره السياق فلم يذكره، ولكننا فهمناه من قوله تعالى: (فأنجبه الله من النار) ، وفهمنا أيضاً أن القوم استقروا أخيراً على التحريق بالنار بعد أن كانوا مترددين بينه وبين القتل .

وليست بداية مشهد الإحراق هى كل ما حذف هنا ، بل هناك مشهد طويل جداً استغرق زمناً طويلاً حذف بأكمله ، وهو مشهد إعداد النار التى أعدها القوم لإحراق "إبراهيم" وبهذا يكون الأسلوب القرأنى قد قفز فوق أحداث كثيرة مؤثرة ، فحذف مشهداً وبعض مشهد آخر ، كل ذلك بغرض الوصول إلى هذه النهاية السعيدة جداً المتمثلة فى نجاة "إبراهيم" ، فالقصة فى نهايتها، والقارئ لا يصبر على سماع وصف هذه الأحداث التى حذفت ، ولو وقفت القصة لتسرد لنا ما حدث لتمييز القارئ غيظاً من الإبطاء فى الوصول إلى النهاية التى يتمناها لهذا النبى الذى اكتسب تعاطف القارئ معه بسبب هذه النصائح الكثيرة التى أسداها لقومه وهو يبلغهم دعوة ربه .

ثم يبدأ مشهد جديد نرى فيه "إبراهيم" - عليه السلام - يقف من قومه موقف الناصح مرة أخرى، وهنا نلاحظ أمرين:

أولهما أن المشهد الجديد بدأ بقوله تعالى (وقال إنما إتخذتم.....) إلى آخره، وهذه

الواو التي سبقت الفعل (قال) تفيدنا أن "إبراهيم" وهو الحليم الرشيد قد إنفرد الى نفسه بعضاً من الزمن، يدير في رأسه رأياً، أو ينتظر وحى السماء، قبل أن يواجه قومه مرة أخرى.

وثانيهما - أن الأسلوب القرآني لم يشأ أن يقطع تسلسل الأحداث ليصف لنا إصرار "إبراهيم" وعزمه على مواصلة دعوته إلى قومه، وإنما ترك مقالة "إبراهيم" تنطق بإصراره هذا، وتصرح بقوة عزمه على أداء رسالته حتى بعد أن انقطع أمله في هؤلاء القوم، ولذلك نراه يفضح نفوسهم ويكشف زيفها بكلمات واضحة وقاطعة؛ فهم لم يتخذوا هذه الأوثان معبوداً من دون الله لعلمهم أنها مستحقة للعبادة جديرة بها، وإنما اتخذوها مجاملة فيما بينهم، واستيقاء للمودة في (١) الدنيا.

ثم نرى قدرة الأسلوب على الانتقال من مشهد في الدنيا إلى مشهد في عالم الغيب في الآخرة في كلمات قليلة، وذلك في تصوير هؤلاء القوم المتوادين في الدنيا في صورة الأعداء المتخاصمين في الآخرة، إذ يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً، وليس ذلك فقط، ولكنهم سينتقلون من مشهد العداوة والتخاصم إلى هذا المشهد الرهيب، مشهد الاستقرار في النار، التي أرادوا أن يحرقوا بها هذا النبي، فنجاه الله منها، أما هم فلا نجاة لهم لأنهم ليس لهم نصير ينجيهم ويخرجهم منها.

وبعد المشاهد السابقة من قصة "إبراهيم" يأخذ أسلوب العرض اتجاهها آخر، فيسير في عرض قصتين اثنتين في وقت واحد، قصة "إبراهيم" وقصة "لوط" وتتداخل مشاهد القصتين في العرض القرآني، فيأتي مشهد من هذه ومشهد من تلك، على نحو بديع، وبأسلوب بياني معجز يدعو أرباب الصناعات الفنية - وخاصة البصرية منها - إلى دراسته والتعلم منه، والإفادة منه في صناعاتهم.

ومن بديع الأسلوب القرآني أن ترتيب المشاهد يأتي على نسق لا نظير له في عالم الفن البشري، ففي المشهد السابق - بين "إبراهيم" وقومه - نرى أنه قد وصل إلى حالة اليأس من إيمان هؤلاء القوم، ولذا جبههم بمكنون صدورهم، ورماهم بآخر سهم في كنانته، واليأس من إيمان القوم مؤذن بانتهاء دور النبي - أي كان - ولكن دعوة "إبراهيم" لم تنته، أو لم يقدر لها أن تنتهي، ولذلك نرى في المشهد التالي مباشرة

(١) انظر: في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٧٣٢.

بصيصاً من النور يعود إلى نفس "إبراهيم" الذي أحزنه ألا يؤمن به أحد من هؤلاء القوم جميعاً ، هذا النور جاء من إيمان "لوط" عليه السلام . (فأمن له لوط) هكذا في عرض سريع خاطف ، ولكنه إيمان له تأثيره الكبير على سير الأحداث في القصة ، إذ إن الإيمان صدى دعوة "إبراهيم" فهي إذا لم تضع هباء ، و"لوط" وإن كان فرداً واحداً سيصير قصة وحده . قصة فيها العزاء والسلوى لإبراهيم .

وبعد هذا المشهد الخاطف يأتي مشهد "إبراهيم" في هجرته إلى ربه - سبحانه - ولم يذكر السياق تفاصيل هذه الهجرة اكتفاء بأنها كانت هجرة إلى الله ، وقد أفاض العلماء والمفسرون في هذه التفاصيل التي سكت عنها الأسلوب القرآني ، فقالوا: إن "إبراهيم" خرج من أرض العراق إلى الشام ثم إلى مصر ، ثم إلى الشام مرة أخرى ، وكان معه "سارة" زوجته ، و"لوط" ابن أخيه الذي أمره "إبراهيم" بالنزوح إلى قرية "سدوم" بفلسطين ، واستقر هو في الشام (١) .

إن من الممكن أن نفهم من السياق القرآني أن "إبراهيم" و"لوط" صارا متلازمين ، وأنهما هاجرا معاً ، فمن غير المعقول أن يفر "إبراهيم" بدينه ويترك خلفه "لوطاً" الذي آمن له ، ولكننا سندرك من القصة فيما بعد أنهما تفرقا وصار كل منهما في مكان بحيث إذا ذكر أحدهما كان ذكره في مشهد يقع في مكان لا يوجد فيه الآخر .

وقبل أن نقف مع هذه المشاهد ننبه إلى لطيفتين من لطائف الأسلوب القرآني أولاهما - تتعلق بالفرض الديني من القصة ، وتتمثل في هذا العطاء الإلهي الذي غمر "إبراهيم" بعد خروجه مهاجراً إلى ربه ، فقد وهب الله البنين والأحفاد الذين يحملون من بعده شرف النبوة والرسالة ، وأجزل الله له العطاء في الدنيا والآخرة . وكأن "إبراهيم" بعد أن فقد أصله الذي خرج منه طمأنته الله أو طمأننا الأسلوب القرآني إلى قوة الفرع الذي انبثق من "إبراهيم" وهذه لفظة جديدة بأن يقف عندها السياق ، وأن يقطع من أجلها

(١) انظر : تفسير القرطبي ، ج٨ ، ص : ٥٥-٥٥ .

و : تفسير ابن كثير ، ج٢ ، ص ٤١٠ .

و : الكشف ، ج٢ ، ص ٤٥١ .

و : قصص الأنبياء ، عبد الوهاب النجار ، ص ١٤٦ .

و : في ظلال القرآن ، ج٥ ، ص ٢٧٣٣ .

ومعظم هؤلاء العلماء على أن المقصود بقوله تعالى (وقال إني مهاجر إلى ربي) هو "إبراهيم" وبعضهم ينسبه إلى "لوط" ومنهم من يتردد في نسبته إلى أي من النبيين . كما هو واضح في المراجع المذكورة .

تسلسل الأحداث القصصية ، لأن الفن ليس مقدماً على الدين في القصة القرآنية وثانيتها - وتتعلق بالبناء الفني للقصة - تتصل بالمفاجأة التي تقع للقارئ حين يعلم أن "لوطاً" الذي كان - منذ سطرين فقط - تابعاً لإبراهيم مؤمناً به، صار هو - أيضاً - نبياً يوحى إليه ، وله قوم يدعوهم إلى الله كما كان إبراهيم "يدعو قومه" .

وأعجب من هذه المفاجأة هذا العرض السريع للأحداث في داخل المشهد الجديد ، فلوط ليس صاحب دعوة فقط وإنما نجده يواجه كثيراً من الشدائد والمنكرات التي وجدها في قومه . إنه ليس مشهداً جديداً فحسب بل هو قصة جديدة بكل ما تعنيه القصة من مدلولات ، فلوط غير "إبراهيم" وقومه غير قوم "إبراهيم" وخصال قومه غير خصال قوم "إبراهيم" .

وقد طال المشهد بعض الشيء ، وإن كنا نرى هذا التركيز والتكثيف في وصف "لوط" لقومه وما فيهم من خصال مذمومة، ونراه أيضاً في اختصار المحاوراة بينه وبينهم ، إذا اقتصر السياق على إثبات جوابهم : (قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصدّقين) ومعنى هذا أنه قد توعدهم بالعذاب إن لم يقلعوا عما هم فيه من شرور وأثام ، وهو الأمر الذي لم يذكره السياق على لسان "لوط" ، وأخيراً تأتي دعوته ربه أن ينصره على قومه المفسدين .

ومن الواضح أن هذا المشهد يحكى حلقة الدعوة في حياة "لوط" ولكنه لا يسجل كل ما دار بينه وبين قومه من حوار - كما رأينا - وكما هو ثابت في بعض المواضع الأخرى من القصة في سور القرآن الكريم (١) .

وبعد ذلك نفاجأ بمشهد من قصة "إبراهيم" ، وبذلك يعود السياق إلى القصة الأولى ، لتسمح هذا الحوار العجيب بين رسل الله من الملائكة "وإبراهيم" ، وقد جاءت الملائكة بحديثين في غاية الأهمية ، أحدهما يخص "إبراهيم" وهو البشارة بالولد ، والثاني يخص "لوطاً" وهو إهلاك قومه المفسدين .

(١) جاءت حلقة الدعوة مختصرة في كثير من المواضع في القرآن ، انظر السور التالية .

الأعراف ، ٨٠ : ٨٤ .

الأنبياء ، ٧٤ : ٧٥ .

النمل ، ٥٤ : ٥٨ .

القمر ، ٢٢ : ٤٠ .

وجاءت مفصلة بعض الشيء في موضع واحد - الشعراء ، ١٦٠ - ١٧٥ .

وهنا نلاحظ دقة الأسلوب القرآنى ، الذى أخبرنا بالحدث الأول وهو البشارة بطريقة موجزة، وبأسلوب السرد ، ثم أخبرنا بالحدث الثانى وهو الإهلاك - بطريقة مفصلة ، وبأسلوب الحوار ، وذلك لأن القارئ إنما يعيش هنا مع قصة "لوط" لا مع قصة "إبراهيم" فناسب ذلك أن يأتى حدث البشارة سرداً فى غاية الإيجاز، لأن السرد لا يعطى فرصة لبيان ما كان بين "إبراهيم" والملائكة من أخذ ورد ، ذلك الأمر الذى يوقف التسلسل فى الحدث الأساسى هنا، وهو الإهلاك الذى عير عنه بأسلوب مناسب أيضاً وهو الحوار بين "إبراهيم" والملائكة، وفى عرض الحدثين - البشارة والإهلاك - بهذه الطريقة ظهر الحدث الأول وكأنه حدث ثانوى بالنسبة إلى الحدث الثانى، وفى ذلك تناسب واضح بين الأسلوب وطبيعة المشهد القصصى المبنى أساساً على أنه من قصة "لوط" .

وعلى الرغم من أن "لوطاً" غاب عن المشهد نجده حظى بالجزء الأكبر من الحدث بل من الحديث الذى دار فيه ، فالملائكة أرسلوا لإهلاك أهل قريته لأنهم ظالمون ، ولكن "إبراهيم" أخذ يجادلهم فى هذا الشأن متعللاً بأن قبيهم رجالاً مؤمناً وهو "لوط" فطمأنته الملائكة أنهم لن يصيبوه بسوء، لا هو ولا أهل بيته، إلا امرأته لأنها من الذين حق عليهم الإهلاك .

لقد علمنا - نحن المتلقين - ما علمه "إبراهيم" من شأن هؤلاء الرسل وأنهم ملائكة الله ، وعلمنا - أيضاً - بما جاء وأمن أجله، وهو إهلاك الظالمين، وإنجاء "لوط" ومن آمن به من أهله ، علمنا ذلك كله ، أما "لوط" وهو الشخصية الأساسية فى المشهد الجديد فلم يعلم شيئاً ، فإذا جاءت الرسل فأصابه السوء ، وضاق ذرعه عن حمايتهم من عدوان قومه عذريته نحن لأنه لا يعلم الحقيقة ، وفى الوقت نفسه فنحن مطمئنون غاية الاطمئنان إلى أن القوم لن يصلوا إلى هؤلاء الرسل بأذى ولن يمسوهم بسوء .

ونلاحظ أن نهاية المحاور بين الملائكة "لوط" جاءت بألفاظ تكاد تكون مماثلة لألفاظ حوارهم مع "إبراهيم"، فهم قالوا لإبراهيم: (لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغُبرين) وقالوا للوط: (إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغُبرين) ولعل الدافع وراء تكرير العبارتين على هذا النحو هو اختلاف المشهد، واختلاف المخاطب بكل منهما، فلم يكن بدمن تكرير العبارتين هكذا ، لنعلم أن ما قالوه لإبراهيم هو بعينه ما قالوه للوط ، وبذلك يطمئن القارئ إلى صحة عزيمتهم على تنفيذ ما جاءوا لأجله وأن هؤلاء الرسل يفعلون ما يؤمرون به دون زيادة ولا نقصان .

وقد اختصر السياق هنا المشهد بين "لوط" والملائكة فحذف ما كان من قومه حين علموا بأن أضيافاً نزلوا على "لوط" فهرعوا إليه ، ولكن الأسلوب استعاض عن هذا المحذوف بإظهار المساءة التي أصابت "لوطاً" حين جاءت الملائكة ، وتصوير ضيق ذرعه عن بسط الحماية عليهم ، ثم إن الواو في قوله تعالى . (وقالوا لا تخف ولا تحزن) تدل على أن ثمة حذفاً في السياق ، لأن الواو لم يتقدمها معطوف عليها ، وكان من الممكن أن يجيء الفعل مجرداً منها لولا أن المعطوف عليه محذوف من السياق .

ومن دقائق التعبير القرآني في هذا المشهد والمشهد الذي قبله ما يظهر من تأمل قوله تعالى (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية) وقوله تعالى (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعاً) حيث نلاحظ أن الفعل في الآية الأولى جاء والياً للأداة (لما) دون فاصل بينهما ، وأن الفعل في الآية الثانية جاء مفصلاً بينه وبين (لما) بأن ، ولابد أن يكون هناك سر وراء هذه الزيادة بل وراء هذا الفصل في الآية الثانية ، وأنَّ (أَنَّ) هذه لابد أن يكون لها زيادة في المعنى .

لقد علل "الزمخشري" لذلك بقوله: (أن) صلة - أى زائدة - أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لافاصل بينهما ، كأنهما وجداً في جزء واحد من الزمان ، كأنه قيل : لما أحس بمجيئهم فجأتهم المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه^(١) .

ويذهب ابن الأثير إلى خلاف ما ذهب إليه الزمخشري إذ يرى أنه "إذا وردت (لما) وورد الفعل بعدها بإسقاط (أن) دل ذلك على الفور ، وإذا لم تسقط لم يدلنا ذلك على أن الفعل كان على الفور ، وإنما كان فيه تراخ وإبطاء"^(٢) .

ويوضح ابن الأثير رأيه بالحديث عن قوله تعالى - في قصة موسى ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَشْ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى﴾^(٣) إذ يرى أن (أن) الأولى التي جاءت بعد (لما) دليل على أن "موسى" - عليه السلام - لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأول ، بل كان منه إبطاء في بسط يده إليه ، فعبر القرآن عن ذلك بزيادة (أن) بعد (لما)^(٤) .

(١) الكشف ، ج ٢ ، ص ٤٥٣ .

(٢) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ١٢ .

(٣) القصص ، من الآية ١٩ .

(٤) انظر : المثل السائر ، ج ٢ ، ص ١٢ .

وأرى أن ابن الأثير أقرب إلى الصواب ، خصوصاً إذا لاحظنا أن الأسلوب القرآنى عبر بالفعل (أراد) ولم يقل فلما أن مديده ليبطش به مثلاً؛ إذ الفعل (أراد) بمعناه يدل على التراخى والإبطاء ، لأن الإرادة مرحلة نفسية تسبق مرحلة النزوع إلى الفعل . كما أن ابن الأثير يزيد الأمر وضوحاً بالحديث عن قوله تعالى فى شأن إخوة يوسف : (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه) إذ يقول : "إذا نظر فى قصة يوسف عليه السلام مع أخوته منذ ألقوه فى الجب إلى أن جاء البشير إلى أبيه - عليه السلام - وجد أنه كان ثم إبطاء بعيد ، وقد اختلف المفسرون فى طول تلك المدة ، ولو لم يكن ثم مدة بعيدة وأمد متطاوّل لما جئ بأن بعد (لما) وقبل الفعل ، بل كانت تكون الآية ، فلما جاء البشير ألقاه على وجهه" (١) .

وإذا كنا نميل إلى رأى ابن الأثير فإن المعنى فى قصة "لوط" يقتضى أنه - عليه السلام - لم يظهر مساعته وتبرمه من وجود أضيافه فور أن لقيهم؛ لأن ذلك يتعارض مع خلق الأنبياء ، وأنه كانت هناك مدة زمنية بين الأمرين ، أقلها - فى تقديرى - ما يسمع بوصول خبر هؤلاء الأضياف إلى القوم ثم تدافعهم إلى داره ، ومجاهدته لهم دفاعاً عن ضيفه ، ومما يقوى ذلك أن الأسلوب القرآنى عطف قوله تعالى : (وضاق بهم ذرعاً) على الفعل (سى)، "واوط" - عليه السلام - لم يضق ذرعه عن حماية أضيافه إلا بعد أن كاد القوم يقلبونه على أمره ، ويصلون إلى هؤلاء الأضياف .

أما المعنى فى قصة "إبراهيم" فهو على أن الفعل (قالوا) المسند إلى الملائكة ، وهو جواب لما ، إنما حدث بعد أن جاءت الملائكة وانتهت من بشارة "إبراهيم" فوراً وبدون إبطاء بين حديثهم عن البشرى وحديثهم عن إهلاك قوم "لوط" وليس هناك فى الأسلوب ما يمنع من هذا الرأى ، بل ذلك يتفق مع ما قلت من قبل من أن حدث البشارة جاء كأنه عارض، أو حدث ثانوى اتفاقاً مع الموقف القصصى . إن البشاره هنا كأنها جزء من مجئ الملائكة أو كأنهم جاءوا متلبسين بها (بالبشرى) هكذا بالباء التى تفيد الالتحام والتلبس .

وأخر ما نود الوقوف عنده فى هذه الآيات ، بل فى قصة "لوط" عامة هو ذلك الأسلوب السامى الرفيع الذى تناول به القرآن الكريم موضوعاً من أخطر الموضوعات ،

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤ .

وهو ذلك الشنوذ الذى أصاب قوم "لوط" ، فجعل الواحد منهم يميل إلى قرينه من الرجال ويعزف عن صاحبه التى خلقها الله له ، إن الأسلوب القرأنى قد عبر عن شيوع هذه الفاحشة بين القوم حتى إنهم كانوا يأتونها فى أنديتهم وأماكن تجمعهم دون حرج ودون خجل ، والمرء لا يأتى من صفائر الأمور شيئاً حين يكون بين الناس ، لأنه حريص دائماً على أن يبدو فى أجمل صورة وأبهى منظر ، فما بالناس يمثل هذه الموبقات المهلكات. ومما يضاف إلى هؤلاء القوم أنهم أول من سبق إلى فعل هذه الفاحشة المشينة ، ولنتظر كيف عبر القرآن عن ذلك كله : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر ﴾ إنه السمو الفنى فى أبهى مجاليه .

ونفيد من ذلك أمراً فى غاية الأهمية ؛ هو أن القرآن الكريم لا يضع حاجزاً بين الكتاب وموضوعات قصصهم ، فالكاتب يستطيع أن يكتب فى أى موضوع يشاء ، وأن يقول فيه ما شاء ، وله أن يتسرب إلى نفوس قرائه بما يعن له ، بشرط أن يلتزم باللفظ الكريم السامى الذى يقع من نفس قارئه موقعاً حسناً يتفق مع جلال الفن ورفعة شأنه (١) .

وهناك شرط آخر وهو ألا يقف الكاتب مع مثل هذه الموضوعات التى تحكى عن الشنوذ الإنسانى موقف المزين لها الحافز إليها ، وألا يصور ذلك على أنه بطولة إنسانية تدعو إلى الفخر والزهو ، بدعوى أنها أشياء واقعية لها وجود فى حياة البشر . وإذا كانت الغرائز الجنسية لها وجود واقعى فإن غير الواقعى وغير المقبول - أيضاً - أن يصورها كتاب الواقعية على أنها كل حياة الإنسان، وماهى إلا جزء فقط من حياته (٢) ، رجلاً كان أو امرأة ، وهناك من الغرائز الأخرى ما يفوقها أهمية فى حياته . إن نظرة سريعة فى القصص البشرى توضح أن كثيراً من الكتاب اتخذوا من الغرائز الرخيصة مادة للإثارة فى قصصهم ، وذلك شئ ياباه الواقع ، كما تاباه قواعد الفن الصحيح أيضاً (٣) .

(١) انظر : السرد القصصى فى القرآن الكريم ، ص : ١٠٨ - ١١٠ .

(٢) انظر : فى تلالل القرآن ، ج٤ ، ص ١٩٥٩ .

(٣) انظر : أئب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب ، د . السيد أحمد فرج ط . دار الوقاء للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠ م ، ص ٢٦٥ وما بعدها .

إن المواقف القصصية تأبى أن تجزئ المشاهد فى القصة على نسق واحد، من حيث الطول والقصر ، لأن هناك مواقف يغلب عليها التدافع بين الأطراف، نظراً لقوة الصراع ، وتعادل القوى ، وهذه المواقف تدعو إلى أن يكون المشهد طويلاً غالباً - وهناك مواقف أخرى يكون الصراع فيها خافتاً أو متوارياً وهذه تستدعى أن تكون المشاهد قصيرة، أي بالقدر الذى يساعد الحدث على النمو والانتقال إلى مرحلة أخرى لها مواقفها الخاصة ، ولها مشاهدتها المناسبة لها .

إن مواقف الجدل والمحاجة بين "موسى" و"فرعون" خير دليل على صحة ذلك، كما أن مواقف الجدل بين "إبراهيم" وقومه دليل أيضاً ، وقد وقفت من قبل مع مواقف من هاتين القصتين (١) .

واقف الآن مع بعض المشاهد القصيرة التى تأتى استجابة للموقف القصصى يقول - تعالى - فى شأن امرأة العزيز .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢) .

هذه آية واحدة تضم عدة مشاهد قصيرة ، ولكى نقف على عدد هذه المشاهد يحسن أن نتصور الموقف الذى جرت فيه الأحداث .

تحكى هذه الآية ما كان من امرأة العزيز بعد أن ترامى إلى سمعها ما يتردد فى أرجاء المدينة، وعلى لسان النسوة من لومها وتأييدها على مراودتها فتاها المملوك لها عن نفسه ، أو على شيوع أمر هذه المراودة وانتشارها خارج أسوار قصر العزيز . ومن الطبيعى أن يكون لهذه المرأة - وهى زوج كبير الوزراء - عدد كبير من الخادومات اللاتى يقمن بخدمتها وقضاء مصالحها ، ومن الطبيعى - أيضاً - أن يكون بعض هؤلاء الخادومات قريبات قريبا شديداً منها ، ومنهن من تقوم بالشئون الخاصة لامرأة العزيز ، وقد تقوم إحداهن بدور كاتم السر لها ، تأتيها بأخبار النساء فى المدينة وما شابه ذلك ، فإذا بلغها ما يتردد على لسان النساء فليس ذلك غريباً إذا .

(١) انظر : السحثن الأول والثالث من الباب الثانى من هذا البحث .

(٢) يوسف : ٢١ .

ولنا أن نتمثل كيف أفضت إليها أمانة السر بالخبر، وأن ذلك تم في مكان ما من القصر ، وليكن غرفتها الخاصة التي لا يدخلها إلا أقرب المقربين منها ، فهذا هو المشهد الأول مشهد السماع .

(فلما سمعت بمكرهن)

وقد تكون امرأة العزيز أرسلت المرأة التي أخبرتها بالدعوات إلى نساء المدينة في التو واللحظة وعندئذ يكون قوله تعالى (أرسلت إليهن) استكمالاً للمشهد الأول من الآية . ويكون المشهد بأكمله هكذا :

(فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن)

وإذا كانت المرسلة بالدعوات غير من أخبرت امرأة العزيز فذلك يقتضى وجود فاصل زمني بين الإخبار والإرسال ، ويكون دخل إلى المشهد أشخاص آخرون منها شخصية المرسلة ، وربما يكون المكان قد تغير وعندئذ يكون قوله تعالى : (أرسلت إليهن) مشهداً ثانياً مستقلاً عن المشهد الأول ، لأن العبرة في الاعتداد بالمشهد هو اختلاف المكان ، ويدخل فيه - أيضاً - دخول أشخاص رئيسة إلى المشهد أو خروجها منه (١) .

ومن غير المعقول أن تكون دعوة امرأة العزيز إلى نساء الطبقة الراقية منجزة وواجبة من قورها ؛ إذ إنها لا تضمن إجابتهن جميعاً في وقت قريب جداً ، وإنما المعقول أن تكون الدعوة مؤجلة إلى حين يمكنها فيه القيام بما تدبره للنسوة ، وإعداد وليمة تليق بمكانتهن الاجتماعية . ومعنى ذلك أن ثمة زمناً غير قصير يفصل بين إرسال الدعوة وإجابتها ، وبذلك يكون قوله تعالى : (وأعدت لهن متكاً) هو المشهد الثالث ، ومن المفهوم أن الوليمة إنما كانت في مكان مناسب كغرفة الطعام ، ومفهوم أيضاً أن إعداد المتكأ إنما تم قبل أن تأتي النساء المدعوات ، فالمشهد الثالث يرينا صورة المكان فارغاً من النسوة .

فإذا شاهدنهن في المكان ، وفي يد كل واحدة منهن سكيناً عرفنا أن الموائد قد صفت ، وقدم عليها الطعام ، وبدأ النسوة يأكلن وبذلك نكون في قلب المشهد الرابع وهو قوله تعالى (وأتت كل واحدة منهن سكيناً) وفي المشهد الخامس نرى "يوسف" - عليه السلام - ومعه امرأة العزيز في مكان آخر مجاور للمكان الذي توجد فيه النسوة ، وهي

(١) انظر : الأدب وفنونه د. محمد منير ، ١٠٩ .

تأمره بالخروج عليهن لكي تباغتهن بجماله وحسنه (وقالت اخرج عليهن) .

وفى المشهد السادس والأخير نرى "يوسف" وامرأة العزيز والنسوة فى غرفة الطعام ، وهن ينظرن إليه بدهش وانبهار ألهاهن عن الطعام وعن السكاكين فأخذن يقطعن أيديهن بدلا من الفاكهة ، وفى المشهد نسمع شهادة النسوة ليوسف بالحسن والجمال الذى يفوق ما عليه البشر : (فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) .

وإذا كانت هذه الآية تضم كل هذه المشاهد فليس معنى ذلك أنها استقصت الأحداث كلها ، بل العكس هو الصحيح ، فنحن نرى بين المشاهد فجوات فنية كثيرة ، أضمر السياق فيها كثيراً من الأحداث الخارجة عن نطاق المشاهد ، والتي تفهم من السياق ويدل عليها الموقف القصصى ؛ نرى هذه الفجوة بين المشهدين الأول والثانى، كما أن بين المشهدين الثانى والثالث فجوة كبيرة ، والفجوة الكبرى بين المشهدين الثالث والرابع وذلك واضح فى السطور السابقة .

ونلمس بوضوح كيف ينتقل بنا الأسلوب القرأنى من مشهد إلى مشهد فى سهولة ويسر ، ولننظر إلى هذه الأفعال المعطوفة على بعضها بالواو : (أرسلت .. وأعتدت .. وءات .. وقالت) وهذه الأفعال أيضاً (أكبرنه .. وقطعن .. وقلن) إنها توحى بالتلاحق بين الأفعال ، والسرعة فى وقوع الأحداث والترتيب الطبعى فيما بينها ، إن القارئ قد يمر بهذه الآية دون أن يلتفت إلى وجود هذه المشاهد القصيرة المتوالية ، وذلك بسبب هذه الأفعال الكثيرة المتعاقبة .

إن الموقف هنا لا يصور صراعاً مادياً ملموساً ، وإنما يصور الصراع العقلى النفسى الذى يدور بين النساء؛ فامرأة العزيز تأبى أن تنهزم أمام النسوة كما انهزمت من قبل أمام فتاها ، فلجأت إلى هذه الحيلة التى لا يجيدها إلا النساء، وهى تريد أن يقر لها النسوة بما فعلت بفتاها ، وكان لها ما أرادت ، ولم يكن من المناسب أن تبني مشاهد هذا الموقف على الطول والبسط ، وأن يتخللها حوار طويل تدافع فيه المرأة عن نفسها ، وتفند دعاوى النسوة عليها ، فربما يغلبنها فى الحوار ، وينجلى الموقف عن إدانتها وتقبيح فعلتها ، وقد لجأت المرأة إلى ما يناسبها من مكر وحيلة نافذة ، فالأسلوب هنا أليق بطبيعة المرأة ، وأجود فى تصوير هذه الطبيعة ، ولا ننسى أن هذا الموقف إنما ينور فى بيئة فاسدة متحللة ، أقسد الترف والجاه أصحابها . كما ساعدت

شخصية العزيز الخانعة التي اختفت من الموقف كله على زيادة الفساد والانحلال لدى زوجه .

- إن الكاتب ثروت أباطة استوحى قصة "يوسف" - عليه السلام - وأخرجها في ثوب عصري ، وأخذ كثيراً من أحداث القصة القرآنية في قصته ومنها حادث المراودة ، وما ترتب عليه من لغط بين النساء . وجعل الكاتب شخصية "زهيرة" في مقابل امرأة العزيز ، وجعل شخصية "وجدى" في مقابل شخصية عزيز مصر . وجعل "وجدى" عاجزاً عن إتيان زوجته "زهيرة" لكي يسوغ لها بذلك مراودة "صديق" الذي يقابل شخصية "يوسف" - عليه السلام ، وكان الزوجان قد صدما "صديق" بسيارتهما بعد أن فر من "الملاهي" حين سمع أخويه يتآمران معا على قتله ، فأخذه وربياه حتى صار على أعتاب الجامعة ، ورغبت فيه الزوجة فراودته عن نفسه ، ولكنه أبى أن يخون من رباه وعلمه ، واقترح "صديق" أن يسهل له "وجدى" دخول السجن؛ إذ كان يعمل ضابطاً بأحد السجون فعلا . ثم علمت الزوجة أن ألسنة النساء تتناولها بالتهمة ففعلت مثلما فعلت امرأة العزيز في القصة القرآنية .

كتب المؤلف مصوراً هذا الموقف فقال : (١) .

"تأكدت "زهيرة" أن زوجها سيكون غائبا عن البيت في يوم الأربعاء ، فاخترت هذا اليوم لكي تدعو إلى الشاي جميع اللواتي اتهمنها بالعيون اللائمة ، أو العيون المتسائلة ، أو العيون المتلصصة .. أو بالابتسامة الخبيثة وأصرت أن تدعو اللواتي تجرأن وسألنها كيف حال صديق ؟ وكان هذا السؤال غريباً ، لأن "صديق" كان بالنسبة لصويحباتها شبحاً يسمعن عنه ولا يرينه منذ قدم إلى البيت .

دعت أو لئكن جميعاً وأعدت لهن حفلة شاي بانخة ، أكثرت فيها من الفاكهة ، واختارت التفاح بالذات ، وذهبت خصيصاً إلى من يسن السكاكين فيجعلها بالغة الحدة .. وذهبت أيضاً إلى أحد المصورين وأعطته صورة صغيرة عندها ، وطلبت إليه أن يكبرها فيجعلها بالحجم الطبيعي .

وجاءت المدعوات ، وقدمت إليهن التفاح ، وانتظرت حتى بدأن يقشرن التفاح

(١) رواية الغفران ، ثروت أباطة ، ط دار مصر للطباعة ، نشر مكتبة مصر ١٩٨٨ م ص ٩٢ ، ٩٤ .

وقد أثرت أن تكون الأمثلة التطبيقية في هذا المبحث وما يليه لكتاب مشهورين ، أو لكتاب معاصرين ، أما المشهورون فلأن شهرتهم دليل على تقدمهم وضلوعهم في الفن غالباً ، وأما المعاصرون فلأن كثيراً منهم يتحور نحو المذاهب الأدبية الحديثة ، التي كان لها فضل التطور في القصة كما يدعون .

وأزاحت الستار عن الصورة المكبرة لصديق ، فبدت الصورة وكأن صاحبها هو المائل لا الصورة ، وارتبكت السكاكين فى أيدي النسوة وقطعن أيديهم وتصايحن .. هذا ملاك .. لم نر مثل هذا الجمال .. ليس هذا من البشر - لا تلمنى إذن وأنتن قطعتن أيديكن . وسترت الصورة ، وفهم المدعوات أنه لا معنى لبقائهن بعد ذلك .. فقد أسدل الستار على نهاية التمثيلية التى ألفتها زهيرة .»

هذا هو الموقف الذى استوحاه الكاتب ، وقد استغرق عنده ما يقرب من عشرين سطرأ يسبقها صفحتان استغلها فى وصف الحديث الذى دار على ألسنه النساء عما دار بين "زهيرة" و "صديق" ، ووصف التجهيز لهذه التمثيلية التى ألفتها "زهيرة" أو على الأصح التى ألفها الكاتب .

ولنا أن نلاحظ الافتعال فى سرد الحدث ؛ فالزوج سيفيب فى يوم الأربعاء ، صويحاتها يسألن عن حال صديق ، وهو شبح بالنسبة إليهن، لأنهن لم يرينه أبداً أى منذ أن التقطته هى وزوجها وهى صبى صغير إلى أن صار شاباً قوياً يقف على أعتاب المرحلة الجامعية أى أكثر من عشر سنوات ، ولا أدرى كيف يكن صويحاتها ثم لا يرينه أبداً ، إنها محاولة الكاتب لكى يحتفظ بمفاجأة النسوة بجمال "صديق" الباهر ، ويبلغ الافتعال قمته حين تذهب المرأة إلى أحد المصورين ليكبر لها صورة، ولم يقل الكاتب إنها صورة "صديق" حتى يفاجئنا نحن أيضاً ، وقد حدثنا من قبل كثيراً عن هذا الجمال الذى أراد أن يبهتنا - نحن القراء - بصورة صاحبه ، فلما أزاحت المرأة الستار عن صورة "صديق" ارتبكت السكاكين فى أيديهن فقطعتها ، فى مشهد مفتعل غاية الافتعال.

ولنا أن نلاحظ - أيضاً - هذا الحرص على بعض التفاصيل التى ذكرها الكاتب مثل الإكثار من الفاكهة ، واختيار التفاح بالذات ، وذهابها إلى من يسن السكاكين فيجعلها بالغة الحدة ، هذه أوصاف زائدة ، والكلمة الزائدة فى القصة تعد طعنا فى ذكاء القارئ ، واتهاما له بالغباء .

لقد رأينا فى الموقف القرأنى كيف كان الأسلوب سريعاً يدلف بالقارئ من مشهد إلى مشهد فى خطى واسعة تتجاوز كثيراً من التفاصيل التى تتيح للقارئ المشاركة الإيجابية فى تصور الموقف القصصى . وصدق الله إذ يقول فى قصة "يوسف" نفسها

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ (١) . ولا شك أن (الأحسني) هذه أحسنية فنية في بعض نواحيها .

لقد اختلفت طبيعة المشهد عند الكاتب عنها في القرآن الكريم، أي اختلفت طريقة تقديم الحدث ، وطريقة التعبير عنه ، برغم أنه استوحى الموقف كاملاً من القرآن ، استوحاه بكل عناصره وملابساته وذلك مع أنه واحد من أكثر الكتاب وعياً بأساليب السرد القصصي في القرآن الكريم .

وقد استوحى الكاتب نفسه قصة "موسى" - عليه السلام - وصاغها في أسلوب عصري ، وحرص في قصته على أن يتناول كثيراً من الأحداث الغريبة المشوقة التي وردت في القصة القرآنية ، ومن ذلك قصة "موسى" والعبد الصالح التي وفقنا معها بالتفصيل فيما مضى (٢) ، كتب يقول عن "سامى" المقابل لشخصية "موسى" - عليه السلام (٣) .

وفى ليلة أخذه النعاس وهو فى هذه الحال من التهجذ والمساغة فرأى فى منامه عجباً رأى شيخاً مهيباً وجهه كله صلاح وتقوى ونور يركب البحر ولكن مركبه فيه ليس سفينة ولا هوقارب . وإنما حوت ضخمة يشق به العباب ويأتمر بأمره ، ولم يكن حين يأمره يحدثه وإنما كان الحوت يدرى ما يريد سيده فيأتمر بأمره بصورة تلقائية لا يعرف الناس لها مثيلاً .

ويظل الشيخ النورانى سائراً فى البحر "وسامى" معه يصاحبه وقد اطمأنت نفسه وأصبح فى سعادة سماوية لا يحسها إلا حين يقرأ القرآن ، بينما الشيخ النورانى على حوته يشق الماء شقاً عرضت له سفينة ضخمة فإذا هو يخطو خطوة فيصبح فوق السفينة، والحوت يسير بجانبها ، ولا ينظر ركاب السفينة إلى الشيخ وكأنه ما شاركهم مركبهم بل هم حتى لا يرون الحوت ولا يحسون من أمره شيئاً وإذا الشيخ النورانى يصنع صنيعاً يذهل له "سامى" ذهولاً مفاجئاً إن الشيخ الريانى يخرق السفينة ويتلفها وحينئذ فقط ينتبه الركاب إلى ما حدث بمركبهم لئن أن يروا الشيخ أو يشعروا به .

(١) يوسف ، من الآية ٣ .

(٢) انظر المبحث الأول من الباب الثانى من هذا البحث .

(٣) طارق من السماء ، ثروت أباطة ، ط : دار غريب الطباعة ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

ويصيح به سامى :

- أتخرق السفينه لتفرق أهلها .. أهذا عدل ...أيعقل أن شخصا فى عظمتك يصنع هذا الصنيع .. وينظر إليه الرجل الربانى ولا يكلمه وإن كان يبدو عليه أنه سمعه ويلح سامى فى استنكار ما رأى :

- إنك رجل نورانى .. إنك رجل ربانى ...أمعقول هذا الذى تفعله وكان الشيخ قد استقر على الحوت فنظر إلى "سامى" نظرة هادئة مطمئنة وابتسم له فكأنما أشرق عن فمه ضياء فجر ومشى به الحوت وسامى لا يدرى كيف يتسنى له أن يكون فى رفقته . وسار الحوت إلى أرض مدينة وخرج الشيخ النورانى ومضى فى طريق بين بيوت وإذا بغلام مقبل عليه حتى إذا اقترب منه وأصبح بين يده إذا به يضربه ضربة صاعقة فيقتله

ويحيط الهول الآخذ بسامى ويتملكه الذهول وتكاد الدهشة (أن) تعقد لسانه ولكنه جاهدها حتى استطاع أن يصيح بالشيخ فى استنكار شديد :

- أتقتل نفسا زكية بغير نفس أهذا عمل يرضاه الله أهذا معقول . لقد كنت أحسبك ربانيا .

ولم ينظر إليه الشيخ وكأنه ما سمعه ، وصاح "سامى" ثانيه وثالثة ورابعة فنظر إليه الشيخ وابتسم تلك الابتسامة المشرقة بالنور وصمت "سامى" ومضى الكاتب يورد بقية القصة على هذا النحو ، فأورد حادث الجدار الذى يريد أن ينقض ، وأقامه الشيخ النورانى ، واستنكر :سامى" عليه ذلك" ، وفسر الأحداث على لسان الشيخ بمثل ما فسرهما به العبد الصالح لموسى - عليه السلام - فى القصة القرآنية .

والملاحظ - هنا - أن الكاتب دفع دفعا إلى أن يجرى هذه الأحداث مناماً لا يقظة ، حتى يستطيع أن يوردها على هذا التسلسل الغريب الذى لا يصدق . وما دام الأمر كله مناماً فليقل الكاتب ما يقول ، وفى القصة القرآنية كانت الأحداث تجرى يقظة لا مناماً وعلى سبيل الحقيقة ، وهذا هو مكنى العبرة فى القصة القرآنية ، فبد القدرة الإلهية حين تتلبس بالأحداث وتجريها فإن القارئ لا يحس فيها أدنى قدر من الاقتعال مهما كانت هذه الأحداث غريبة وعجيبة .

والملاحظ -أيضاً أن الكاتب حرص على التأكيد- أكثر من مرة- أن ركاب السفينة كانوا لا يرون الشيخ الرياني، اعتقاداً منه أن الركاب لو رأوه لمنعوه من خرق السفينة، وبذلك لا يتم الحدث الذي أراد له الكاتب أن يتم، وذلك لأن الكاتب يجري الأحداث على قدرته هو، ونسي أنها تقع مناماً لايقظة، وخيالاً لا حقيقة. وفي القصة القرآنية وقع حدث خرق السفينة دون أي التفات إلى ركايبها: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ (١). هكذا في سرعة خاطفة، ودون أن نرى ركاب السفينة في المشهد، وحتى لو رأوه وهو يخرقها ماكان لهم أن يستطيعوا منعه، لأن الذي يدبر الحدث هو منزل القرآن- سبحانه-.

ومن أهم الأمور في القصة القرآنية ذلك العهد الذي كان بين "موسى"- عليه السلام- والعبد الصالح ﴿قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٢)، وذلك بعد أن سأل "موسى" أن يصحبه ليتعلم منه، وقد نصحه العبد الصالح بأنه لن يطيق الصبر على مايرى من أحداث غريبة. ولكن "موسى" وعده الصبر، وعدم عصيان أوامره.

فلما وقعت الأحداث أمام عيني "موسى" وجدناه ينسى عهده ويسارع إلى إنكار مايرى من العبد الصالح، مرة ومرتين وثلاثاً حتى افترقا، وكان العهد من "موسى" ثم مسارعته إلى نسيانه هو المحور الذي تدور فيه الأحداث، والذي تبدت - من خلاله - شخصية "موسى" المندفعة أحياناً إلى الغضب والعنف.

وكان إغفال الكاتب لهذا الأمر الأساسي سبباً في تذبذب العلاقة بين "سامى" والشيخ النوراني؛ إذ نرى "سامى" معجباً به وسعيداً بلاقائه في البداية، فلما وقع الحدث الأول اتمهمه بالظلم وإن كان احتفظ له بشئ من العظمة، ولما وقع الحدث الثانى - قتل الغلام - سمعناه يقول: لقد كنت أحسبك ربانياً.

إن رحله "موسى" مع العبد الصالح كانت رحلة تعليمية في المقام الأول ولذا وجدنا الأسلوب القرآنى يركز - في بداية العرض - على بيان شرط الصحبة ويسهب إسهاباً

(١) الكهف، من الآية ٧١.

(٢) الكهف ٧٠.

واضحاً في بيان ذلك على مدار خمس آيات .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿ (١)

أما الكاتب فقد حشر هذه القصة حشراً في روايته ولذلك فقدت كثيراً من مغزاها ، وأحس الكاتب ذلك فحاول أن يجعل من أحداث القصة إسقاطاً يسقطه على حياة "سامي" مع أبيه الذي كان لا يرضى عن سلوكه ، وأدار هذا الحوار بين "سامي" والشيخ بعد انتهاء ، أحداث القصة :

« - بارك الله أيها الشيخ سلام عليك .

- إلى أين ؟

- أعود .

- بل انتظر .

- إذا أمرت .

- فاجلس .

- أمرك .

- ألم تكن تسأل ربك لماذا جعلك شقياً بأبيك وأنت على ما أنت عليه من حب الله وطاعته .

- لا أعجب الآن حين أجدك تعرف هواجس نفسي .

- إن قلت نعم عرفت أنت أنتى لم أصدقك القول» (٢) .

★★★

يرى الدكتور محمد غنيمي هلال أن من أحدث الاتجاهات في الفن القصصي ما ذهب إليه كتاب القصة الأمريكيون ثم الفرنسيون من التركيز على تصوير المواقف، بالاختصار على عرض الأفعال والأحداث بعضها بعد بعض، دون شرح أو تأويل، والميل

(١) الكهف ، ٦٦ : ٧٠ .

(٢) طارق من السماء ، ص ٥٨ - ٥٩ .

إلى إضمار كثير من الأحداث المهمة ليستدل القارئ عليها في السياق، وعليه أن يبذل جهداً كبيراً في استخلاصها ، ويرى أن هؤلاء الكتاب ذهبوا هذا المذهب في الإضمار القصصي متأثرين بفن الخيالة (السينما) بعد أن أسرف هذا الفن في استخدامه (١) .
والذي نبه إليه الناقد هو ما نراه في القصص القرآني ، وقد التفت إليه في العصر الحديث المرحوم الأستاذ "سيد قطب" (٢) وسمى مواضع الإضمار (فجوات) تقع بين المشهد والمشهد ، وتبعه في ذلك الأستاذ "عبد الكريم الخطيب" في بعض دراساته القرآنية (٣) ، ولكنهما لم يتوسعا في دراسة الإضمار بوصفه ظاهرة كثيرة الدوران في القصص القرآني ، وقد أفاض في دراستها ، وتعقب كثيراً من مظاهرها وأورد كثيراً من الأمثلة لها أستاذنا الدكتور "كاظم الظواهرى" وذلك في دراسته المخصصة لهذه الظاهرة القصصية (٤) .

والقرآن الكريم يأتي من هذا الباب بالعجب العجيب ، الذي تتقاصر من دونه همم أعظم الكتاب ضلوعاً في الفن القصصي ، وأكثرهم شهرة ، وقد نبهت من قبل (٥) - إلى أن هذه الظاهرة تعد أصلاً من أصول البناء الفني للقصة القرآنية وأن لها دوراً في إحياء المشاهد ، وتحقيق الحضور لها ، وشد القارئ إلى متابعة القصة والسير معها إلى نهايتها .

في قصة أهل الكهف يصور القرآن الكريم - في المشهد الأول - منظر الفتية وهم يتشاورون في أمرهم بعد أن فروا بدينهم : وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْرُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا ﴿٦﴾ . انتهى المشهد بهذا العزم الذي اعتزموه - الإيواء إلى الكهف - ثم تستأنف القصة أحداثها فإذا القارئ يفاجأ بأنهم قد نفذوا العزم الذي استقر عليه رأيهم وفي المشهد الثاني يراهم رأى العين وقد استقروا في الكهف والتعبير القرآني لا يدع شكاً في أنه يراهم :

(١) انظر : النقد الأدبي الحديث ، ص : ٥٦٣ : ٥٦٦ .

(٢) وذلك في كتابه : في ظلال القرآن ، و : التصوير الفني في القرآن .

(٣) انظر : القصص القرآني في منطقته ومفهومه .

(٤) انظر : بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم .

(٥) انظر : المبحث الأول من الباب الثاني .

(٦) الكهف : ١٦ .

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ (١)

ونلاحظ أن الإضممار قد أصاب جزءاً من نهاية المشهد الأول وجزءاً من بداية المشهد الثاني ، كما أصاب ما بين المشهدين من الأحداث ، فالمشهد الأول لم ينته عند استقرار رأيهم على الذهاب إلى الكهف ، ولكن الموقف يقتضى أنهم فكروا فى كثير من الأشياء التى يأخذونها معهم إلى الكهف ، خصوصاً إذا فهمنا الفعل (أوى) بمعنى الرجوع والعودة ، فكانهم ذهبوا إلى الكهف من قبل ، ثم استبعدوا الإقامة فيه ، ثم فكروا فى العودة إليه ، ومن ثم قال قائلهم (فأووا إلى الكهف) أى ارجعوا إليه .

وفى بداية المشهد الثانى نلاحظ أنهم قد استقروا داخل الكهف ، ولم نر بداية المشهد ، أى وقت دخولهم وقبل استقرارهم ، وكيف وجدوه ، وهل أنسوا إليه جميعاً ، أو أبدى بعضهم تخوفاً من المكث فيه ، وبين المشهدين حذف السياق الأحداث التى وقعت .

والفجوة بين المشهدين تشبه ما عرف فى المسرح من إنزال الستار ، أو ما اصطلح عليه (بانقطاع الحلقة) على أحدث الطرق التى اهتدى إليها صانعو السينما فى القرن العشرين (٢).

وبعد أن استكلوا مدة نومهم التى قدرها الله لهم وبث فيهم الحياة ، وبعثوا من مرقدهم يستكمل القارئ مشهد الكهف على صورته الجديدة :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (٣) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴾ (٣)

(١) الكهف : من الآية ١٧ .

(٢) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ، ص ١٩٠ .

(٣) الكهف : ١٩ ، ٢٠ .

إنهم استيقظوا كما هو واضح من هذا المشهد ، وفي المشهد السابق كنا نراهم داخل الكهف وبين المشهدين - فى السياق - أي واحدة من الوصف هى قوله تعالى ﴿ وَحَسِبُّهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴾ (١).
والذى يعطينا من هذا الوصف هو أنه جاء فاصلاً بين مشهدين متباعدين غاية البعد من حيث الزمان ، فنحن نعلم - من ختام القصة - أن الفتية لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، فلننظر إلى قدرة الأسلوب القرآنى على تخطى كل هذا الزمان الطويل فى هذه الألفاظ اليسيرة .

ومع أن طول الزمن الذى مكثه الفتية نياماً هولب المعجزة فى القصة، لا نرى الأسلوب القرآنى يحفل به ويوقف عنده سوى هذه الإشارة الموجزة التى جاءت فى النهاية:

﴿ وَلَبَثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ (٢).

لعل فى ذلك درساً واضحاً للكتاب لئلا يطيل أحدهم الوقوف عند الأمر الغريب أو الحدث العجيب ، فيستنفذ فيه جهده وطاقته ، ويقطع بذلك تسلسل المشاهد ، وانسياب الأحداث ، ويصيب القارئ بالملل والسأم .

وعلى أية حال فإن بعد مشهد بعث الفتية من نومهم فجوة فنية كبرى أضمر فيها السياق كثيراً من الأحداث ، فالرسول الذى بعثوه إلى المدينة لم يرد له ذكر ، والقارئ لا يعرف إلا أن أمرهم قد كشف ، وعثر الناس عليهم - وهذا ما كانوا يخشونه - وللقارئ أن يتخيل ما حدث للرسول وكيف انكشف أمرهم .

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ (٣).

وهنا فجوة أخرى ، فهم قد ماتوا فعلاً والقوم خارج الكهف يتنازعون ويتشاورون فى شأنهم ، وصاروا فرقاً متعددة ، وانتهى رأى أقوامهم إلى بناء مسجد عليهم .

﴿ إِذِ يْتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ (٤).

(١) الكهف : ١٨ .

(٢) الكهف : ٢٥ .

(٣) (٤) الكهف : ٢١ .

إن مشهد الرسول حين ترك أصحابه فى الكهف وذهب إلى المدينة يعد قصة وحده ، فكيف كان شكله بعد أن نام هذه السنين التى تزيد على ثلاثمائة ، وكيف رأى طريق نهابه إلى المدينة على بعد عهده به ، وما شكل المدينة آنذاك ، ومن ذا الذى قابله أول الأمر ، وما نوع النقود التى كانت معه ، وهل كانت مستخدمة فى ذلك اليوم ، وكيف عامله الناس ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها أضرب السياق القرآنى عن الخوض فيها ، وسكت عن الإجابة عنها ، وقد أضمم السياق هذه الأحداث كلها فى فجوة واحدة من الفجوات التى بين المشاهد .

وقد ألحت الأسئلة السابقة على الكاتب "توفيق الحكيم" فكتب مسرحية طويلة من أربعة فصول ، ومعظم أحداثها وقعت بعد استيقاظ أهل الكهف ، أى مكان الفجوة التى تركها الأسلوب القرآنى ، كما كان يستدعى بعض الأحداث السابقة بالحوار إلى خشبة المسرح . وقد غير الكاتب كثيراً فى الأحداث ، وبذل من مضمون القصة القرآنية ، وحاد بها عن وجهتها الدينية الواضحة إلى وجهة أخرى فنية تماماً ، فجعل المسرحية تحكى قصة حب بين رجل وامرأة لا قصة مضروبة للدلالة على قدرة الله على بعث الموتى . وحدد عدد الأشخاص فى المسرحية فجعلهم ثلاثة "مرنوش" و"مشلينا" والراعى "يملخا" ومعهم كلب الراعى "قطمير"؛ وزور الكاتب تزويراً واضحاً فى رسم هذه الشخصيات وزور فى الهدف من خروجهم ولجوئهم إلى الكهف ، وبذلك انحرف انحرافاً كبيراً عن منهج القصة القرآنية .

وفى بداية الفصل الأول من المسرحية نقرأ الحوار التالى : (١).

(١) أهل الكهف ، ١/ توفيق الحكيم ، ط المطبعة النمنونجية ، نشر مكتبة الآداب ١٩٨٥ م ، ص : ١٩ : ٢١ .

- مشايينا : (وهو أحد الرجلين) يامرنوش !
- مـرنوش : استيقظت؟ ماذا تريد مني ؟
- مشايينا : أين أنت ؟ أسمع صوتك المتبرم ولا أراك .. أه ظهري يؤلمني !
- مـرنوش : دعني أنا أيضاً ضلوعي توجعني كأنما نمت عليها عاما
- مشايينا : أين الراعي ؟ أين ثالثنا الراعي ؟
- مـرنوش : أتبين شبح كلبه هنا باسطة ذراعيه .
- مشايينا : ألا ترى هذا الراعي يتجنب قربنا ، أين هو ؟
- مـرنوش : لعله بباب الكهف يرقب طلوع النهار ، شأن الرعاة .
- مشايينا : (يتمطي) أه ظهري يؤلمني ! كم لبثنا يامرنوش ؟
- مـرنوش : أف إنك تخرج صدري بأستئتك !
- مشايينا : أنا كذلك لو تعلم ضيق الصدر مثلك ، مرنوش كم لبثنا هنا ؟
- مـرنوش : يوما أو بعض يوم .
- مشايينا : من أدراك ؟
- مـرنوش : وهل ننام أكثر من هذا القدر ؟
- مشايينا : صدقت (صمت) ، (وفجأة يقول وهو نافذ الصبر) أريد الخروج من هذا المكان .
- مـرنوش : ويحك ! إلى أين ؟
- مشايينا : أو تريدني على المبيت هنا ليلة أخرى ؟
- مـرنوش : ليلتين أو ثلاثاً حتى نأمن على حياتنا من دقيانوس.
- مشايينا : (صائحا متذمراً) لا أستطيع ، لا أستطيع .
- مـرنوش : ولم أستطيع أنا ، وأنا لي امرأة وولد أعزهما وأعبدهما ؟
- مشايينا : أنت تستبقى حياتك من أجلهما .
- :

وهكذا يمضى الكاتب فى تصويره شخصيات أهل الكهف غاضبة ساخطة غير صابرة ، وقد استيقظوا من نومهم متبرمين ساخطين ، وقد ألم بهم وجع الضلوع ، آلام الظهر ، وضاق صدر كل منهم بأخيه ، فلا يحدث أحدهم أخاه إلا وهو نافدا لصبر ، وقد دلت كلمات الحوار على ذلك دلالة واضحة من مثل (أسمع صوتك المتبرم ولا أراك - ظهري يؤلمنى - أف إنك تخرج صدرى بأسئلتك - أنا كذلك لو تعلم ضيق الصدر مثلك) ونرى ذلك فى التوجيهات المسرحية التى كتبها المؤلف مثل (يقول وهو نافد الصبر - صائحا متذمرا) (١) وغير ذلك كثير فى الفصل الأول من المسرحية .

ومن الواضح أن القصة القرآنية صورتهم غير ذلك تماما ، يقول تعالى ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ (١٢) ﴿ (٢)

إنهم قاموا يذكرون الله ، ولم يصبهم ملل ولا ضجر ولا ألم ، ولم يقولوا غير الحق ، وهم ينكرون ما انتهى إليه قومهم حين أشركوا بالله ، واتخذوا من دونه الأصنام آلهة فقال بعضهم لبعض : ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّوَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (١٥) ﴿ (٣)

إن القنوط الذى أصاب أهل الكهف فى المسرحية كان مرجعه إلى أن الكاتب جعل سبب فرارهم دنيوياً دينياً محضاً ، "فمشليناً" كان أخوف ما يخاف عليه ، زوجته وولده ، ولم يكن يستبقى حياته إلا من أجلهم (٤) ، ومرنوش إنما خرج لأن الملك قد عرف بحبه ابنته (٥) ، ولو رد الكاتب خروجهم إلى سببه الحقيقى ، وهو الفرار بالمعقيدة لما كان هناك مسوغ لهذا القنوط .

(١) انظر قصص القرآن بين المفسرين والقصص قديماً وحديثاً ، د طه عبد الفتاح مقلد، دون تاريخ ، ص ١٤٨ ، ١٤٧ .

و مسرح توفيق الحكيم ، د محمد مندور ، ط دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الطبعة الثالثة ، دون تاريخ ، ص ٤٣ وما بعدها .

(٢) الكهف ، ١٤ .

(٣) الكهف ، ١٥ .

(٤) أهل الكهف ، ص : ١٩ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

إن المؤلف كان مسوقاً قبل كل شيء بدواعي الفن المسرحي ، وما يقتضيه من المواقف التي تحيي قصته ، ومع ذلك فقد جانيه التوفيق في كثير من الأمور الفنية مما جعل كثيراً من النقاد يوجهون له بعض المآخذ ^(١). ومن هنا نعلم أن الرغبة في الفن وحدها ربما لا تنتج فناً بريئاً من المآخذ ، ولكن نبل المقصد في القصص القرآني أنتج لنا فناً هو في الذروة بين الفنون .

★★★

إننا قد نلمح مثل هذا الإضمار القصصي المتمثل في الفجوات بين المشاهد حتى في القصص الذي يميل إلى التحليل النفسي ، كهذا المثال من رواية "سارة" للأستاذ "العقاد" ، يقول الكاتب من حوار بين "فهمام" و "سارة" بطلتي القصة وذلك في محاورة هاتفية .

قالت : إذن هل تحب أن أراك الليلة في دار الصور المتحركة
قال : بل أحب أن نلتقي على انفراد فذلك أروح وأسلم
قالت : فأين إذن ؟

قالت : ما رأيك في حديقة الأهرام ؟ إنها مكان قلما يغشاه أحد في هذه الآونة ، وسنلتقي في زاوية من الطريق ، ونستقل سيارة من هناك إلى الحديقة ، وأسمع منك ، أو أقول لك كل ما تحبين .

كان أول ما فاهت به وهي تجلس إلى جانبه في السيارة أن قالت : لا بد أنك حسبتني مجنونة ، وقلت في خلدك ما هذه الرعناء التي تقبل التقيبيل ، ثم تخرج مغضبة ، ثم تتكلم في التليفون ، ثم تحضر إلى الموعد طائعة فماذا حسبتني بريك؟ ^(٢)
والفجوة هنا واضحة وأثرها في المحاورة واضح - أيضاً - وهي تستمد تأثيرها من الموقف نفسه ، فهمام ، كان على قطيعة مع "سارة" قبل هذه المحاورة ، وكانت قد

(١) انظر : فجر القصة المصرية مع ست دراسات أخرى عن نفس المرحلة ، ص ١١٧ : ١٣١ .
و : تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ١٨٧٠ م - ١٩٢٨ م : عبد المحسن طه بدر ، ط دار المعارف ، الطبعة الثالثة ١٩٧٧ م ، ص : ٤٨٢ ، ٣٨٢ .
و : الأدب القصصي والمسرحي في مصر ، د : أحمد هيكل ، ط دار المعارف الطبعة الرابعة ١٩٨٣ م ، ص ٢٨٢ ، ٣٨٥ .
و : كهف الحكيم ، فتحي العشري ، ط دار المعارف ، سلسلة كتابك العدد ١٢٧ ، ١٩٨٠ م ، ص ١٠ ، ٢٠ .
(٢) رواية "سارة" للأستاذ عباس محمود العقاد ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

خرجت من عنده مغضبة ، ولكنها ما لبثت أن حادثته عن طريق الهاتف ، إلى أن وصل الحوار بينهما إلى هذه النقطة التي أبدى فيها "همام" رغبته في رؤية "سارة" فاقترح دار الصور المتحركة مكاناً للقاء، ولكنه رغب في غيره ، واختار مكاناً آخر ، ووضع كل منهما سماعة الهاتف في نهاية المشهد ، وكأنما أسدل الستار، ليرفع في مكان آخر على البطلين معاً وهما يجلسان متجاورين في السيارة ، وذلك مشهد جديد والزمن الذي بين المشهدين أيا كان مقداره تجاوزه الأسلوب في لمحة خاطفة ، وتجاوز معه ما وقع فيه من أحداث ، ومن اللافت للنظر في هذا الموقف أننا لا نكاد نحس انقطاع الحوار في المشهدين ، فقد كانت آخر كلمات "همام" في نهاية المشهد الأول : أسمع منك أو أقول لك كل ما تحبين ،ونفاجأ في بداية المشهد الثاني بكلمات الحوار على لسان "سارة" وأن الكاتب أثر أن تتحدث هي لأنها هي التي خرجت مغضبة ، ثم بدأت الحوار بينهما ، ثم قبلت اللقاء ،وأنت إليه ، فلا بد لها أن تستوضح رأية فيها .

ونلاحظ - هنا - أن الإضمار أصاب أحداثاً يسهل إدراكها ، وكذلك الشأن في الإضمار الذي تقع عليه في قصص كتابنا ، ولعل لهم العذر في ذلك، فالقصة الفنية الحديثة مازالت في حاجة إلى كثير من الوقت والجهد لكي تصل إلى مرحلة متقدمة ، تتلاشى فيها مظاهر القصور التعبيرية والفنية ،وأن في القصص القرآني خير مثال يمكن أن يحتذى الكتاب للوصول إلى هذه المرحلة .

المبحث الثانى

طبيعة الحوار فى المشهد القصصى فى

القرآن ونظيره فى الأجناس الأدبية

من المعروف أن القصة الفنية تعتمد على الحوار والسرد في بنائها والمحاورات القصصية أمر لاغنى عنه وبخاصة في الرواية ، لأن طولها يستدعى - بل يوجب - تنوع أسلوبها بين الوصف السردى والحوار والمحاورة فى المسرحية هى الركيزة الأساسية التى تقوم عليها ، بل هى الركيزة الأسلوبية الوحيدة ، إذا استثنينا بعض الأوصاف التى يكتبها مؤلف المسرحية للمكان ، أو للشخصيات لتكون عوناً للمخرج عند ظهور المسرحية ممثلة ، وهو ما يعرف بالتوجيهات المسرحية .

والمقصود بطبيعة الحوار هو بيان سماته الفنية ، ومنها مناسبته للشخصية والموقف القصصى ، ومنها بيان دوره فى تطوير الأحداث وتصعيدها ، ومنها : بيان قدرته على تقديم الشخصية وتصويرها تصويراً صحيحاً يتفق وصورتها الحقيقية ، ولكل من هذه السمات أمثلته الموضحة .

(١)

والمحاورات القصصية فى القرآن الكريم لها شأن عجيب : « من حيث قدرتها على بيان مدى المقاومة بين أطراف الحوار ، تلك المقاومة التى لا بد من توافرها لى ينشأ الموقف الذى يجسم صراعاً بين قوى مريدة ، وأخرى مانعة قاهرة ، والمغالبة بين هذه القوى هى التى تؤدى إلى تصعيد الحدث إلى ذروة تنتهى بتغلب إحدى القوتين على الأخرى .. وعلى قدر قوة الصراع بين أطراف القصة تكون المقاومة فى المحاورة (١) »

ولكى تتضح هذه القاعدة التى تحكم بناء المحاورات فى القصص القرآنى نقف مع بعض المحاورات لنتبين صدق ما ندعى أولها بين رب العزة سبحانه والملائكة فى خلق آدم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾ (٢)

(١) بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم ، ص : ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) البقرة : ٣٠ : ٣٣ .

ليس في هذه المحاوراة صراع أو مقاومة بين طرفيها، ولكن غاية ما يقال عنها: إنها نوع من المراجعة من الملائكة لرب العزة سبحانه وتعالى؛ لأن الملائكة هم الموصوفون بقوله سبحانه «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ»^(١) فهم لا يملكون القدرة الحافزة على المقاومة والصراع .

وإنما دفعهم إلى هذه المراجعة ماسبق إلى علمهم بأن ذرية هذا المخلوق الجديد سيكون منهم إفساد في الأرض وسفك الدماء، وعلمهم بصفة هذه الذرية يدعو إلى الاعتقاد بأن ثمة حذفاً في هذه المحاوراة، وقد وقع هذا الحذف في الجزئية المتصلة بالطريقة التي علمت منها الملائكة بصفة ذرية آدم (٧) ولذا بادروا بقولهم : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) وعجبهم منصب على أن الله - سبحانه - يستخلف من هذه صفته مكان من يطيعه ولا يعصيه وهم الملائكة (٢) .

إن طبيعة المحاوراة هنا تعتمد أساساً على اختلاف طرفي الحوار، الخالق - سبحانه وتعالى - وهو صاحب المشيئة المطلقة ، والمخلوقون الذين لا يعصون لله أمراً، ولذا جاءت المحاوراة على هذه الصفة، إذ لم يتعد الطرف المقهور - وهم الملائكة - طور المراجعة إلى ما هو أشد منها، من مقاومة أو صراع، ولم يلبث هذا الطرف المقهور أن أعلن الاستسلام والخضوع حين بدت لهم مشيئة الله في خلق آدم وتفضيلة على غيره من المخلوقات فقالوا : (سبحنك لا علم لنا إلا ما علمتنا) .

وفي هذا القول من الملائكة تأكيد لشخصيتهم وصفته الملتزمة طاعة الله دائماً، ومراجعتهم للخالق - سبحانه - لاتعنى بحال خروجهم عن هذه الطاعة، بل تؤكد لها، إذ سرعان ما ردوا الأمر برمته إلى علم الله فور ظهور الدليل أمامهم على أفضلية هذا المخلوق الجديد.

ومن اللطائف في بناء هذه المحاوراة، أن القارئ قد ينظر في قوله تعالى : (إني جاعل) فلا يدري أهذا الجعل قد كان فعلاً وقت بداية المحاوراة أم سيكون فيما بعد ؟ ثم يقرأ قوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها) فيفاجأ بخطاب الله آدم - عليه السلام - وهو كان فعلاً، وأن آدم أصبح خلفاً مستوياً مؤهلاً للخطاب ، مؤهلاً - أيضاً - لتلقى

(١) التحريم من الآية ٦ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ج ١ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

والكشاف ، ج ١ ، ص : ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المجلد الأول، ج ١ ص ١١٥ ، ١١٦ .

العلم، وفى هذا إيذان وإرهاص بقرب انتهاء المحاوراة؛ لأن الحدث الذى هو موضوع المراجعة قد تم فعلاً، ولذا لم يكن من الملائكة مراجعة بعد ذلك، بل كان منهم الخضوع والإذعان لمشيئة الله سبحانه.

ثانيهما - بين رب العزة - سبحانه - وإبليس، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيهِمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لِّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) ﴿١﴾

إن شخصية "إبليس" مصورة فى هذه المحاوراة أوضح ما يكون التصوير، وهو هنا نوجيهين مختلفين أشد الاختلاف، وجه ينبئ بالذلة والصفار، وجه يوحى بالتمرد والكبر والخروج على طاعة الله، وقد أوضحت المحاوراة هذين الوجهين دون أدنى تدخل من السرد الوصفى.

أما الوجه الأول فيبدو فى :

- ١ - وقوفه أمام ربه صاغرا حين سألته عن سبب امتناعه من السجود .
- ٢ - فى صدور الأمر الإلهى بالهبوط، والأمر بالخروج وتوعده بالصفار .
- ٣ - فى وقوفه مستعظفاً سائلاً ربه النظر .
- ٢ - فى تكرار الأمر بالخروج مذعوماً مدحوراً .

وأما الوجه الثانى فيبدو شاخصاً أمامنا من خلال :

- ١ - إبانته وامتناعه عن السجود لآدم، وعصيانته أمر ربه .
- ٢ - ادعائه أنه خير من آدم لأنه خلق من نار، وأدم خلق من طين .
- ٣ - إجابة الله - سبحانه - له طلب الإنتظار .

٤ - فى مبالغته فى توعده بنى آدم، والانتقام منهم، إذا يعد ألا يدع ثغرة إلا ويأتيهم منها.

ومن العجيب حقا أن يتصف إبليس بهذه الصفات المتناقضة فى آن واحد، فبينما يعلن خيريته على آدم ويقدم الدليل على هذه الخيرية، وهو اختلاف مادتى الخلق النار والطين، إذ هو يعود فيستعطف ربه سائلاً إياه أن ينظره إلى يوم البعث، فلما أجيب إلى طلبه، دون تحديد الموعد الذى طلبه، عاد إلى تمرده، ولكنه لا ينسى قدرة ربه فيقسم بها ليسلكن كل سبيل إلى إغواء ذرية آدم، ولا ينسى قدرة ربه أيضاً فيعلن أنه إذا استطاع أن يغوى الكثرة الكثيرة من هذه الذرية ويصدهم عن ذكر الله؛ فإن بعضهم لن يستجيب لغوايته، ولذا قال: (ولاتجد أكثرهم شاكرين)، لأن الأمر مردود إلى الله سبحانه، ولذا صرح فى آية أخرى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ (١)

إن إبليس خلق من خلق الله، ولو شاء الله - سبحانه - أن يقسره على الإيمان والسجود لآدم لقسره، أو لهداه إلى السجود كما هدى الملائكة، ولكن الله - سبحانه - أعطاه حرية الاختيار، وصان له هذه الحرية، ومن هنا يبدو والفرق بين هذه المحاوراة والمحاورة السابقة بين رب العزة والملائكة بشأن خلق آدم، فالمحاورة السابقة لم يكن فيها تجاذب لأطراف الحوار؛ لأن الملائكة سرعان ما أذعنوا لمشيئة الله - سبحانه - ولكن إبليس - وقد أعطى قدراً كبيراً من الحرية - راح يلج باب الحوار، فيما يشبه الجدال أحياناً ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، وفيما يشبه التحدى لذرية بنى آدم أحياناً أخرى ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ الخ .

ونلاحظ، أن إبليس كان كثير الكلام بعد إجابة الله - سبحانه - طلبه فى الإنظار، أما قبل ذلك فكان كلامه قليلاً إلى حد ما، وإن كان لا يخلو من جرأة ظاهرة؛ وذلك لأن إجابة طلبه زادت جرأة، ولعل ذلك سبب التفضيل الظاهر فى قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ

(١) سورة: ص: آية ٨٢: ٨٣ .

صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾
شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٨﴾

إن النقاد يؤكدون أن الحوار يجب أن يكون مناسباً للشخصية والموقف القصصى،
وما هو ذا القرآن الكريم يضع هذه القاعدة القصصية قبل أن يعرف النقاد حرفية الفن
القصصى، وقبل أن يهتدوا إلى معايير جودة المحاورات بزمان طويل .
(٢)

أما السمة الثانية وهى دور الحوار القرآنى فى تطوير الأحداث وتضعيدها فيتضح
من خلال هذه القصة :

قال تعالى عن ابنى آدم :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ
الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي
مَا أَنَا بِبَاسٍ بِيَدَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ
بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ
قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ
كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ
سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (١)

ولننظر فى البناء اللغوى المحكم - بل المعجز - لهذه القصة، لنرى كيف أن
الأسلوب القرآنى ضرب صفحاً عن كثير من الأمور التى لاتعلق لنا بها ولا غرض يعود
علينا من ذكرها، فمن هما ابنا آدم هذان؟ ، وما السبب الذى دفعهما إلى أن يقربا
قرباناً؟ هذه الأمور لا مكان لها فى القصة القرآنية؛ لأنها لاتفيد شيئاً سوى إشباع
الفضول البشرى، والفضول البشرى لا وزن له فى منهج القصة القرآنية ، وإنما مكانه فى
القصص البشرى الفنى!!!.

كل ماذكرته القصة أنهما أخوان قريباً قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من
الآخر، وبهذا صرنا فى قلب الأحداث قبل أن نكتمل الآية الأولى من القصة!! وأعجب من

هذا أننا نصير إلى ذروتها الدامية بعد أول جملة حوار ينطقهما الأخ الذي لم يتقبل منه، "قال لأقتلنك" والملحوظ «أنها الكلمة الوحيدة التي نطق بها هذا الأخ، ولكنه قالها في إصرار عنيد، وتوكيد جازم، وكأنه يريد أن يسد أمام نفسه كل سبل العودة إلى المسالمة والموادعة التي يقتضيها واجب الأخوة، ورابطة الدم بين الأخوين !! .

وهذه الكلمة الوحيدة «تصور نفس هذا الأخ وما يعتمل فيها من اندفاع نحو الشر، وإصرار عليه، واشتهاء له ، «وتجاوب معه، وهى تصور - أيضاً - اختلاط الشر بهذا الإنسان وامتزاجه به ، ثم هذا الإغراء الذى يقوده إليه، وكأنه يشرف به على خير يجتنبه أو نعيم يعيش فيه»^(١)، وعلى عادة الأسلوب القرأنى فى ضبط الحركات النفسية تقول القصة عن هذا الأخ الظالم : (فطوعت له نفسه قتل أخيه) حتى نفهم « أنه ليس ثمة قوى خارجية أثرت فيه حتى يقرر قتل أخيه كالشيطان مثلاً، وإنما الأمر أولاً وأخيراً شر ذاتى محض، وحقد دفين فى نفسه، كما تدل هذه الكلمة على أن فى نفس هذا الأخ صراعاً نفسياً داخلياً، وإلما كان فى حاجة إلى عملية التطويع هذه»^(٢).

إن عنصر الشر هنا كان كلامه قليلاً وفعله مؤثراً غاية التأثير، وإذا كانت هذه الكلمة: (لأقتلنك) تمثل إرادة الإنسان الباغى الظالم، فإن الكلام الكثير الذى جاء على لسان عنصر الخير، يمثل إرادة الإنسان الوادع المسالم، فهنا إرادتان متقابلتان ، إحداهما مصرة على القتل، والثانية، مصرة على ألا تدفع القتل عن نفسها، ويعطى صاحبها حيثيات حكمة بقوله : ﴿إني أخاف الله رب العلمين﴾ .

وانتصار إرادة الظلم بقتل الأخ أخاه، إيذان بنهاية الأحداث؛ ولكنها ليست إيذاناً بنهاية القصة، فما زال فى القصة ومضة تضئ جانباً من جوانب النفس الإنسانية ، تلك الومضة هى : قول القاتل بعد أن رأى الغراب يبحث فى الأرض : ﴿يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين﴾، ولأن القرآن هو الصدق المطلق، كان من المستحسن أن يرينا تلك الومضة اللامعة فى نفس هذا الأخ، فإن كل إنسان يرتكب جرماً أو معصية لابد له أن يعود إلى نفسه، وأن يثوب إلى رشده ، فيندم على ما فعل من جرم وما ارتكب من معصية، تلك هى طبيعة الإنسان العاقل السوى، الذى قد تغلبه نفسه أو يغلبه شيطانه، وهكذا كان ابن آدم .

(١) القصص القرأنى فى منظومة ومفهومة ، ص : ٢٢٠ ، ٢٢٩ .

(٢) بدائع الإضممار القصصى فى القرآن الكريم ، ص : ٧٩ ، ٨٠ .

ونلاحظ أن الحوار هنا «قد خلا من تدخل عناصر غيبية غير بشرية سواء الخالق - سبحانه - أو الملائكة أو الجن أو الشيطان، ولعل ذلك مقصود من القصة للتأكيد على استقلال الإنسان، ومسئوليته عن اختياره فيما استخلف فيه، ويمكن أن يعد الغراب بديلاً عن هذه العناصر ليشد الإنسان إلى الأرض التي خلق من ترابها وقد فعل» (١). ومن الواضح في المحاورات السابقة أنه على قدر قوة الصراع بين أطراف القصة تكون المقاومة في الحوار، ويؤكد ذلك أمران .

أولهما - أن هناك محاورات قرآنية - وإن تكن غير قصصية - تنعدم فيها المقاومة تماماً؛ لأن المحاوره بين قوى متكافئة، ولهذا لا تلبث القضية أن تحسم بطريقة الإقرار والتسليم، وفيها نجد الحوار قصيراً جداً وحاسماً (٢)، كقوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (١١) (٣). وثانيهما - أن هناك محاورات قرآنية تشد فيها المقاومة وتعنف عنفاً ظاهراً، لأن الصراع فيها بين قوى متكافئة من حيث القوة ولانعنى بالقوة هنا القوة المادية فقط، ولكن القوة المعنوية لها حسابها في ميزان التحاور بين أطراف القصة، وربما كانت مقدمة على القوة المادية في حسم نتيجة المحاوره لصالح أحد طرفيها .

ومثل هذه المحاورات العنيفة نجدها تطول وتمتد حتى إن بعضها يشغل مساحة كبيرة من كتاب الله - عز وجل - ومن أوضح ما يمثل هذا النوع من المحاورات ، محاورات "موسى" - عليه السلام - مع "فرعون" في غير سورة من سور القرآن الكريم ، ومحاورت "فرعون" مع الرجل المؤمن من آله ، ومحاورات "إبراهيم" - عليه السلام - مع أبيه وقومه .

وإذا بحثنا عن هاتين السمتين في القصص الفني، ومدى توفرهما، وجدنا أن كتاب القصة في أدبنا العربي مازالوا في حاجة ماسة إلى مضاعفة الجهود، وإلى مزيد من المران والدراسة للنماذج الرفيعة من الأدب لكي يصلوا إلى مستوى أعلى في بناء المحاورات القصصية ، ولعلهم يصلون إلى مستوى النضج الفني إذا تتلمذوا لقصص القرآن الكريم ، صحيح أن من كتابنا من يجيد بناء المحاورات - كما سنرى

(١) بدايع الإضمار القصص في القرآن الكريم ، ص : ٨٠

(٢) السابق ، ص ٧٦

(٣) فصلت ، ١١ .

ولكن هؤلاء أيضا لا تخلو محاوراتهم من هنات وسقطات ثقل كثيراً من جمال قصصهم ومسرحياتهم ، وذلك شأن كل عمل بشري .

ولنقف الآن مع بعض الأمثلة من قصص كتابنا لنرى طبيعة المحاوره من حيث ارتباط الصراع فيها بقوة أطرافها، ومدى المقاومة بين أطراف الصراع، ولنرى - أيضا - إلى أى حد تنجح المحاوره فى تقديم الحدث .

أولا - هذه المحاوره من قصة تتمثل فى أخوين تلميذين بالجامعة، أحدهما (فرح) يعمل - إلى جانب طلبه العلم، بالدعوة إلى الله، والثانى (مستور) انخرط فى سلك إحدى الجماعات الدينية، مما أثر على علاقته بوالديه وأخيه، وكان يمضى معظم وقته بالمسجد منصرفا عن استذكار دروسه ، ولكن أخاه قرر أن يذهب إلى المسجد ، ليحاور أعضاء هذه الجماعة، ويسترد أخاه منهم، وبعد أن صلى العصر معهم دار بينه وبينهم الحوار التالى (١) :

« .. بحث عن أميرهم، يبدو أنه الشيخ الذى يؤمهم فى الصلاة - التفوا حوله سارع فى التعرف عليه: أخوك فى الله "فرح عبد الله مسعود" شقيق مستور الكبير" .

- أهلاً وسهلاً قالها فى تحفظ دون أن يبتسم رمته بعين حادة يفتش عما وراءه .

- تتنحى فرح الكل فى حالة صمت، الأمير يلتهمه بنظراته شعر بغريبته . موقف حرج يريدونه أن ينصرف ، اتفضل من غير مطرود . رغبة تدور فى نفوسهم لكن يجب أن يسحب معه أخاه، ادعى أنه يتأهب للخروج : «إن شاء الله سنلتقى كثيراً ، لكن يجب أن أستاذن الآن، امتحاناتى على الأبواب » .

- وفقك الله قالها كبيرهم دون أن يلح عليه فى الجلوس .

- أخيراً كشف عن هدفه « أرجوك أن تسمحوا "لمستور" بالانصراف هو الآخر، مواد الحقوق طويلة وتحتاج إلى جهد كبير»

- رد أخوه محتجا : «لا شأن لك بى» .

- انطلقت همهمات .. قال أحد الجالسين فى حده : «لا يمكن أن نطلب منه الاجتهاد فى الباطل» .

- جاء صوت آخر : كيف يمكن أن يدرس نظم الجاهلية؟ أجاوب على نفسه مستحيل .

- اندفع ثالث «أولى له أن يولى عنايته إلى الشريعة الإسلامية بدلا من القوانين

(١) من قصة قصيرة بعنوان «فرح ومستوره محمد عبد القدوس» ملحق أمراء الجمعة، بتاريخ ٦/١١/١٩٩٢ ، ص : ١.

الأروبية» .

- طاف عليهم أميرهم بنظرات أسكتهم، التفت إلى "فرح" ، ازدادت صرامته وهو يقول «غيرتك على أخيك محمودة، لكنه اختار طريقاً آخر»
- له الحق في اختيار طريقه بعد انتهاء دراسته» .
- رد في هدوء محتفظاً بتجهمه : «كيف يدرس شيئاً لن ينفعه في حياته، بل يتعارض مع مبادئه»
- أجاب وقد قرر أن يتحداه : «الحقوق لا تتعارض مع تدينه، دراسة القوانين تساعد على فهم المجتمع الذي يعيش فيه ، وتؤهله للدفاع عن المظلومين» .
- تنهد الأمير مستمداً طاقة على الصبر : «إنه مجتمع جاهل .. ولا يمكن أن يدافع عن قوانين ما أنزل الله بها من سلطان ، الظلم سيختفى عندما تتغير الأوضاع، ويصبح مجتمعنا إسلامياً» .
- أفلتت أعصاب الشقيق الأكبر، قال وقد ارتفع صوته : «جاهلية .. جاهلية سمعت هذه الكلمة منذ أن جئت إلى هنا عدة مرات .. أنا أيضاً داعية إسلامي، مجتمعنا ليس سيئاً إلى هذه الدرجة ، فيه كذلك خير كثير .
- رد أحد الحاضرين : «وهل المنكرات المنتشرة تدل على تمسكنا بالإسلام؟ الخمر .. الميسر .. التبرج ...
- أهل مصر يحبون دينهم رغم كل ماتراه، وكل مجتمع فيه إيجابيات وسلبيات .
- تدخل الأمير وهو يعمل على إنهاء النقاش : «أخوك قرر اختيار طريق جديد منذ أن عرف حقيقة الإسلام، والمفروض أن تساعد على ذلك بدلا من أن تقف في وجهه بإحضرة الداعية» .
- لاحظ "فرح" سخريه محدثه والابتسامات التي صاحبت ذلك على الوجوه «نظر إلى أخيه التقط حيرته بين الإشفاق على شقيقه وطاعة أميره .. شجعه ذلك على مواصلة تحديهم قال في قوة كأنه يلقنهم درساً : «الدعوة إلى الله لاتعنى العزلة والابتعاد عن الناس والانقطاع عن الدراسة وسوء العلاقة مع الوالدين و ...
- قاطعه أحدهم مستهزئاً : «كل همك أن يكون أخوك من حملة الشهادات العليا .. ليساس» إنطلقت الضحكات ساخرة .
- أضاف ثان : « أنت أسير المجتمع الجاهل الذي تعيش فيه رابطة الإسلام يجب أن

تكون فوق كل شيء، حتى فوق الأهل، "القرآن الكريم" صريح في هذا (قل إن كان أبائكم وأبناؤكم و... الخ)

- صاح فرح مقاطعاً : « لاتلوى آيات القرآن وتفسرها على هواك ، أين (ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً) لماذا لاتتلو آية (ولاتقل لهما أف ، ولا تنهرهما) ..

تلقى ضربة قوية على رأسه من الخلف .. توالى الضربات والصقعات عليه، أكثر من يد تبطش به، سمع من يقول : «أنت معاند مكابر لا يصلح معك إلا العصي» الأكم يعصف "بمستور" نفسه، يصرخ يتلوى من كل لكمة تصيب أخاه .. انتفض محتجاً صائحاً : «حرام عليكم» وهو محتضن شقيقه .

- علت الدهشة وجوه أفراد الجماعة، جاءه صوت غليظ : «رسبت في أول اختبار فضلت أخاك علينا، قدمت رابطة الدم على الولاء للجماعة، أكمل آخر . الابن كان يقاتل أباه من أجل الإسلام نظر "مستور" في حدة معاتباً : ماذا فعل أخى حتى تضربوه هكذا؟، إنه مسلم مثلكم، ويحب الله ورسوله ، أخذ يسند فرح خارجين من المسجد ، بينما الأمير يقول : «اتركوه يفعل مايشاء .. لا يصلح معنا» ابتسم الأخ المصاب رغم آلامه وأوجاعه، شقيقه في أحضانه .

في هذا المشهد القصصى الذى تجمعه وحدة المكان دارت هذه المحاور الطويلة، وطرفا المحاور متباينان تباينا ظاهراً فى أفكارهما، أحدهما «فرح» مؤمن بتعاليم الإسلام، دون شطط أو غلو فى فهم هذه التعاليم، أو فى محاولة تطبيقها، والطرف الآخر هم أعضاء الجماعة ، وعلى رأسهم الأمير ، وهم يبدون على النقيض من محاورهم، فهم منعزلون عن المجتمع بدعوى الجاهلية السائدة فيه، وهم يحرمون دراسة القوانين الوضعية ، ومن هنا أغروا (مستور) بترك دراسة الحقوق، وهذا هو السبب الذى جاء بالأخ الأكبر، أى أن استنقاذ أخيه وإقناعه بمواصلة دراسته هو الهدف الوحيد لفرح من محاورته أعضاء الجماعة، هذان هما طرفا المحاور بكل مايمثله كل منهما من أفكار وآراء ، وهذا هو الحدث الأساسى فيهما، فكيف قدم الكاتب شخصياته، وكيف قدم الحدث، وبأى أسلوب ؟ .

إن من الممكن أن تقسم المحاور إلى ثلاثة مراحل واضحة :

الأولى : مرحلة التعرف بين فرح وأعضاء الجماعة، وتنتهى عند طلبه الإذن لأخيه

«مستور» بالانصراف معه، وتعلله بما هو مطلوب منه من استذكار مواد الحقوق .

ونلاحظ على الحوار فى هذه المرحلة، أنه قليل إذا ما قيس بالسرد الوصفى، وأنه غير مؤثر فى تقدم الحدث القصصى وتطويره، وأن هذا التطوير لم يحدث إلا مع العبارة الأخيرة من حوار هذه المرحلة، وهى العبارة التى طلب «فرح» بها الإذن لأخيه، وإنه لو لم يذكر كلمة (الحقوق) - وهى الكلية التى يدرس فيها أخوه - لما كان للمحاورة أثر فى بيان أفكار طرفيها فى المرحلة التالية .

وفى أول جملة حوار جاءت على لسان (فرح) وهو يتعرف إلى أمير الجماعة : «أخوك فى الله "فرح عبد الله مسعود" شقيق "مستور" الكبير» فى هذه الجملة الأولى يبدو نوع من عدم الدقة فى اختيار الكلمات ، فهذه الألفاظ لا تجرى إلا على لسان واحد من المؤمنين بمثل هذه الأفكار التى ذهب الأخ ليفندها أصلاً، ثم أليس من المعقول أن يفهم أمير الجماعة من هذه الكلمات أن محدثه واحد منهم، أو واحد مثلهم ، وإن لم يروه قبل اليوم ؟ على أنه أخ لواحد منهم، فكيف بهم يجفلون منه، ويردون على تحيته رداً مقتضباً فى تحفظ ، ودون ابتسام؟ .

إن الكاتب لو قدم لنا ما يوضح سر هذا الإجفال والنفور، لكان أوفق فى إقناعنا ، خاصة أنه أسهب كثيراً فى وصف هذه الحال التى أصابت أعضاء الجماعة .

المرحلة الثانية : وفيها تحول الحوار إلى مشهد جدلى؛ إذ يدلى كل من طرفي المحاور بآرائه ويصب أفكاره أمام الطرف الآخر، وقد يستعين كل من الطرفين بآيات من "القرآن الكريم" مستشهداً على صدق كلامه وتأكيد أفكاره .

وقد أجاد الكاتب الإمساك بخيوط الموقف القصصى فى هذه المرحلة، إذ انطلق من موقف الأخ الأصغر المؤيد لأفكار الجماعة وذلك حين رد طلب أخيه منه أن ينصرف معه قائلاً، لا شأن لك بى» وقد كانت هذه الكلمة هى الضربة التى قدحت زناد الجدل بين المتحاورين، ولذا انطلق كل واحد من أعضاء الجماعة يدلى بدلوه فى الرد على هذا الأخ، فتكلم منهم واحد ، وثان ، وثالث، إلى أن أسكتهم الأمير بنظرة من عينيه ليتكلم هو أيضاً، وكانت كلمات كل منهم تلقى ضوئاً على أفكارهم وتوضح معتقداتهم، ولعل الكاتب كان موفقاً حين جعل عدداً من أعضاء الجماعة يتحدث مما يعطى انطباعاً لمحاورهم أنهم مقتنعون بما هم عليه من أفكار ، ولو جعل الأمير يتحدث وحده من بداية الأمر لربما ظن المحاور أنهم لا يرون رأى أميرهم، أما وقد رأهم يتنفسون برئة أميرهم، ويتابعونه متابعة مطلقة؛ فإن للكاتب الحق فى أن يصفه بقوله : «أفلتت أعصاب الشقيق الأكبر،

قال وقد ارتفع صوته ..» فانفلات الأعصاب نتيجة طبيعية لإجماع محاوريه على هذه الآراء الفاسدة من وجهة نظره .

وفى نهاية هذه المرحلة يأخذ كل من المتحاورين فى الاستشهاد بآيات من كتاب الله، وهو تحاور جدلى - كما قلت - وكانت الغلبة فيه لصالح الأخ؛ لأنه كان يفهم تعاليم الدين فهماً صحيحاً، يدل على ذلك تصحيحه للجماعة فهم النصوص التى أرادوا أن يعتسفوا فى تأويلها ، وردده عليهم بنصوص قاطعة الدلالة على صحة آرائه هو ، وبذلك تنتهى هذه المرحلة من المحاوره .

المرحلة الثالثة : وهى قصيرة نسبياً، ويغلب فيها الوصف على الحوار، كما هى الحال فى المرحلة الأولى، ومع قلة الحوار فإنه بالغ الدلالة على سلوك أعضاء الجماعة مع المعاندين لهم والخارجين عليهم ، هذا السلوك الذى يتسم بالعنف والضرب والركل ، فقد أخذوا يضربون محاورهم وأميرهم يقول «اتركوه يفعل مايشاء لا يصلح معنا لأن الولاء له مقدم على الولاء للوالدين والأخ .

إن الكاتب يعالج فى هذه المحاوره قضية بالغة التأثير فى مجتمعنا اليوم، وهى قضية التمثيل بمذهب خارج على المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة، وهذا المذهب - كما عرضه الكاتب - فيه كثير من السليبيات، منها . الانعزالية والتفوق داخل المساجد، بل داخل نفوس ضيقة لا تتسع حتى لمن يحاور أصحابها ويجادلهم، ومنها التمسك فى فهم بعض آيات كتاب الله، ومحاولة لى أعناق هذه النصوص فى سبيل تسخيرها لخدمة مبادئهم .

ومن هنا يمكن أن تعد هذه القصة قصة تعليمية يقدمها الكاتب كأنها صيحة تحذير لكل شاب فى مثل حال «مستور»، وهو - أيضاً - يقدم من خلال هذه المحاوره نموذجاً لمن يريد أن يحاور أصحاب هذه المذاهب ، وأنه لابد أن يكون فاهماً أمور دينه فهماً صحيحاً، ولذلك كان الكاتب موفقاً حين جعل الأخ المحاور داعية إسلامية، يدعو إلى الله على بصيرة، وقد نجح فى استرداد أخيه من أيدي هؤلاء الجماعة، أو كما يقول الكاتب على لسانه : يجب أن يسحب معه أخاه .

وأخيراً فإن الكاتب قد وفق إلى حد ما فى الإتيان بالألفاظ على قدر المعانى، باستثناء بعض الجمل السردية التى كان يمكن أن يقلل منها، ومن أمثلة ذلك : مبالغته

فى وصف حالة النفور التى أحسها أعضاء الجماعة من وجود هذا الأخ بينهم، وذلك فى بداية المحاور، ومنها - أيضاً - قوله عن الأخ : «أجاب وقد قرر أن يتحداه» .. الخ مع أن كلماته مع أمير الجماعة تحمل كثيراً من التحدى مما يدل على أن القصة عند كثير من كتابنا مازالت فى حاجة إلى الاقتصاد فى الوصف ، ومما يؤكد ذلك المثال التالى

ثانياً . من محاوره بين شاب وفتاة ، التقيا خلسة، يمتيان أنفسهما أمانى السعادة^(١).

مبتسمة بسعادة .. قالت له الحبيبة وهما يقزقران كلمات الحب والغزل على ضفاف النهر .. فى عتمة ذلك الليل البارد .. والتى يقطعها شعاع القمر المنساب من خلال السحب الداكنة فيضفى الراحة والأمان على كل شئ : طالما كان حبنا كبيراً هكذا .. فلابد لنا أن نتزوج وسنرزق بالأبناء ، الصبيان والبناات .

- موضحة أكثر .. قالت الحبيبة ضاحكة ووجهها يتفجر تفاعلاً وسعادة الذكور سيساعدونك فى عملك والبناات سيعاونتنى فى عملى؟

انقبض ما بداخله ؟

إن الكاتب هنا مفتون بالأوصاف الكثيرة ، الغريبة والمتناقضة أحياناً، أما كثرة الأوصاف فنرى أن الكاتب قد فصل بين لفظ القول ومقول القول بما يعادل ثلاثة أسطر من الأوصاف، مما كاد معه القارئ ينسى إسناد فعل القول لأى من الحبيبين وكرر هذا الفصل أيضاً مرة أخرى وإن كان الفاصل أقصر من سابقة .

وأما غرابة الأوصاف فيأتى من هذا الإسناد الغريب : يقزقران كلمات الحب والغزل، وأما التناقض فى الوصف؛ فإن الكاتب جعل الحبيب يحس بانقباض ما بداخله فى نهاية المشهد، ونسى أن القمر المنساب من خلال السحب الداكنة كان يضيفى الراحة والأمان على كل شئ .

إن مبدأ الاقتصاد الفنى يقضى بالآ يصف الكاتب إلا ما يدعم الحدث الذى يتناوله ، وقد أخل الكاتب بهذا المبدأ فى المشهد القصصى السابق، فرأيناه برص الأوصاف التى بصفها دون رابط كما هو ظاهر من النص .

ثالثاً - نقرأ هذه القصة القصيرة^(٢):

(١) من قصة بعنوان «الصمت» للكاتب محمد حسن شبرية، ملحق أهرام الجمعة بتاريخ ١٩٩٤/٩/٩م، ص ١ .

(٢) قصة قصيرة بعنوان «عارف مين ؟» بقلم عمر سراج ، ملحق أهرام الجمعة بتاريخ ١٩٩٣/٩/١٧م، ص ١ : ومن الواضح أن عنوانها كتب بالعامية، ومع ذلك فإن فى أسلوبها كثير من التكثيف اللغوى، وهو الذى دعفنى إلى دراستها .

- ما إن اختليا في أحد أركان قاعة المحاضرات في الجامعة حتى قالت له بفرحة بادية : عارف مين اتخطبت ؟ ..

-

ولما جلسا على شاطئ النيل إبان فترة خطوبتهما قالت له فجأة وكأنها قد تذكرت الأمر للتو : عارف مين اتجوزت ؟

-

بعد مرور عشر سنوات، قالت له والعرق يتصبب من على جبينها بجوار موقد الغاز : عارف مين جالها عقد بره ؟

-

وعندما قاربت ابنتهما سن الزواج والأسرة الصغيرة جميعها في بلد خليجي قالت : - عارف مين رجعت مصر ؟ !

-

ومرت السنوات ، وتزوجت ابنتهما وأنجبت ، وبينماهما يلعبان أحفادهما ، في حديقة منزلهما، وقد تحبب الظهر، وتلون الشعر بلون النهار قالت له ، وهي ترقبه بتمعن:- عارف مين ما تآت ؟!

هذه هي القصة برمتها، وقد سماها الكاتب - «قصة قصيرة»، ولعله قد جانبه الصواب في هذه التسمية؛ لأن القصة من حيث الحجم تعد أقصوصة، ومن حيث الزمان الذي تدور فيه تعد رواية ، وهذا مظهر من مظاهر الاضطراب فيما يتعلق بالفن القصصي .

أغلب الظن أن الكاتب أراد أن يجرب قدرته على تلخيص أحداث كثيرة جرت في زمان طويل ممتد، في سطور معدودة فكانت هذه القصة على هذا النحو، ومن الطبيعي أنه لم يكن يستطيع أن يختصر هذه الأحداث الكثيرة في هذه السطور مع احتفاظه بفكرته مبسطة وواضحة، ولذا اضطر اضطراراً إلى اجتزاء الفكرة أو الموضوع المراد من الأحداث، فخرجت على هذا النحو الغامض، فما هي هذه الفكرة ؟ .

لقد فهمت - بعد طول نظر - أن الكاتب يحكي عن فتاة أحببت زميلاً لها في الجامعة، وأحب أخرى هذا الشاب فجاءته حبيبته تزف إليه البشرى أن فتاته قد سميت إلى آخر، ثم سمي هو إلى هذه الحبيبة، وفي مدة الخطبة أخبرته بزواج حبيبته من رجل

آخر فتزوج هو أيضا، وعاش مع زوجته التي تحبه، وأنجبا، وظلا معا حتى قبيل نهاية العمر .

والقصة مكونة من خمسة مشاهد ينتهى كل منها بسؤال الحبيبة محبوبها عن المرأة التي خطبت ، ثم زوجت ، ثم سافرت للخارج، ثم عادت من سفرها، ثم ماتت، لاشك أن هذه الأسئلة تحمل فى ثناياها متابعة المرأة لأخبار غريمتها فى حب زوجها، منذ أن سميت إلى غيره إلى أن ماتت، وتحمل أيضا فرحة المرأة بانتصارها على هذه الغريمة بالاستحواذ على هذا الرجل بونها، وتحمل، معنى أن المرأة لاتسلو ولاتريد أن تسلو مناقسة غيرها لها فى حب رجل واحد .

هذه هى الفكرة أو الموضوع الذى أراد الكاتب أن يطرحه من خلال هذه الأقصوصة، ويلاحظ أنه حذف ربود الرجل على أسئلة المرأة واكتفى بوضع بعض النقاط ، وذلك يجعل القارئ فى حيرة ، فلا يدري هل سكوت الرجل كان ناتجا عن تعلقه بمحبوبته التى فاتته وعندئذ يكون مثله مثل زوجته التى تلفحه بهجير أسئلتها، أى أن كليهما لم يسئل ولا يريد أن يسئل ، أو أن سكوته كان عن استغراب لموقف زوجته التى مازالت تذكر أمره مع هذه المحبوبة بعد كل هذه السنين ،

وعلى أية حال، فالقصة تقدم صورة واضحة لمحاولة الكتاب الاتجاه الى التركيز الشديد فى اختيار الأحداث، ومحاولتهم التكثيف اللغوى فى بناء المحاورات ، وعلى الرغم من ذلك نجد بعض الأوصاف التى يمكن الاستغناء عنها، كقوله : بعد مرور عشر سنوات، قالت له والعرق يتصبب من على جبينها بجوار موقد الغاز، إذ ربما لايعيننا -نحن القراء - أن تكون المرأة بجوار موقد الغاز، أو تكون مطلة من النافذة مثلاً ، إلا إذا كان الكاتب يعنى بهذا الوصف شيئا لاندركه .

رابعا - محاورة بين «سعيد مهران» «ورؤف علوان» (١) وكان «سعيد» لصاً يغزو مساكن الأغنياء لينهبها، صادراً فى ذلك عن فكر «رعوف» الذى كان يعهد إليه ببعض الكتب عن الاشتراكية، وكثيراً ما كان يحدثه عن العلاقة بين الفقراء والأغنياء، وأن المال يجب أن يكون شركة بينهم وفى إحدى غزوات «سعيد» قبض عليه، وأودع السجن، فلما خرج ذهب لمقابلة أستاذه، فوجده واحداً من الأغنياء الذين كان يتحدث عنهم، ومن عليه «رعوف» ببعض الطعام ، وورقتين ما ليتين من فئة الخمسة جنيهات، فحرق عليه «سعيد»

(١) من قصة «اللمس والكلاب» أ : نجيب محفوظ ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤م، ص : ٤٤:٢٩ .

وعزم على غزو مسكنه الفخم، وفي أثناء الغزوة أمسك به روف ودار بينهما الحوار التالي:-

«كان يحلم بحافظة تقود «روف» أو بعض التحف، وكان عليه أن يتقدم ...، ولكنه رأى ظلاماً مطبقاً كالكابوس، وفكر في إشعال عود ثقاب للحظة واحدة، وبغته دهمه نور ساطع من كل ناحية، نور شديد انقض عليه كل كلمة قاضية انعلق جفناه بلا إرادة، ولما فتحهما رأى «روف علوان» على بعد ذراعين، على بعد ذراعين في روب طويل بدافيه عملاقاً، ويده مدسوسة في جيبيه مشدودة كأنها تقبض على سلاح، هكذا ظن ونظرة عينيه البادرة زادت قلبه المهزوم برودة، وانطباق شفتيه الناطق بالعداوة والكراهية، والصمت القاتل أثقل من سور السجن، والسجان عبد ربه سيقول هازئاً: ما أسرع أن رجعت وانطلق صوت نحاس من وراء ظهره يتسائل:

ننادى البوليس؟

فالتفت وراءه فرأى ثلاثة من الخدم يقفون صفا، غير أن روف خرج عن صمته قائلاً: اذهبوا خارجاً وانتظروا.

ولما فتح الباب ثم أغلق وراءهم أدرك خطفاً أنه باب خشبي ذو زخارف عربية محلى الرأس بحكمة أو مثل أو آية من الصدف، وأرجع رأسه من التفاتته ليتلقى النظرات العابسة ويسمع صوته الخشن وهو يقول:

- من الغباء أن تجرب ألا عيبك معي أنا، أنا فاهمك وحافظك عن ظهر قلب.

لم ينبس ومضى يفيق من ضربة المفاجأة، ولكن على استسلام كاليأس، وكان داخله شعور بأنه لن يسلم إلى القبضة التي أفلت منها أمس، أو هكذا شعره.

- كنت في أنتظارك على أتم استعداد، بل ورسمت لك طريق السير، وددت لو يخطئ ظني، ولكن أي سوء ظن فيك يخطئ؟!.

غض بصره لحظات، فرأى ما تحت قدمية من مشمع لامع ثم رفعهما دون أن يحاول الخروج عن صمته.

- لافائدة، لن تنتهي من حقارتك، وسنموت حقيراً، وخير ما أفعله أن أسلمك إلى البوليس.

فاختلج جفناه وانفجرت شفتاه في عصبية، فنسأل روف في حده:

ماذا جئت تريد؟

فغض بصره مرة أخرى .

- أنت تفصح عن عداوتك، نسبت الإحسان وتركزت في الحقد والحسد، إنى أعرف أفكارك بقدر ما أعرف حركاتك .

وبصوت خافت ، وبعينين تختفيان في الأرض قال :

- رأسى داير، مازال دائراً منذ خرجت من السجن .

- كذاب ، لاتحاول خداعى، أنت تتوهم أنى صرت واحداً من الأغنياء الذين كنت أحمل عليهم ، وعلى هذا الأساس أردت ، أن تعاملنى .

- ليس الأمر كذلك .

- إذاً لم تسلك إلى بيتى ؟ لم تريد أن تسرقنى ؟

تردد سعيد ملياً ثم قال :

- لا أدرى لست فى حالة طبيعية، وأنت لن تصدقنى !

- طبعاً لأنك تعلم أنك كاذب، لم تقتنع بكلماتى الطيبة ، ثار حسدك وغرورك ، اندفعت كالجنون نفسه كما هى عادتك، ولك ماتشاء فستجد نفسك فى السجن مرة أخرى، فقال فى تسليم .

- أعذرنى ، مازلت أعيش بعقلية السجن وما قبله ..

- لا عذرك، أنا أقرأ أفكارك ، قرأت كل جملة مرت بعقلك، كل جملة ، الصورة الكاملة التى تتصورنى فيها، والآن أن لى أن أسلمك للبوليس فمديده كالرجاء قائلاً :

- كلا ..

- كلا ؟، ألا تستحقه ؟

- بلى ، ولكن لا ..

فنفخ غاضباً وهو يقول :

- إن رأيتك مرة أخرى فسأحسبك كحشرة ..

وهم بالتحرك فى سبيل النجاة، ولكنه صاح به :

- أرجع النقود !

فجمد بصره دقيقة، ثم دس يده فى جيبه فأخرج الورقتين، فتناولهما الآخر قائلاً :

- لاترنى وجهك مرة أخرى ..

لقد سبق هذه المحاوره محاوره أخرى بين «رؤف علوان» و«سعيد مهران»^(١)، وكان «سعيد» نداءً كاملاً فيها لرؤف ، بل كان يسخر منه، ويستهزئ به لما وجده قد تنكر لمبادئ الاشتراكية، التي تنادى بالمساواة بين الفقراء والأغنياء، وكان «رؤف يتحمل سخريته على مضض؛ لأنه كان يحس بمسئوليته عن الأفكار التي يحملها «سعيد» في رأسه، لأنه هو الذي سقاء هذه الأفكار يوم كان «سعيد» يخدمه وزملاءه في بيت الطلبة إبان مرحلة الشباب، بل كان يدافع عنه يوم ضبط متلبساً بالسرقة .

وفي هذه المحاوره التي بين أيدينا - نجد موقف كل من المتحاورين قد تغير، «فسعيد مهران» هنا لص انتك حرمة أستاذه ، وسطاً على بيته ، و«رؤف علوان» رجل من وجهاء المجتمع، صاحب منصب رفيع، وليس عليه أن يتحمل وقاحة هذا اللص إلى الأبد، مهما يكن مسئولاً عنه وعن أفكاره التي لم تعد مناسبة له، بل تخلى عنها وكفر بها بعد أن صار من الأغنياء .

ومن الطريف - حقا - أن الكاتب أنهى المحاوره الأولى بأن أعطى رؤف سعيداً عشرة جنيهات ، ثم أنهى هذه المحاوره بأن جعله يسترد هامنه، فحين أخذها سعيد - في المحاوره الأولى أوحى ذلك بانتصاره على أستاذه، وحين ردها - في المحاوره الثانية - كان ذلك دليلاً على اندحاره أمام الأستاذ .

وقد أدار الكاتب الحوار بذكاء ملحوظ فجاء معبراً عن موقف كل من المتحاورين، ولذلك نرى أن «سعيداً» ظل صامتا أكثر من نصف المحاوره، والكاتب يستعويض عن كلامه بوصف أفكاره ومشاعره ، والتركيز على خشيته العوده إلى السجن، ثم إنه في موقف لا يمكنه الدفاع عن نفسه؛ لأنه أمام أستاذه الذي يعرفه جيداً، فهو الذي رباه على اللصوصية، ولما نطق «سعيد» أمام أستاذه نطق بكلمات لاتفيد في الدفاع عن نفسه ، لأنه يعرف أنه عار تماماً أمام محاوره، وليس أمامه إلا أن يستعطفه ويرجو عفو عنه .

أما «رؤف علوان» فإنه يمثل جانب القوة، وقوته مستمدة من إحسانه المزعوم إلى محاوره ، ولذا انطلق يحلل دخيلة نفسه، ويشرح أفكاره، كما لو كان يتحدث عن نفسه هو، فيقول في البداية : إن غياب أنساء أنه يتعامل مع أستاذه الذي يفهمه جيداً، وإنه كان ينتظره ومستعداً لاستقباله هذا الاستقبال المروع، ثم إنه يفهم جيداً حقيقة نظرة «سعيد» له، وأنه يعامله بوصفه واحداً من الأغنياء الذين كان «رؤف» يحمل عليهم فيما

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢ : ٢٦ .

مضى .

وقد أجاد الكاتب التعبير بالحوار عن قزع «سعيد» من السجن حين هدده «رؤف» بتسليمه إلى «البوليس» ، فهو يخشى السجن الذى خرج منه منذ يوم واحد، وهو لم يخرج من السجن إلا ليقترض لنفسه ممن خانوه قبل ذلك، ومن زوجه التى طلقته منه، وتزوجت غيره فى أثناء سجنه وسطوه على أستاذه كان نوعاً من القصاص جزاء تذكره له، وللمبادئ التى رباه عليها .

ويمكن أن نلمح - فى المحاوراة أيضاً - الدافع الذى حدا برؤف إلى العفو عن «سعيد»، رغم قسوته عليه فى حديثه معه، وأن هذا الدافع ربما يكون كامناً فى إحساسه بمسئوليته عن الحال التى آل إليها هذا اللص، وربما تكون خشيته من أن تلوكه السنة الناس - وهو الوجه صاحب المنصب - لمعرفة بهذا الصلوك .

ومما يؤخذ على هذه المحاوراة أن الكاتب بدأها بالتهديد بإبلاغ «البوليس» على لسان الخدم، وكرر هذا التهديد فى أثنائها على لسان «رؤف» وكرره مرة ثالثة على لسان «رؤف» أيضاً قبيل نهايتها، ولم نجد أثراً لهذا التهديد فى نفس «سعيد» إلا فى المرة الثالثة ، وظل صامتاً فى المرتين الأولىين، برغم أن الحديث عن «البوليس» والسجن كان يمثل بالنسبة إليه قمة الإحساس بالمرارة والإحباط على نحو ما عرفنا من قبل .

ويمكن أن يؤخذ عليها - أيضاً - انصراف الكاتب إلى وصف المكان ، كالباب الخشبي ذى الزخارف العربية .. إلى آخره، والمشمع اللامع الذى يغطى أرض البيت ، وأن الكاتب جعل هذا الوصف من خلال عيني «سعيد» وهو فى موقف نفسى حرج من هول المفاجأة التى يعانها، ومن الطبيعى أن من كان فى مثل موقفه لا يلاحظ الأشياء من حوله بمثل هذه الدقة التى صورها الكاتب .

وأخيراً تبدو قسوة الكاتب على الشخصيتين واضحة فى هذه المحاوراة وفى القصة عموماً، وذلك بوصفه واحداً من كتاب الواقعية الذين يحملون شخصياتهم بالمتناقضات، ويرهقونهم بالمظالم، فسعيد مهرا ن مجرم أثيم ملئ بالحق والكراهية، والحسد لكل الأغنياء، عازم على القصاص من المجتمع الذى يعيش فيه، حتى وإن كلفه ذلك حياته نفسها، «رؤف علوان» وصولى متتكّر لكل المبادئ والمثل التى كان ينادى بها فى مرحلة الشباب، وهو يلبس لكل حال ليوسها بغض النظر عن إيمانه بما ينادى به، فالهمم عنده

أن يحافظ على ما حصله من جاه ومجد وثراء .

خامساً : وكما نجح «نجيب محفوظ» في تقديم شخصياته بالحوار نجح الأستاذ «العقاد» أيضاً في تقديم شخصية بطل قصته «ساره» وشخصية حبيبته في أول لقاء بينهما وقد ذهب «همام» بطل القصة لزيارة أحد أصدقائه وكان يسكن عند إحدى الخائطات تسمى «ماريانا» فلمح امرأة اعجبته، فحدثها وكان يدعوها بالآنسة ففضبت، ثم استرضاهما، وعرف منها قصة رجل مسن يبحث عن قرابته فلم يجد ، فاقترح «همام» أن ينشر هذا الرجل إعلاناً في الصحف يبحث فيه عن وريث وسيجد كثيراً من الناس يدعون قرابته، وجعل «همام» قصة هذا الرجل تكأه لمواصلة حديثه مع «ساره» فدار بينهما الحوار التالي : (١)

- «وأنت ياسيدة . نعم أنت يا سيدة في هذه المرة : لاية قرابه ترشحين نفسك إذا أعلن الرجل إعلانه ؟

فهزت رأسها تفكر ثم قالت : أوفرها نصيباً في الميراث . قال : لاتكونين إلا زوجة.

قالت مامعناه : فال الله ولا فالك، أى غرام غرامك بذكر الزواج والأزواج والزوجات؟ قال همام : لاتؤاخذيني أن ذكرت الزواج مرة أو مرتين ، فإننى لم أتزوج قط ولاخبره لى بهذا الجانب من مزعجات الدنيا .

قالت : أصحيح ؟ لقد أراحك الله فبأى جانب من مزعجات الدنيا أنت خبير ؟ .

فأسرع همام قائلاً : لذلك شرح يطول .

قالت : يالك من منتقم .. على أنك تستطيع أن تطمئن كل الاطمئنان فإننى لا أكلفك عناء هذا الشرح، ولا أستطلع دخائل شائك لست فضولية بحمد الله .

قال : وإذا كنت أنا فضولياً ؟

قال : إذن يختلف الأمر .

قال : كيف يختلف ؟

قالت : يلوح لى أنك كما وصفت نفسك ، أنت فضولى

قال : ليس مع كل الناس

(١) من قصة «ساره» للأستاذ عباس محمود العقاد ، ص ١٢٦ : ١٢٩ . وانظر فى تحليل هذه القصة : قراءة فى الأدب العربى المعاصر، أد / فتحي محمد أبو عيسى ، محاضرات مكتوبة على الآلة الكاتبة ١٩٧٩ م .

قالت : تحيات وغزل ، وعمما قريب : عيناك ووجنتاك وأهواك ولأنساك إلى آخر هذا الموال المحفوظ .

قال : وبماذا عما قريب ؟ الآن ! .

قالت : أنت عجول ، وأنت جري أيضا .

قال : إن وعدتني أن أجنى للصبر ثمرة، فأنا أصبر من أيوب ، قولها كلمة واحدة وأنا لا اتعجبك شيئا وأنصرف الآن .

قالت : وصاحبك الذي تسأل عنه ؟

قال : ها .. بلوح لى أننى أعجبك، وأنتك تستبقينى .

قالت : لولا أنك تمزح لقلت إنك مغرور غرورككم كلكم معشر الرجال، لا تتكلم الواحدة كلمتين مع واحد منكم حتى يحسبها مجنونة بهواه .

قال : أو يحسب أنه مجنون بهواها !

قالت : طيب والله لقد قطعنا شوطا بعيداً جداً فى نصف ساعة، ولا أدري ماخطب ماريانا سامحها الله ؟ أين ذهبت وتركتنا ؟ ولعلك على اتفاق معها أن تهى لنا هذا اللقاء ؟ ما فى ذلك عجب ، فهكذا تصنع الخائطات فيما يقال .

وسمعت ماريانا اسمها فعاتت تهوول وتتساعل : ماذا تقولين عنى ياساره ؟ قال همام : إنه زنتهمك بآنك تدبرين عن عمد خلوة غرامية بين هذه الديكة وهذه الدجاج !

قالت ماريانا : أنا أعلم على الأقل أن الدجاج لا تحتاج إلى من يدبر لها الخلوة مع الديكة.

قالت الفتاة : فأنك الله يا عجوز السوء، لماذا تتصلين من التهمة ؟ أما كان الأولى أن تتمهلى لمحة لعلى كنت أنوى أن أشكرك على ما صنعت ؟

فطاش الفرع بهمام، وأوشك قلبه أن يفلت من نياطه، وانتشى نشوه خمسين كأساً فى رشفة واحدة ، وقال وهو يهجم على ماريانا : بل دعى لى أنا أن أشكرها، إننى أقبل وجنتيها، إننى أثلثم فاهها، وصنع مايقوله قبل أن تقيق ماريانا من دهشتها وفهقتها، ومال إلى الفتاة قبل أن تدري ماهو صانع قائلا : وأقبلك أنت أيضا إكراما لماريانا .. بهتت الفتاة وراحت تقول شيئا لأبد أن يقال : لقد أذانى شاربك الطويل ، وتم التعارف بالاسماء .

وهذا الحوار واحد من أنجح الحوارات فى الرواية، من حيث تقديمه لشخصيتي

البطل والبطلة، وهو أول لقاء بينهما إذ التقيا مصادفة ولا يعرف أحدهما الآخر، وقد أعجب «همام» بحديث «سارة» فرغب في التعرف إليها وهذا هو الحدث الأساسى فى المحاوره وقد نجح الكاتب فى تقديمه بطريقة ميسرة .

المحاوره تبدأ إذا من الرغبة الشديدة التى استولت على «همام» فى التعرف إلى «سارة» التى راقه بعض حديثها ، فجعل يستفزها حين دعاها بالآنسة، فأذاها أنه يستصغرها وأخبرته بأنها ربه بيت وأم، ثم أراد أن يسترضيها فدعاها بالسيدة، واتخذ من قصة الرجل المسن الذى يبحث عن قرابته سبيلا إلى الحديث معها .

وقد أجاد الكاتب فى تصوير شخصية البطل «همام» إذ جعله لبقاً ذكياً فى محاورته ، فهو يسأل المرأة عن نوع العلاقة التى ستدعيها إذا أعلن الرجل المسن إعلانته ، وهو سؤال - لابد محتاج إلى إجابة، ثم يخرج من إجابتها الغامضة إلى الحديث عن الزواج والأزواج والزوجات، وهو حديث يستهوى النساء ولا يمللن من الخوض فيه، وبذلك يضمن «همام» مواصلة الحوار مع المرأة وكان له ما أراد .

ومن سمات الحوار هنا أن كل كلمة فيه تحفز على الرد ، والرد فى حاجة إلى تعليق، وربما يتطلب التعليق قصة يطول شرحها - كما يقول همام - وكأن بعد هذا اللقاء لقاء آخر، يسمع فيها هذا الشرح الطويل ، وهكذا يتقدم الحدث فى المحاوره ، وتقدم شخصية المرأة - أيضا - ونظرتها إلى الزواج الذى لم توفق فيه من قبل .

لقد أوشكت المحاوره أن تنتهى عندما أبدت المرأة عزوفها عن سماع شرح «همام» قصته لها متعلقة بأنها ليست فضولية ، ولاتعنى بأمور الآخرين، ولكن الكاتب سرعان ما استدرك الأمر، إذ جعل البطل يصف نفسه بالفضول، وأن لها أن تحكى له وليس عليها أن تسمع منه .

ثم نرى صفة من صفات هذه المرأة ، وهى الصراحة والجرأة فى مخاطبة همام، وذلك فى تأكيدها وصفه لنفسه، بالفضول ، وكانت صراحة المرأة داعياً لإظهار جرأة «همام» معها، إذ أخذ يلمح لها بإعجابه الذى مالبث أن تحول إلى كلمات غزل صريحة ، وهنا تزداد جرأة «سارة» حين تتهمه بالعجلة والجرأة، ويبدو أن جرأتها راقته فوعدها أن يكون أكثر صبراً من «أيوب» إذا أسمعته الكلمة التى ينتظرها منها.

استطاع الكاتب، فى هذا الجزء من المحاوره أن يصل بالحدث إلى مرحلة متقدمة، كما استطاع أن يصل بالشخصيتين معاً إلى نقطة متقدمة أيضاً، لاعودة بعدها

إلى الوراء ، بدأت المحاورة وكلاهما لا يعرف عن الآخر شيئاً ، والآن ليس بينهما حاجز من الحواجز التي تمنع قلبيهما أن يتلاقيا ، لقد تعارفا إلى بعضهما بما يحملان من صفات ، أظهرها الجرأة والصراحة في حديثهما معاً ، وكان لدى كل منهما رغبة في حديث صاحبه ، وإن أبدت «سارة» تميز ذلك ، فربما أصابها - برغم جرأتها - شئ من طبيعة الأنثى حين تأبى الشئ وهي فيه راغبة .

ومما يؤكد ذلك أنه ذكرته بصاحبه - الذي جاء يسأل عنه - حين أبدى عزمه على الانصراف، إنها تستبقه إذأ، وما كانت لتستبقه لولا أنه أعجبها، هكذا فهم «همام» من حديثها عن صاحبه، وقد صرح لها بما فهم، فاتهمته، بل اتهمت الرجال جميعاً بالقرور، لأنه حسبها مجنونة بهواه، لأنه تكلمت معه كلمتين، ولكن «همام» يرد على اعترافها بهواه باعترافه بالجنون في هواها هو الآخر .

لكأن الكاتب أحس أن ما أمضاه البطلان معاً من وقت يعد قصيراً جداً بالنسبة إلى ما أنجزه من أحداث فأنطق البطلة بهذه العبارة الدالة الموحية : «طيب والله لقد قطعنا شوطاً بعيداً جداً في نصف ساعة» وهي عبارة لها مدلولها الذكي، لأن نصف ساعة من التماور - بين رجل وامرأة يلتقيان لأول مرة - وصل بالحدث إلى ذروته، وهي الاعتراف بالتدله في الحب، وما كان للحدث أن يصل إلى هذه المرحلة لولا ما يتصف به الحبيبان من صراحة وجرأة في محاورتهما، وهكذا يسير الحدث والشخصية معاً في خطين متوازيين، يتقدم الحدث كلما أسفرت الشخصية عن بعض سماتها، وتتكشف الشخصية كلما تطور الحدث ونما .

ومما يبدو معه ذكاء الكاتب إنه جعل المشهد هنا بين «همام» و«سارة» وحدهما، وقد شاركتهما «ماريانا» الخائطة الفرنسية بداية المشهد، ثم انسلت خارجة^(١) ، ولو قدر لها أن تبقى معهما ما تمت المحاورة على هذا النحو، لأن التحفظ في الحديث سيكون السمة الغالبة على المتحاورين وخاصة من «سارة»، فطبيعة الموقف هي التي حددت طرفي المحاورة، وحددت أيضاً اتجاه المتحاورين .

ويبدو ذكاء الكاتب - أيضاً - في هذا التغيير الذي أحدثه في المشهد، والمتمثل في استدعاء «ماريانا» إلى قلب المشهد ، لتكون طرفاً أساسياً من أطراف المحاورة ، ولتكون عنصراً رئيساً في الحدث، وقد استدعاها الكاتب ببراعة ظاهرة، إذ جعلها تسمع

(١) انظر : قراءة في الأدب العربي المعاصر ، ص : ١٧ .

إسمها على لسان «سارة» فتعود مهرولة سائلة عما تقوله «سارة» عنها .
قال همام : إنها تتهمك بأتك تديرين عن عمد خلوة غرامية بين هذه الديكة وهذه الدجاج ! قالت ماريانا : أنا أعلم على الأقل أن الدجاج لا تحتاج إلى من يدبر لها الخلوة مع الديكة .

ولتنظر في هاتين الجملتين لنرى ما أودع الكاتب فيهما من فطنته ! إنه يكنى عن خلوة «همام» بسارة بالخلوة بين الديكة والدجاج، ويقدم الديكة على الدجاج في الجملة التي نطق بها «همام» ثم يقدم الدجاج على الديكة في الجملة التي نطقت بها «ماريانا» والديكة والدجاج معادل موضوعي أو رمز لكل من «همام» و «سارة» والترتيب في عبارة «همام» ترتيب طبعي، فالرجل هو الذي يطلب اللقاء أو يسعى إلى الخلوة، أما تقديم الدجاج - الرامز إلى سارة - فيفيد أن «ماريانا» تعلم من أمر «سارة» ما لا يعلم «همام»، وأنها - إن شئت - سعت إلى اللقاء هي، وإن شئت دبرت الخلوة أيضاً، ويوحى بهذا أن «ماريانا» تقول : «أنا أعلم على الأقل» فهي وحدها (على الأقل) تعلم إلى أي حد تصل جرأة «سارة» وصراحتها ، هذه الجرأة التي لاتمنعها من تدبير خلوة لو أرادت .

وإذا كان الأستاذ «العقاد» يحكى تجربته هو في حب امرأة بعينها^(١)، فهو متأثر - في صياغة هاتين الجملتين - بما عرفه من أخلاق حبيته فيما يعد هذا اللقاء الأول الذي قدمه لنا في هذه المحاوراة الخصبة الممتعة .

وهكذا تشارك «ماريانا» بقوة في المحاوراة، وتحتل مكانها، في قلب المشهد، يغطي وجه الشخصيتين، كانت كلمتها عن جرأة الدجاج مثيرة لسارة، فعنفقتها على تنصلها من تهمة العمد في تدبير الخلوة، وتمنت أن تكون تمهلت في التنصل لعلها تستحق الشكر على ما صنعت، وهنا انزاح الستار عن وجه «سارة» فبدت ملامحه ، بل بدت ملامح نفسها من داخلها . وهنا أيضاً انكشف وجه «همام» بالفعل لا بالكلام، إذ مالبث أن فاجأ «ماريانا» بقبلة دهشت لها، ثم انعطفت نحو «سارة» بقبلة بهتت لها هي الأخرى، ثم جلس يتوقع ما يكون منها فلم تزد على أن قالت : لقد أذاني شاربك الطويل وأخيراً تم التعارف بالأسماء .

ومن العجيب أن التعارف بالأسماء لم يتم إلا بعد أن صار كل من الحبيين كتاباً مفتوحاً يقرأ فيه الآخر صفات محبوبه .

(١) انظر : قراءة في الأدب العربي المعاصر ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

وإذا كان الأستاذ «العقاد» يحكى تجربته الذاتية - كما يقول أستاذنا الدكتور فتحى أبو عيسى - فإنه فى هذا الحوار يكشف عن صفة من أهم صفاته وهى الاعتزاز بالنفس والكبرياء، وقد بدت هذه الصفة فى موضعين من المحاوراة :

أولا : حين جعل «سارة» تكشف عن حبها «همام» قيل أن يصارحها هو بحبه لأن كبرياءه منعه أن يكون هو البادئ بالتصريح، إذ ربما تصده «سارة» بعد أن تعرف عنه قرب مأخذه .

ثانيا : حين جعل «سارة» تسبق إلى شكر «ماريانا» على تدبيرها الخلوة لهما، وإذا كان خاف صدور «سارة» عنه فى الموضع الأول، فإنه استعاض عن تأخره فى الموضع الثانى بتصوير الفرحة البالغة التى أصابت «هماما» وكأنه بهذه الفرحة التى بلغت حد الطيش يسترضيها ويعتذر بلطف عن تأخره فى إظهار مشاعره التى توارت خلف كبريائه.

★★★

(٢)

كان القصص القرأنى مصدر إلهام لبعض كتابنا المعاصرين يستمدون منه موضوعات قصصهم ومسرحياتهم وكان منهم من يحافظ على الخيوط الأساسية للقصة القرأنية التى استوحاها، فلا يخرج عن إطارها وكان منهم من يقدم دواعى الفن القصصى أو المسرحى على قداسة الموضوع القرأنى، فيبيع لنفسه أن يغير ويبدل فى جوهر القصة أحيانا بما يخرجها عن إطارها الذى رسمه القرآن الكريم، إما استجابة لدواعى الفن - كما قلت - وإما إشباعا للفضول البشرى الذى يحس بالجوع إلى معرفة ماعمد الأسلوب القرأنى إلى الاستغناء عنه فى كثير من المواقف القصصية الغريبة التى قصها.

ومن المفيد هنا أن نعلم إلى مجاورتين : إحداهما من القرآن الكريم، والثانية محاوراة مسرحية مستوحاه من القصص القرأنى، ونضعهما متحاورتين، لارغبة فى الموازنة بينهما، فذلك أبعد مايكون من القصد ولكن لتعرف طبيعة المحاوراة فيهما؛ لأن تشابه الموقفين أو المشهدين القصصين يجعل من اليسر التعرف إلى هذه الطبيعة فيهما، من حيث تقديم الشخصيات تقديمًا مناسبًا صحيحاً .

أولا - قال - تعالى - فى قصة «سليمان» عليه السلام -

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

ثانياً : استوحى هذا المشهد الكاتب "توفيق الحكيم" قصور "سليمان" - عليه

السلام- وسط أعوانه من الإنس والجن فكتب يقول : (٢)

«سليمان : تجول برأسي فكرة لوحققها أحدكم أعطيته كل مايتمنى ..

الجميع : مرنا نطع أيها الملك .

سليمان : أريد أن تجلس على عرشها .

الجميع : عرشها ؟

سليمان : نعم .. أيكم يأتيني الآن بعرشها قبل أن تأتي ؟

الجميع : عرشها ؟

سليمان : نعم .. أيها الجن ؟ أيكم يستطيع ذلك ؟

(يتقدم العفريت صخر من بين صفوف الجن)

صخر : أنا أستطيع ...

سليمان : أنت يا صخر ؟

صخر : أنا آيتك به أيها الملك .

سليمان : متى ؟ متى ؟ ...

صخر : قبل أن ينقضى النهار .

سليمان : ولكنها آتية بعد قليل .

صخر : إن المكان بعيد يا مولاي .. إني سأحمله إليك من مملكة "سبأ"

سليمان : وردت لو أنها جلست على عرشها الآن عند قدومها .

(١) سورة النمل : آية ٢٨ : ٤٠ .

(٢) مسرحية : «سليمان الحكيم» توفيق الحكيم، ط دار مصر للطباعة، نشر مكتبة مصر، ص ٥٨ : ٦٢ .

(داهش الجنى يشق الطريق مسرعا إلى الصياد هامسا) .

الجنى : (هامسا) أنا آتية به قبل أن يرتد إليه طرفه ...

الصياد : (هامسا) اسكت ...

سليمان : ماذا يقول عفريتك أيها الصياد ؟

الصياد : لاشئ يا مولاي ...

سليمان : كائن به يتحدث عن عرش "بلقيس" ...

الصياد : أنه يمزح يا مولاي ..

الجنى : أهذا وقت المزاح أيها الغبى ..

سليمان : حقا ليس هذا وقته ..فيم كان حديثك إذن ؟

الجنى : عرشها .. أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك !! .

سليمان : أأنت واثق من إمكان ذلك ؟!

الجنى : ضغنى موضع الامتحان .

سليمان : وإذا أخفقت .. أتعلم ما الجزاء ؟

الجنى : حبسى فى القمقم ، وإعدام الصياد .

الصياد : (كالمخاطب لنفسه) لاحول ولاقوة إلا بالله ! ..

سليمان : أسمعت أيها الصياد ؟

الصياد : سمعت .

سليمان : أنت كما تذكر مسئول عن تبعات فعاله .

الصياد : إذن فلا بد يذهب أبداً .

الجنى : بل دعنى أيها الصياد أذهب .

الصياد : أيها الملك .. لاتدعه بربك يضيعنى .. هذا الفاجر المغرور !

الجنى : لاترتعد خوفاً أيها الأحمق، إنها فرصة طالما انتظرتها لإظهار عبقريتى

الصياد : بل هى فرصة لإظهار مصائبك التى ستحل على رأسى !

الجنى : (يلكم الصياد) تفاعل ،تفاعل .

الصياد : أه ... ليتنى لم أجد فى شبكتى قمقمك النحس ، وقنعت بالحمار النافق والوزير

المسكور !

الجنى : أيها الصياد الأحمق .. لاتقف عثرة فى سبيل طموحى .

الصيد : (فى عجب) متى جاء بهذا !

سليمان : صدق صاحبك الجنى إنها العبقريّة .

الصيد : حمدك لك يارب السموات !

سليمان : إنه حقاً لعمل عجيب !

(الصيد يفيق من ذهوله ويحس بالفخر)

هذه هي المحاورّة التي استوحاها الكاتب من القصة القرآنية، وتوفيق الحكيم واحد من أبرع كتاب الفن في أدبنا العربي الحديث ، وكان بطبيعته يميل إلى تفضيل الكتابة المسرحية ، التي تبدو فيها براعته في إدارة الحوار (١) ، ولذا كنا ننتظر هنا حواراً خالياً من العيوب الفنية ، لكننا فوجئنا بغير ما توقعنا ، ولكن من الإنصاف أن نقول : إن معرفتنا بطبيعة الحوار في القصة القرآنية هي التي دلتنا على معايير الحوار عند الكاتب نفسه، ولو لم تكن هذه المعاني مستوحاة من القرآن لخفيت هذه العيوب ، بل تلاشت كلية.

وأول ما يلاحظ أن ما قدمه الأسلوب القرآني يمكن أن يندرج تحت ما يسمى في عالم الفن بالمشهد المسرحي (٢) وهو المشهد الذي يتكون من حوار محض، أي حوار مع توجيهات مسرحية مختصرة، أو حوار مصحوب بتقرير سردي مركز للغاية وبالنظر إلى المشهد القرآني . لانجد الأسلوب لجأ إلى التوجيهات المسرحية ، سوى مرة واحدة، هي قوله تعالى : (فلما رآه مستقراً عنده) وهذا ما يعرف في التأليف المسرحي باختفاء روح المؤلف . وقد ساعد ذلك على إحياء المشهد القرآني، وتقوية العرض . وقد لجأ المؤلف الفني إلى التوجيهات المسرحية في المشهد إحدى وعشرين مرة، فكان يضع بين قوسين (...) ما يريد إسداءه من توجيه ، هو في المقام الأولي موجه إلى الممثل وإلى المخرج الذي يقوم بإخراج مسرحيته إن أريد إخراجها وتمثيلها .

ومن الملحوظ - أيضاً - أن ما حكاها القرآن الكريم، في ثلاث آيات فقط يحتل ستة أسطر من سطور المصحف حكاها المؤلف في ست صفحات من مسرحيته، وقد يكون

(١) انظر فجر القصة المصرية مع ست دراسات أخرى عن نفس المرحلة ، يحيى حقي، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ١٩٨٧م ص ١١٧ : ١٢٤ .

و : تطوير الرواية العربية في مصر ، ص : ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٢) انظر : مجلة فصول العدد ١١ ١٩٩٢م من مقال بعنوان : العناصر الجوهرية للمواقع السردية ، كارل فرانز ستانزل ، ترجمة : عباس التونسي ، ص ٦١ .

هذا التطويل، في المشهد الفني راجعاً إلى رغبة المؤلف في إشباع غريزة الفضول البشري، الذي لا يعجبه أن تمر مثل هذه الأحداث الغريبة عليه مرور الطيف، وكانت هذه الرغبة مزلقاً خطيراً أوقع المؤلف في تناقض واضح، هذا التناقض يتصل بتصويره شخصية نبي الله "سليمان" - عليه السلام .

إن غرض المؤلف - من المسرحية هو إظهار القدرة الفائقة التي يمتلكها هذا الملك النبي، ويمكن أن نعرف ذلك من خلال هذه الجمل المسرحية التي أوردها المؤلف على لسان "سليمان" في حوار مع بلقيس :

سليمان : إني عجزت عن نفحك ونفع نفسي : في يدى القدرة الهائلة .. في يدى الأعاجيب والعبقرية والمواهب .. في يدى الكنوز، أنا الملك العظيم والنبي الحكيم .. أنا المسيطر على الجن والإنس .. والرجال والأموال .. ومع ذلك .. هل أجدى كل هذا شيئاً أمام قلبك (١) .

وفي هذه المحاورة ما يناقص غرض المؤلف في إظهار قدرة «سليمان»؛ إذ يبدو «سليمان» في بداية المحاورة - متردداً في إصدار أمره بإحضار العرش، فهو يدير الفكرة في رأسه أولاً، ثم إنه يغرى الحاضرين ويحفزهم على تنفيذ فكرته بأنه سيعطى من يحققها كل ما ينتمى .

وجعل الكاتب جند «سليمان» يستغربون رغبته في إحضار عرش «بلقيس» قبل أن تأتى حتى إنهم يتسألون مرتين في دهشة : عرشها؟! وكأنهم لا يدركون مبلغ قوة «سليمان» .

وجعل الكاتب الإذن للجنى «داهش» يصدر من الصياد لا من «سليمان» نفسه، وكان «سليمان» لاسلطان له على «داهش» وإنما أمره بيد الصياد و«سليمان» يتبع مع الصياد أسلوب الترغيب والترهيب، فهو سيعاقب إذا أخفق الجنى، وسيثاب عن فوزه، الذى يشك فيه كثيراً، ولذا قال «سليمان» مخاطباً الجنى : «أأنت واثق من إمكان ذلك» .

هذه كلها مظاهر ضعف رسم شخصية «سليمان» تتعارض مع الصورة الكلية التي أراد الكاتب رسمها من خلال المسرحية ولعل الكاتب وقع في هذا التناقض بسبب رغبته

(١) مسرحية سليمان الحكيم ص ١٤٦

وانظر : مسرح توفيق الحكيم، د: محمد مندور، ط: دار نهضة مصر لطبع والنشر، الطبعة الثالثة، دون تاريخ، ص

الجامعة فى نقص أطراف المشهد وإدخاله عناصر أخرى فى المحاوره لم يكن لها وجود فى المشهد القرآنى .

ولنتظر الآن فى الأسلوب القرآنى المعجز، لنرى هذا الإيجاز الذى لانظير له ولايمكن لبشر أن يضاهيه مهما أوتى من بلاغة وبيان، أورد الأسلوب القرآنى مقالة العفريت من الجن الذى عرض أن يأتى بالعرض قبل أن يقوم «سليمان» من مقامه، ثم أعقبها مباشرة بمقالة الذى عنده علم من الكتاب، وبين المقالتين فجوة فنية كبرى يستطيع القارئ أن يتمثلها، وأن يملأها من خلال تصوراته عن الموقف الذى تحكيه الآيات لعل بلقيس كانت على وشك أن تأتى ، وسليمان يريد أن يفاجئها بوجود عرشها فى قصره ومن الطبعى أنه لم يقبل مقالة العفريت من الجن لأنه سيأتى بعد مجئ بلقيس، وبذلك لا تتحقق المفاجأة ، وربما استتبأ «سليمان» العفريت^(١) ، فرفض ما عرضه عليه ولكن الأسلوب القرآنى لم يقل ذلك صراحة ،لأنه مفهوم من الموقف .

وبعد مقالة الذى عنده علم من الكتاب فجوة أخرى يمكن أن نفهمها - أيضا - ، وأن نعرف مافيه من أحداث، وأن سليمان - عليه السلام - لم بيد اعتراضاً على ماقاله، بل أمره بتقيذه ، ولكنها - على أية حال - فجوة سريعة خاطفة ، لم تستغرق من الوقت إلا بمقدار مااستغرقه مجئ العرض على يدى الذى عنده علم من الكتاب .

والملاحظ - على محاوره الكاتب - أنه حاول أن يملأ هاتين الفجوتين، فأتى بهذا الحوار الطويل الذى يشبع رغبته ورغبة القراء فى معرفة التفاصيل التى ضرب الأسلوب القرآنى عنها صفحاً .

والملاحظ - أخيراً أن هناك تزويراً واضحاً أحدثه الكاتب فى الحدث، إذ جعل مجئ العرض على يد العفريت، وهو ما رفضه الأسلوب القرآنى لأن القرآن لا يريد أن يجعل للجن قوة ولو كانوا من جن «سليمان» عليه السلام .

(١) انظر : تفسير القرطبي ، ج٧ ، ص : ٤٩٢٠ . ٤٩٢١

و : الكشف ، ج١ : ٣ ، ص ٣٦٧ .

و : التصوير الفنى فى القرآن ، ص ٢١٢ .

المبحث الثالث

الحوار والسرد في القرآن الكريم والفن القصصي

سبق أن نبهت ^(١) إلى أن للقرآن الكريم طرائق شتى تحكم توزيع الحوار والسرد في القصص الوارد فيه، ولذا نجد السرد في أول القصة، وفي آخرها، وبين المشاهد. وكما نجد الحوار في مراحل الحدث المتعددة، نجده في مراحل التعرف، والتصعيد، والعقدة والحل، وبخاصة في القصص المطول، ونبهت أيضا إلى أن السمة البارزة في أسلوب القصص القرآني هي أن السرد لا يأتي إلا حيث يجب أن يكون الأسلوب سرداً وصفيًا، وكذلك الحوار لا يأتي إلا حيث يفرض الموقف أن يكون الأسلوب حواراً، فكل منهما لا يغنى عن الآخر في موضعه .

وتتضح هذه السمة بجلاء إذا تأملنا إحدى قصص القرآن المطولة، وفيها نركز الحديث على المواضع السردية، مع إشارات سريعة إلى بعض سمات الحوار، وذلك لأن الحوار حظى بكثير من الدراسة في مواضع متعددة من هذا البحث يقول تعالى في بداية قصة موسى :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هَدَى فَلَمَّا أَتَيْنَهَا نُودِيَ يُوسَى﴾ ^(٢).

هذه هي الآيات الأولى من القصة، وفيها تتضح البداية السردية الخالصة في الآية الأولى، التي تبدأ بهذا الاستفهام الذي يلفت الأنظار ويستحوذ على اهتمام القارئ والسامع، وينبئه إلى أن أمر عجيباً سيحدث، أو سيطل من خلال هذه الآيات عن موسى، وقد تكررت هذه البداية السردية المعتمدة على أسلوب الاستفهام في مواضع أخرى من القصص القرآني، كقوله تعالى في بداية قصة "موسى" أيضا: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ^(٣) وقوله تعالى في قصة "داود": ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرَ الْحُوبَابُ﴾ ^(٤) وقوله تعالى في قصة ضيف إبراهيم: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ^(٥) وفي هذه المواضع يعقب الاستفهام حدث غريب وأمر عجيب،

(١) انظر : البحث الثالث من الباب الثاني

(٢) طه ، ٩ : ١١ .

(٣) النازعات ، ١٥ .

(٤) ص ، ٢١ ..

(٥) الذاريات ، ٢٤ .

وهذا الحدث الغريب هنا هو رؤية موسى النار، وغرابته نابغة من أن "موسى" فى وقت وفى مكان لا يتوقع فيهما رؤية النار، ولذا قال : إني أنست ناراً، وقد رجا من وراء ذلك أن ينتفع بشئ منها، أو يجد عندها من يهديه الطريق

ولاتكاد القصة تبدأ سرداً حتى تتحول إلى أسلوب الحوار، فى يسر وسهولة ولطف، وذلك فى حديث "موسى" لأهله، ثم يقطع هذا الحوار بجملته سردية تصف بداية ما حدث لموسى عندما أتى النار، وهو مفاجئته بحديث رب العزة إليه، وحواره معه .

وقد وقف البلاغيون كثيراً أمام إطالة موسى - عليه السلام - فى جواب ربه حين سألته عن العصا فقال موسى: ﴿هى عصاى أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى﴾ (١) وقالوا إن «موسى» أراد أن يطيل المقام مع رب العزة أنساً بلذة الحديث معه (٢)، وهذه حقيقة واضحة فى كلام «موسى» ، غير أن التعليل لذلك بالأنس بالحديث مع رب العزة وحده ربما يقطع الآية من سياقها ، ولنا أن نلاحظ أن حديث «موسى» الذى وقع فى آية واحدة قد سبقه حديث أطول منه مع رب العزة جاء فى ست آيات، آخر آية منها تحمل السؤال عما فى يمين «موسى» ﴿وما تلك بيمينك يُوسى﴾ قاله سبحانه يوحى لموسى بالرغبة فى مواصلة الحوار، بدليل هذا السؤال، ويريد أن يستل الخوف من نفسه فى هذا الموقف العجيب الذى كان مفاجأة لموسى ، ولذا جاء رد «موسى» مسهباً، ملائماً للموقف أيضاً .

ولنا أن نلاحظ - أيضاً - أن رد «موسى» المطول عن العصا ليس هو الموضع الوحيد الذى وقع فيه إسهاب من «موسى» ، بل هنا موضع آخر أكثر إسهاباً وأشد طولاً، فموسى بعد أن رأى من أمر العصا هذا العجب العجيب، وعرف أن ذلك بعض آيات الله ازداد رجاءه فى كرم ربه فجاء حديثه بعد ذلك أكثر طولاً من حديثه عن العصا: ﴿قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى﴾ إلى آخر الآيات .

كما جاء حديث رب العزة إليه بعد ذلك مسهباً - أيضاً - إذ أجابه إلى ما دعاه ، ثم ذكره بما امتن به عليه فى صباه المبكر، يوم ولد فى جو مشحون بالخوف والحزن من

(١) طه، ٨١ .

(٢) انظر مثلاً : الكشف ، ج٣ ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

«فرعون» وآله، ثم ساقه الله - سبحانه - ليرى فى بيت عدوه «فرعون» ثم نجاته من الغم بعد أن قتل المصرى، وفراره إلى مدين، حتى جاء إلى هذا الموقف العظيم الذى يخاطب فيه رب العزة ويخاطبه .

ولعل المراد من ذلك كله هو اطمئنان «موسى» إلى عناية الله التى ستصحبه فى مهمته الشاقة التى كلف بها فى أثناء المحاورة، وهى ذهابه إلى «فرعون»، وهكذا يتبين أن طبيعة الموقف القصصى هى السر الأول فى بناء هذا الحوار المتصف بالإسهاب من طرفيه كليهما (١) .

الموضع السردى الثانى فى هذه القصة يأتى فى وسط حوار «موسى» مع رب العزة بشأن العصا: ﴿قال ألقها يـمـوسى . قالقها فإذا هى حية تسعى﴾ قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴿ (٢).

إن «موسى» - عليه السلام - أخبرنا بما يعرفه عن عصاه، وبين مهامها لديه من وجهة نظره هو ، تلك المهام التى تتلخص فى اتكائه عليها، وسوقه غنمه بها، بالإضافة إلى ما رُب أخرى لم يبينها، ثم يتلقى أمر الله - سبحانه - بأن يلقى هذه العصا، وهو لا يدري أن وراء هذا الإلقاء أمراً عجبياً وحدثاً مبهرًا يكشف عن مهمة أخرى من مهام العصا، ﴿قالقها فإذا هى حية تسعى﴾ هذه الجملة السردية القصيرة جاءت بين جمل حوارية متعاقبة لتؤدى دوراً عظيماً لم يكن الحوار ينهض به، والمتلقى للقصة هو المعنى بهذه الجملة السردية، لأن «موسى» قد شاهد الحدث الجليل الذى تصفه ، شاهد تحول العصا إلى حية عظيمة تسعى على الأرض فى خفة ونشاط، فخاف وولى مدبراً، والمتلقى حين يقرأ هذا الوصف يحس مثل ما أحسه «موسى»، ويفاجئ مثل ما فوجئ، فالأسلوب القرأنى أراد أن ينقل الحدث، وينقل صورة الموقف، وما صاحبه من مشاعر التوجس والخوف، فصاغ ذلك كله فى هذه الجملة السردية، وقد أفادت الفاء الأولى سرعة الإلقاء، وأفادت الفاء الثانية سرعة تحول العصا إلى حية، وأنها ليست حية فحسب، ليست جامدة فى مكانها، ولكنها حية تسعى، فيها خصائص الحية جميعها .

(١) انظر : فى ظلال القرآن ، ج٤ ، ص ٢٢٢٣ ، ٢٢٢٤ .

(٢) طه ، ١٩ : ٢١ .

وفى بعض المواضع السردية من هذه القصة نجد خصيصة قرآنية لائلمح لها أثراً في القصص البشرى، وتتمثل هذه الخصيصة فى أن هناك عناصر غيبية تتدخل فى الحوار ، قنقطع ما بين المتحاورين، تأخذ الموقف منهم، لتدلى برأيها فيما يتحاورون فيه، لتقيم لأحد الطرفين حجته أو تقوم منطقته ، أو تقوى موقفه (١).

نقرأ قول الله تعالى : ﴿ قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهذاً وملك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعمكم إن فى ذلك لأيت لأولى النهى . منها خلقنكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى، ولقد أرينه آيتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك موسى﴾ (٢).

فنرى فى بدايتها حواراً بين «موسى» و«فرعون» وهو حوار يحمل كثيراً من الجدل والتحدى، وفرعون يسأل عن القرون الأولى ما بالها؟ ولا يكاد «موسى» يعطى الجواب الذى رآه حتى ينطق عنه الحق - سبحانه - بما يكمل الجواب على أتم صورة وأفضل بيان. (٣)

وهذا عمل لا يكون فى غير القرآن ، «ولا يقع فى قصص غير قصص القرآن، حيث تقوم قدرة الله وتدبيره على كل شىء، وحيث لاتقع حركة، أو تكون همسة فى مواقف القصة إلا على هذا التقدير، ومن هنا كان تليب الأمور فيها على هذا الوجه أمراً متوقفاً، غير منكر ولا مستغرب، على حين أن ذلك فى العمل الأدبى - الذى يخلى فيه الكاتب مكانه للمتحاورين - يعد تطفلاً وتمحلاً لاتدعو إليه ضرورة ،، ولا يحتمله الموقف، أو يتقبله الحال» (٤).

(١) انظر : القصص القرآنى فى منطقته، ومفهومه ص ١٣٦ .

(٢) طه ، ٥١ : ٥٧ .

(٣) يرى القرطبى أن بداية كلام الله تعالى قوله : (فأخرجنا به أزواجا) الخ ، انظر : تفسير القرطبى، ج٤ ، ص : ٤٢٤٦ .

ويرى صاحب الظلال أن البداية قوله تعالى : (منها خلقناكم .) الخ، انظر : فى ظلال القرآن ، ج٤ ، ص ٢٢٢٩

(٤) القصص القرآنى فى منطقته ومفهومه، ص ١٣٦ ..

وفى القصة موضع آخر يبرز هذه الخصيصة ويوضحها، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾، قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فأوجس في نفسه خيفة موسى، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألقى ما فى يمينك تلقف ماصنعوا إثمنا صنعوا كيد سحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فألقى السحرة سجدا قالوا ءامنا برب هرون وموسى ﴿١﴾

والحوار هنا يسير فى طريقه المقدر له، ومعه بعض الجمل السردية التى لاتخرج أسلوب القصة عن طبيعته . يفاجأ المتلقى بتدخل عنصر القدرة الإلهية القائمة خلف الأحداث والأشخاص، تتدخل لتصحيح المسار وتلقى فى روع «موسى» أنه الأقوى، وأنه الأعلى، وأن ما طاف بنفسه من خوف لامكان له فى هذا الموقف الحرج .

ومن المعجب أن كلام الله تعالى إلى «موسى» ورد مسبقا بالفعل (قلنا) الذى يدل على الحوار ، وإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه، يدل على هذه القوة العلية، التى أدركت «موسى» فى هذا الوقت العصيب، «وقد سمع «موسى كلام ربه بأذنه أو بقلبه فواجه الموقف ثابتاً بعد أن رد إليه هذا الحديث ما غرب عن عزمه وقوته إن القصص البشرى ليس فيه مكان لمثل هذا الأسلوب من القول ، وإذا حدث فإنه يعد شيئاً غريباً، أو خطأ وقع » (٢).

وأخر موقع سردي نقف معه فى هذه القصة قوله تعالى :

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ قَالَ لَهُم مَّوْسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَٰتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَىٰ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوَا صَفَا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مِنْ أَسْطَعَلَىٰ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ (٣)

(١) طه . ٦٥ : ٧٠ .

(٢) القصص القرآنى فى منطقته ومفهومه ، ص : ١٢٧ .

(٣) طه . ٦٠ : ٦٥ .

إن الحوار فى هذه القصة منطلق انطلاق السهم إلى الرمية، لا يقف فى سبيل تقدمه شئ، ولذا نلحظ على جمل السرد التى تعترض هذا الحوار أنها قصيرة وسريعة ، لا يكاد القارئ يلاحظها رغم أهميتها فى تصوير الموقف ، وإيضاح جوانب المشهد، كما نلاحظ أن الوصف الذى يأتى وسط الحوار يلبس أحياناً ثوب الحوار أيضاً، كما مر فى الموضع السابق من قوله تعالى :

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ، قَلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ الخ . وكما نرى فى هذا الموضع، فإن الأسلوب القرأنى ماكاد يقطع الحوار بين «موسى» والسحرة بقوله ﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرروا النجوى ﴾ حتى أخذ الأسلوب يحكى مقالة السحرة فيما بينهم، والتى جاءت فى صورة حوار جانبى، إذ أخذ السحرة جانباً بعيداً عن «موسى» يديرون فيه حوارهم أو نجواهم، التى لا يريدون لموسى أن يسمعها، وإن كنا نحن النظارة سمعناها، وعند ما انتهت المسارة والحوار الجانبى استغنى الأسلوب عن الوصف، وعاد إلى الحوار مرة أخرى ، ومن بديع الحرفة القصصية هنا أن الأسلوب اكتفى - فى وصف عودة السحرة إلى قلب المشهد مع «موسى - بكلمة (قالوا) التى جاء بعدها النداء (ياموسى) لنعلم أنهم قد التفتوا إليه منفذين ما اتفقوا عليه سراً، وبهذا جعل السياق كلامهم يصف الحركة الواقعة فى أثناء المشهد دون حاجة إلى وصف ذلك بسرد بقطع الحوار، اللهم إلا كلمة (قالوا) وهى ضرورية فى أسلوب القصة، كما أنها تعد أقل قدر من السرد فى القصص، لأنها تعدل - فقط - أسماء الأشخاص التى توضع بإزاء أقوالهم التى تحرك الحدث فى النص المسرحى (١)

وهكذا نرى الدقة البالغة التى يبنى عليها أسلوب السرد فى القصة القرأنية، ونرى - أيضاً - الإعجاز فى المزاوجة بين السرد والحوار، على نحو يتضاعل أمامه ألوان التأليف البشرى، الذى لا يخلو من الثثرة والهذر حتى عند أعظم الكتاب براعة فى الكتابة القصصية .

وللوقوف على طريقة الكتاب فى استخدام السرد القصصى ، وأسلوبهم فى المزاوجة بين السرد والحوار نقف أمام مشهد قصصى من إحدى القصص الأدبية يقول

(١) لمزيد من شرح هذا الأسلوب القصصى : انظر : بدائع الإضممار القصصى فى القرآن الكريم، ص : ١٩١

وما بعدها

الكاتب^(١) في بداية مشهد جديد :

قال عيسى :

- صدر قرار بنقل من وظيفة مدير مكتب الوزير إلى المحفوظات :

رفعت إليه أمه وجهاً نحيلاً يشبه وجهه لدرجة كبيرة وبخاصة في هيئته المثثة ولكنه كثير الغضون، وللشيخوخة في عينيه وقمه ولحيته معاقل، ثم قالت :

- ليست المرة الأولى، لاتحزن، ستعود إلى ماكنت وأحسن، وربنا يصلح الحال

كانا يقعدان في حجرة الجلوس ذات الشرفة المطلة على شارع حليم بالدقي، وكان زجاج الشرفة العريض مغلقاً دفعا للبرد، وأغصان صفصافة تصعد وتهبط خلفه في حركة وانية وامتدت وراء ذلك السحب وتكاثفت وتجهمت كالسياسة . وكانت الوزارة قد أقيمت فأنقصته الوزارة الجديدة فيمن أقصت من موظفين عن الوظائف الرئيسية وبخاصة من كانت لهم علاقة بمعركة القنال، وتعد هذه الأحداث عادية أو شبه عادية عند الأم لكثرة حدوثها، وهي لاتصدمها صدمة اليأس لأنها ألقت أن يعقب المد جزر في صالح ابنها المحبوب، ورغم شيخوختها وأميتها فهي تتابع الحياة السياسية وتذكر من أمورها مايسمح به موقف عيسى ومايؤثر في حياته جذباً ودفعا، هي به فخور وتؤمن بكل كلمة يقولها وتعجب بما يحقق من نجاح فاق الخيال، خيالها وخيال المرحوم والده الذي عاش ومات موظفاً صغيراً مغموراً . عيسى يشق طريقه رغم شلالات السياسة وزوابعها يفتس أحياناً حتى يظن به الفرق ولكنه يقب محرزا درجة جديدة من التفوق وهذا المسكن الجميل بالدقي أية على نجاحه وصموده ، وأثائه متعة تبهر البصر، وفي مناسبات غير نادرة يشرفه بالزيارة باشوات ووزراء، وتتساعل المرأة وأصابعها المتحجرة تقديس الله على حبات السبحة الحجازية : أما لهذه الحال من نهاية تستقر فيها على خير ؟ وهل هي وليدة ظروف معقدة عسيرة على الفهم أو هي إصابات نافذة لأعين شريرة ؟ .

وقال عيسى في فتور :

(١) السمان والخريف نجيب محفوظ ، ط: دار مصر للطباعة، نشر : مكتبة مصر، دون تاريخ ، ص ١٧ - ٢٥ وقد حرصت على إثبات المشهد شبه كامل ليكون وجوده بين دفتي هذا البحث شاهداً صدق على مانقول في دراسته ، ولأن الاقتصار على بعضه حيف للكاتب .

- من العجيب أننا لانكاد نستقر فى الحكم عاماً حتى يقذف بنا خارجه أربعا، ونحن نحن الحكام الشرعيين ولاحكام شرعيين غيرنا فى البلد .

فقلت بإيمان وإصرار :

- المهم الصحة والعافية

فابتسم ابتسامة ساخرة مريرة ولكنه لم يشأ أن يعلن عن مرارته وعلى العكس من ذلك قال بلهجة ذات دلالة :

- المهم أن أنتهز فرصة العزلة لأعنى بشئى الخاصة .

فاختلجت عيناها الكليتان فى اهتمام وقالت بارتياح صاف لأول مرة .

- نعم تعجبني، أن لك أن تتزوج، فتاتك فى الانتظار وأبوها العظيم لم يضمن لموافقته فضحك متسائلاً :

- ألم يكن الأجمل أن أتزوج وأنا متمتع بالجاه والسلطان ؟

فابتسمت عن طاقم لاح بريقه كيا سمينة منسية فى حديقة اقتلعت أشجارها وقالت:

- مركزك كبير، وهم يعلمون أنك مرشح لأعلى المناصب، وعلى بك سليمان يفهم الأمور جيداً، ثم إنه قريبك ، وكان يحب المرحوم والدك أكثر من أى شئ فى العالم .

هذا كله حق . على بك سليمان ابن خال والده وأسرتة تمثل الفصن المورق من أسرتة الجرداء، غنى من سلالة غنية ومستشار خطير فضلاً عن أنه من رجال السراء وعندما يدعم نفسه بمصاهرتة سيجد فى مرفئه استقراراً إذا عصفت عواصف السياسة بقاربه .. وسلوى فتاة ممتازة حقاً ... وأم سلوى امرأة ممتازة أيضاً وهى مiale للمحافظة على ندرة ذلك فى طبقتها .. وطاب له أن يستحضر صورة سلوى بجمالها البلقانى المغرى كالكريم شانتى واعتدها منة من الله أنها ليست من بنات النوادى ولا من معتنقات فلسفة العصر .

وقال لوالدته :

- تصورى أننى لم أكن رأيتها منذ الصغر :

- هذا تقصير منك، وانهماكك فى العمل ليس بالعدر الكافى فمن كان له قريب كعلى بك

سليمان وجب عليه أن يوثق صلته به

- كنت ألقاه فى الخارج، ولم أكن أفكر فى الزواج .

وهو قد طلب يدها من والدها وليس له عن صورتها إلا فكرة غامضة غاية الغموض ولكنه وجدها آية، وسرعان ما أحبها من كل قلبه، وتهيأ لاختيار الألفاظ المناسبة للإفصاح عن عواطفه الجديدة أمام أمه ولكن دخلت أم شلبى لتعلن عن حضور حسن ابن عمه لزيارته .. وقدم حسن على الدباغ منطلق الأسارير . ربعة متين البنيان، مربع الرأس عميق الملامح، عريض الذقن، ويمتاز بعينين صافيتين ذكيتين، وأنف حاد مدبب قبل يد امرأة عمه وصافح عيسى بحرارة ثم جلس إلى جانبه وهو يطلب الشاى .. وسألت أم عيسى :

- كيف حالكم ؟

- بخير ، أمى بخير وأختى بخير ..

ازداد عيسى نفوراً عند ذكر الأخت لالشئ كرهه فيها ولكن لكونها أخت هذا الغريم والمنافس القديم كانا متنافسين ومتلازمين وتبادلا عواطف حادة مؤلمة ... ولكنه كان يضمن له إعجاباً رغم نفوره منه لقوة شخصيته ووفرة ذكائه وقال حسن بأريحية :

- سمعت عن نقلك إلى المحفوظات ، لاتحزن أنت رجل مخلوق للشدائد . قد خلت الأم فى الحديث قائلة بحماس :

- لاداعى للحزن، هذا ما أقوله دائماً، وهؤلاء الناس لماذا يتركون الكبار وينتقمون من الأبناء ؟!

- وتعتقد عيسى بمواساة حسن فقال باعتراز :

- نحن قوم اعتدنا السجن والضرب فما أهون عقاب اليوم .

ومضى حسن يرشف الشاى فى سعادة وهو يبتسم ويقول بلهجة تنذر بالهجوم .

- أنتم تسجنون وتضربون حقاً ولكن الآخرين يتاجرون .

وأدرك عيسى من يعنيههم بقوله «الآخرين» فتحفز لمعركة ، غادرت الأم الحجرة لتصلى المغرب وقال عيسى منذراً :

- أنت تعلم بمنزلة الآخرين فى نفسى فحذار ! .

فقال حسن بتحد باسم :

- إن كل شئ ينهار بسرعة ، ومن الخير أن ندعه ينهار، هذا القديم كله يجب أن يجتث من جذوره .

فتسأل عيسى فى حدة :

- وقضيتنا الوطنية من يبقى لها ؟

- أظن أن هؤلاء الشيوخ المخرفين الفاسدين هم الذين سيحلونها ؟

- أنت لاتستطيع أن تراهم على حقيقتهم ..

- الحقيقة أننى أراهم على حقيقتهم ..

- أنت تردد باستمرار أقوال الصحف المعادية

فقال بثقة مثيرة للحنق

- أنا لا أومن إلا بالواقع وعلى الشباب أن يعتمد على نفسه !

فدارى عيسى حنقه قائلاً

- دعوة هدم خطيرة، لولا الخونة لأوقفنا الملك عند حدوده الدستورية ولحققنا الاستقلال .

أتى حسن على القدح ، وابتسم بغية تلطيف الجو .. وترامى إليهما صوت الأم وهى تكبر، وخفف عيسى من حدته مراعاة للضيافة ولم تكن قوة لتستطيع أن تحمله على التسليم بما يقوله غريمه .. ثم سأل بفتور :

- ماذا تريدون ؟

- دماً جديداً طاهراً ..

- من أين ؟

فضحك عن أسنان لؤلؤية صارخة بالصحة والعافية وقال :

- البلد لم يمّت بعد ..

فتسأل عيسى بحدة :

- دلنى على حزب يستحق الثقة غير حزينا ؟

رماه بنظرة ساخرة دون أن ينبس علا صوت العجوز فى الخارج بسيل من

الادعية فعاد عيسى يتسأل :

- ما العمل إذن ؟
- نؤيد الشيطان إذا تطوع لإنقاذ السفينة ...
- لكن الشيطان لا يتطوع لإنقاذ شيء ..
- ورجعت الأم وهي تقول :
- ألا يوجد حديث آخر ؟
- بداخداها محتقنين وشبه متورمين واتخذت مجلسها السابق وهي تسأل حسن :
- وأنت متى تتزوج ؟
- وتذكر عيسى تقدمه الجريء لخطبة سلوى فاشتد امتعاضه فقير لكنه جريء وطمع ولاشك في مالها كأخر وسيلة لانتشاله من متاعبه، أما حسن فأجاب قائلا :
- الأحداث الهامة تقع فجأة وبلا سابق إنذار .
- وأمك متى تراها ؟
- أه مسكنكم بعيد جداً عن روض الفرج ولكنها ستجئ حتماً .
- ثم سأل عيسى وهو يتهياً للقيام :
- أين تذهب هذا المساء ؟
- فأجاب بتحد ولكن في هدوء :
- إلى النادي .
- فنهض حسن وهو يقول :
- أستودعك الله ... وإلى اللقاء

وكاتب هذا المشهد واحد من الكتاب الذين يجمعون بين الفائدة والمتعة^(١)، أى أن الأسلوب عنده ذووظيفتين : أولاهما، أن يكون مفيداً في تطور البناء الدرامي في القصة، وثانيهما - أن يكون رقيقاً جميل العبارة يمتع القارئ ويجذبه إليه . وهو «يتمتع بكثير من مزايا السرد والوصف»^(٢)، كما يتمتع بالقدرة على «إتقان الحوار، وفهم مراميهِ النفسية، ووسائله في استبطان النفس، وإضاعة جوانب الأحداث، والإسهام في البناء

(١) انظر : فن القصة ، د : محمد يوسف نجم ، ص : ١١٧ .

(٢) ثلاثية نجيب محفوظ بقلم المستشرق الأب ج . جوميهيه، ترجمة د . نظمي لوقا ط : دار مصر للطباعة ، نشر :

مكتبة مصر، دون تاريخ، ص : ٢

القصصى، سواء مايتصل بالقضاء على رتابة السرد أو تفسير الأحداث» (١).

ومن مزايا السرد فى هذا المشهد القصصى أن الكاتب يحرص على بعض التفاصيل المعبرة التى تساعد على رسم الجو الفنى فى المشهد، ومن ذلك تتبعه قدح الشاى الذى طلبه حسن عند قدومه مباشرة، ثم جعل الكاتب قدح الشاى مرتبطاً بحال حسن فى محاورته مع عيسى، فلفتنا إليه مرة فى أثناء المحاورة عند ما قال : ومضى حسن يرشف الشاى فى سعادة وهو يتسم .

ثم لفتنا إليه مرة أخرى :

أتى حسن على القدح وابتسم بغية تلطيف الجو

وقد جعل الكاتب من هذا الشئ البسيط - قدح الشاى - ميزانا يوزن به موقف المتحاورين، فإذا ارتفع القدح زادت ابتسامة «حسن» وزادت حدة «عيسى» فى حوارهم معه وهذا يوحى أن «حسن» أهدأ أعصاباً من محاوره .

ومن هذه التفاصيل المفيدة أيضاً حرصه على أن تبقى الأم فى المشهد رغم خروجها فى أثناء المحاورة لصلاة المغرب، وذلك من خلال صوتها وهى تكبر فى الصلاة.. ثم رجوعها قبيل النهاية لكى تساعد على إنهاء هذه المحاورة العنيفة بينهما

وأغلب الظن أن حرص الكاتب على مثل هذه التفاصيل الدقيقة نابع من تمرسه بكتابة فن «السيناريو» السينمائى، إذ إن هذا النوع من الكتابة الفنية يتطلب الإلمام بكثير من التفصيلات اللازمة لوصف شخص، أو مكان ، أو زمان، أو أى شئ مما يتصل بالمشهد المصور (٢) .

وقد وقفنا من قبل على طريقة الأسلوب القرأنى فى الدلالة على حدوث تغير فى المشهد ، وذلك من خلال وصف حركة السحرة فى قصة موسى وانتحائهم جانباً للنجوى فيما بينهم ثم عودتهم إلى المشهد ، وأن الأسلوب القرأنى عبر عن عودتهم بقوله (قالوا) بون أى وصف سردى آخر، وهنا نلاحظ وصف الكاتب لعودة الأم إلى المشهد مع ابنها

(١) قضايا الفن القصصى ، ص : ٢٧ .

(٢) انظر : السيناريو السينمائى الفن والتجربة ، ص ٦٥ وما بعدها ، ص ١٠٣

و : سيناريو فيلم «العزيمة» تأليف : كمال سليم ، دراسة وإعداد : محمد السيد شوشة ، ط الهيئة المصرية العامة لكتاب ١٩٧٥م، ص ٢٥ : ٤٥ ، ص : ٥٢ وما بعدها ،

عيسى وحسن بقوله :

ورجعت الأم وهي تقول : ... الخ فهل كان يمكن للكاتب أن يكتفى بلفظ القول للدلالة على عودة الأم تأسيساً بأسلوب القرآن الكريم ؟

والإجابة على هذا السؤال تستدعي النظر في أسلوب الحرفة القصصية في التعبير ليظهر لنا أن القرآن الكريم لم يول المكان الذي اجتمع فيه "موسى" والسحرة للمباراة أهمية بمعنى أنه لم يصفه، وإن كان القارئ يعلم طبيعة المكان ضمناً، وأنه مكان يتسع لعدد كبير من السحرة البارعين اجتمعوا من مدائن مصر، كما يتسع لأعداد أخرى من المشاهدين حشروا إلى ساحة المكان حسب منطوق الآية الكريمة (وأن يحشر الناس ضحى)، من هذا نعلم أن المكان في غاية الاتساع، ومن هنا لم يكن للسحرة أن يتركوا هذا المكان الواسع الرحيب لكي يتناجوا في شأن الخلاف الذي شجر بينهم بعد أن سمعوا موعظة موسى، وإنما الجائز أنهم انتحوا جانبا من المكان بحيث لم يخرجوا من المشهد كلية بل كانوا في جانب منه، ولذا اكتفى الأسلوب القرآني بكلمة (قالوا) للدلالة على رجوعهم إلى موسى .

أما الكاتب فقد حدد المكان الذي يدور فيه الحوار بأنه حجرة الجلوس ولذا اضطر إلى وصف مغادرة الأم المشهد بقوله : وغادرت الأم الحجرة لتصلى المغرب، واضطر - أيضا - إلى وصف رجوعها على نحو صريح ، لأنها في الحقيقة كانت خارج المشهد تماماً وإن كان صوتها يقتحم المكان وهي تكبر في الصلاة .

إن هذا الاستطراد في الحديث عن المشهدين ليس نوعاً من الموازنة بين كلام الله تعالى وكلام البشر، تعالى الله عن ذلك ، ولكن الغرض بيان أن طبيعة المشهد - مكاناً وزماناً - هي التي تملئ طريقة التعبير

وعلى الرغم من تمكن الكاتب من أسلوب السرد يمكن أن يؤخذ عليه ميله إلى الوصف الطويل الذي يمكن أن يسبب الرتابة في الأسلوب، وذلك واضح في غير موضع من النص، وكذلك ميله إلى البسط في وصف الملامح الخارجية للشخصية ، كما فعل مع شخصية حسن الدباغ، كما نقرأ أوصاف : الأصابع المتحجرة ... السبحة الحجازية، الجمال البلقاني .. الأسنان اللؤلؤية الصارخة بالصحة والعافية ، والسبب في ذلك هو وولع

الكاتب بالوصف وغرامه به .

والوصف إذا ورد فى القصة بغير داع غير استعراض قد رات الكاتب ومواهبه أى جاء بلا ضرورة تستدعى وجوده فى العمل الأدبى، فإنه لا يحمد للكاتب ، لأنه يعترض سبيل الحدث ويعطله عن التقدم ، وهذا ما يسمى فى النقد القصصى بالرقعة الأرجوانية.(١)

ومن العجيب حقا أن فى القرآن الكريم بعض المشاهد الوصفية التى تتخلل القصص، «ولكن الوصف فيها مما يطرب الأذان، ويهز الوجدان، وتهفوله القلوب أو تقشعر من هول ماوصف، أو تنسى للحال البائسة ، ولذا فإن هذه المشاهد الوصفية تاتى محملة بأنواع شتى من المؤثرات على النفس» (٢) ومن هذه المشاهد قول الله تعالى فى شأن "موسى" مع "فرعون" :

﴿فدعاً ربه أن هؤلاء قوم مجرمون فأمر بعبادى ليلاً إنكم متبعون واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فكهين كذلك وأورثناها قوماء آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾ (٣) .

ومن هنا نعلم أن مايعاب فى القصص البشرى قد يكون بعينه مظهراً من مظاهر الجمال الأسلوبى والفنى فى القصص القرأنى ، فإن النفس تقف أمام مثل هذه الأوصاف القرآنية موقف الخشوع والخضوع .

وبالنظر فى النص الأدبى يتضح لنا أن الكاتب أجاد الدخول فى المشهد إذ جعل البداية حواراً بين عيسى الدباغ وأمه، وجعل عيسى ينطق بالكلمات الأولى دون أن يعرف القارئ الطرف الآخر فى الحوار، وأولى كلمات عيسى تحمل حدثاً مهماً، قد يكون له تأثير على حياته كلها فى المستقبل - وهو نقله من وظيفة مدير مكتب الوزير إلى

(١) انظر : فن القصة القصيرة ، ص ١١٠ .

و : بدائع الإضممار القصصى فى القرآن الكريم ، ص : ٨٨ .

(٢) المرجع السابق ص : ٨٩ .

(٣) الدخان : ٢٢ : ٢٩ .

المحفوظات وقد فاجأنا الكاتب بهذا الحدث، إذ لم يشير إليه في المشهد السابق لهذا المشهد الذى بين أيدينا^(١) ولكن الكاتب سرعان ما قطع هذا الحوار بوصف طويل ممتد، فلما عاد الأسلوب إلى الحوار كان القارئ قد أوشك أن ينسى موضوع الحوار، وهذا - فى رأى - قليل كثيراً من التناسق فى التعبير ، وقليل من جمال المزاوجة بين السرد والحوار فى النص .

وفى الحوارين «عيسى» وابن عمه «حسن» نرى الجمود الذى أصاب الحوار، فوقف عند نقطة واحدة لم يتقدم عنها، وكان ذلك لإصرار كل من المتحاورين على رآيه فى القضية موضوع الحوار، وهى قضية التغيير فى الحكم، فبينما نرى «حسن» مصراً على وجوب هذا التغيير، وضرورة تقدم الشباب على الشيوخ فى القيادة نرى «عيسى» مصراً هو الآخر على ضرورة أن يظل حزبه فى مكان الصدارة وكل من المتحاورين يناصر رآيه ويحاول أن يوهن رأى خصمه، وإذا انتهى الحوار وكل منهما يسير فى طريق مخالف لطريق صاحبه .

والكاتب نفسه قد أحسن هذا الجمود فعلى ذلك بقوله مدافعاً عن موقف «عيسى» فى حوار : «ولم تكن قوة لتستطيع أن تحمله على التسليم بما يقول غريمه» . وهناك سمة ظاهرة فى أسلوب القصة القرآنية، وهى أنه سواء أبدئت القصة بالسرد أم بالحوار ، فإن للأسلوب القرآنى قدرة عجيبة على وضع القارئ فى قلب الأحداث منذ اللحظات الأولى، بل منذ الكلمات الأولى، ثم يسير القارئ مع الأسلوب رويداً رويداً حتى تتكشف له جميع المواقف، ويمسك بجميع الخيوط ، ودون أن يحس أدنى نوع من التلقيق أو الافتعال

ولنرجع إلى قصة «موسى» فى سورة القصص، التى بدئت بأسلوب السرد، وقصة «يوسف» ، التى بدئت بأسلوب الحوار^(٢)، ففيهما شاهد صدق على ما نقول . ثم لنقرأ بداية قصة آدم - عليه السلام -

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ (٣)

(١) انظر : السمان والخريف ، ص : ١١ : ١٨ .

(٢) يراجع - فى مقدمتى هاتين القصتين - الحديث عن الإجمال والتفصيل، فى البحث الأول، من الباب الأول من هذا البحث .

(٣) طه : ٦١ .

لنرى هذه البداية السردية الحوارية فى آن واحد، فالأسلوب لم يكد يبدأ سرداً - فى ثلاث كلمات فقط - حتى تحول إلى الحوار - فى كلمتين - ثم عاد إلى السرد مرة أخرى، وذلك فى آية واحدة، استغرقت أقل كم سطر من كتاب الله - تعالى - وعلى الرغم من ذلك نقرأ، بل نرى أحداثاً متعددة فى هذا السطر، فنرى أمر الله للملائكة بالسجود لأدم، ومعنى هذا أن أدم قد خلق، وسواه الله بيديه، وهذه قصة أخرى حذفها السياق من هذه الحلقة من القصة، ثم نرى مبادرة الملائكة بتنفيذ أمر الله، ثم نرى هذا الحدث العجيب وهو عصيان إبليس أمر ربه ، كل ذلك فى هذه الكلمات المكدودة من بداية القصة، ومع المضى فى القصة يعرف القارئ سمات هذا المخلوق الجديد «أدم» ويعرف أيضاً علاقته بهذا المخلوق المتمرد ، إبليس .

إن هذا الأسلوب القرآنى معين دفاق لكتابنا عليهم أن ينهلوا منه، وينثقوا منه الدروس العظيمة فى تعلم حرفة القص، وخاصة فى بناء بدايات القصص لأن البداية إن لم تكن آسرة بأسلوبها ، أولاً، وبقدرة الكاتب على جودة العرض، ثانياً ، فإن القارئ سينصرف عن متابعة القراءة لا محال (١).

وإذا كان أسلوب البداية مهما إلى هذا الحد فإننا نجد كثيراً من كتابنا - ومنهم كتاب مشهورون - يعتمدون على أسلوب السرد وحده فى بدايات قصصهم، وأحياناً يحس القارئ أنه يقرأ مقالاً أو تقريراً عن بعض الحوادث أو الشخصيات ، وقد يطول هذا التقرير حتى يشغل بضع صفحات من بداية القصة، وبعد ذلك يبدأ الكاتب فى المزوجة بين السرد والحوار (٢) .

ومن العجيب أن يكون الاتجاه الآن إلى تقليص دور الحوار فى القصة القصيرة خاصة، ليس فى بداية القصة فحسب، ولكن على مدار القصة كلها، ومثل هذه القصص ربما تتخلل عن مقومات أخرى من مقومات الفن القصصى غير الحوار، فتأتى القصة على هيئة مجموعة من الخواطر تنتاب شخصاً من الشخص، نتيجة لحدث مهم وقع له،

(١) انظر : فن كتابة القصة، حسين القبانى، ص : ٤٥ .

(٢) انظر على سبيل المثال : الرجل والطريق، سعد مكارى، ط الهيئة العامة للكتاب ، ضمن مطبوعات مهرجان القراءة

للجميع ١٩٩٥م، ص : ٤ وما بعدها و : سمات من الزمان، ثروت أباطة، رواية نشرت سلسلة فى ملحق جريدة

الأهرام الحلقة الأولى بتاريخ : ١/٦/١٩٩٥م . ص ١٠

و : لا تتركبنى هنا وحدى ، إحسان عبد القدوس، ط مكتبة مصر، نون تاريخ ، ص ٩ وما بعدها .

هذه الخواطر تأتي متناثرة، لاتحمل حدثاً معيناً له بداية ووسط، ونهاية، ولاتعنى بمكان ولازمان، كما تخلو من عنصر التشويق^(١)، وهى المقومات التى تعتمد عليها القصة دائماً . وقد تعتمد القصة على غرابة الأحداث أو الغرابة فى تصرفات الشخصية ثم لاشئ بعد ذلك من مقومات الفن ، كالحوار ، أو السرد الفنى المقنع، أو الحدث المتكامل^(٢)، ومثل هذه القصص تشبه - إلى حد كبير - ماتنتشره الصحف فى صفحة الحوادث من حوادث غريبة مثيرة دون أن يكون لها من الصياغة الفنية مايجعلها ترقى إلى مستوى الفن الأدبى ..

وعلى أية حال فإن غرابة الحدث أمر طبعى فى القصة ، بل هو أمر ضرورى وخاصة فى بداية القصة، بشرط أن يتأزر الحدث مع الأسلوب من أجل تقديم بداية قصصية مثيرة وجميلة فى آن واحد .

ولهذا نجد كثيراً من الكتاب المشهورين يلجأون إلى هذه البدايات فى قصصهم ومن هذه البدايات الجميلة حقاً قول أحد الكتاب .

«مرة أخرى يتنفس نسمة الحرية»، ولكن الجو غبار خائق وحرلا يطاق وفى انتظاره وجد بدلتة الزرقاء وحذاءه المطاط، وسواهما لم يجد فى انتظاره أحداً هاهى الدنيا تعود ، وهاهو باب السجن الأصم يبتعد منطويا علي الأسرار البائسة هذه الطرقات المثقلة بالشمس، وهذه السيارات المجنونة، والعابرون والجالسون، والبيوت والدكاكين، ولا شفة تفتقر عن ابتسامة .. وهو واحد خسر الكثير، حتى الأعوام الغالية خسر منها أربعة غدراً، وسيقف أمام الجميع متحدياً. أن للغضب أن ينفجر وأن يحرق، وللخونة أن ييأسوا حتى الموت، وللخيانة أن تسفر عن سحنتها الشائنة ، نبويه عيش، كيف انقلب الاسمان اسما وا احداً ؟ أنتما تعملان لهذا اليوم ألف حساب، وقديما ظننتما أن باب السجن لن ينفتح، ولعلكما تترقبان فى حذر، ولن أقع فى الفخ، ولكنى سأنقض فى الوقت المناسب كالقدر ، وسناء إذا خطرت فى النفس انجاب عنها الحر والغبار والبفضاء والكدر، وسطع الحنان فيها كالنقاء غب المطر ماذا تعرف الصغيرة عن أبيها؟ لاشئ» . الخ .

(١) انظر مثلاً قصة (السراج) ملحق أهرام الجمعة بتاريخ ٢٨/١٠/١٩٩٤م، وهى القصة الحائزة بالجائزة الأولى لسائى القصة فى العام ذاته، وكاتبها أحمد عبد الله متولى .

(٢) انظر قصة : «الطاغية الذى قتل نفسه» د: حمدى حمودة ، ملحق أهرام الجمعة بتاريخ ٥/٥/١٩٩٥م. ص ١

إن جودة هذه البداية تكمن في أن الكاتب استطاع أن يقدم لنا صورة رجل غاضب ناغم على المجتمع عامة، وعلى بعض الناس الذين خانوه خاصة، وقد ظهر غضبه حتى علي مظاهر الطبيعة وعناصرها، وهو عازم على الانتقام ممن خانوه وأدخلوه السجن لمدة أربعة أعوام، انقطع خلالها عن ابنته (سناء) تلك النسمة التي تزيج عن نفسه الحر والبغضاء . والذي يقرأ القصة إلى نهايتها يعرف أن الكاتب قدم - في هذه البداية - ما يشبه الإجمال السريع المقتضب لأحداث القصة، فقد سار بطل القصة «سعيد مهران» في طريق الانتقام ، وتعددت حوادث القتل على يديه ، وظل طريداً حتى نهاية القصة .

وقد يحاول بعض الكتاب أن يبدأ قصته بالحوار ، رغبة في إثارة القارئ منذ اللحظات الأولى، وخشية أن تصرفه البداية الهادئة عن الاندماج في الموضوع، والبداية بالحوار تجعل القارئ يعيش الأحداث منذ الكلمات الأولى كهذه البداية التي يقول كاتبها^(١) :

- لا بد أن نتزوج .

- تريث يا فؤاد .

- نغد صبرى .. سنة كاملة وأنا أنتظر . لم أعد قادراً على كبت مشاعري النار تتلظى في جو في كلما ضمنتك إلى صدري ، والوساوس تتضخم في رأسي وتنساب كالآب لسة تفزع في أعماقي تغريني بك .

بت أخشى نفسي ، أخاف أن ينتصر ضعفى ، أن يفلت منى زمام أمرى ، أن أرتكب ما أخشاه إن كبح مشاعري الفوارة يرهقنى، يستبدبى، يزلزل كيانى ، حتى إننى أرتجف كلما وقع في خلدي أن إرادتى قد تتقوض ، وأن الوحش المتربص في أغوارى قد ينطلق

لو عصفت بنا رغبتنا واستسلمنا للإغراء فلن أغفر لنفسي ، سأحيا قلقا معذبا ، فأنأ أريد زوجتى طاهرة الذيل حتى ليلة الزفاف.

وتلفتت سهير في قلق ثم قالت :

- لو رفضوا زواجنا لا نهارت آمالنا ، وتحطمت سعادتنا ، وتلاشى الحلم اللذيذ

(١) المستنقع ، عبد الحميد جودة السحار، ط : مكتبة مصر ، ١٩٩١ م ، ص ٦٠٥ .

الذى نعيش فيه .

- أننا نهاب وهما ، فكرة نبتت فى رأسك وجعلت تتفخين فيها يوما بعد يوم حتى صارت

ماردا جباراً يفرعنا ، إننى لا أدرى لماذا يرفضون زواجنا ؟

قالت سهير فى إشفاق :

- قلت لك لن يوافقوا أبداً على أن أتزوج قبل "سوسن" .

- لأنها أكبر منك لابد أن تتزوج أولاً ، ما أحسب أن هذا يكون

سبق أن تعرضت لهذا الادعاء الباطل الذى يزعم صاحبه أن الحوار فى القصص القرآنى لا يمثل المتحاورين ، ولا يعبر عن مشاعرهم وأفكارهم ، ولا ينطق بما تجيش به صدورهم^(١) ، وأن هذا الحوار لا تبدو فيه ذاتية المتحاورين ، وإنما تبدو فيه ذاتية النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - واستثنى صاحب هذا الادعاء الحوار بين رب العزة سبحانه وإبليس ، والحوار بين "موسى" و "قرعون" من هذا الزعم الباطل^(٢) ، وقدنا قشت هذا الرأى مناقشة مدعومة بالشواهد التى تؤكد ذاتية الحوار القرآنى، دون أن يكون من بين هذه الشواهد شاهد واحد من القصتين اللتين استثنى الباحث حواراتهما.

ونقف الآن مع شاهد آخر يؤكد ذاتية المتحاورين فى القصص القرآنى ، يقول

تعالى على لسان إخوة "يوسف" - عليه السلام - :

﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لنصْحون. أرسله معنا غدا يرتع

ويلعب وإنا له لحافظون ﴾^(٣)

إن الأسلوب القرآنى يضبط الحركات النفسية لشخصيات القصة ضبطاً محكماً، ثم يحيلها إلى كلمات تنطق بمكنون الصدور وتكشف عنه، ولكى نستحضر بعض جلال التعبير فى قول إخوة "يوسف" نكر راجعين إلى الموقف الذى بيتوا فيه كيدهم لأخيهم، إنهم- بلاشك - قد قلبوا الأمر على جوانبه زماناً قبل أن يواجهوا أباهم بقولهم هذا، لقد عز عليهم أن يؤثر أبوهم يوسف وأخاه عليهم، وهم العصبة القوية التى ينتفع الأب

(١) انظر : المبحث الثالث من الباب الثانى من هذا المبحث

(٢) انظر : الفن القصص فى القرآن الكريم ، ص : ٢٠٥ .

(٣) يوسف : ١١ ، ١٢ .

بسعيها وعملها الدؤب، ورأوا فى هذا الإيثار ظلماً وغبناً لهم، وهم الرجال الأشداء، ولذا عزموا على أن يتخلصوا من هذا الأخ الصغير الذى يحول بينهم وبين وجه أبيهم، وانتهوا إلى أن يلقوه فى غيابة جب سحيق، لعل قافلة من قوافل التجارة تستخرجه وتذهب به بعيداً عن أرض "كنعان" وحين استقربهم الرأى على هذا التدبير تقدموا إلى أبيهم بهذا الطلب فى هذا الأسلوب المفضوح :

(ياأبانا مالك لا تأمنا على يوسف) وماله لا يأ منهم أبوهم على "يوسف" وهو أخوهم؟! ثم متى كان الأخ غير مؤتمن على أخيه ؟ إن هذا الادعاء الذى يدعونه على أبيهم ، وهذا الدفع - الذى يدفعون به ما تخیلوه من اتهام أبيهم لهم بالتهاون والتفريط فى شأن أخيه - لهو الدليل الصارخ على الشر الذى يبيتون ، وعلى العدوان الذى يضمرون .

وهم يقولون فى تأكيد جازم: (وإنا له لناصحوون) إن هذا التوكيد إنما يدفعون به اتهاماً خفياً يتمثلونه فى صدر أبيهم منذ عقوا العزم على هذه الفعلة الشنيعة، والتى أعلمنا بها الأسلوب القرأنى ، وأخفاها عن الأب لا لشيء إلا لكى تتم القصة على وجهها المراد لها، فلو علم الأب ما يدبر لابنه القريب إلى نفسه ما تركه يذهب مع إخوته ، وما تمت القصة على هذا النحو الغريب .

ثم لنسأل لم كان (غد) هو الميقات الذى جعلوه موعداً لأخذ يوسف معهم؟ إما أن يكون ذلك لأن حديثهم مع أبيهم كان فى المساء بعد انتهاء يومهم فى المرعى، وبعد أن اجتمع شملهم فى العشاء أو السمر، فهم إذا قد اختاروا هذا الوقت ليخفوا فى ظلمة الليل ما قد تبدو على وجوههم من انفعالات تكشف عما بيتوه ودبروه، خصوصاً إذا كان الأب قد أحس من كلامهم ما أوجب ألا يأمنهم عليه، كما يقول الزمخشري (١) .

وإما أن يكون ذلك فى صبح يوم جديد، حين هموا بالخروج إلى المرعى، وهم إذا فى استخزاء من أن يطلبوا هذا الأمر منجزاً، إنهم فى ضعف ظاهر ، تنوء قواهم ، بهذا الحمل الذى حملوه بين أضلعهم، وأجمعوا أمرهم عليه (٢).

(١) الكشف، ج٢ ، ص : ٤٤٨ .

(٢) انظر: القصص القرأنى فى منطق ومفهومه، ص : ١٢١ ، ١٢٢ .

إن قصص القرآن وحده هو الذى يضبط المشاعر والانفعالات البشرية على هذا النحو، وهو الذى يصنع الحوار الدال على هذه المشاعر والانفعالات . فى ذاتية مفرطة لا نظير لها فى القصص الفنى

ومن الغريب أن الباحث يرى أن الحوار فى القصص الفنى يمثل نفسية المتحاورين، وأسلوبهم فى الحديث والمخاطبة ، وعقليتهم فى التفكير وفى الحركات الذهنية، كما قد يمثل الحرف والصناعات^(١) .

ونحن لا نسارع إلى رفض هذا رأى رفضاً مطلقاً، ولكن المنطق يقتضى أن ندع الحكم فى ذلك إلى الحوار فى القصص الفنى نفسه، فإما أن يؤيد رأى الباحث وإما أن يرفضه، وإما أن نخرج برأى آخر يكون أقرب إلى الصواب ، وأدنى إلى القبول .
أولاً :

نبدأ بهذا الحوار المستوحى من حوار إخوة يوسف مع أبيهم- الذى وقفنا معه سلفاً - وهو من قصة بعنوان " الغفران " التى استوحاها الكاتب "ثروت أباظة" من قصة "يوسف"، وجعل الأخوين الشقيقين فى مقابل إخوة "يوسف" العشرة، و"صديق" فى مقابل شخصية "يوسف" - عليه السلام-، وهو أخ غير شقيق ، أنجبه أبوهما الثرى من أم أخرى بعد وفاة أمهما ، وكانا ينقمان منه لأن أباه يؤثره عليهما ، لأنه سيرت ثلث التركة بعد وفاة الأب ، ولذلك عزموا على قتل "صديق" ولكنهما أظهرهما لأبيهما غير ما يضمنان حتى يأمن لهما ويدع أخاهما يذهب للهو معهما. يقول الكاتب^(٢) :

" بدأ "عبد الغنى" ينهج نهجا جديدا نحو أخيه "صديق" دهش له صابر بعض الدهشة ، ولكنه فرح به كل الفرحة

صار "عبد الغنى" يعنى عناية فائقة بشأن "صديق" .. ويذهب إلى مدرسته فى فترات متقاربة ويبلغ أباه بسعادة مقدار تفوق "صديق"، وإعجاب المدرسة به من ناظر إلى أساتذة إلى تلاميذ وشارك "عبد الودود" فى هذه العناية مشاركة غير خافية ، وظن "صابر" فى براعته "وهند" فى نقائنها أن الكبيرين يرعيان أخاهما الأصغر شكراً لما هياه لهما أبوهما من حياة زوجية مستقرة وبيت سعيد لكل منهما

وحين حاول الأب أن يتعمق الأمر.. لعلهما الآن يقتربان من الأبوة، وربما راوحت نفسيهما هذه العواطف فهزت حنايا الحب والأخوة معا نحو أخيهما الذى يكاد يكون منهما بمكان الابن أيضاً.

وهكذا لم يكن غريباً أن يأتى عبد الغنى إلى أبيه :

(١) انظر : الفن القصص فى القرآن الكريم، ص : ٣٠٥ .

(٢) الغفران، ص ٥٤ ، ٥٥ .

- اترك لى "صديق" أخرج به إلى الدنيا .
 - أخاف عليه .
 - منى ؟
 - من غيرك .
 - سأخرج به أنا وعبد الودود وزوجتانا .
 - أين تذهبون ؟
 - إلى حيث يلعب هو ونتسلى نحن .
 - أين ؟
 - إلى الملامى
 - الملامى ؟
 - ما لها ، أليست للأطفال ؟
 - إى نعم ، لكنها ألعاب خطيرة .
 - ونحن معه !!؟
 - الآلات لا قلب لها ..
 - ولكن قلوبنا معه
 - أخاف عليه .
 - توكل على الله " .
- هذا هو الموقف كما صورته الكاتب ، وهذا هو الحوار المقابل لحوار إخوة "يوسف" مع أبيهم ، وفى هذا الحوار جعل الكاتب أحد الأخوين "عبد الغنى" هو الذى يحاور أباه فقط، أما الأخ الثانى "عبد الودود" فلم يشترك فى الحوار ، ولو اشترك الأخوان معا فى حوار الأب لكان أكثر إقناعا للقارئ ، ولكن أسهل فى انتزاع موافقة الأب على خروج "صديق" معهما .
- وفى القصة القرآنية نجد الأسلوب يظهر إجماع الإخوة على رأى واحد فى مخاطبة أبيهم : (قالوا يآبانا .. الخ) وليس معنى هذا أنهم كانوا ينشدون فى صوت واحد بهذا النداء، ولكن المعقول أنهم اختاروا من بينهم واحدا يتحدث إلى أبيهم، أما الباقون فيكفى

أن يرى الأب موافقتهم على كلام أخيه الذي يتحدث عنهم ، ليعرف الأب إنهم يرون رأيه.

وقد أحس الكاتب شيئاً من القصور في الموقف فجعل "عبد الغنى" يحاول إقناع أبيه بإخباره أنه لن ينفرد بصديق ، وإنما سيخرج معه أخوه "عبد الودود" وزوجتا هما أيضاً، فما عبر عنه الأسلوب القرآني بلفظة : (قالوا فى بداية الحوار عبر عنه الكاتب بعبارة طويلة ، ومع ذلك فإننا لا نحس فى هذه العبارة إقناعاً واضحاً؛ إذ ربما يفهم الأب أن خروج هؤلاء لا يكفى لضمان سلامة الصبي الصغير "صديق" لأن "عبد الغنى" يستطيع أن ينفذ كيداً لأخيه فى غفلة من الباقين .

وكلمات الحوار لا تصلح لهذا الموقف وحده بل تصلح أن تكون فى كثير من المواقف المشابهة ، فهى تصلح مثلاً : فى موقف أب لا يشك فى ولاء ابنه لأخيه الصغير ، فينطق بمثل ما نطق به "صابر" هنا ، وتصلح أيضاً فى موقف ابن لا يضر سوء أخيه ، فينطق بمثل ما نطق به "عبد الغنى" هنا ، وتصلح كذلك فى موقف لا يشك فيه الأب فى ولده ، ولا يضر الأخ فيه شراً بأخيه .

وذلك أن عادة الآباء أن يبدوا تخوفهم على صبيانهم الصغار، حتى فى المواقف العادية التى لا يخشى فيها من السوء ، ومن عادة الإخوة الكبار أن يكونوا منطلقين فى مرحهم ولهوهم ، وأن يحاولوا إقناع الآباء بضرورة خروج الصغار إلى المرح واللهو . إن آفة كثير من القصص الحديث تتمثل فى أن الكاتب كثيراً ما يلبس الشخص لباسه هو، فيتحدثون على لسانه، وينطقون بما يجود به خاطره هو، وليس بما يتناسب ومستواهم الفكرى والتعبيرى ، ومن ذلك هذا المثال :

ثانياً : يقول الكاتب " محمد عبد الحليم عبد الله" فى إحدى قصصه (١) :

" ثم أمسكت الأكسن وتولت الجوارح والملامح والحركات والسكنات شرح ما جاشت به النفس فى صمت طويل عميق، وأبلغ من الكلم والقوافى التى يسجع بها الشعراء ، حتى جال من حولنا هدهد ، ينقرو يفتش ، ويبحث وينقب، فسألتها مبتسماً هازاً رأسى عم يبحث ؟

فقلت : يقولون إنه لا يزال يفتش عن كنوز سليمان من يومها إلى يومنا هذا .

(١) شمس الخريف ، محمد عبد الحليم عبد الله ، ط: مكتبة مصر، ص ١٢٦ .

فقلت : نعمت المثابرة .

قالت بصوت يهدج ه حياء ووله : ولن ينقضى عمله حتى ينقضى ما بيننا ، ليتنا لم نلتق !

وأدريت كلامها فى قلبى ، فاستعذبه القلب ، حتى انتهت هى إلى نعيق غراب على شجرة الجميز ، فنظرت إلى وفى عينها تشاؤم أهل الريف ، فابتسمت لها مهونا الأمر . فسألتنى :

– لماذا لا نرى بينها غراباً غير أسود ، كلها سود ؟

فقلت ما جاد به خاطرى ، وإن كان قولاً لا طائل تحته :

– لأنه من رهبان الطيور .

لكنها استعذبت قولى ، فقالت :

– إذن فلا تنس سأكبك مادام الغربان فى ملابس الرهبان ، والهدهد يبحث عن كنوز سليمان .

ثم التقت شفاهنا فى قبلة .

ويتسم الأسلوب القصصى هنا ببعض الزيف والمبالغة، وعدم الملاءمة للموقف القصصى ، وعدم الملاءمة أيضاً للمشاعر النفسية للشخصيات ، فسر إنشائى لا علاقة له بالموقف القصصى ، لأن الموقف هنا بين صبيين أو شابين صغيرين من أبناء الريف ، وقد صورهما الكاتب على علم بحكمة "سليمان" ، وعلاقته بالهدهد ، وملابس الرهبان ، وكنوز "سليمان" ، ويعرفان أيضاً الكرم والقوافى ، ثم من قال بأن هناك ما يسمى "تشاؤم أهل الريف" ؟

وقد انتقلت عدوى (الإنشائية) من السرد إلى الحوار ، وصارت لغة السرد مثل لغة الحوار ، ولغة الصبى مثل لغة الصبية، وقد وصف الكاتب الفتاة وهى تتحدث بالحياء ، لكنه فى نهاية الحوار نسى ذلك الوصف حين جعل المحبين يلتقيان فى قبلة ، ونسى – أيضاً – أن الموقف المصور كله يحدث فى حقل ريفى^(١) .

ثالثاً : يقول الكاتب " توفيق الحكيم" فى إحدى مسرحياته فى حوار بين الجنى

(١) انظر : دراسات فى نقد الرواية ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

والصياد^(١) : الجنى : دع الحمق وأصغ إلى .. أنا الآن حر ... حر من كل القيود ... لا سيدلى ولا عمل .. فما تقول لو جعلتك ملكا على هذا الشعب ، وزوجتك من حبيبك وهى اليوم أرملة من أرامل "سليمان" وفتحت لك الكنوز وأتيت لك بالمجد والسلطان ...
الصياد : ؟

الجنى : لماذا تنظر إلى هكذا ؟

الصياد : آه ... لو استطعت أن أحبسك فى شبكتى هذه

الجنى : أيها الأبله ... هذه جعلت لتحبس فيها نفسك الصغيرة .. اذهب
الصياد : (يتحرك) إنى ذاهب ..

الجنى : اذهب بخيبتك ...

الصياد : (يقف) أتستطيع أن تخبرنى أيها الجنى، ما نفع كل هذه الأشياء التى تغرينى بها؟ لقد كان سليمان يملكها كلها . ألم تكن له كنوز الأرض؟ ألم يكن له السلطان والمجد ؟ ألم يتزوج نساء فوق الحصر والعد؟ ومع ذلك خر كل هذا كأن لم يكن أمام كلمة صغيرة هى "لا" ارتسمت على شفتى امرأة واحدة كلما أسرفنا فى الانخداع بملكائنا ، جعلتنا السماء موضعا للهز والسخرية .. هو ذا الآن سليمان ... قد قلبت كل جلاله وعبثت بكل جبروته أرضة تسعى على الأرض ، فهوى بصولجانه المنخور.. أيها الجنى .. ما عاد شئ يبهرنى أو يغرينى.. حتى ولا الحكمة نفسها !! إن اليوم الذى يمتلئ فيه الحكيم شعورا بحكمته هو أقرب الأيام إلى ساعة انكشاف الرداء عن حمقه المضحك ! إنك تتحدث عن خيبتى .. ولكنى ما شعرت يوما بالخيبة الحقيقية إلا يوم عرفتك فعلى قدر الطموح تكون مرارة الفشل ، كلما عظمت القدرة ضخم ذل الخيبة .

الجنى : أعترف بأننى لست أفهمك . فأنا لم أعتد التفكير إلا فى الظفر والانتصار.

إن هذا الحديث الفلسفى عن قيمة الملك لا يمكن أن يجرى على لسان الصياد وأمثاله من الناس العاديين، إنما هو فكر المؤلف وفلسفته سال بهما لسان الصياد ، ونجد^(٢)

(١) مسرحية "سليمان الحكيم" ص : ١٥٦ ، ١٥٨ .

(٢) انظر : تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ و . الأدب القصص والمسرحى فى مصر ، ص

افتقاد الذاتية فى الحوار عند هذا الكاتب فى أكثر من موضع سواء فى المسرحيات^(١) أو القصص^(٢) .

وهذه الأمثلة لبعض كتابنا المشهورين ، لا تعنى بحال أن الذاتية فى الحوار ليس لها وجود فى القصص الفنى ، ولكن الملاحظة العامة أنه من النادر أن تسلم قصة أو رواية من سيطرة فكر الكاتب وأدائه على ما ينطق به الشخص الذى يتحاورون على صفحات العمل الأدبى . هناك كتاب حققوا ذاتية الحوار فى كتاباتهم الفنية ، ومن ذلك :

أولاً :

يقول الدكتور "طه وادى" فى إحدى قصصه من حوار بين بطلى القصة :

- " أستاذ فتحى ، ما فلسفتك فى الحياة ؟

- ما تقصدين يا أميرة ؟

- ليس ادعاء . بكل تواضع أنت مثل أعلى كنت أريد مشاهدته عن قرب .

- صدقيني يا أميرة، الحقيقة المرعبة التى تملأ حياتى الآن هى الوهم .

- الوهم يا أستاذ ؟

- كل شئ فى هذه الحياة وهم كبير ، لكن آمالنا الخرساء تجعلنا نستعذب الالم ، من أجل وهم أكبر .

- لا أفهمك .

- خمسة وعشرون عاماً فى الكفاح السياسى والصحفى ، ولم يتحقق شئ .

- لا أصدقك .

- حتى الزوجة والأبناء لا عزاء فيهم !

- أشربت شيئاً ؟

- المر " (٣) .

وأول ما يبدو فى هذا الحوار من ذاتية المتحاورين وشخصيتهما هذا القلق النفسى

(١) انظر مثلاً : مسرحية أهل الكهف ، ص ٢١ .

(٢) انظر مثلاً : عصفور من الشرق ، الفصل التاسع ، ص : ٩٢ ، والفصل التاسع عشر ص : ١٧٨ ، والفصل العشرون ، ص : ١٩٥ .

(٣) قصة : "الأمم البعيدة" ، ط دار المعارف ، ١٩٨٤م ، ص ٥٠٠ .

الذى يحسه بطل القصة ، فهو - برغم السلطة والمجد- يحس أنه لم يجن سوى الوهم الذى صار يملأ حياته ، وهو يصر على ذلك رغم أنه يسمع كلمات الإطراء من فم الشخصية المحاوره "أميرة" وفى ذلك دلالة على مدى الإحباط الذى تعرض له .

ثم هو يعلل هذا الإحباط بعلّة صحيحة ، وهى أنه قضى خمسة وعشرين عاما فى الكفاح الوطنى والسياسى ، لا على المستوى الخاص، أو بمعنى آخر، لم يحقق شيئا لوطنه ولا لنفسه .

وكان تعبيره عما شربه مقتضباً وجامعاً ومعبراً عن حالة الوهم والإحباط التى يعيشها .

والكاتب يستخدم اللغة بإيجاز وتركيز شديدين، فأميرة حين تنتهى من حديث فتحى تسأله مستنكرة : أشربت شيئا ؟ فيرد عليها : المر، ويدلا من أن يقول الكاتب على لسانه : شربت المر ، يحذف الفعل والفاعل ويبقى على المفعول به فقط .

كذلك نجد حديث أميرة ملائما لشخصيتها ، فهى تبدى إعجابها بأستاذها، وتحاول التقريب منه، ولذلك فهى تحاول أن تكشف ما يدور بداخله ، وذلك عن طريق ملاحظته بالأسئلة التى تجيد طرحها^(١) .

ثانياً:

استطاع الأستاذ "العقاد" أن يحقق كثيراً من ذاتية الحوار فى مواضع كثيرة من رواية "سارة" ، وقد تعقب أستاذنا الجليل الدكتور فتحى أبو عيسى الحوار فى هذه الرواية فى دراسته عنها^(٢) ، ونبه إلى أن الموقف القصصى هو الذى يشكل الحوار ومن ذلك :

إذا كان المقام مقام تبسط مع "سارة" شاق الكاتب أن يغلف هذا الحوار بشئ من الفكاهة اللفظية ، قصداً إلى الترويح والتسلية وتزجية الفراغ ، كما هو الحال حين رأى مع "سارة" تلك الرواية الهزلية التى تحكى أخبار صياد فاشل يستعيز من فشله فى الصيد بالمبالغة فى الوصف والحكاية ، قال لها وقد رأى الطير يتساقط من هنا وهناك إلى ما بعد إطلاق البندقية بلحظة غير قصيرة :

(١) انظر : دراسات فى نقد الرواية ، ص : ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) انظر : قراء الأدب العربى المعاصر ، ص : ٣٧ ، ٣٩ .

- أليس الأحسن والأبرع أن يسقط هذا الطير مشويا على الأطباق^(١) ؟
وللكاتب حوار آخر ضاحك ملائم للموقف القصصى ومعبر عن روح الفكاهة التى
تحيط به ، وذلك عندما دلف "همام" بطل القصة إلى منزل "ماريانا" ليسأل عن صديقه ،
والتفت إلى شيخ متهدم يعبر الفناء

فسأل الخائطة : أهذا ضيف جديد عندك يا مدام ؟
قالت : ضيف ... وعرف وقتها أن ثروته تربي على الألف ولا وارث له ولا قريب ،
ولا قرية تلوذ به فى شيخوخته الكئيبة .
قال همام : وما حاجته إلى البحث عن وارث ؟ إن الورثة يبحثون ولا يقصرون عند
الزوم .

قالت : ألا يحتاج إلى من يعوله ويواسيه ويحف به وهو يودع دنياه ؟
قال همام : إن كنت يا ماريانا حريصة على خروجه من حجراتك فانصحى له
بكتابة إعلان فى الصحف السيارة ، يقول فيه : إنه يملك كذا من الألف ويحتاج إلى كذا
من الإخوان وأولاد الأعمام وأولاد الأخوال. وانظري كيف يضيق بيتك عن الطالبين
والطالبات ممن أنسوا فى أنفسهم الوفاء بالشروط^(٢) .
« وإذا كان المقام يستدعى الجد بدت فى الحوار نبرة الوقار الذى لا يلتقى مع
الخفة أو المزاج ، وهو الحوار المحبوك الأطراف الذى لا يدع ثغرة أمام محاوره »^(٣) .
ومن ذلك محاوره همام مع صديقه أمين وهو يتعقب سارة ويراقبها وقد أفلتت منه ،
يقول الكاتب^(٤) :

" قال أمين : إن السيدة لم تعد بعد خروجها من دار الصور المتحركة .

- وبك !! وإلى أين ذهبت ؟

- لا أدري .

- كيف لا تدري !! ألم تتبعها ؟

(١) سارة ، ص : ٦ .

(٢) سارة ، ص : ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٣) قراءة فى الأدب العربى المعاصر ، ص : ٢٩ .

(٤) سارة ، ص : ٧٩ ، ٨٠ .

- لا، لأننى ما شككت فى أنها خرجت لحاجة لها ثم تعود، ولا يليق أن أتبعها .
فانتفض همام وهو يغالب غيظه وسخطه وصاح به : يا أخرق ، أليس فى دار
الصور المتحركة ما يغنى سيدة مهذبة عن الخروج إلى منعطفات الطريق ؟
وإذا كانت شخصية همام واضحة فى هذا الجزء من الحوار، وإذا كانت صرامته
وحدته مناسبة للموقف ، فإن حديثه ناطق بهذا كله ، فهو حديث جاد غاية الجد معبر عما
فى نفسه من غيظ وسخط .
ونحن نرى شخصية أمين أيضا واضحة ، وأهم ما يميزها نوع من الغفلة أو
التغافل الذى كان عليه ، فإنه على الرغم من وضوح مهمته وهى مراقبة المرأة نراه يتركها
تمر من أمام عينيه دون أن يتبعها ، ظلنا منه أنها خرجت لحاجة لها ثم تعود .
ولعل هذه الأمثلة عن ذاتية الحوار فى القصص الفنية تكون شاهد صدق على أن
هذه الذاتية شئ عسير ، لا يأتى إلا من أوتى براعة منقطعة النظير ، براعة فى استخدام
الأسلوب ، وفى فهم مدلولات الألفاظ ، وبراعة فى استبطان نفوس الشخصيات
القصصية على اختلاف مشاربها وتعدد أنماطها . ومن ثم رأينا بعض الكتاب الكبار
المشهورين يقفون دون تحقيق هذه الذاتية أحيانا .

خاتمة الدراسة ونتائجها

وبعد

فقد كانت هذه الدراسة وقفة متأنية مع القصص القرآني ، حاولت أن تكون شاملة مستقصية - ما وسعني الجهد - حتى تثمر الدراسة الثمرة المرجوة منها، وهي محاولة استخلاص الأسس والقواعد التي تحكم بناء فن القصة، لتكون بين أيدي الكتاب والنقاد، يبدعون وينقدون على هديها، وقد أسفرت هذه المحاولة عن مجموعة من الحقائق أو النتائج الكلية، يندرج تحت كل منها عدة نتائج ، أثبتتها فيما يلي :

أولاً -

القصة القرآنية ليست عملاً فنياً حراً، وليست طليقة من القيود، وإنما هي مقيدة بغرض ديني- كما نبه إلى ذلك بعض الدراسين - ومن النتائج المترتبة على ذلك: أ- أن الأسلوب القرآني قد يقطع تسلسل الأحداث ويستغنى عن تواصل المشاهد القصصية، إذا كان في ذلك خدمة، وتجليه للغرض الديني من أحداث القصة، وغالباً ما يكون ذلك في المراحل الأولى من تطور الحدث، أما حين يصل إلى ذروته، فإن الأسلوب يوالى بين المشاهد، ويتجاوز كثيراً من الأحداث الصغيرة، وصولاً إلى النهاية التي تبين العبرة من القصة.

ب- أن القصة القرآنية لا تعتمد إلى الإثارة غير المجدية في تصوير الأحداث مهما كانت ضخامتها وغرابتها، فالأسلوب القرآني لا يطيل الوقوف عند الأحداث القصصية الضخمة إلا بقدر ما يخدم الغرض الديني من القصة.

ج - يختلف أسلوب تقديم الحدث أو الشخصية في القصة القرآنية عنه في القصة الفنية؛ لأن الغاية الدينية هي المقدمة على ما سواها في قصص القرآن، بعكس الكتاب الذين يقدمون دواعي الفن على غيرها من القيم الأخرى.

د- القصة القرآنية لا تحفل بالتحليل النفسي للشخص، بمعنى أنه لا يوجد في القرآن قصة ممحضة للتحليل النفسي من أولها إلى آخرها، بالمعنى الذي تعارف عليه النقاد، لأن القرآن لا يعنيه أن يقدم فناً، وإنما هو كتاب توجيه يعنيه أن يتعامل مع الظاهر المعلن في حياة الشخص.

هـ- ليست الشخصية مرادة لذاتها، وإنما يعرضها القرآن بوصفها نموذجاً يتحرك في الحياة بخيرها وشرها، وليس الحدث مراداً لذاته، وإنما هو معرض للإنسان النموذج، لذا يعرض بالقدر الذى يطلع المتلقى على معدن هذا الإنسان.

و- أن اهتمام القصة القرآنية ببيان الأبعاد الثلاثة للشخص يكون بالقدر الذى يبرز الغاية الدينية ويوضحها.

ز- الأسلوب القرآنى يتجاوز لحظات الضعف البشرى فى حياة الشخص، ليصل سريعاً إلى لحظة الإفاقة التى تعقب التردى، بعكس الكتاب الذين يطيلون الوقوف فى مواقف النشوة، ليصوروا الرذائل بأسلوب مبالغ فيه، وذلك بحجة الواقعية.

ح- أن قصة الحدث فى القرآن الكريم تختلف عن قصة الحدث التى تعارف عليها الكتاب والنقاد فى أنها تجمع بين الفائدة والمتعة، وهما ضدان لا يجتمعان فى قصة الحدث عند الكتاب.

ثانياً -

هناك قواعد قصصية سبق القرآن الكريم بها مبدعى فن القصة الحديثة، فهى قواعد مشتركة بين القصة القرآنية، والقصة الفنية، ولكن تطبيق القرآن لها جاء بأسلوب أقوم من تطبيق الكتاب ومنها:

أ- سبق القرآن الكريم إلى تأكيد قاعدة: "الاقتصاد الفنى" وهى تعنى: أنه لا يجوز للقاص أن يصف إلا ما يدعم الحدث القصصى الذى اختاره ليدير حوله قصته، وذلك بأن يتخلى عن كثير من التفاصيل التى لاتفيد القارئ فى شئ، لكى يضمن الكاتب أن يكون القارئ مشاركاً مشاركة إيجابية فى القصة.

ب- سبق القرآن إلى تأكيد الارتباط بين الأبعاد الثلاثة للشخصية، وأن لكل بعد منها أثراً فى البعدين الآخرين.

ج- أن الإضمار القصصى ظاهرة تعد أصلاً من أصول البناء الفنى للقصة القرآنية، ونعنى بالإضمار: إسقاط كثير من الأحداث، لغاية دينية أو فنية، وهذا الإضمار لم تهتد إليه القصة الفنية إلا فى العقود الأخيرة متأثرة فى ذلك بفن الخيالة.

د- قد تجمع القصة القرآنية الواحدة بين أصول القصة القصيرة والقصة الطويلة معا، وهو ما اصطلح عليه النقاد حديثا باسم "التصميم".

هـ - سبق القرآن الكريم إلى تأكيد أن الحوار يجب أن يكون مناسباً للشخصية والموقف القصصى، وأن تكون المقاومة فى القصة على قدر قوة الصراع بين أطرافها. والبون شاسع جدا بين تطبيق القرآن لهذه القاعدة وتطبيق الكتاب.

و- أن التحول الحاد فى سلوك الشخص لا بد أن يكون معطلا ومقنعا فنيا، وقد سبقت القصة القرآنية إلى تأكيد ذلك، وأن الإقناع بالحدث هو أقوى وسائل الإقناع، فالتحول الكبير للشخص لا بد أن يصاحبه حدث كبير مساو له.

ثالثا -

هناك قواعد مشتركة بين القصة القرآنية والقصة الفنية، ولكن استخدام القصة القرآنية لها يختلف عن استخدام القصة الفنية، منها:

أ- أن القصة القرآنية لا تهتم بذكر شخصية المرأة إلا إذا كان لها دور تستدعيه الأحداث، ويحتمه الموقف، فهي لا تستجلب المرأة دون دور، أو لتكون عاملا من عوامل التسلية والمتعة والتشويق كما يفعل الكتاب.

ب - أن النموذج البشرى فى القصة الفنية نموذج محدود، يبدأ من شخص معين، ثم ينتهى بأن يكون نموذجا لنمط معين من الناس، أما النموذج البشرى فى القصة القرآنية فلا يبدأ من شخص، ولكن يبدأ من فكرة تصدق على نمط معين من الناس، ولذا فهو يتصف بالشمول.

ج - يتصف الحوار فى القصة القرآنية بالذاتية التى يحتفظ بها للمتحاورين، فهو يعبر عن ذواتهم وشخصياتهم أصدق تعبير، وهذه الذاتية- بالرغم من حرص النقاد على وجودها فى القصص الفنى- لا تكاد تتحقق فى قصة فنية كاملة.

رابعا -

وهناك أمران خاصان بالقصص القرآنى، وهما:

أ- أن هناك عناصر غيبية تتدخل فى الحوار القرآنى، فنقطع ما بين المتحاورين، وتأخذ الموقف منهم، لتدلى برأيها فيما يتحاورون فيه، وتقيم لأحد الطرفين حجته، أو

تقويها، أو تقوّم منطقها، وهذا الأمر حين يحدث فى القصة القرآنية لا يكون غريباً، ولا مستكراً، لأن زمام الموقف كله بيد القدرة الإلهية المهيمنة، وإذا حدث مثل ذلك فى القصص الفنية كان ذلك عيباً فى الأسلوب، وخللاً يصيب الحوار، ولذا يحرص النقاد على التأكيد بأن المؤلف يجب أن يختفى تماماً من صفحات القصة، ولا يظهر له أثر.

ب- تقرن القصة القرآنية بين الموعظة والعرض الفني؛ فهي تقدم الفن والوعظ المباشر الصريح، الذى يبين الغرض الدينى منها، وفى القصة الفنية يحرص الكاتب على عدم اللجوء إلى الوعظ المباشر، بل إن ذلك - إن حدث - كان عيباً يبعد القصة عن الفن.

خامساً -

ومن النتائج العامة لهذه الدراسة:

١- أن القصة القرآنية لا تقر للكتاب بمبدأ الحرية الفنية، الذى يبيح للكاتب أن يغير ويبدل فى ملامح الشخصيات التى يستقيها من الواقع، أو يضيف إلى الحدث التاريخى ما ليس منه، وهو ما لا يستغنى عنه الكتاب؛ فالنقاد يكادون يجمعون على هذا المبدأ، ويرونه حقاً مشروعاً لكل كاتب، لأنه فنى مبدع.

٢- أن القرآن الكريم يهدم ما أتى به الواقعيون والرومانسيون فى نظرة كل منهما إلى الشخصيات القصصية.

٣- أن القرآن الكريم لا يعترف بالفصل بين عنصرى القصة: الحدث والشخصية، فمنهج القصة القرآنية يقوم على المزج والمزاوجة بينهما، حتى فى أكثر قصصه اعتماداً على الأحداث الغريبة المشوقة، وبذلك تقدم للكتاب منهجاً قوياً يقوم على التوازى بين العناصر، هذا التعادل يلقى التطرف والانحياز إلى الحدث وحده أو إلى الشخصية وحدها.

٤- يحرص القصص القرآنى على تأكيد وحدة الحدث، وأن يكون الحدث الرئيس فى القصة ممتداً من بدايتها إلى نهايتها، له بداية ووسط ونهاية، وذلك يشير إلى خطأ الاتجاه الجديد فى الكتابة الفنية، الذى يميل أصحابه إلى جعل القصة مجموعة من الخواطر المتناثرة، التى لا يجمعها موقف واحد، ولا يربط بينها حدث واحد.

٥- أن معظم القصص القرآني يقوم على المزاوجة بين الحوار والسرد، وبذلك يرفض المنهج القرآني ما جنح إليه كثير من كتاب القصة القصيرة حالياً من إهمال عنصر الحوار إهمالاً كبيراً، لأن الاعتماد على السرد وحده يجعل القصة أشبه ما تكون بالخبر.

٦- على الكاتب الفني أن يلجأ إلى المسرحية إذا كان موضوع قصته مما يغلب عليه الجدل والحوار، وتصارع الآراء والمواقف، وأن يلجأ إلى القصة الفنية إذا كان موضوعه مما يغلب عليه كثرة الحركة في الزمان والمكان والشخص.

٧- أن القرآن الكريم لا يضع حاجزاً بين الكتاب وموضوعات قصصهم، فإن للكاتب أن يكتب في أي موضوع يشاء، بشرط أن يلتزم باللفظ السامي الكريم، الذي لا يجرح الشعور، ولا يؤذي الإحساس، وبشرط ألا يزين الرذيلة، ولا يخلع على مرتكبيها ثوب البطولة.

٨- لعل أسلوب القصص القرآني المعجز يحسم خلاف النقاد في قضية اللغة التي تكتب بها القصة؛ فالدعوة إلى الكتابة بالعامية بحجة المحافظة على الواقعية دعوى متهافة، أمام منهج القصة القرآنية وأسلوبها.

وإذا كان هناك من مقترحات - عنت لي من خلال هذه الدراسة - فإنني أوجزها فيما يلي :

١- أن تتواصل الدراسات حول القصص القرآني، لأنه الوعاء الثر، الذي يتحمل كثيراً من الواردين، وأن تركز هذه الدراسات بصفة خاصة حول: دراسة القصص الفني المستوحى من القرآن الكريم دراسة فنية تطبيقية وافية، تنفي عن منهج القصة القرآنية ما شابه على أيدي بعض كتاب الفن القصصي.

٢- من المستحسن أن تزداد الجرعة التي يتلقاها طالب الأزهر عن كل من القصة والمسرحية، بوصفهما فنيين ذاعا في العصر الحاضر، وأن تنتقى النماذج المقدمة إليه بواسطة الأساتذة الأعلام.

وأخيراً فلعلني اهتديت إلى وضع لبنة في صرح الدراسات القرآنية الشامخ، وأرجو أن تكون هذه الدراسة إضافة إلى ما سبقها من دراسات عن القرآن لا حصر لها، فإذا كنت وفقت فالفضل من الله وحده، وإن كانت الأخرى فحسبي أننى لم أدخر جهداً كان بوسعي أن أجود به، وحسبي - أيضاً - أنني أحسنت النية، واجتهدت، والكمال لله - سبحانه - وحده.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والله - سبحانه - أعلم بالصواب

المصادر والمراجع

أهم المصادر والمراجع

أولاً - القرآن الكريم

ثانياً مصادر ومراجع

- (١) اتجاهات القصة المصرية القصيرة . د: سيد حامد النساج ، دار المعارف ١٩٧٨ م.
- (٢) الإنتقان فى علوم القرآن، للإمام السيوطى، ط - عالم المعرفة ، دت
- (٣) أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة، د: محمد رشدى حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ م .
- (٤) الأدب القصصى والمسرحى فى مصر، د: أحمد هيكى ، دار المعارف ، ط الرابعة ١٩٨٢ م .
- (٥) الأدب المقارن ، د: حسن جاد حسن ، دار الطباعة المحمدية، ط الثانية ١٩٧٥ م .
- (٦) الأدب المقارن ، د: محمد غنيمى هلال، دار نهضة مصر، ط الثالثة، دت .
- (٧) أدب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب، د : السيد أحمد فرج، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط الأولى ١٩٩٠ م
- (٨) الأدب وفنونه ، د:عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربى ، ط الثانية ١٩٥٨ م
- (٩) الأدب وفنونه، د. محمد مندور ، دار نهضة مصر، ١٩٨٠ م .
- (١٠) أسباب النزول، أبو الحسن على بن أحمد النيسابورى ، مطبعة الأنوار المحمدية، ١٩٨٤ م .
- (١١) أسلوب المحاوره فى القرآن الكريم، د. عبد الحليم حفى ، مطبعة السنة المحمدية ١٩٧٧ م .
- (١٢) الإعجاز فى دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربى ، ط الأولى، ١٩٧٤ م
- (١٣) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلانى، بهامش كتاب الإنتقان فى علوم القرآن، للإمام السيوطى، عالم المعرفة دت .
- (١٤) الأفق البعيد (رواية) د. طه وادى، دار المعارف ، ١٩٨٤ م .
- (١٥) الأمالى، لأبى على القالى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥ م .
- (١٦) أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق، ط الثامنة عشرة ١٩٩٠ م .

- (١٧) أنشودة للبساطة، مقالات فى فن القصة، يحيى حقى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م .
- (١٨) أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم، د. عبد الله شحاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الثالثة ١٩٨٦م .
- (١٩) أهل الكهف، (مسرحية)، توفيق الحكيم، المطبعة النموذجية، نشر مكتبة الآداب، ١٩٨٥م .
- (٢٠) أهم الملامح الفنية للقصة القرآنية، د. إبراهيم عوضين، بحث مقدم إلى ندوة الأدب الإسلامى بجامعة عين شمس ، ١٩٩٣م .
- (٢١) الباحث عن الحقيقة، (رواية)، محمد عبد الحليم عبد الله، دار مصر للطباعة، القاهرة .
- (٢٢) البخلاء لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت : د. طه الحاجرى، دار المعارف، ط الخامسة، ١٩٩٠م
- (٢٣) بدائع الإضممار القصصى فى القرآن الكريم، د. محمد كاظم الظواهرى، دار الصابونى ودار الهداية، ط الأولى، ١٩٩١م .
- (٢٤) البداية والنهاية، لإسماعيل بن كثير، ت. أحمد أبو ملحم وآخرين ، دار الريان للتراث، ط الأولى ١٩٨٨م .
- (٢٥) البرهان فى توجيه متشابه القرآن ، محمود بن حمزة الكرمانى، ت. عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦م .
- و : البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، تحقيق وشرح وتعليق د. السيد الجميل، هدية مجلة الأزهر فى أشهر رمضان، وشوال وذى القعدة وذى الحجة ١٣١٤هـ .
- (٢٦) البرهان فى علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم ، عيسى البابى الحلبي، ط الثانية ، دت.
- (٢٧) بناء الرواية، تأليف : إدوين موير، ترجمة : إبراهيم الصيرفى، دار الجيل للطباعة، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر .
- (٢٨) بنت الشيطان (رواية)، محمود تيمور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م .
- (٢٩) تاريخ الأدب العربى ، أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة، ط الحادية عشرة، دت.

(٣٠) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة : د. عبد الحليم النجار، دار المعارف

١٩٦١م

(٣١) تأويل مشكل القرآن ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ت : السيد أحمد صقر،

دار التراث، ط الثانية، ١٩٧١م

(٣٢) تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، ت : محمد أبو الفضل

إبراهيم، دار المعارف ، ط السادسة، ١٩٩٠م

(٣٣) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق ط الحادية عشرة، ١٩٨٩م

(٣٤) تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ١٨٧٠ - ١٩٣٨م، د. عبد المحسن طه بدر

دار المعارف، ط الثالثة ١٩٧٧م .

(٣٥) تفسير القرآن العظيم، لإسماعيل بن كثير ، دار الفكر العربي، دت .

(٣٦) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي، دار الفكر العربي، ط الثالثة ١٩٨٥م

(٣٧) تفسير المنار، للإمام محمد عبده، والشيخ: محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية

العامّة للكتاب، ١٩٧٢م

(٣٨) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، المجلد الأول ، مطبعة

السعادة، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .

(٣٩) التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، المطبعة الفنية، ط الرابعة ١٩٨٩م

(٤٠) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، للرماني، والخطابي، وعبد القاهر الجرجاني ، ت :

محمد خلف الله أحمد، و د. محمد زغول سلام، دار

المعارف ، ط الرابعة ١٩٩١م

(٤١) ثلاثية نجيب محفوظ، المستشرق الأب ج جوميه، ترجمة : د. نظمي لوقا: نشر

مكتبة مصر، القاهرة دت .

(٤٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لمحمد بن جرير الطبري، مصطفى البابی

الطبي ، ط الثالثة ، دت

(٤٣) الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن جرير القرطبي، دار الريان للتراث

نسخة مصورة عن طبعة دار الشعب، دت .

(٤٤) الحوار في القرآن الكريم، محمد حسين فضل الله، دار التعارف للمطبوعات

بيروت، ط الخامسة، ١٩٨٧م .

- (٤٥) الحيوان، لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت : عبد السلام هارون، طبعة الحلبي - القاهرة، ١٩٥٤م .
- (٤٦) دراسات فى القصة والمسرح ، محمود تيمور، المطبعة النموذجية ، نشر مكتبة الآداب القاهرة، دت .
- (٤٧) دراسات فى نقد الرواية، د. طه وادى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م .
- (٤٨) دراسات قرآنية، محمد قطب ، دار الشروق، السابعة، ١٩٩٣م
- (٤٩) دراسة فى نظرية الدراما الإغريقية، د. محمد حمدي إبراهيم، دار الثقافة للطباعة والنشر، دت .
- (٥٠) دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: الشيخ محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨م .
- (٥١) ديوان ابن الرومي، ت : د. حسين نصار، دار الكتب المصرية، ١٩٧٦م .
- (٥٢) ديوان امرئ القيس، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط الخامسة
- (٥٣) ديوان الحطيئة، شرح أبى سعيد السكرى، دار صادر بيروت، دت .
- (٥٤) ديوان عمر بن أبى ربيعة، ط دار صادر بيروت، دت .
- (٥٥) الرجل والطريق (رواية)، سعد مكاي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م .
- (٥٦) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسى، دار إحياء التراث العربى، بيروت ، ط الرابعة ١٩٨٥م .
- (٥٧) زهرة العمر ، توفيق الحكيم، المطبعة النموذجية، نشر مكتبة الآداب ١٩٧٦م .
- (٥٨) سارة (رواية)، عباس محمود العقاد ، مطبعة حجازى، القاهرة ، ١٩٣٨م .
- (٥٩) السرد القصصى فى القرآن الكريم، ثروت أباظة، دار نهضة مصر، دت .
- (٦٠) سليمان الحكيم (مسرحية)، توفيق الحكيم، دار مصر للطباعة، نشر مكتبة مصر، ١٩٨٨م
- (٦١) السمان والخريف (رواية)، نجيب محفوظ، دار مصر للطباعة، نشر مكتبة مصر، دت.
- (٦٢) السيرة النبوية لأبى محمد عبد الملك بن هشام، ت : د. أحمد حجازى السقا، دار التراث العربى، دت .

- (٦٣) سيكلوجية القصة فى القرآن ، د. التهامى نقره، الشركة التونسية، ١٩٧١م
- (٦٤) السيناريو السينمائى (الفن والتجربة) ، صلاح أبو سيف، دار المعارف، سلسلة (اقرأ)، العدد (٤٧٩)، ط الثانية، ١٩٩٠م .
- (٦٥) سيناريو فيلم «العزيمة» ، تأليف : كمال سليم، دراسة وإعداد : محمد السيد شوشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م .
- (٦٦) شرح ديوان الحماسة، للخطيب التبريزى ، عالم الكتب، بيروت، دت .
- (٦٧) شمس الخريف (رواية)، محمد عبد الحليم عبد الله، مكتبة مصر ، دت .
- (٦٨) الصحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها، لابن فارس ، ت : السيد أحمد صقر، عيسى البابى الحلبي، ١٩٧٧م .
- (٦٩) صفوة التفاسير، محمد على الصايونى، دار الرشيد، سورية، دت .
- (٧٠) طارق من السماء (رواية)، ثروت أباظة، دار مصر للطباعة، ١٩٨٨م .
- (٧١) العصر العباسى الثانى، د. شوقى ضيف، دار المعارف، ط الثالثة، ١٩٧٧م .
- (٧٢) عصفور من الشرق (رواية)، توفيق الحكيم، المطبعة النموذجية، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، دت .
- (٧٣) فتح البارى بشرح صحيح البخارى، للحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى، ت : محمد فؤاد عبد الباقي وآخرين، دار الريان للتراث ، ط الأولى ، ١٩٨٦م
- (٧٤) فجر القصة المصرية مع ست دراسات أخرى عن نفس المرحلة، يحيى حقى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط الثانية ١٩٨٧م .
- (٧٥) فرعون فى القرآن ، أبو الأعلى المودبى، المختار الإسلامى للطبع والنشر، دت
- (٧٦) فن القصة القصيرة، د. رشاد رشدى ، المكتب المصرى الحديث، ط الخامسة .
- (٧٧) فن القصة، د. محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت ، دت .
- (٧٨) الفن القصصى فى القرآن الكريم، د محمد أحمد خلف الله، المطبعة الفنية الحديثة ١٩٧٢م .
- (٧٩) فن كتابة القصة، حسين القبانى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، دت .
- (٨٠) فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط الثالثة عشرة، ١٩٨٧م .

- (٨١) فى المسرح المصرى المعاصر، د. محمد فتوح أحمد، نشر مكتبة الشباب، دت .
- (٨٢) فى النقد التطبيقي والمقارن، د. محمد غنيمى هلال، دار نهضة مصر، دت .
- (٨٣) قراءة فى الأدب العربى المعاصر، د. فتحى محمد أبو عيسى، محاضرات مطبوعة على الآلة الكاتبة ١٩٧٩ م .
- (٨٤) القصة العربية فى العصر الجاهلى، د. على عبد الحليم محمود، دار المعارف ، ط الثانية ١٩٧٩ م .
- (٨٥) القصة العربية القديمة، محمد مفيد الشويشى، دار القلم القاهرة، ١٩٦٤ م .
- (٨٦) القصة فى القرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوى، دار المعارف، سلسلة (إقرأ) العدد (٥٧٩) ١٩٩٣ م .
- (٨٧) القصة القرآنية، فتحى رضوان، سلسلة كتاب الهلال، عدد أغسطس، ١٩٧٨ م .
- (٨٨) القصة القصيرة (دراسة ومختارات) د. الطاهر أحمد مكى، دار المعارف، ط الأولى ١٩٧٧ م .
- (٨٩) القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا، يوسف الشارونى، سلسلة كتاب الهلال، العدد (٢١٦) .
- (٩٠) القصة من خلال تجاربى الذاتية، عبد الحميد جودة السحار، دار مصر للطباعة، دت .
- (٩١) قصص الأنبياء، إسماعيل بن كثير، دار نهر النيل، ط الأولى ١٩٨١ م .
- (٩٢) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مطبعة المختار الإسلامى ١٩٨٥ م .
- (٩٣) قصص العشاق النثرية فى العصر الأموى، د. عبد الحميد إبراهيم، دار المعارف ١٩٨٧ م .
- (٩٤) القصص فى أدب العرب ماضيه وحاضره، محمود تيمور، المطبعة الكمالية ١٩٥٨ م .
- (٩٥) قصص القرآن بين المفسرين والقصاص قديما وحديثا، دطه عبد الفتاح مقلد، دت.
- (٩٦) قصص القرآن فى مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم، دار الجيل بيروت ١٩٧٨ م .

(٩٧) القصص القرآنى إبحاؤه ونفحاته، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ط الثانية ١٩٩٢م .

(٩٨) القصص القرآنى فى منطقته ومفهوماته، عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة بيروت، دت .

(٩٩) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري دار الريان للتراث، ودار الكتاب اللبناني، ط الثالثة ١٩٨٧م .

(١٠٠) كليلة ودمنة، تأليف بيدبا الهندى، ترجمة، عبد الله بن المقفع، المركز العربى للنشر والتوزيع، الإسكندرية، دت .

(١٠١) كهف الحكيم، فتحى العشرى، ط دار المعارف، سلسلة (كتابك) ١٩٨٠م .
(١٠٢) اللآلئ الحسان فى علوم القرآن، د. موسى شاهين لاشين، مطبعة دار التأليف ١٩٦٨م .

(١٠٣) لاتتركونى هنا وحدى (رواية) إحسان عبد القدوس، دار مصر للطباعة نشر : مكتبة مصر، دت .

(١٠٤) لسان العرب لابن منظور الإفريقى، دار المعارف ١٩٦٠م تحقيق على عبد الله الكبير وآخرين .

(١٠٥) اللص والكلاب (رواية) نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن مطبوعات مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥م .

(١٠٦) لقيطة (رواية) محمد عبد الحليم عبد الله، دار مصر للطباعة، ١٩٨٩م ،
(١٠٧) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، ت : د. أحمد الحوفى، ود، بدوى طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط الثانية، دت .

(١٠٨) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د. عبد الله الطيب، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت، ط الثانية، ١٩٧٠م .

(١٠٩) المستنقع (رواية) عبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر ١٩٧٤م ،
(١١٠) مسرح توفيق الحكيم، د. محمد مندور، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط الثالثة، دت .

- (١١١) المسرحية والقصة دراسة نقدية، د. أحمد جاد، مؤسسة الرسالة، ط الثالثة، دت.
- (١١٢) المشاهد في القرآن الكريم، حامد صادق قنبي، مكتبة المنار، الزرقاء الأردن، ط الأولى ١٩٨٤ م.
- (١١٣) المصباح المنير، الفيومي، تحقيق د. عبد العظيم الشناوي، دار المعارف .
- (١١٤) معجزة القرآن، الشيخ محمد متولى الشعراوى، مكتبة التراث الإسلامى، ١٩٨٨ م.
- (١١٥) المعجزة الكبرى، القرآن ، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى، دت .
- (١١٦) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار القلم بيروت، دت .
- (١١٧) منهج القصة القرآنية، محمد شديد، شركة مكتبات عكاظ، السعودية، ط الأولى ١٩٨٤ م.
- (١١٨) نائب عزرائيل (رواية) يوسف السباعى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن مطبوعات مهرجان القراءة للجميع، ١٩٩٥ م .
- (١١٩) نظرات في القرآن، محمد الغزالي، دار التوفيق النموذجية، ط السادسة ١٩٨٦ م .
- (١٢٠) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط الأولى ١٩٦٩ م .
- (١٢١) النقد الأدبى، أحمد أمين، مطبعة المعرفة، ط الرابعة ١٩٧٢ م .
- ومكتبة النهضة المصرية ، ط الرابعة ١٩٧٢ م .
- (١٢٢) النقد الأدبى، أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الشروق، ط الرابعة، ١٩٨١ م .
- (١٢٣) النقد الأدبى الحديث، د. محمد غنيمى هلال، دار نهضة مصر ، ط الثالثة، دت، ودار مطابع الشعب، ط الثالثة ١٩٦٤ م .
- (١٢٤) النقد التطبيقي التحليلي، د. عدنان خالد عبد الله، دار الشئون الثقافية بغداد ، ط الأولى ١٩٨٦ م .،
- (١٢٥) النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة، د. محمد غنيمى هلال دار نهضة مصر، ١٩٥٧ م .
- (١٢٦) النماذج الإنسانية في القرآن الكريم، د. أحمد محمد فارس، دار الفكر العربى بيروت، ط الثانية ١٩٨٩ م .
- (١٢٧) نماذج بشرية، د. محمد مندور، دار نهضة مصر، ط الرابعة، دت .

ثالثا: مقالات علمية فى دوريات متخصصة

١- مقال بعنوان : العناصر الجوهرية للمواقع السردية ،
تأليف :

كارل فرانز ستانزل ، ترجمة : عباس التونسى .
مجلة (فصول) العدد الحادى عشر، ١٩٩٣ م .

رابعا: دوريات

١ - ملحق أهرام الجمعة أعداد مختلفة بتاريخ :

- ١٧/٩/١٩٩٣ م .

- ٢٦/١١/١٩٩٣ م .

- ٩/٩/١٩٩٤ م .

- ٢٨/١٠/١٩٩٤ م .

- ٦/١/١٩٩٥ م .

- ٥/٥/١٩٩٥ م .

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
أ - ز	المقدمة
٢٢ - ١	زهييد :-
١٢ - ١	أ- فن القصة تاريخا وبناء
٢٢ - ١٣	ب- القصص القرآني في دراسات السابقين
	الباب الأول
١٠٢ - ٢٣	دراسة القصص القرآني
	المبحث الأول: مقاصد القصص القرآني
٤٤ - ٢٣	أ- تناسب القصص القرآني وغايات التنزيل
٦٠ - ٤٥	ب- من أسرار انتقاء الأحداث في القصة القرآنية
٧٩ - ٦١	ج- التكرار
١٠٢ - ٨٠	د- الإجمال والتفصيل
	الباب الثاني
٢٤٣ - ١٠٣	البناء الفني للقصة القرآنية
١٦٥ - ١٠٣	المبحث الأول : المشاهد والمواقف والأحداث
٢٠٩ - ١٦٦	المبحث الثاني: الشخص والنماذج البشرية
٢٤٣ - ٢١٠	المبحث الثالث: الحوار والسرد
	الباب الثالث
٢٣٤ - ٢٤٤	تطبيقات
	المبحث الأول : طبيعة المشهد في القصة القرآنية ونظيره في الأجناس الأدبية.
٢٧٢ - ٢٤٤	المبحث الثاني: طبيعة الحوار في المشهد القصصي في القرآن ونظيره في الأجناس الأدبية.
٣٠٤ - ٢٧٢	المبحث الثالث: الحوار والسرد في القرآن الكريم والفن القصصي
٢٣٤ - ٣٠٥	خاتمة الدراسة ونتائجها
٢٤٠ - ٢٣٥	المصادر والمراجع
٢٤٩ - ٢٤١	الفهرس
٢٥٠	